موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح - كلية الآداب

ليبيا - طرابلس الغرب

الجزء الخامس

الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب

الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ ـ 2009 م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

ردمك : 978-9953-520-28-5

الموضوع : عقيدة

العنوان : موسوعة أسماء الله الحسنى 10/1

التأليف : أ.د. عقيل حسين العقيل

الورق : كريم

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 5292

القياس : 17×24

التجليد : فني – كعب لوحة

الوزن : 10 كغ

التنفيذ الطباعي : 53 dots – بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد – بيروت

تنضيد و إخراج ضوئي : مؤسسة الجعبري

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 – 2228450

مكتب تلفاكس: 2243502 – 2458541

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 – جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520285

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهــرسُ المَوضُوعَات

الموضوع	رقم الصفحة
الحسيب	7
الجليل	53
الكريم	95
الرقيب	153
المجيب	203
الواسع	267
الحكيم	367
الودود	431
المجيد	495
الباعث	557

الحَسِيبُ جلّ جلاله

الحمد لله القائم علىٰ كل نفس بما كسبت ، الرقيب علىٰ كل جارحة بما اجترحت ، المطلع علىٰ ضمائر القلوب إذا هدأت ، الحسيب علىٰ خواطر عباده إذا اختلجت ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب علىٰ النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت . وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنية لشقيت في صعيد القيامة وهلكت .

الحسيب : هو العليم بعباده ، كافي المتوكلين ، المجازي لعباده بالخير والشر ، بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وعظيمها [1] .

الحسيب : المُحصي لكل شيء [2] .

الحسيب من أسماء ٱلله الحسنىٰ : وهو الذي لا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها وحاسبها علىٰ الصراط بالحق ، قال تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [3] .

---

(1) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 947 .

(2) تفسير الجلالين ، ج 6 ، ص 29 .

(3) مريم ، 93ـ95 .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [2] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [4] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [5] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [6] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [7] ، فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن ٱلله تعالىٰ لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون في الحساب ، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات ، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هـٰذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ،

(1) الأنبياء ، 47 .
(2) الكهف ، 49 .
(3) المجادلة ، 6 .
(4) الزلزلة ، 6ـ8 .
(5) البقرة ، 281 .
(6) آل عمران ، 30 .
(7) البقرة ، 235 .

وحسن منقلبه ومآبه ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، وقادته إلىٰ الخزي والمقت سيئاته ، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة ٱلله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة ، فقال تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [1] ، فرابطوا أنفسهم ، فكانت لهم في المرابطة ستة مقامات :

أولها المشارطة : اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات ، المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح ، وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتىٰ يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [2] ، وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة ، والعقل يستعين بالنفس في هـٰذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله ، وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلىٰ أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه رابعاً ؛ فكذلك العقل يحتاج إلىٰ مشارطة النفس أولاً فيواظب عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلىٰ طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق .

ثم بالمراقبة : لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال .

ثم بالمحاسبة : ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإن هـٰذه تجارة ربحها الفردوس الأعلىٰ وبلوغ سدرة المنتهىٰ مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هـٰذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه

---

(1) آل عمران ، 200 .
(2) الشمس ، 9 ، 10 .

في أرباح الدنيا معه ، إنها محتقرة بالإضافة إلىٰ نعيم العقبىٰ ، ثم كيفما كانت فمصيرها إلىٰ التصرم والانقضاء ، ولا خير في خير لا يدوم ، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضىٰ الشر ، والخير الذي لا يدوم يبقىٰ الأسف علىٰ انقطاعه دائماً وقد انقضىٰ الخير (1) .

ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة : والنفس بالطبع متمردة علىٰ الطاعات مستعصية علىٰ العبودية ولـٰكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) ، فهـٰذا وما يجري مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل ، والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير وكذلك أثناء العمل حتىٰ يتم التقويم في الوقت المناسب للإصلاح والمعالجة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ (3) ، وهـٰذا للمستقبل ، وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمىٰ محاسبة ، فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة ، وقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (6) ، ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهاً للاحتراز منه في

(1) إحياء علوم الدين ، ج3 ، ص480 .
(2) الذاريات ، 55 .
(3) البقرة ، 235 .
(4) النساء ، 34 .
(5) الحجرات ، 6 .
(6) ق ، 16 .

المستقبل [1] . ورُوِيَ عنه ﷺ أنه قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه : « إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته ، فإن كان رشداً فامضه ، وإن كان غياً فانته عنه » [2] . وقال بعض الحكماء : « إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوىٰ فلا تعمل بقضاء الشهوة حتىٰ تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة » [3] . وقال لقمان : « إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة » [4] . وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ ٱللهِ » [5] ، دان نفسه : أي حاسبها ، وقال عمر رضي ٱلله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر » [6] . وكتب إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري : حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجدها في كتاب ٱلله ؟ قال : ويل لديان الأرض من ديان السماء ؛ فعلاه بالدرة وقال : إلا من حاسب نفسه ، فقال كعب : يا أمير المؤمنين إنها إلىٰ جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه . وهـٰذا كله إشارة إلىٰ المحاسبة للمستقبل إذ قال : من دان نفسه يعمل لما بعد الموت . ومعناه : وزن الأمور وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها [7] .

وأسماء ٱلله كلها أسماء حسنىٰ تتضمن المجد والشرف بل هي نص في المجد والشرف فلهـٰذا قيل فيه أنه تعالىٰ حسيب وهو الواحد الأحد مصداقاً

(1) إحياء علوم الدين ، ج3 ، ص481 ، 482 .
(2) كنز العمال ، ج15 ، ص794 .
(3) إحياء علوم الدين ، ج3 ، ص479 .
(4) المصدر السابق ، ص479 .
(5) سنن الترمذي ، ج 8 ، ص499 .
(6) إحياء علوم الدين ، ج3 ، ص479 .
(7) المصدر السابق ص 479 .

لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (1) ، ولأنه حسيب قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ (2) ، ولأنه حسيب قال تعالىٰ : ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (3) . والحسيب إذا عدّد عليك نعمة ليريك منته عليك لما كفرت بها فلم يؤاخذك لحلمه وكرمه وبما هو كافيك عن كل شيء لا إلـٰه إلا هو العليم الحكيم (4) .

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ : وليس للعبد مدخل في هـٰذا الوصف إلا بنوع من المجاز بأن يكون كافياً لطفله بتعهده أو لتلميذه بتعليمه حتىٰ لا يفتقر إلىٰ غيره . وهـٰذا المعنىٰ صحيح في حقه ﷺ لأنه كاف لأمته جميع ما تحتاج إليه من أمور الدنيا والآخرة بحيث لا يحتاجون إلىٰ غيره ﷺ (5) . وحسبي وحسبكم ٱلله ونعم الحسيب .

والحسيب من الرجال الذي يَعُدُّ لنفسه مآثر وأفعالاً حسَنة ، أو يعد آباءً أشرافاً (6) . ولهـٰذا روي عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الْحَسَبُ الْمَالُ وَالْكَرَمُ التَّقْوَىٰ » (7) هدم به قاعدة العرب التي تقول : (الغني يعظم كما يعظم الحسيب) ، ولـٰكن من له التقوىٰ هو الكريم الحسيب ، لا من يجود بماله ويبذره ويخطر بنفسه ليعد جواداً شجاعاً . وقيل : الحسب والكرم يكونان في الرجل وإن لم يكن له آباء لهم شرف ، والشرف والمجد لا يكونان إلا بالآباء ،

(1) الإخلاص ، 1 ـ 4 .
(2) الأحزاب ، 4 .
(3) الفتوحات المكية ، ج6 ، ص472 .
(4) الفتوحات المكية ، ج7 ، ص64 .
(5) سبل الهدىٰ والرشاد ، ج1 ، ص449 .
(6) أدب الكاتب لابن قتيبة ، ج1 ، ص18 .
(7) سنن الترمذي ، ج11 ، ص74 .

فجعل المال بمنزلة شرف النفس أو الآباء ، والمعنىٰ أن الفقير ذا الحسب لا يوقر ولا يحتفل به ، والغني الذي لا حسب له يوقر ويجل في العيون ، ومنه حديث عمر رضي ٱلله عنه : « حسب المرء دينه ومروءته خلقه » [1] .

وللاحتساب صور : منها : ما كان طلباً لوجه ٱلله تعالىٰ : ومنه الحديث : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً » [2] ، أي طلباً لوجه ٱلله وثوابه ، وإنما قيل لمن ينوي بعمله وجه ٱلله : احتسبه ؛ لأن له حينئذ أن يعتد عمله فجعل في حال مباشرة الفعل كأنه معتد به . والاحتساب في الأعمال الصالحة وعند المكروهات هو البدار إلىٰ طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر أو باستعمال أنواع البر والقيام بها علىٰ الوجه المرسوم فيها طلباً للثواب المرجو منها . فعن عمر رضي ٱلله عنه قال : « أيها الناس احتسبوا أعمالكم فإن من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر حسبته » . ومنه الحديث : « من مات له ولد فاحتسبه » ، أي : احتسب الأجر بصبره علىٰ مصيبته ، ومعناه : اعتد مصيبته به في جملة بلايا ٱلله التي يثاب علىٰ الصبر عليها [3] .

الحسيب جل جلاله هو الذي بيده مقاليد الأمور ويعلم دقائقها ، وهو الذي خلق كل شيء بالميزان والقسط ، وهو الذي لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السموات العلىٰ ، وهو الذي يعلم الغيب ومسبباته والغايات العظام التي من ورائه .

الحسيب هو لا يخلق شيئاً إلا لشيء ، ولكل سبب ، فكان قوله الحق حسيباً ، وفعله الحق حسيباً ، ولذا فهو ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [4] .

---

(1) النهاية في غريب الأثر ، ج1 ، ص955 .

(2) المصدر السابق ، ص955 .

(3) المصدر السابق ، ص955 .

(4) غافر ، 19 .

والمعنىٰ اللغوي للحسيب : في أَسماءِ ٱلله تعالىٰ الحَسِيبُ هو الكافي فَعِيلٌ بمعنىٰ مُفْعِل مِن أَحْسَبَنِي الشيءُ إِذا كَفاني ، والحَسَبُ الكَرَمُ ، والحَسَبُ الشَّرَفُ الثابِتُ في الآباءِ ، وقيل : هو الشَّرَفُ في الفِعْل ، وما يَعُدُّه الإِنسانُ مِن مَفاخِرِ آبائِه ، والحَسَبُ الفَعالُ الصَّالِحُ . حكاه ثعلب ، وما لَه حَسَبٌ ولا نَسَبٌ ، الحَسَبُ الفَعالُ الصَّالِحُ والنَّسَبُ الأَصْلُ [1] .

وفي الحديث : « تُنْكَحُ المَرأَة لمالِها ، وحَسَبِها ، ومِيسَمِها ، ودِينِها ، فعَليكَ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَداكَ » [2] . قال ابن الأَثير : قيل الحَسَبُ الفَعَالُ الحَسَنُ .

ففَرقَ بَين الحَسَبِ والنَّسَبِ فجعل النَّسَبَ عدَد الآباءِ والأُمهاتِ إِلىٰ حيث انْتَهىٰ ، والحَسَبُ الفَعالُ مثل : الشَّجاعةِ ، والجُود ، وحُسْنِ الخُلُقِ ، والوَفاءِ [3] .

الحسيب : من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، التي تُظهر الدقة في التقدير ، بما يميز بين ما يجب من ثواب وعقاب ، ومن خير وشر ، لأجل مترتب جليل : جنة أو نار (سعادة أو شقاء) . والحسيب المطلق هو الذي يمتلك القدرة المطلقة للتمييز بين الدقيق والأدق منه ، وهو الذي يضع الموازين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [4] ، والحسيب العادل جل جلاله هو الذي يضع الموازين القسط ، ولهـٰذا فمن يُريد أن يكون خليفة لله في الأرض فعليه بالعدل ، وأن يحسب بكل دقة لكل شيء حسابه ، حتىٰ يكون

(1) صحيح مسلم ، ج 7 ، ص388 .
(2) المصدر السابق ، ص 388 .
(3) لسان العرب ، ج 1 ، ص 310 .
(4) الأنبياء ، 47 .

قادراً علىٰ التمييز بين ما يجب الإقدام عليه وهو خير ، وبين ما لا يجب الإقدام عليه وهو شر ؛ وعندما يكون علىٰ ذلك يكون قد استمد له صفة من صفات ٱلله تعالىٰ التي يُستخلف بها في الأرض .

فالحسيب المطلق جل جلاله هو الذي رفع السماء ووضع الميزان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [1] . فٱلله تعالىٰ لو لم يضع الميزان بالقسط ما كان حسيباً ، فهو حسيب بأسباب القواعد التي وضعها بوضعه الميزان ؛ ليقام الحق ، ويسود العدل بين العباد ، سبحانه ما أعظم شأنه !

ولأن أسماءه وصفاته حسان ، فهو بذلك أراد لمن خُلق في أحسن تقويم أن يكون خليفة مقتدياً بصفاته تعالىٰ في الأرض ، أي أن الخليفة هو كل من يقتدي بصفات ٱلله تعالىٰ في الأرض ، فيصلح ولا يسفك الدماء فيها بغير حق .

وورد اسم الحسيب علىٰ ثلاثة معان :

أحدها : أنه الشهيد .

والثاني : أنه الكافي ، فسبحانه وتعالىٰ هو الكافي لعباده الذين لا غنىٰ لهم عنه أبداً ، فهو خالقهم وباريهم ورازقهم .

والثالث : أنه المحاسب : ويكون بمعنىٰ الكافي ، فقولهم للرجل للتهديد : حسبه ٱلله ، ومعناه يحاسبه ٱلله علىٰ ما يفعل من الظلم ، وأما قولهم : حسيبك ٱلله أي كافيك ٱلله . واعلم أن هـٰذا وعيد لولي اليتيم وإعلام له أنه تعالىٰ يعلم باطنه كما يعلم ظاهره ؛ لئلا ينوي أو يعمل في ماله ما لا يحل ، ويقوم بالأمانة التامة في ذلك إلىٰ أن يصل إليه ماله ، وهـٰذا

---

(1) الرحمـٰن ، 7 ـ 9 .

المقصود حاصل سواء فسَّرنا الحسيب بالمحاسب أو بالكافي [1] .

والحسيب هو الرفيع في الدقة ، وهو القادر علىٰ أن يفعل ما يشاء ، وكيف يشاء ، وهو الذي يعلم مسبق نتائج الأمور والأحوال قبل وقوعها ؛ ولذا فهو الغالب وهو القهار والفعَّال لما يُريد ، وهو الغفور الودود .

والحسيب هو الذي يمتلك القدرة المطلقة فيفعل مطلقاً ، ولذا فهو الذي لا ينحصر في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع ، بل دائماً مطلق لا محيط له ولا تحده حدود ولا تنهيه نهاية ، وهو الأول والآخر وهو السميع البصير وهو علىٰ كل شيء قدير .

وورد لفظ الحسيب في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [2] . فالتحية شعار للتقدير المتبادل بين الناس ، فمن يُحيَّا بالتقدير والاحترام ليس عليه إلا أن يُحَيِّيَ بمثل ما حُيِّيَ به أو أحسن منه ، وأحسن تحية بين من يُراد لهم أن يكونوا الخلائف في الأرض هي : (السلام عليكم) ليرد عليه (وعليكم السلام ورحمة ٱلله وبركاته) وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ تتضمن هـٰذه الآية الكريمة ما تحمله النية في القول ، ولهـٰذا فٱلله تعالىٰ حسيب علىٰ القول والنية ، أي كلما تطابق القول مع النية ، كان في ذلك تقدير للحسيب المطلق جل جلاله الذي قال : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ ﴾ ، وكلما اختلف القول عن النية قل التقدير الذي يستوجب الاحترام المُمكِّن من نيل الجزاء الأوفر من ٱلله تعالىٰ وهو علاّم الغيوب جل جلاله .

وقد قال الإمام الطبري أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : أن ٱلله كان علىٰ كل شيء مما تعملون أيها الناس من الأعمال من طاعة ومعصية حسيباً

---

(1) تفسير الرازي ، ج 5 ، ص 67 .

(2) النساء ، 86 .

عليكم ، حتىٰ يجازيكم عليها جزاءه [1] .

ومما تقدم نلاحظ أن للاسم ـ الحسيب ـ عدة معانٍ ، يشتمل كل معنىً منها دروساً ، يجب علىٰ الخليفة المؤمن أن يتخلق بها حتىٰ يتسنىٰ له نيل شرف خلافة ٱلله في أرضه ، والتي نصت عليها كثير من الآيات القرآنية :

أولاً : الشهيد :

وذلك ما جاء في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [2] ، أي وكفىٰ بٱلله كافياً من الشهود الذين يشهدهم والي اليتيم علىٰ دفعه مال اليتيم إليه ، وقد جاء هـٰذا المعنىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ [3] ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [4] . وكذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴾ [5] . فعلىٰ الخليفة أن يكون حسيباً ، أي : شهيداً بالحق إذا طُلب إليه أن يشهد في أمر من الأمور ، سواء علىٰ غيره أو علىٰ نفسه ، فلا يعمد إلىٰ تبديل ، أو تحريف شهادته ، وتحويلها إلىٰ شهادة زور ، فيكون بذلك سبباً في الأذىٰ بالآخرين ، وإضاعة الحقوق ، وإعطائها لمن لا يستحقها ، وهـٰذا الفعل ينافي أوامر ٱلله عز وجل بإقامة العدل بين الناس ، فيكون الذي حرف شهادته من الذين لا يستحقون الخلافة في الأرض ؛ وذلك لأنهم لا يتصفون بصفاته العلية المدلول عليها في أسمائه الحسنىٰ .

---

(1) تفسير الطبري ، ج 8 ، ص 591 .
(2) النساء ، 6 .
(3) النساء ، 33 .
(4) النساء ، 79 .
(5) يونس ، 29 .

ثانياً : الكافي :

إن ٱلله تعالىٰ هو الكافي لمن التجأ إليه عمن سواه ، والكافي لمن استعان به أو استنصره ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [1] . أي فَإِن تَوَلَّوْا وأعرضوا عن الإيمان بك ، وناصبوك العداء فاستعن بٱلله وفوّض أمرك إليه فهو حسبك ، وهو كافيك معرّتهم ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم [2] .

وكذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [3] . والكفاية يكون لها عدة أوجه :

ـ فٱلله عز وجل هو كافٍ عبده الذي يلتجئ إليه طالباً الحماية والنصرة فهو الذي نستعينه مما لا قِبل لنا به من وساوس الشيطان والنفس وفتنة المسيح الدجال وعذاب النار .

ـ كما نستعيذ به عز وجل ونلجأ إليه ليرفع عنا البلاء وشرور من لا يخافه من الناس ، فهو وحده الذي يكفينا كل ما نخافه ونخشاه إذا التجأنا إليه بقلب خاشع واعتقاد جازم بأنه لا ملجأ لنا إلا هو ولا نلجأ إلىٰ أحد سواه . قال ٱلله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [4] .

ـ قال أبو جعفر : يعني تعالىٰ ذكره بذلك : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، أيها

(1) التوبة ، 129 .
(2) الكشاف ، ج 2 ، ص 491 .
(3) الزمر ، 38 .
(4) آل عمران ، 160 .

المؤمنون بٱلله ورسوله ، علىٰ من ناوأكم وعاداكم من أعدائه والكافرين به ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ من الناس ، يقول : فلن يغلبكم مع نصره إياكم أحد ، ولو اجتمع عليكم مَن بين أقطارها من خلقه ، فلا تهابوا أعداء ٱلله لقلة عددكم وكثرة عددهم ، ما كنتم علىٰ أمره واستقمتم علىٰ طاعته وطاعة رسوله ، فإن الغلبة والظفر لكم دونهم ، ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ، يعني : إن يخذلكم ربكم بخلافكم أمره وترككم طاعته وطاعة رسوله ، فيكلكم إلىٰ أنفسكم ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ، يقول : فأيسوا من نصرة الناس ، فإنكم لا تجدون ناصرًا من بعده إن خذلكم ، ويقول : فلا تتركوا أمري وطاعتي وطاعة رسولي فتهلكوا بخذلاني إياكم ، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ، يعني : ولـٰكن علىٰ ربكم أيها المؤمنون ، فتوكلوا دون سائر خلقه ، فارضوا به عن جميع من دونه ، ولقضائه فاستسلموا ، وجاهدوا فيه أعداءه ، يكفكم بعونه ، ويمددكم بنصره [1] . وقد جاء نصر ٱلله عز وجل جلياً واضحاً في أحداث غزوة بدر الكبرىٰ .

ـ وكذلك هو كاف عبده الذي يلجأ إليه سائلاً إياه السعة في الرزق أو التوفيق في أموره الحياتية أو غيرها من الحوائج ، وبذلك أمرنا رسول ٱلله ﷺ ، ففي حديث ابن عباس قال : « كُنْتُ خَلْفَ رسول الله ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : « يَا غُلَامُ ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ ٱللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ ٱللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ ٱللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِٱللهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ ٱللهُ لَكَ وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ ٱللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ » [2] . وقوله تعالىٰ : ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن

---

(1) تفسير الطبري ، ج 7 ، ص 347 .
(2) سنن الترمذي ، ج 9 ، ص 56 .

يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ (1) ، فقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ﴾ تدل هـٰذه الآية علىٰ شيئين :

الأول : النية الصادقة : في طاعة ٱلله ومحبته التامة لأجل الاعتماد عليه في كل أمر خيِّر ، فٱلله جل جلاله سيجازي المتوكل عليه بهـٰذه النية الصافية الصادقة التي يعلمها ٱلله بجزاء وافر ورحمة واسعة وحفظ من كل سوء أو شر أو حسد أو ظلم أو قهر .

الثاني : النية الكاذبة : ومثل هـٰؤلاء هم الذين يقولون مالا يفعلون ، وهـٰؤلاء فيما يقولون ، ولا يفعلون فٱلله حسبهم علىٰ قولهم الذي لم يُفعل من قبلهم ، وذلك بأسباب النية الكاذبة ، وهـٰؤلاء سيكون لهم العذاب الشديد إن لم يستغفروا ٱلله ويتوبوا إليه ، ولهـٰذا فهو حسبهم .

قال القشيري : فٱلله حاسبه ، أي : كافيه . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ ﴾ ، إذا سَبَقَ له شيءٌ من التقدير فلا محالةَ يكون ، وفي التوكل لا يتغير المقدور ولا يتأخر ، ولكنَّ المتوكل تكون ثقته بقلبه ، غير كارهٍ لما يرد عليه ، وهـٰذا من أجَلِّ النعم ، فسبيلُ العبد الخمودُ والرضا دونَ استعلام الأمر ، وقال في القوت : والحسب إلىٰ الحسيب يجعلُه ما شاء كيف شاء ، فقد قيل : (فهو حَسْبُه) أي : التوكل حَسْبُه من سائر المقامات ، ثم قال : (إنَّ ٱلله بالغ أمره) أي : منفذ حكمه فيمن توكل ، ومَن لا يتوكل ، إلاَّ أنّ مَن توكّل عليه يكون ٱلله عزّ وجل حَسبه خير كبير وأجر كريم ونعمة واسعة ، أي : يكفيه أيضاً مُهِم الدنيا والآخرة ، ولا يزيد مَن لم يتوكل عليه جناح بعوضة في قسْمه ، كما لا ينقص عنه ذرة من رزقه ، لـٰكن يزيد مَن توكل عليه هُدىً إلىٰ هداه ، ويرفعه مقاماً في اليقين قدر تقواه ، ويُعزّه بعزّه ، وينقص مَن لم يتوكل عليه من اليقين ويجعله شقياً ، فيزيده من التعب والهم ، ويُشتت قلبَه ، ويشغل فكرَه ،

(1) الطلاق ، 3 .

فالمتوكل عليه يجب عليه التكفير عن السيئات ، ليُلقي عليه رضاه ومحبته ليصعد به في المقامات ، أمّا الكفاية فقد ضَمِنها تعالىٰ لِمن صدق في توكله عليه ، والوقاية قد وهبها لمَن أحسن تفويضه إليه ، إلاّ أنّ الاختيار وعلم الاستتار إليه في الكفاية والوقاية ، يجعل ذلك ما يشاء كيف شاء ، وأين شاء من أمور الدنيا وأمور الآخرة من حيث يعلم العبد ، ومن حيث لا يعلم ؛ لأنَّ العبد تجري عليه الأحكام في الدارين ، وفقير محتاج إلىٰ الرحمة واللطف في المكانين [1] .

ولذلك فلابد لمن يريد أن يكون خليفة لله في الأرض أن يكون كافياً لغيره علىٰ قدر قدرته وإمكانياته ، فيعين من طلب منه العون ما دام ذلك فيما أحله ٱلله ، وأن ينصر من طلب منه النصرة علىٰ قدر إمكانياته ، فيعمل علىٰ رفع الظلم ، وإحقاق الحق . ومن مكنه ٱلله من تقديم العون والنصرة إلىٰ عباده وبخل بذلك فإنه لا يتصف بصفات ٱلله عز وجل ، ولا يستحق أن يكون من خلفاء ٱلله ، ولذا يجب علينا أن يعين بعضنا بعضاً و في ذلك قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [2] .

ثالثاً : المحاسب :

فٱلله سبحانه وتعالىٰ لم يخلقنا عبثاً ، ولم يخلق هـٰذا الكون بدون أي تقدير أو حساب ، قال تعالىٰ في محكم آياته الكريمة : ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ

(1) البحر المديد ، ج 6 ، ص 344 .
(2) المائدة ، 2 .

عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [1] . وفسر الطبري ذلك بقوله : « أفحسبتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم ، لعباً وباطلاً وأنكم إلىٰ ربكم بعد مماتكم لا تصيرون أحياء ، فتجزون بما كنتم في الدنيا تعملون » ؟ [2] . فالآية السابقة جاءت حاملة لمعنىً استغرابي أي هل أنتم تعتقدون أننا خلقناكم عبثاً ، ولن تعودوا إلينا ثانية لنحاسبكم علىٰ ما فعلتم وأنتم غير مؤمنين بما قلنا لكم ولغيركم ممن خلقنا ؟ لا . إنكم ستعودون وستحاسبون وحينها تعرفون أننا لمحاسبون ويومها لا ينفعكم الندم ، ولهـٰذا فالحياة الدنيا :

فرصة ومدرسة :

فرصة : أعطيت لا ينبغي أن تضيع فهي فرصة لأن نكون الخلفاء في الأرض ؛ ولنرث من بعدها الجنة ، وعليه فإن الفوز في الدنيا سبب في الفوز بالجنة ، ومن يخسر الدنيا يخسر الجنة ، ويكون من أهل النار ، اللهُمَّ احفظنا من النار وأدخلنا الجنة أنت مولانا الرحمـٰن الرحيم سبحانك أنت ولينا ، فنعم المولىٰ ونعم النصير .

ومدرسة : نتعلم فيها الكلم الحق ، والقول الصدق ، والنية الصافية ، والعمل الطيب فنؤمن ونعمل صالحاً يرضاه الحسيب تعالىٰ ، ولا نفسد ولا نسفك الدماء في الأرض بغير حق ، ولا نظلم أحداً ، وإذا حكمنا بين الناس أن نحكم بالعدل ، ونتقي ٱلله في أنفسنا وأهلينا ، وذوي الحقوق علينا ، ومن أوصنا ٱلله به خيراً ، وأن نؤمن به ونفعل ما أمرنا به حينها لا نتقي الشر بل الشر يتقينا . هـٰذه تعاليم المدرسة التي من نجح فيها دخل الجنة . وعليه لا جنَّة إلا لمن آمن ولم يكفر أو يشرك بٱلله الواحد الأحد ، وعمل صالحاً في الحياة الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ

(1) المؤمنون ، 115 .
(2) تفسير الطبري ، ج 19 ، ص 83 .

ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [1] . إنه استغراب آخر ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ، أي لا يمكن أن يُترك هـٰكذا كمّاً مهملاً ، ولنا أمثلة علىٰ ذلك لمن يتفكر ويتذكر في قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ . فالخليفة هو المؤمن الذي يعرف الحقيقة القائلة : (إن وراء كل مخلوق خالقاً) ، ولهـٰذا فهو يؤمن وبمعرفة دراية بالمعطيات العلمية المبرهنة علىٰ مصداقية الآية السابقة التي يتدرج فيها النمو الجنيني من النطفة النازلة من المخلوق لتخلق بقوة ٱلله الزوجين الذكر والأنثىٰ ؛ ولأن كل ذلك مثبت بالملاحظة والمشاهدة العلمية والواقع كدليل إثبات ، ومع ذلك يكون الاستغراب من أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة التي فيها يحيي الموتىٰ بقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ بلىٰ إنه القادر عز وجل .

وهـٰذا الإحصاء الدقيق الشامل والعادل الذي لا يسهو عن تسجيل كل عمل مهما كان صغيراً أو كبيراً ، والذي سيثير دهشة المجرمين يوم يقوم الحساب ، فالذين كانوا في الحياة الدنيا لا يبالون بصلاح أعمالهم ، ولا يحاسبون أنفسهم علىٰ ما قدموا من أعمال ، ولا ينتهون عن ارتكاب المعاصي ، سوف يصدمون بحساب الحسيب جل جلاله ، وهـٰذا المشهد قد صوره ٱلله سبحانه وتعالىٰ في قوله : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [2] .

فٱلله حسيب هو المحاسب علىٰ العمل أي هو محاسبكم علىٰ أعمالكم ، وكافي في إيصال جزاء أعمالكم إليكم ، فكونوا علىٰ حذر من مخالفة هـٰذا التكليف [3] .

---

(1) القيامة ، 36 ـ 40 .
(2) الكهف ، 49 .
(3) تفسير الرازي ، ج 5 ، ص 318 .

وفُسِّر قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ : أي محاسباً علىٰ كل شيء من التحية وردها بأحسن منها أو بمثلها ، وعدم الرد فيجازي خيراً علىٰ الرد ، وشراً علىٰ عدمه ، كما أمر أن ترك الرد ذنب كبير . فحسيب بمعنىٰ المحاسب ، وقيل : الحسيب بمعنىٰ الكافي ، كما تقول حسبك درهم أي يكفيك ، وقيل بمعنىٰ الحفظ [1] .

وقال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [2] ، أي فسوّىٰ كل ما خلق ، وهيأه لما يصلح له ، فلا خلل فيه ولا تفاوت [3] .

وأسند الطبري عن الحسن أنه قال : « يابن آدم بسطت لك صحيفتك ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أو قلل ، أو أكثر حتىٰ إذا مت طويت صحيفتك ، فجعلت في عنقك معك في قبرك حتىٰ تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [4] ، فقد عدل ـ وٱلله ـ فيك من جعلك حسيب نفسك [5] .

وفي معنىٰ الحسيب : قال ٱلله جل ثناؤه : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ، قال الحليمي : المدرك للأجزاء والمقادير التي يعلم العباد أمثالها بالحساب من غير أن يحسب ؛ لأن الحاسب يدرك الأجزاء شيئاً فشيئاً ، ويعلم الجملة عند انتهاء حسابه ، وٱلله تعالىٰ لا يتوقف علمه بشيء علىٰ أمر يكون ، وحال

---

(1) هميان الزاد ، ج 4 ، ص 57 .
(2) الفرقان ، 2 .
(3) تفسير الطبري ، ج 19 ، ص 236 .
(4) الإسراء ، 2 .
(5) المحرر الوجيز ، ج 4 ، ص 224 .

يحدث [1] ، فٱلله تعالىٰ يخلق كل شيء بحساب وتقدير ، فهو يعلم ما تصلح به الأشياء ، فينزل المطر بالقدر الذي يعلمه أنه مفيد ، فلو زاد عن ذلك القدر لكان فيه الفساد والدمار ، وهو يعلم كذلك ما يصلح لعباده من الرزق ، كيف لا وهو خالقهم وهو العالم بما يصلح شؤونهم .

وعليه فلابد لكل مؤمن تملَّك الإيمان في قلبه أن يكون متصفاً بصفات ٱلله عز وجل ، ومن هـٰذه الصفات صفة الحسيب ، فيكون محاسباً لنفسه أولاً ، ولغيره ثانياً ، فيجب أن يكون كل إنسان حسيباً علىٰ نفسه قبل أن يحاسبه ٱلله علىٰ أعماله ، ويجب أن نحاسب أنفسنا قبل أن نُحاسب ، وأن نزن أعمالنا قبل أن توزن ، فلا خليفة بدون أن يكون حسيباً في كل ما يُمكِّنه من الإدراك والتذكر والتفكر ، ولذا كل خليفة يتفكر ويتذكر لأجل أن يتدبر أمره وأمر الآخرين من أمره ، وهـٰذا ما يميزه عن الحائرين المشفقين من أمرهم من الكتاب الكريم الذي لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها وعدها عداً ، إنه الكتاب الذي يحتوي علىٰ علم الظاهر والباطن والحاضر والغائب ويحرض الخلفاء علىٰ عمل التي هي أقوم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [2] . فالخليفة هو الذي يؤدي أفعال الخير ويترك أعمال الشر التي نهىٰ عنها ٱلله تعالىٰ ، فيتقن عمله الموكل إليه ، ويحافظ علىٰ أماناته ، ويراقب ٱلله في عباداته وفي أسرته وفي كل من حوله ؛ فيصل من قطعه ، ويساعد المحتاجين ، ويتصدق علىٰ الفقراء ، ويرفق بالناس في تعامله معهم ، وإن ظلم ممن يفعل الخير من أجلهم ليس له بد إلا أن يقول : حسبي ٱلله ونعم الوكيل ، وكذلك يجب أن يحاسب من هم تحت إمرته

(1) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 83 .
(2) الكهف ، 49 .

في العمل إن كان مسؤولاً عنهم حتىٰ يكون بذلك ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويكون ممن قال عنهم رسول ٱلله ﷺ من حديث ابن عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ عَن نَافِعٍ ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَال : « أَلا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَىٰ النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْهُمْ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَىٰ بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤولَةٌ عَنْهُمْ وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَىٰ مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْهُ أَلا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » [1] .

وكذلك يجب أن يكون محاسباً لكل من اعتدىٰ علىٰ ٱلله ورسوله أمامه إن كان يعلم أن العفو والحلم عنهم لا يُصْلِحُ حالهم ، فيجازي كل من أساء إليه أو اعتدىٰ عليه ؛ لأن في ذلك قوة له ، وإثباتٌ بأن المسلمين أقوياء لا يقبلون الظلم علىٰ غيرهم أو علىٰ أنفسهم ، وهم أيضاً يعفون ويتسامحون ، فيكون بذلك كله ممن يستحقون أن يخلفوا ٱلله في الأرض ؛ لأن الخلافة لا تكون إلا لمن يخصهم ٱلله بطاعته ، ويطهر قلوبهم من الشرك والشرور ، فيصبحون بذلك ربانيين ، أي أنهم بأفعالهم وطاعتهم لله زادت مكانتهم رفعةً ، فتشرفوا بانتسابهم لله ربهم الخالق المتعال ، فيحق لهم وقتئذ أن ينالوا شرف خلافة ربهم في الأرض فيطبِّقوا شرعه ، ويحكموا بحكمه ، ويحملوا لواء الدين طيلة حياتهم .

ولا بد أن يكون الخليفة علىٰ يقين بشيئين :

أولهما : أن ٱلله في محاسبته للبشر لا مشقة له فيها ولا تعب ، كما جاء في قوله تعالىٰ عز وجل : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [2] .

---

(1) صحيح مسلم ، ج 9 ، ص 352 .

(2) يس ، 82 .

وثانيهما : أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ سريع الحساب ، فهو أسرع من حسب عدد خلقه وأعمالهم وآجالهم وهـٰذا ما ورد في قوله عز وجل : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ (1) .

رابعاً : العالم :

اسم الحسيب يتطلب أن يكون المحاسب عالماً بالأشياء التي يحاسب عليها دقيقها وكبيرها ، وهـٰذا متحققٌ في ذات ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فٱلله لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وقد دلت كثير من الآيات علىٰ علمه سبحانه وتعالىٰ ، فقد ورد في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (2) ، أي أن ٱلله تعالىٰ عالم ما تخفون أيها الناس في أنفسكم وتضمرونه ، وما هو غائب عن أبصاركم في السماوات والأرض ، فاتقوه إنه مطلع عليكم ، وأنتم تضمرون في أنفسكم من الشك في وحدانية ٱلله ، أو في نبوة محمد ﷺ ، غير الذي تبدونه بألسنتكم (3) . ولذا فذات الصدور ، هي مكمن الخفايا ومبيت الأسرار ، التي يعلمها ٱلله هي كما هي مهما حاول أن يطمسها أو يخفيها ، أو ينكرها الجاحدون الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ولا يصلحون في الأرض إنهم المفسدون وسافكو الدماء فيها بغير الحق .

قال تعالىٰ : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ (4) . وقال : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ يعني

---

(1) الأنعام ، 62 .
(2) فاطر ، 38 .
(3) تفسير الطبري ، ج 20 ، ص 479 .
(4) الجن ، 26 .

بعالم الغيب : عالم ما غاب عن أبصار وعقول خلقه ، فلم يروه ولم يدركوه فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً ، فيعلمه أو يريه إياه إلا من ارتضىٰ من رسول ، فإنه يظهره علىٰ ما شاء من ذلك (1) . ومع ذلك فلن يكون الرسل صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً مطلعين علىٰ كل علم من علم ٱلله تعالىٰ ، فعلمه المطلق لا تحمله العقول المخلوقة ، ولٰكن من يرتضي من رسل يحملهم الأسرار التي يظهرها لهم ، ولا يظهر غيرهم عليها ، وهٰذه خصوصية ارتضاها ٱلله لرسله الكرام صلوات ٱلله وسلامه عليهم ، وفيما يظهره ٱلله لرسله الكرام حسيباً فيهم ، وفي ظروفهم وقدراتهم وملكاتهم ، والبيئة التي يعيشون فيها ، والتي تحوطهم وفقاً للرسالة التي يُصطفىٰ لها كل رسول .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (3) . وكذلك في قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (4) . فالآيات الدالة علىٰ علمه تعالىٰ أكثر من أن تحصىٰ ، وقد وصف ٱلله نفسه في كثير من الآيات بالعالم المطلق ، وتدل أسماؤه من علام وعليم علىٰ أنه كثير العلم ، وفي هٰذا الأمر يُظهر قدرته الحسابية لكل ما يشاء متىٰ ما يشاء ، وكيف يشاء ، وأن علمه ليس له حد ، كما أنه لا يمكن أن يجاوز علمه أي صغيرة أو كبيرة في هٰذا الكون بما فيه من عالم الغيبيات بالنسبة

---

(1) تفسير الطبري ، ج 23 ، ص 671 .
(2) سبأ ، 3 .
(3) التوبة ، 78 .
(4) سبأ ، 48 .

إلينا وعالم الشهادة كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) . فهو العالم بأعمال عباده ، فيحاسبهم عليها الحساب العادل الذي استحقوه بعلم ٱلله ، وهـٰذا الحساب لابد أن يكون بعيداً عن الظلم ؛ لأن العلم بالشيء ينفي الخطأ في الحكم ، وٱلله سبحانه وتعالىٰ منزه عن الخطأ والظلم والجهل ، وعليه فلابد أن يكون خليفة ٱلله في الأرض عالماً بالأشياء التي يحاسب فيها حتىٰ يكون حسابه عادلاً ؛ لأن ٱلله تعالىٰ لا يحب الظلم ولا يرضاه لعباده ، فعندما يعلم الإنسان تقصيره في حق ٱلله تعالىٰ في العبادات والطاعات ، أو يعلم تقصيره وظلمه لمن حوله من الناس يتسنىٰ له أن يحاسب نفسه علىٰ ما قصرت فيه ، وعندما يحاسب غيره ممن هو مسؤول عنه لا بد أن يكون عالماً بما هو مقدم علىٰ محاسبتهم عليه ، وأحوالهم النفسية الدافعة لهم علىٰ ذلك ، وأن يكون عالماً بكمية العقاب الرادع الذي يمكن أن ينزله بهم من أجل إصلاحهم وتأديبهم علىٰ ما فعلوا ، وإخراجهم من دائرة المعصية والتقصير إلىٰ فناء الطاعة والإخلاص في العمل ، ومن لا يتحرىٰ ذلك في محاسبته للآخرين لابد أن يكون حسابه فيه نوع من الظلم والجور الذي لا يرضاه ٱلله عز وجل ، وعندها يكون ممن لا يستحقون خلافته سبحانه وتعالىٰ ؛ لأنه ليس ممن يتصفون بصفات ٱلله العلي ، بل أكثر من ذلك أنه أهمل صفة من صفات ٱلله عز وجل ، ولم يعمل بها في الأرض وهي العدل بين الناس وخالف أمره تعالىٰ ؛ لأن من مبادئ ديننا القيم العدل الذي يبعد الإنسان عن دائرة التعصب ، فيعطىٰ كل ذي حق حقه ، ويحمل كل مكلف علىٰ القيام بواجبه علىٰ أتم وجه كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

(1) الأنعام ، 59 .

كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [1] . وكذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [2] . إن هاتين الآيتين يُحمل معنىٰ الحسيب فيهما ، لأجل أن يعم العدل وبالميزان الذي ارتضاه ٱلله تعالىٰ . وفي الآية السابقة من سورة النحل إن ٱلله يأمر في هـٰذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد بالعدل ، وهو الإنصاف ، ومن الإنصاف : الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته ، والشكر له علىٰ أفضاله ، وتولي الحمد أهله . وإذا كان ذلك هو العدل ، ولم يكن للأوثان والأصنام عندنا يد تستحقّ الحمد عليها ، كان جهلاً بنا حمدها وعبادتها ، وهي لا تنعِم فتشكر ، ولا تنفع فتعبد ، فلزمنا أن نشهد أن لا إلـٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ، ولذلك قال من قال : العدل في هـٰذا الموضع شهادة أن لا إلـٰه إلا ٱلله . فمن لا يشهد لله بالألوهية ولم يتصف بصفات ٱلله المدلول عليها في أسمائه ، فإنه ليس أهلاً لأن يكون خليفة لله عز وجل في الأرض [3] .

قال تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [4] ، عن ابن عباس رضي ٱلله تعالىٰ عنه في الآية الكريمة قال : نزلت في الشهادة ، وقيل : الآية علىٰ ظاهرها ، و (مَا فِي أَنفُسِكُمْ) علىٰ عمومه الشامل لجميع الخواطر إلا أن معنىٰ (يُحَاسِبْكُم) يخبركم به ٱلله تعالىٰ يوم القيامة ، وقد عدوا من جملة معنىٰ الحسيب : العليم ، وجميع هـٰذه الأقوال لا تخلو عن نظر فتدبر [5] .

---

(1) النساء ، 58 .
(2) النحل ، 90 .
(3) تفسير الطبري ، ج 17 ، ص 279 .
(4) البقرة ، 284 .
(5) تفسير الآلوسي ، ج2 ، ص398 .

خامساً : الحفيظ :

وقال مُجَاهِد في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ [1] : أي حَفِيظاً [2] . فٱلله سبحانه وتعالىٰ لا يضيع أو ينسىٰ أي عمل من أعمال عباده سواء قلّت أو عظمت ، فإن أجره لا يمكن أن يضيع فيثاب عليها بمثلها أو يضاعفها ٱلله لمن يشاء من عباده ؛ لأنه الأعلم بما في نفوس عباده أو كان عمله من أعمال المعاصي ـ والعياذ بٱلله من تلك الأعمال ـ فٱلله كذلك يحفظ هـٰذه الأعمال ولا ينساها أو يضيعها ليجازي عليها من يفعلها الجزاء المناسب ، وقد بين ٱلله تعالىٰ ذلك في أكثر من آية ، فقال جل من قائل : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [3] . وأيضاً في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [4] . وكذلك قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [5] . وإن أخَّرَ اللهُ العقابَ علىٰ عبده العاصي فهـٰذا لا يعني أن ٱلله قد نسيَ أعماله ، فقد قال ٱلله تعالىٰ في محكم آياته : ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [6] . ولـٰكنه بتأخيره العقاب علىٰ من يستحقه أعطىٰ فرصة لهـٰذا العاصي ليتوب أو يرجع عن هـٰذا الفعل فتحل عليه بذلك رحمة ٱلله بدلاً من عقابه . فواجب علىٰ

---

(1) التوبة ، 129 .
(2) تفسير اللباب ، ج5 ، ص 283 .
(3) آل عمران ، 195 .
(4) الأعراف ، 170 .
(5) الكهف ، 30 .
(6) آل عمران ، 196 ، 197 .

من استخلفهم ٱلله في الأرض من عباده الطائعين الملتزمين بالأوامر والمجتنبين للنواهي ، ومن يريد أن يكون خليفة لله في أرضه أن يكون حسيباً بمعنىٰ حفيظاً علىٰ نفسه فيحفظ أخطاءه وذنوبه ولا ينساها ليسارع إلىٰ الندم والتوبة إلىٰ ٱلله من تلك الذنوب ويكثر من فعل الطاعات ليكفر عن ذنوبه التي ندم عليها ، وأن يكون حافظاً علىٰ غيره ممن حوله من الناس فيحفظ لكل الذين أحسنوا إليه أعمالهم وحقوقهم التي أحسنوا بها إليه حتىٰ يُمكِنَهُ أن يحاسبهم ويكافئهم علىٰ هـٰذه الأعمال بالجزاء المناسب ولا يكون ذلك إلا بالإحسان إليهم ، قال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (1) ، فيحفظ بذلك حقوق والديه ومعلميه وكل من قَدَّم له معروفاً أو مد يد العون إليه في لحظة من اللحظات ولو بكلمة تُعينُهُ علىٰ الصبر في وقوع أي أمر ينزل به القضاء والقدر عليه .

وكذلك يحفظ أعمال من أساء إليه بفعل أو بقول ، فإن أراد عفا وصفح وحَلُمَ عن ذلك المسيء إذا كان الحِلْمُ والعفو في موضعه ، فيكون بذلك متصفاً بصفات ٱلله من العفو والحلم والرحمة ، وإن أراد عاقب فيكون عقابه بمثل ما عوقب به إن لم يعفُ ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (2) ، فيكون بذلك متصفاً بصفات ٱلله أيضاً من القوة والقدرة والشدة في الحق ، وقد قال الطبري في تفسير هـٰذه الآية : « وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظَلَمَكُمْ واعتدىٰ عليكم ، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة ، ولئن صبرتم عن عقوبته واحتسبتم عند ٱلله ما نالكم به من الظلم ، ووكلتم أمره إليه ، حتىٰ يكون هو المتولي عقوبته » (3) . فلا يكون عقابه أكبر مما وصل إليه من الإساءة ، فيكون ذلك

(1) الرحمـٰن ، 60 .
(2) النحل ، 126 .
(3) تفسير الطبري ، ج 17 ، ص322 .

ظلماً وتعدياً لا يحبه ٱلله ولا يرضاه من عباده الذين استخلفهم في الأرض ليطبقوا شريعته .

سادساً : المقيت :

فقد جاء في تفسير الطبري أن من معاني المقيت الحفيظ والشهيد والحسيب ، وذلك عند تفسيره قوله تعالىٰ : ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [1] .

القول في تأويل قوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ . قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل في تأويل قوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ . عن مجاهد : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ ، قال : « المقيت » ، « الحسيب » [2] .

فالحسيب هو الكافي في الأمور ، من أحسبني إذا كفاني [3] .

وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تبين أن منصب الخلافة عن ٱلله سبحانه وتعالىٰ في الأرض هو الذي تتحقق به قيادة الإنسانية ، ويتطلب من القائمين علىٰ أمر الإسلام أن يؤدوا حق تمكين ٱلله تعالىٰ لهم في الأرض بما خوَّلهم من أسباب القوة والمنعة ، بقوله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [4] ، وقوله تعالىٰ : ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [5] .

---

(1) النساء ، 85 .
(2) تفسير الطبري ، ج 8 ، ص 583 .
(3) فيض القدير ، ج 2 ، ص 616 .
(4) آل عمران ، 110 .
(5) البقرة ، 143 .

وهـٰذا يؤكد أن فكرة الخلافة في الأرض الواردة في القرآن الكريم هي مسألة مقيدة في أصناف معينة من البشر ، ولم تكن مطلقة وعامة في كل البشر بدليل جعل الأمة الإسلامية هي الشاهدة علىٰ الأمم ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ خلق الأمم واصطفىٰ من كل أمة الأنبياء والطائعين لهم من أممهم ، ثم اصطفىٰ من بين الأمم الأمة المحمدية ، واصطفىٰ من بين الأنبياء والأمة المحمدية سيدنا محمداً ﷺ ليكون هو الشاهد عليها . اللهُمَّ إنا به آمنا إيماناً بٱلله تعالىٰ وعليه نصلي ونسلم استجابة لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ (1) ؛ وبهـٰذا فإنه لا يستحق شرف خلافة ٱلله تعالىٰ في الأرض إلا الذين آمنوا بٱلله والتزموا بأوامره وابتعدوا عن نواهيه التي نستدل عليها من خلال أسمائه الحسنىٰ حيث يدل كل اسم من أسمائه الحسنىٰ علىٰ صفة من الصفات الإلـٰهية مثل الرحيم يدل علىٰ الرحمة ، القادر يدل علىٰ القدرة ، والقوي يدل علىٰ القوة ، والحق يدل علىٰ الحق والكريم يدل علىٰ الكرم ، والغفور يدل علىٰ المغفرة ، وهـٰكذا كل صفة من صفاته الحسان تدل علىٰ أفعاله الحسان سبحانه إنه ربي لا إلـٰه إلا هو جل جلاله به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري وأسرتي وإخوتي وأمتي وما أملك إليه فهو حسبي .

نقل القرطبي عن ابن العربي عند قوله تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (2) ، أي اطلبوا منه بأسمائه ، فيُطْلَبُ بكل اسم ما يليق به ، فتقول : يا الرحمـٰن ارحَمني ، يا الرزَّاق ارزقني يا الهادي اهدني ، يا التوَّاب تب علي ، وهـٰكذا رتب دعاءك تكن من المخلصين إليه (3) .

---

(1) الأحزاب ، 56 .

(2) الأعراف ، 180 .

(3) أضواء البيان ، ج 8 ، ص 213 .

فيتحقق لهم بذلك وعد ٱلله ـ صدق وعده ـ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (1) ، وقال ٱلله تعالىٰ أيضاً : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (2) ، فيحقق ٱلله تعالىٰ لهم التمكين في الأرض ، وبهـٰذا التمكين وبالقيام بحق نصرة ٱلله عز وجل بنصرة دينه ، وقد وعد ٱلله تعالىٰ الأمة الإسلامية باستخلافها في الأرض إن آمنت واتبعت ما أمر به وانتهت عما نهىٰ عنه ، وذلك لأجل أن يقيم عليها موازين العدل ، في قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (3) ، وفي هـٰذه الآية ثلاثة وعود مباشرة من ٱلله عز وجل للأمة الإسلامية مبشرة لها في مستقبل حياتها .

الوعد الأول : استخلافها في الأرض : لترفع راية الحق ، ولتضع موازين القسط بين الناس إذا استقام أمرها علىٰ طريق ٱلله تعالىٰ الذي رسمه لها في كتابه الكريم . وهـٰذا الوعد ليس لكل أمة الإسلام حيث قال تعالىٰ : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ) ، والإيمان يستوجب الطاعة في الأوامر والنواهي فمن قال : « لا إلـٰه إلا ٱلله » ، ولم يلتزم بتعاليم ٱلله الواردة في القرآن ، ولم يكن القرآن خُلُقَهُ ، ولا متصفاً بصفات ٱلله التي يحبها ٱلله تعالىٰ فينا بقوله : ﴿ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ (4) فهـٰذا النوع من الناس والمسلمين لا وعد

---

(1) الحج ، 40 ـ 41 .
(2) محمد ، 7 .
(3) النور ، 55 .
(4) آل عمران ، 79 .

له ؛ لأنه ليس من المؤمنين الذين وعدهم ٱلله .

الوعد الثاني : تمكين دين الأمة الإسلامية الحق الذي ارتضاه ٱلله تعالىٰ له ديناً وشريعة ، وهـٰذا يتضمن أن ٱلله تعالىٰ أعزَّ هـٰذه الأمة بهـٰذا الدين فلا عزة لها بغيره ، وأنه مكَّن لها به في الأرض حتىٰ جعلها بهـٰذا التمكين هي القوة القادرة علىٰ حماية مقدسات الإنسانية في عقيدتها ، وتفكيرها ، وأخبر ٱلله تعالىٰ ممتناً ومؤكداً وعده في قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [1] ، وثبت في الصحيح أن رسول ٱلله ﷺ قال : « إن ٱلله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِيَ لي » [2] .

الوعد الثالث : أن ٱلله تعالىٰ وعد هـٰذه الأمة أن يبدل خوفها أمناً ؛ لتتفرغ لعبادة ٱلله وحده ، وتقيم معالم هدايته ، وتنشر شرائعه في أرجاء الأرض ، وعلىٰ مر الأزمان والأجيال . فالإيمان بحقيقته وخصائصه هو منبع الاعتزاز بٱلله تعالىٰ ، والاعتزاز بٱلله تعالىٰ هو مصدر الدوافع القيادية في الأمة الإسلامية ، وبهـٰذا كان لها منصب الخلافة في الأرض بوضع إلـٰهي ، وتكليف سماوي ، لا اختيار لها في فرضه عليه وتكليفها القيام بعبئه [3] .

دلالة الاسم علىٰ أوصاف ٱلله :

اسم ٱلله الحسيب يدل علىٰ ذات ٱلله ، وعلىٰ الحسب كوصف ذات ، والمحاسبة كوصف فعل بدلالة المطابقة ، وعلىٰ ذات ٱلله وحدها بدلالة التضمن ، وعلىٰ الصفة وحدها بالتضمن ، قال تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ

(1) التوبة ، 33 .
(2) صحيح مسلم ، ج14 ص68 .
(3) الأمة الإسلامية كما يريدها القرآن العظيم ص 45 .

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ (2) . والاسم يدل باللزوم علىٰ الحياة والقيومية والعلم والأحدية والقدرة والصمدية والغنىٰ والقوة والعزة والعظمة والمجد والكبرياء ، وغير ذلك من صفات الكمال .

الدعاء باسم الحسيب دعاء مسألة ودعاء عبادة :

ورد الدعاء بالوصف في قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ (3) ، ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ : زادهم ذلك التخويف ثبوتاً في دينهم ، وإقامة علىٰ نصرة نبيهم ، وقالوا : ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي : هو الذي يكفينا أمرهم (4) . فهُم بشدة إيمانهم وعبادتهم لله تعالىٰ لم يخافوا الناس ، بل تضرعوا لله ، وسألوه باسمه الحسيب أن يكفيهم أمر مَنْ أراد بهم السوء ، ولذا علىٰ الخليفة أن يسأل ٱلله تعالىٰ بأسمائه الحسنىٰ ويتضرع بها إليه ليقضي حوائجه الدنيوية والأخروية ، فإنه لا يقضي الحاجات غيره ولا ينفع ولا يضر غيره تعالىٰ ، وأن نعمل عملاً يرضاه حتىٰ يغنينا ، فهو الغني ، ولهٰذا الدعاء والعمل معاً يحققان الاستجابة ؛ وذلك لأنهما توكل عليه بالقوة التي خلقنا عليها ، والتي يراد لنا أن نكون عليها ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ (5) .

ودعاء العبادة هو شعور الموحد بعز العبودية وشرفها ، وأنه بدونها لا قيمة لحسبه ونسبه ، روىٰ مسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ أن

---

(1) البقرة ، 284 .
(2) الانشقاق ، 7 ، 8 .
(3) آل عمران ، 173 .
(4) زاد المسير لابن الجوزي ، ج 1 ، ص 456 .
(5) التين ، 4 .

رسول ٱلله ﷺ قال : (وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)[1] ، فالكمال اللائق بالإنسان هو تكميل العبودية لله علماً وعملاً ظاهراً وباطناً ، ومن حكمة ٱلله ـ عز وجل ـ أنه فضَّل آدم وبنيه علىٰ كثير ممن خلق تفضيلاً ، وجعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم ، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلىٰ درجاتهم .

فلما كانت العبودية أشرف أحوال بني آدم وأحبها إلىٰ ٱلله ـ عز وجل ـ وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها كان من أعظم الحكم أن أخرجوا إلىٰ دار تجري عليهم فيها أحكام العبودية وأسبابها وشروطها وموجباتها ، فإنه سبحانه يحب إجابة الدعوات ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2] ، وتفريج الكربات وإغاثة الملهوف ، ومغفرة الزلات ، وتكفير السيئات ، قال تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[3] ، ودفع البليات ، وإعزاز من يستحق العز ، وإذلال من يستحق الذل ، ونصر المظلوم ، وجبر الكسير ، ورفع بعض خلقه علىٰ بعض ، وجعلهم درجات ليعرف قدر فضله وتخصيصه ؛ فاقتضىٰ ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلىٰ دار يحصل فيها محبوباته سبحانه ، فأبرز خلقه من العدم إلىٰ الوجود ليجري عليه أحكام أسمائه وصفاته ، فيظهر كماله المقدس في كل اسم ووصف ، فمن كماله ظهور آثار كماله في خلقه وأمره وقضائه وقدره ووعده ووعيده ومنعه وإعطائه وإكرامه وعدله وفضله وعفوه وإنعامه وسعة حلمه وشدة بطشه ، وقد اقتضىٰ كماله المقدس سبحانه أنه كل يوم هو في شأن ، وإدراك العبد لهٰذه الحكم

(1) صحيح مسلم ، ج ، ص 212 .
(2) غافر ، 60 .
(3) النساء ، 31 .

البالغة وتعامله معها في دار الامتحان أعظم شرف يناله الإنسان [1] .

ومن دعاء العبادة أيضاً أن يقف العبد مع نفسه علىٰ الدوام لمحاسبتها ، فيميز حركاتها وسكناتها ، ثم يذكر أنه ما من عمل وإن صغر إلا حاسب نفسه عليه ، وهـٰذا هو موضع الابتلاء هل عمل ذلك لله ، أو تبعاً لهواه ، وهل فعله بعلم أو بجهل ؟ فإن ٱلله عز وجل لا يقبل عملاً إلا علىٰ ما أمر به نبيه ﷺ وسنته ، وهل فعله خالصاً لله أم للسمعة والرياء ، فالمحاسبة هي المقايسة بين الحسنات والسيئات بميزان الشرع والأحكام ، وتمييز الحلال والحرام ، واتقاء الشبهات .

ولابد لمن استخلفه ٱلله تعالىٰ في الأرض أن يحرص علىٰ حفظ أسماء ٱلله الحسنىٰ في أقواله وأفعاله ، والحفظ لا ينبغي حمله علىٰ مجرد الحفظ للألفاظ غيباً ، ولـٰكن يُحْمَل علىٰ إحصاء معانيها وما تدل عليه ، وحفظها من التحريف والتبديل والتعطيل ، ولابد له أن يحاول بقدر الإمكان التخلق بحسن صفاتها فليكن الخليفة حليماً عفواً رحيماً كريماً ، والحذر من الجبار والقهار ، ومراقبة الحسيب الرقيب ، والتعرض للتواب الغفور بالتوبة وطلب المغفرة ، والهادي والرزاق بطلب الهداية والرزق وهـٰكذا . فيصبح بكل ذلك أهلاً لخلافة ٱلله سبحانه وتعالىٰ في الأرض ، بما تمثله من صفات ٱلله تعالىٰ التي استقاها من أسمائه ، والتزم بها وطبقها علىٰ نفسه أولاً وعلىٰ غيره ثانياً ، فيكون بذلك قرآناً يمشي علىٰ الأرض بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ ، والناس تهتدي إليه ويُهتدىٰ به ، فيستحق بذلك رضا ٱلله تعالىٰ وثوابه ، ونجاته من عقاب ٱلله عز وجل وحسابه .

مظاهر حسابه تعالىٰ :

1 ـ حسابه الحسنات والسيئات :

من فضل الحسيب جل جلاله علىٰ عباده أن جعل في الثواب زيادة ، وفي

---

(1) مجموع الفتاوىٰ ، ج 10 ، ص545 وشفاء العليل ص243 .

العقاب إلا بقدر ما عمل من السيئات ، قال تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) ، هٰذا إذا كانت السيئة من الصغائر ، أما إن كانت من الكبائر ـ والعياذ بٱلله ـ وكان ذلك عن إصرار وضرار بالناس ظناً منه أن قادر علىٰ كل من حوله وأنه هو أهل العز والبقاء بما يتفننه في عمل المنكرات واجتراح السيئات ، ولٰكن ٱلله هو الحسيب القهار فوق عباده أعلم بكل ما يعملون ، قال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ (2) ، وفي مقابل أولئك نجد عباد الرحمٰن وخلفاءه في أرضه ينفقون أموالهم وجهدهم وأوقاتهم في سبيل إرضائه تعالىٰ ولأنهم يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، وهٰذا ما يجب أن يكون عليه الحسيب بالإضافة في عمله ؛ لأنه لا يستطيع أن يحاسب الآخرين وهو ناقص في أعماله وسلوكه ، فإذا لم يحاسب نفسه يعتبر مقصراً في حق نفسه ومجتمعه ، ولذلك وجب عليه أن يتصف بصفات تؤهله للخلافة منها : العفو والكرم والذي يتمثل في المكافأة والجزاء الحسن الوافي ، امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

2 ـ حسابه لكبير الأشياء ودقيقها :

ربما يظن الإنسان أن ليس من ورائه حسيب رقيب لا يغفل ولا يغيب ، وربما يظن أنه تعالىٰ لا يعاقب إلا علىٰ الأعمال الكبيرة ويترك الصغيرة ، ولٰكن يجب أن نعلم أنه لا يترك كبيرة ولا صغيرة بل كل ما يعمله الإنسان سيجده حاضراً ولو كان بوزن ذرات الجزيء الذي يعتبر أصغر شيء توصل إليه

---

(1) القصص ، 84 .
(2) فاطر ، 10 .
(3) البقرة ، 261 .

الإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (3) ، وكذلك فليعلم الحسيب بالإضافة أن الحسيب المطلق جل جلاله هو الذي يراقب الأشياء الكبيرة كما يراقب ويحاسب علىٰ الأشياء الدقيقة ، فالحسيب لم يخلق هـٰذا الكون الضخم الهائل ليتركه عبثاً ولا ليغيب عنه أو ينام ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (6) .

3 ـ حسابه للأرزاق :

الكون وما به من مخلوقات الظاهر والخفي منها ، ما نعلمه منها وما لم نعلم كلها رزقها علىٰ ٱلله جل جلاله ، وما جعل ٱلله ذلك إلا ليظهر للإنسان آيات التصديق والوصول إلىٰ الحق بما خلقه له الحسيب جل جلاله من العقل

---

(1) النساء ، 40 .

(2) يونس ، 61 .

(3) سبأ ، 3 .

(4) المؤمنو ، 115 ـ 116 .

(5) الأنبياء ، 16 ـ 17 .

(6) الدخان ، 38 ـ 39 .

والذي جعله تعالىٰ في علاه أداة ليبحث بها عن الرزق وبأيسر الطرق ، فالإنسان يرىٰ الأرض جدباء ، فينزل جل جلاله الماء المبارك عليها ، فيلقي الإنسان الحبوب فيها فإذا هي خضراء تعطي نتاجاً من كل نوع ، فيأكل الإنسان والطير والبهائم ما كتبه ٱلله لهم من الرزق ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، وٱلله جعل الرزق له أوقات فمن المخلوقات ما تأكل رزقها نهاراً ، وبعضها ليلاً ، ليكون للإنسان درسا يفهم منه أن الخالق الحسيب لا تأخذه سنة ولا نوم بل رقيب لكل ما خلق ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) ، والسؤال هنا لماذا يسعىٰ الإنسان وراء الحرام وهو يعلم أن رزقه علىٰ ٱلله جل جلاله ؟ الجواب يكون علىٰ النحو التالي : إن التدخلات التي يثيرها العدو ـ ومع أنه مبين ـ إلا أنها تلقىٰ في بعض الأحيان صدىً داخل الإنسان ، فيظل يركض ويلهث ، مما به من شكوك فإذا استيقظ رجع وإذا لم يكن كذلك فيظل كذلك فلا هو من ربه ولا هو من الدنيا فيبقىٰ أسير تلك الظنون فتهوي به في مهالك الردىٰ ، ولـٰكن ليعلم الإنسان أن الرزق ينزله تعالىٰ علىٰ عبيده المسلم والكافر علىٰ السواء ، وليعلم الخليفة أن الحلال بين وأن الحرام بين ، وأن فضل ٱلله أعم وأشمل ، ولـٰكن لماذا يحرم علىٰ نفسه الطيبات من الرزق ؟ قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (3) .

---

(1) الجاثية ، 3 ـ 5 .
(2) هود ، 6 .
(3) يونس ، 59 ـ 60 .

4 ـ حسابه لقطرات الماء :

الحسيب جل جلاله خلق الماء وجعل منه البحار والمحيطات المالحة والأنهار العذبة وجعل بينهما برزخاً وحاجزاً ، وهٰذا الكم الهائل من المياه كلها محسوبة معدودة عند من لا تضيع عنده الحسابات ، فمتىٰ يشاء يغرق الأرض بالماء فيجعل الأنهار تجري فيها ، ومتىٰ يشاء يحجب عنها الماء فتبقىٰ جرداء لا نبت فيها ، وكل ذلك بحكمه وحكمته ، وهٰذا الماء المتألف من قطرات كلها محسوبة ، ومن هٰذه القطرات يأتي الخير والبركة فينزلها علىٰ من يشاء من عباده ، وقد يجعل منها عذاباً وعقاباً ، فتكون عذاباً بقدر ما يريده الحسيب تعالىٰ في علاه ، فقوم نوح لما عصت وظنت أنها قادرة أتاها أمر ٱلله فانتقم منها ، قال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (1) . وفي المقابل نرىٰ كيف تكون الأرض جدباء فإذا هي خضراء بإذن ربها سبحانه ، وفي ذلك الجدب والاخضرار درس لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) . والخليفة له في كل ذلك دروس ومواعظ تقيه حر جهنم يوم لا ينفع مال ولا بنون ، فعندما يرىٰ الخليفة بالإضافة كيف تأخذ الأرض زخرفها ومن بعد ذلك تكون قشاً تذروه الرياح فإنه يرجع عما كان فيه من السهو والنسيان والغفلة ؛ لأن في ذلك درساً له وليعلم أنه سيصير إلىٰ ما يراه كل موسم من ازدهار وانتهاء ، فكذلك الإنسان سائر

(1) القمر ، 9 ـ 15 .
(2) الأعراف ، 57 .

لا محالة إلىٰ الفناء الدنيوي ليدخل في حياة أبدية إما إلىٰ جنة ، وإما إلىٰ جهنم والعياذ بٱلله . لذلك وجب علىٰ الحسيب بالإضافة أن يحاسب نفسه حساباً كي يتقي عقاب ربه وليحذر الآخرين من عقابه تعالىٰ ؛ ليفوزوا بجنة الخلد ، فيأمرهم بالصالحات وينهاهم عن الفواحش والمنكرات امتثالاً لقوله تعالىٰ في علاه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (1) .

5 ـ حسابه للسموات والأراضين :

الحسيب جل جلاله خلق سبع سموات طباقاً ليس عبثاً أو بمحض الصدفة بل كل شيء جاء بميزان ، فبعدما خلق ٱلله جل في علاه الأرض خلق السماء فجعل منها سبع سموات ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، وما خلقها ليتركها دون رعاية أو وقاية بل حفظها وجعل في كل سماء أمرها ، قال تعالىٰ : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ (4) ، والناظر إلىٰ السماء من فوقه يرىٰ السماء زرقاء لا تفاوت فيها ، بل تظهر للناظر فيها كأنها سماء واحدة فتبارك ٱلله أحسن الخالقين ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (5) ، هـٰذه السموات وما فيهن من علوم ظاهرة

---

(1) آل عمران ، 104 .
(2) البقرة ، 29 .
(3) فصلت ، 12 .
(4) المؤمنون ، 17 .
(5) الملك ، 3 ـ 4 .

وخافية ، وما تحمله من زينة ظاهرة وباطنة ، فهي نعمة من النعم التي أنعم بها علىٰ عباده الخلفاء ، ليشكروه وليؤمنوا به تعالىٰ ، لا ليكفروا نعمه التي أسبغ بها عليهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (1) ، وعلىٰ الخليفة أن يعلم أن ٱلله جل جلاله قادر علىٰ إزالتها كما خلقها ، فلا يظن أن هـٰذه السموات خرجت عن سيطرته مهما كبرت ، فٱلله أكبر وأعظم وأجل مما نتصوره ونظنه ، فعلمنا محدود بقدر خلقتنا ، فإذا ما حاول الإنسان أن يخترق حدوده احترق وهلك ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (2) . وٱلله تعالىٰ خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ﴾ (3) . فعندما ينزل أمره تعالىٰ تنزل به الملائكة من سماء إلىٰ سماء حتىٰ ينزله علىٰ الأرض وعلىٰ من يشاء من عباده ، وفي ذلك بيان أن ٱلله عليم بما فيهن وما بينهن ، وأنه محيط بهن إحاطة تامة شاملة ، وعلىٰ الخليفة أن يعمل علىٰ أن ربه يعلم كل ما في هـٰذا الكون من حركات وسكنات .

6 ـ حسابه يوم القيامة :

قال تعالىٰ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ

---

(1) النساء ، 131 ـ 132 .

(2) الزمر ، 67 .

(3) الطلاق ، 12 .

وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (1) ، في الآيات السابقة صورة واضحة أتم الوضوح والجلاء بما وكيف يكون الحساب ، فكل شيء مكتوب في الصحيفة ، وبكل دقة ، ولا تجد إلا ما عملت يداك محضراً ، فما علىٰ الخليفة إلا أن يتقي ربه كما أمره الحسيب جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (2) ، وليعلم الإنسان أن كل ما يعمله من خير أو شر سيجده أمامه حاضراً كاملاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (5) .

7 ـ حسابه النجوم والكواكب :

ما خلق ٱلله تعالىٰ النجوم والكواكب إلا لشيء أرادها له ، وبأمره وتسخيره ، وبحساب دقيق ، ففي ما هو ظاهر نرىٰ الشمس نهاراً والقمر ليلاً ، وتلك النجوم كيف تظهر في مواسم ، وتختفي في مواسم أخرىٰ ، فنجم

---

(1) الإسراء ، 13 ـ 15 .
(2) آل عمران ، 76 ـ 77 .
(3) آل عمران ، 161 ـ 162 .
(4) آل عمران ، 185 .
(5) مريم ، 93 ـ 95 .

(سهيل) يظهر في الخريف ، ويختفي في المواسم الأخرىٰ ، ونرىٰ حركة القمر كيف يبدأ هلالاً ويتدرج حتىٰ يكتمل بدراً ، ويرجع من جديد ليصير هلالاً ، وكله لحكمة يعلمها ٱلله جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (1) . وعندما حاول الكفار سؤال الرسول عن الهلال أشار ٱلله جل جلاله لهم بالفائدة إذ لا علاقة لهم بكنه وكيفية الخلق ؛ ولأن معرفة ذلك ممالا يستطيع أن يتحمله الإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (2) ، والحسيب المطلق الذي خلق النجوم والكواكب وما نتج عن حركتهما من ليل ونهار ، وتغيرات في المناخ وما نتج عنها من فصول لهو خير دليل علىٰ سلطانه المطلق في خلقه بالأمر والنهي ، فتبارك ٱلله رب العالمين ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (3) .

8 ـ حسابه لليل والنهار :

من نعمه تعالىٰ علىٰ عبيده أن جعل لهم الليل والنهار ، وجعل لكل قسم

---

(1) يس ، 38 ـ 40 .

(2) البقرة ، 189 .

(3) الأعراف ، 54 ـ 56 .

منهما فوائد لا يمكن أن توجد في الثاني ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (1) ، قال تعالىٰ : ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ (2) . والحسيب المطلق أمر حسيبه بالإضافة أن يتوجه لربه في الليل والنهار ، أما النهار فأمره اعتيادي ، وأما الليل فأمر ليس بعادي ، لما فيه من صعوبة في تحمل السهر وخاصة للذين يؤدون أعمالاً شاقة مضنية ، ولذلك جعل ٱلله تعالىٰ الأجر العظيم ، وبه أمر خلفاءه حتىٰ يحصلوا علىٰ الدرجات العلىٰ في الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا بالصبر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (3) ، وقد ذكر ٱلله تعالىٰ فوائد الليل والنهار ، منها : السعي في الحصول علىٰ الرزق ، وثانيها : معرفة حساب الأيام والسنين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلًا ﴾ (4) ، وٱلله جل جلاله وجه عبيده إلىٰ الأوقات التي تصلح للعبادة أكثر من غيرها ؛ لما بها من خير كثير ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ

(1) القصص ، 71 ـ 73 .
(2) آل عمران ، 27 .
(3) هود ، 114 ـ 115 .
(4) الإسراء ، 12 .

تَرۡضَىٰ ﴾ [1] ، وٱلله تعالىٰ لا يخفىٰ عليه شيء في الليل أو النهار فهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، فهو يسمع بها ويبصر ، وليس كسمعكم أو كبصركم ، بل هو السميع البصير المطلق في الليل وفي النهار ، وكل ذلك إثبات للوحدانية ، وكل ما يدعىٰ دونه فهو الباطل ، قال تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [2] .

9 ـ حسابه للرياح :

الرياح وما تحمله من فوائد جمة ، وما جعله ٱلله فيها من الخيرات ، هي بأمره وخلقه لها ، فهي لا تسير بدون أمره بل دائماً تحت طوعه ، فهي التي تأتي بالسحاب الثقال من البلد البعيد إلىٰ حيث يأمرها ٱلله جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [4] ، ومن فوائد الرياح أنها تساعد علىٰ تلقيح النبات ، وهـٰذا ما جاء به القرآن الكريم قبل أن يأتي به أو يكتشفه العلم الحديث ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ

---

(1) طه ، 130 .

(2) الحج ، 61 ـ 64 .

(3) الفرقان ، 48 ـ 49 .

(4) الروم ، 48 .

فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ (1) ، وقـال تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (2) ، ومن فوائد الرياح أنها تساعد البحارة في أداء عملهم ، فهي تساعد علىٰ الدفع بسفنهم إلىٰ الأمام ، فيصلوا إلىٰ أماكنهم فرحين بما أنجزوه شاكرين فضل ٱلله عليهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ (4) . وأما الريح التي تأتي لغير ذلك فهي التي تؤمر بأن تدمر كل ما أرسلت إليه والعياذ بٱلله من سخطه وعقابه ، والتي تحمل معها عقاباً وعذاباً كما كان مع قوم عاد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ (5) .

اللهُمَّ يا الحسيب اجعلنا من الذين هم علىٰ الصراط المستقيم ، واجعلنا من الذين رضيت عنهم فزدتهم ثقلاً في الموازين !

اللهُمَّ يا الحسيب يا من خَلَقْتَ الإِنْسَانَ وعَلَّمتَهُ الْبَيَانَ وخلقت الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ بِحُسْبَانٍ وجعلت النَّجْمَ وَالشَّجَرَ لك يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعْتَهَا وَوَضَعْتَ الْمِيزَانَ فاجعلنا من الطائعين المقسطين ولا تجعلنا من المطففين للكيل والميزان !

---

(1) الحجر ، 22 .
(2) النمل ، 63 .
(3) الروم ، 46 .
(4) الشورىٰ ، 32 ـ 34 .
(5) الحاقة ، 6 ـ 8 .

اللهُمَّ إنك جعلت الحق بحسبان فاجعلنا من عبادك الطائعين للحق بحسبان ، ولا تجعلنا من الذين يميلون عنه كل الميل !

اللهُمَّ يا الحسيب يا من رفعت السماء عن الأرض بغير عمد نراها ارفع درجاتنا لك طاعة واجعل حسابك لنا تيسيراً لا تعسيراً ، واجعلنا من الفائزين بثوابك ولا تجعلنا من الخاسرين في العقاب !

اللهُمَّ يا الحسيب اجعل في أقوالنا موازين الرحمة ولا تجعلنا من الذين يأكلون أموال اليتامىٰ إسرافاً وظلماً !

اللهُمَّ اجعلنا من الذين إذا حيوا بِتَحِيَّةٍ حَيَّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رَدُّوهَا سبحانك جل جلالك إِنَّك عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيب !

✍ ✍ ✍

الجليل جل جلاله

الجليل : « هو الموصوف بنعوت الجلال ، ونعوت الجلال هي العز والملك والتقدس والعلم والغنىٰ والقدرة وغيرها من الصفات التي ذكرناها ، فالجامع لجميعها هو الجليل المطلق جل جلاله »[1] .

الْجَلِيلُ : « الَّذِي يَصْغُرُ دُونَهُ كُلُّ جَلِيلٍ ، وَيَتَّضِعُ مَعَهُ كُلُّ رَفِيعٍ »[2] .

ٱللهُ الجَليلُ سبحانه وتعالىٰ : ذو الجَلال والإكرام ، وجَلالُ ٱلله عظمتُه ، ولا يقال الجَلال إلا لله ، ولذلك فالجليل هو المتفرد دون غيره بالقوة الجليلة التي تضيف الشيء الحسن والجليل علىٰ من يؤمن به واحداً أحداً جل جلاله .

والجَلِيل من صفات ٱلله تقدس وتعالىٰ ، وقد يوصف به الأَمر العظيم ، والرجل ذو القدر الخَطِير[3] .

فالجليل متفرد بالفعل ومختص به ، ومصدر التفرد صفات ذات الجليل ، الجامعة للقوة والقدرة والقيومية ، وهـٰذه ثلاثية تحكم إطار التفرد .

والقوة التي نذكر هي قوة مطلقة يتفرد بها الجليل ، ولتفسير هـٰذه القوة ننظر إلىٰ خلق القوي سبحانه ، فانظر إلىٰ الحديد وقوته وامتناع تطويعه دون

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 115 .

(2) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 70 .

(3) لسان العرب ، ج 11 ، ص 116 .

مشقة كبرىٰ وعون كبير فإذا نظرت ذلك فاعلم أن من خلق هـٰذا هو ٱلله القوي سبحانه الذي يقول : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (1) ، فقوة ٱلله سبحانه لا تدانيها قوة ولا تقاربها في حدودها قوة .

أما القدرة فهي محرك القوة ، فأنت ترىٰ في بعض مخلوقات ٱلله قوة وربما قوة كبيرة لـٰكن دون قدرة علىٰ الفعل بالمطلق ، فالمطلق مختص بٱلله سبحانه وتعالىٰ القادر ، ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (2) ، أما القدرة النسبية التي جعلها ٱلله سبحانه وتعالىٰ في بعض خلقه فهي دليل علىٰ عجز المخلوقات عن مقاربة قدرة القادر سبحانه وتعالىٰ ، فالإنسان يمتلك القدرة لـٰكنها محدودة بنسبة قدّرها سبحانه لكل عبد من عباده وعلىٰ درجة من التفاضل لا الاستواء ، ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (3) .

أما القيومية ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (4) ، فإنها من صفة تفرد بها الجليل سبحانه وتعالىٰ واختص بها دون كل ما خلق سبحانه وبالمطلق ، فما من مخلوق يستطيع امتلاك هـٰذه الصفة وان سعىٰ كل السعي وبذل كل الجهد وهو دليل علىٰ عجز المخلوق ، أما الخالق ، فما نقول عن هـٰذا الخالق ،

---

(1) الحديد ، 25 .
(2) الأنعام ، 65 .
(3) الإسراء ، 18 ، 21 .
(4) آل عمران ، 2 .

نقول جل سبحانه ، فالجليل مهاب لصفاته التي تفرد واختص بها بما لا يدانيه أحد ولا يستطيع القيام بفعله أحد سبحانه وتعالىٰ عما يشركون .

والجليل هو« الموصوف بنعوت الجلال ، ونعوت الجلال هي العز والملك والتقدس والعلم والغنىٰ والقدرة وغيرها من الصفات التي ذكرناها فالجامع لجميعها هو الجليل المطلق والموصوف ببعضها جلالته بقدر ما نال من هـٰذه النعوت ، فالجليل المطلق هو ٱلله عز و جل فقط ، فكأن الكبير يرجع إلىٰ كمال الذات ، والجليل إلىٰ كمال الصفات ، والعظيم يرجع إلىٰ كمال الذات والصفات جميعاً منسوباً إلىٰ إدراك البصيرة إذا كان بحيث يستغرق البصيرة ولا تستغرقه البصيرة ، ثم صفات الجلال إذا نسبت إلىٰ البصيرة المدركة لها سميت جمالاً وسمي المتصف به جميلاً ، واسم الجميل في الأصل وضع للصورة الظاهرة المدركة بالبصر مهما كانت بحيث تلائم البصر وتوافقه ثم نقل إلىٰ الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر حتىٰ يقال سيرة حسنة جميلة ويقال خلق جميل وذلك يدرك بالبصائر لا بالأبصار ، والصورة الباطنة إذا كانت كاملة متناسبة جامعة جميع كمالاتها اللائقة بها كما ينبغي وعلىٰ ما ينبغي فهي جميلة بالإضافة إلىٰ البصيرة الباطنة المدركة لها وملائمة لها ملاءمة يدرك صاحبها عند مطالعتها من اللذة والبهجة والاهتزاز أكثر مما يدركه الناظر بالبصر الظاهر إلىٰ الصورة الجميلة . فالجميل الحق المطلق هو ٱلله سبحانه وتعالىٰ فقط لأن كل ما في العالم من جمال وكمال وبهاء وحسن فهو من أنوار ذاته وآثار صفاته وليس في الوجود موجود له الكمال المطلق الذي لا مثنوية فيه لا وجوباً ولا إمكاناً سواه ، ولذلك يدرك عارفه والناظر إلىٰ جماله من البهجة والسرور واللذة والغبطة ما يستحقر معه نعيم الجنة وجمال الصورة المبصرة بل لا مناسبة بين جمال الصورة الظاهرة وبين جمال المعاني الباطنة المدركة بالبصائر .

فإذا ثبت أنه جليل وجميل فكل جميل فهو محبوب ومعشوق عند مدرك

جماله ، فلذلك كان ٱلله عز وجل محبوباً ولٰكن عند العارفين كما تكون الصورة الجميلة الظاهرة محبوبة ولٰكن عند المبصرين لا عند العميان »[1] .

فٱلله هو الجليل في الأصل له الملك والملكوت والجبروت وله يخضع من في السموات والأرض طوعاً لجلاله إيماناً به ويقيناً بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، أو كرهاً ، فأي مخلوق لا يملك أن يعلو علىٰ جلال ٱلله الجليل .

وفي الحديث : عن ربيعة بن عامر ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام »[2] . ألظ : أي الزموه واثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به في دعائكم ، قيل : أَراد عَظِّمُوه ، وجاء تفسيره في بعض اللغات : أَسْلِمُوا .

ومن حديث البشير النذير ﷺ يتضح مدىٰ قيمة الاسم الجليل في حياة المؤمن بوصفه الخليفة الحق علىٰ الأرض لذا فالنبي ﷺ يحث المؤمنين علىٰ التمسك بالاسم الجليل والاجتهاد في طلب تجلياته لما فيه من فائدة عظيمة تعود علىٰ من يلوذ به .

ولذلك الجليل هو العظيم الذي لا تقاس أفعاله ومعجزاته وآياته العظام بأي مقياس من مقاييس البشر ، وهي التي تجعل الخليفة مؤمناً بها وتجعل الجاحدين يلحدون . والخليفة هو الجليل في دائرة النسبية بقوله وفعله ، في قوله الصدق وفي فعله الصدق ، فهو الذي دخل الإيمان قلبه حتىٰ أدرك الحق ومصدر الحق ، فأصبح يفعل الخير في أهله ، يصوم ويصلي طاعة تامة ، يزكي ويتعبد إظهاراً صادقاً لطاعة من استخلفه في الأرض جل جلاله ، وهو الذي يعدل بالحق إذا حكم بين الناس . إنه الجليل بالإضافة لإيمانه التام بٱلله تعالىٰ ، فهو يظمأ ولا يشرب إلا حلالاً ، ويجوع ولا يأكل إلا حلالاً ، وله

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 112 ـ 115 .

(2) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم ، ج 4 ، ص 383 .

غريزة جنسية ولا يزني ، وله نفس ويعفو عن كثير ، وله عاطفة تستوجب طاعة الوالدين ولا يطيعهما إلا في طاعة ٱلله ، ويعلم أن الدار الدنيا فانية ويعمل فيها بود وصدق لأجل أن يفوز بما يعمل فيها بالجنة .

وهو سبحانه وتعالىٰ الجَلِيلُ الموصوف بنعوت الجَلال والحاوي جميعَها هو الجَلِيلُ المُطْلَق وهو راجع إِلىٰ كمال الصفات كما أَن الكبير راجع إِلىٰ كمال الذات والعظيم راجع إِلىٰ كمال الذات والصفات [1] .

والجليل صفة جامعة للهيبة والخشية والوجل والخوف التي يشعر بها من يتحقق أسرار الاسم الجليل من إنس وملك وجن ورعد وغير ذلك من مخلوقات ٱلله عز وجل ، ولذا من يستكشف جلاله ليس له بدٌّ إلا أن يُسبح باسمه واحداً أحداً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾ [3] . سبحان ٱلله والحمد لله ، وٱلله أكبر طاعة تامة لله جل جلاله .

والعصاة يعلمون أنه يُرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ولم يوقنوا بأنه لا يُريد إهلاك الناس جميعاً فلو أراد إهلاكهم لأهلكهم ، وهـٰذه وحدها تجعل من له بصيرة يؤمن بأنه جليل عظيم يستوجب الطاعة التامة ، ولـٰكن هـٰذا الأمر من حظ الخليفة الذي أدرك الحق فأطاع الحق ومصدره ، وهو عن يقين يتجنب كل ما من شأنه أن يغضب الجليل تعالىٰ ، ولأنه الجليل بالإضافة فهو يأمل ويعمل من أجل أن يؤمن الناس كافة ليكونوا معه في دائرة الخليفة التي لا يدخلها إلا مؤمن بدين الكافة .

---

(1) لسان العرب ، ج11 ، ص116 .

(2) الإسراء ، 44 .

(3) الرعد ، 13 .

والاستعانة بٱلله الجليل تحمي من المهالك ومن مكر الغادرين ، فهو الذي يرسل صواعقه لحماية خليفته ومن سار علىٰ نهجه وهـٰذا يتضح من سبب نزول الآية التالية وما جاء فيها من شرح وتفسير ، (وَيُرْسِلُ الصواعق) ، نزلت هـٰذه الآية الكريمة في أمر عامر ، والأربد بن قيس ، حين أراد قتل النبي ﷺ ، وذلك أن عامر بن الطفيل العامري دخل علىٰ رسول ٱلله ﷺ ، فقال : أُسْلِمُ علىٰ أن لك المدر ولي الوبر ؟ فقال له النبي ﷺ : « إنما أنت امرؤ من المسلمين ، لك ما لهم ، وعليك ما عليهم » ، قال : فلك الوبر ولي المدر ، فقال له النبي ﷺ مثل ذلك ، قال : في الأمرين من بعدك ، قال له النبي ﷺ مثل قوله الأول : « لك ما لهم ، وعليك ما عليهم » ، فغضب عامر ، فقال : لأملأنها عليك خيلاً ، ورجالاً ، ألف أشقر ، عليها ألف أمرد .

ثم خرج مغضباً ، فلقي ابن عمه أربد بن قيس العامري ، فقال عامر لأربد : ادخل بنا علىٰ محمد ، فألهه في الكلام ، وأنا أقتله ، وإن شئت فألهه بالكلام وقتلته أنت ، قال أربد : ألهه أنت وأنا أقتله ، فدخلا علىٰ النبي ﷺ ، فأقبل عامر إلىٰ النبي ﷺ يحدثه وهو ينظر إلىٰ أربد متىٰ يحمل عليه فيقتله ، ثم طال مجلسه ، فقام عامر وأربد فخرجا ، فقال عامر لأربد : ما منعك من قتله ؟ قال : كلما أردت قتله وجدتك تحول بيني وبينه ، وأتىٰ جبريل النبي ﷺ ، فأخبره بما أرادا ، فدعا النبي ﷺ عليهما ، فقال : « اللهُمَّ اكفني عامراً وأربداً ، واهد بني عامر » ، فأما أربد ، فأصابته صاعقة فمات ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ (1) .

والجليل يملك الملك ويخلق الخلق ويهيمن وهو الجليل الملك المتعال ومع ذلك يعفو ويغفر ويهدي كل من يرغب الهداية ، ولأنه الجليل بالرغم من

(1) تفسير مقاتل ، ج 2 ، ص 168 .

أن الأمر كل الأمر بيده فهو يمهل ولا يهمل لتكون الفرصة أمام الناس سانحة لأن يعودوا إلىٰ ممارسة مهام الخليفة التي بها يتحقق رضا ٱلله ورضا النفس ورضا الخليفة .

وجَلَّ الشيءُ يَجِلُّ جَلالاً وجَلالةً وهو جَلٌّ وجَلِيلٌ وجُلال عَظُم ، وأَجَلَّه عَظَّمه يقال : جَلَّ فلان في عَيني أَي عَظُم وأَجْلَلته رأَيته جَلِيلاً نَبيلاً وأَجْلَلته في المرتبة وأَجْللته أَي عَظَّمته ، وجَلَّ فلان يَجِلُّ بالكسرِ جَلالة أَي عَظُم قَدْرُه فهو جَلِيل وقول لبيد :

غيــرَ أَن لا تَكْــذِبَنْهــا فــي التقَــىٰ واجْـــزِهـــا بـــالبِـــرِّ لله الأَجَـــلّ

والأجلُّ يعني الأَعظم ، وقيل : الحمدُ ٱلله العَلِيِّ الأَجْلل أَعْطىٰ فلم يَبْخَل ولم يُبَخَّل ، يريد الأَجَلَّ فأَظهر التضعيف ضرورة .

والتَّجِلَّة الجَلالة ، وأَنشد ابن بري لليلىٰ الأَخْيَلية :

يُشَبَّهـــون مُلـــوكـــاً فـــي تَجِلَّتِهـــم وطُـــولِ أَنْضِيَـــةِ الأَعْنـــاقِ واللِّمَـــم

وجُلُّ الشيءِ وجُلاله معظمه ، وتَجَلَّل الشيءَ أَخَذ جُلَّه وجُلاله [1] .

وصفات ٱلله تتداخل بعظمته وجلاله ، فلا تستقل بالتمام صفة عن أخرىٰ بل كل الصفات الحسان كاملة وتُكمِّل بعضها بعضاً ، ولذلك فالجليل هو ذو الجلال ، أي ذو الكمال التام والعظمة المطلقة والسلطان العظيم ، فهو الذي يهيمن بجلاله وقوته علىٰ الشيء الذي لو لم يكن هو عز وجل ما كان للشيء وجود .

وليس كل من يُظهر الجلال جليلاً إلا الذي يجل ٱلله طاعة كاملة ، يوحده ولا يشرك به شيئاً ، ولهٰذا ليس كل ما يقال حق ، ولا كل ما يُسمع يُصدق . وعليه فالجليل بالإضافة من يجل ٱلله حق جلاله ، ويطيعه فيما أمر بالاتباع

---

(1) لسان العرب ، ج11 ، ص116 .

فيما يجب والامتناع عما يجب الامتناع عنه وتجنب الشبهات ، والإقدام علىٰ فعل الخير والإصلاح في الأرض بما يُرضي ٱلله جلَّ جلاله .

الجليل المطلق هو الذي جلاله دائم ، والجليل بالإضافة هو من طاعته لله دائمة ، والجليل المطلق هو الذي لا يخاف ، والجليل بالإضافة هو الذي يخاف الجليل المطلق حتىٰ يستمد قوته منه فلا يخشىٰ أحداً في الحق ولا لومة لائم . الاسم الجليل متضمن الاسم الكبير والعظيم لما فيه من هيبة وخوف في قلوب الخلق ، ومن معاني الجليل أيضاً الكثير ، ومن ذلك ما ورد في حديث الدعاء ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلاَنِيَتَهُ وَسِرَّهُ » (1) .

والجَلَل الشيء العظيم وهو من الأَضداد في كلام العرب ويقال للكبير والصغير جَلَل ، وقال امرؤ ألقيس لما قُتل أَبوه بِقَتْلِ بَنِي أَسَدٍ رَبَّهُم : (أَلا كُلُّ شيء سواه جَلَل) أَي يسيرٌ هيِّن .

وأَنشد أَبو زيد لأَبي الأَخوص الرياحي :

لـو أَدْرَكَتْـه الخَيْـلُ والخَيْـلُ تَـدَّعـي بِـذِي نَجَـبٍ ومـا أَقْـرَبَـتْ وأَجَلَّـتِ

أَي دَخَلت في الجَلَل وهو الأَمر الصغير ، قال الأَصمعي : (يقال هـٰذا الأَمر جَلَل في جَنْب هـٰذا الأَمر أَي صغير يسير ، والجَلَل الأَمر العظيم وأَما الجَليل فلا يكون إِلا للعظيم ، والجُلَّىٰ : الأَمر العظيم وجمعها جُلَل مثل كُبْرىٰ وكُبَر وفي الحديث : عن أبي هريرة : « يجزئ المصلي مثل مؤخرة الرحل في مثل جلة السوط » (2) . وجاء الحديث بلفظ متغير بعض الشيء في لسان العرب« يَسْتُر المصلّيَ مِثْلُ مُؤَخِرة الرَّحْل في مِثْلِ جُلَّة السَّوْط » أَي في مثل غِلْظِه ، وفي حديث أُبيّ بن خَلَف « إِن عندي فرساً أُجِلُّها كل يوم فَرَقاً من ذرة

(1) صحيح مسلم ، ج 3 ، ص 30 .
(2) فتح الباري لابن رجب ، ج 3 ، ص 314 .

أَقْتُلك عليها فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ بل أَنا أَقْتُلك عليها إِن شاء ٱلله » قال ابن الأَثير أَي أَعلفها إِياه فوضع الإِجْلال موضع الإِعطاء وأَصله من الشيء الجَلِيل .

والجُلل الأَمر العظيم كالجَلَل والجِلُّ نقيض الدِّقِّ والجُلال نقيض الدُّقاق والجُلال بالضم العظيم ، وجَلَّل الشيءُ تجليلاً أَي عَمَّ ، والمُجَلِّل السحاب الذي يُجَلِّل الأَرض بالمطر أَي يعم وفي هـٰذا كمن يقول : (وابِلاً مُجَلِّلاً أَي يُجَلِّل الأَرض بمائه أَو بنباته) .

الاسم الجليل أول ما يلقانا من معانيه أنه صاحب العظمة والكبرياء والعلو والرهبة والإحاطة ، فهو العظيم ، والاسم الجليل وصف ملازم لاسم ٱلله جل جلاله كما هو الحال مع الاسم العظيم الذي يقترن باسم ٱلله عز وجل ، ولأنه صاحب العظمة والكبرياء والعلو فجميع الخلق يخافون غضبه ويتقون عقابه كما أن الأسماء الإلـٰهية تنقسم كما سبق أن بينا قبل ذلك إلىٰ أسماء جمال مثل : الرحمـٰن الرحيم الرءوف الكريم اللطيف وغير ذلك من أسماء تحمل معاني الرحمة والعفو .

وثانياً : من معاني اسم الجليل أنه المحتوي لصفة القوي والرحيم في وقت واحد ، وصفة الرحمـٰن والمنتقم في وقت واحد ، وصفة الرءوف والمهيمن في وقت واحد ، وصفة الجبار والمقيت في وقت واحد ، وهـٰذه الصفات غير متناقضة بل هي صفات إعجاز بيد الواحد الأحد لا شريك له لا إلـٰه إلا هو جل جلاله .

وثالثاً : أسماء تحوي الجمال والجلال والكمال مثل ، ذو الجلال والإكرام الغفور الشكور المحيط الرزاق . والاسم الجليل أسم جامع لصفات المغفرة والعفو مع صفات الجمال والرحمة مع صفات القوة والإجبار ، لذا فالذين يعرفون حقيقة هـٰذا الاسم يعملون وهم مدركون مدىٰ جلال ٱلله فقلوبهم وجلة أي في خشية وخوف دوماً من الجليل .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ (1) . أي يعطون ما أعطوا من الصدقات وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ خائفة من أن لا يقبل منهم وأن لا يقع علىٰ الوجه اللائق فيؤاخذوا به . والمعنىٰ يفعلون من العبادات ما فعلوه وقلوبهم وجلة . والوجول خشوع وطاعة تامة وخوف من غضب ٱلله ، ولهٰذا تكون الطاعة عبادة تامة لله تعالىٰ ، وعملاً صالحاً تكسوه الصدقات وتقديم العون لمن هم في حاجة وبما يحقق جزاء خير من ٱلله جل جلاله .

وعن السيدة عَائِشَةَ أم المؤمنين زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : « سَأَلْتُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ : أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، وَيَسْرِقُونَ ؟ قَالَ : لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُم الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » (2) .

وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَ هَذَا ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف ٱلله تعالىٰ ؟ قال : لا ولٰكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف ٱلله تعالىٰ أن لا يتقبل منه . ولأن كلاًّ بحسابه فمن يعمل صالحاً يلقاه جزاء صالحاً ، ومن يعمل سوءاً ليس له بدٌّ إلا الجزاء عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (3) ، ولهٰذا في كلا الحالتين ٱلله جليل يستوجب العبادة علىٰ جلالته وعظمته وعدله .

وٱلله يطلب من عباده أن يتضرعوا إليه في خوف وشفقة ولا يعتدوا

(1) المؤمنون ، 60 .

(2) سنن الترمذي ج 10 ، ص 454 .

(3) الزلزلة ، 7 ـ 8 .

ولا يفسدوا في الأرض محل الخلافة حتىٰ ينالوا رحمته ويصلوا إلىٰ درجة الإحسان ، وهـٰذا من تجليات الاسم الجليل الذي يبث في النفس الرهبة والخشية والشفقة والمهابة ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) . الخليفة هو الذي يُجل ٱلله حق جلاله في دعائه وتضرعه إليه ، وفي ما يقوم به من عمل صالح في الأرض ، فهو الذي يُصلح ولا يُفسد ولا يسفك الدماء فيها بغير حق ، وهو الذي لا يقول إلا الحق ، ولا يفعل غيره شيئاً ، ولذلك يكون الوريث في الدارين دنيا وآخرة .

وقوله : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ المراد : وادعوه مع الخوف من وقوع التقصير ، في بعض الشرائط المعتبرة في قبول ذلك الدعاء ، ومع الطمع في حصول تلك الشرائط بأسرها ، وفي هـٰذا الأمر تكون الطاعة للجليل المطلق الذي بيده الرحمة وبيده العذاب ، والمؤمن من شدة حرصه علىٰ الاستخلاف في الأرض ودخول الجنة وهو يعلم أنه بشر وأن أباه آدم ﷺ كاد أن يخسر الجنة الواسعة لولا أن رحمه ٱلله بالمغفرة ، فهو بين هـٰذا وذاك يخاف ويخشىٰ وهو يُجل ٱلله ويُعظمه في كل حين ، ولأن الكمال لله وحده فالإنسان يخاف أن يغفل وبغفلته قد يخسر ما يأمل بلوغه في مرضاة الجليل العظيم عز وجل . اللهُمَّ أرضَ عنا ولا تجعلنا من الغافلين عما يُرضي الجليل حتىٰ نفوز في الدارين ونكون من الصالحين الوارثين .

فقوله : ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ؛ أي : أن تكونوا جامعين في نفوسكم بين الخوف والرجاء في كل أعمالكم ، ولا تقطعوا أنكم وإن اجتهدتم فقد أديتم حق ربكم . ويتأكد هـٰذا بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝

---

(1) الأعراف ، 55 ـ 56 .

وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (1) .

يُستمد من الآيات السابقة صفات أربع :

الصفة الأولىٰ : قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾ والإشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف ، فمنهم من قال : جمع بينهما للتأكيد ، ومنهم من حمل الخشية علىٰ العذاب ، والمعنىٰ الذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، ومنهم من حمل الإشفاق علىٰ أثره وهو الدوام في الطاعة ، والمعنىٰ الذين هم من خشية ربهم دائمون في طاعته ، جادون في طلب مرضاته . والتحقيق أن من بلغ في الخشية إلىٰ حد الإشفاق وهو كمال الخشية ، كان في نهاية الخوف من سخط ٱلله عاجلاً ، ومن عقابه آجلاً ، فكان في نهاية الاحتراز عن المعاصي .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾ واعلم أن آيات ٱلله تعالىٰ هي دلائل وجوده ، والإيمان بها هو التصديق بها ، والتصديق بها إن كان بوجودها فذلك معلوم بالضرورة ، وصاحب هـٰذا التصديق لا يستحق المدح ، وإن كان بكونها آيات ودلائل علىٰ وجود الصانع فذلك مما لا يتوصل إليه إلا بالنظر والفكر والعقل الذي يُدرك المعجزات من الكيفية التي بها خُلقت ، وصاحبه لا بد وأن يصير عارفاً بوجود الصانع وصفاته ، وإذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الإقرار باللسان ظاهراً وذلك هو الإيمان ، وهي القاعدة التي يتم بها الإيمان بٱلله تعالىٰ .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾ وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله تعالىٰ لأن ذلك داخل في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾ بل المراد منه نفي الشرك الخفي ، وهو أن يكون مخلصاً

---

(1) المؤمنون 57 ـ 61 .

في العبادة لا يقدم عليها إلا لوجه الجليل تعالىٰ ، والإيمان بآيات ٱلله إيمان به جل جلاله ، ولهـٰذا الإيمان بما جاء به ألله في تقدير الإيمان بذاته العلية .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ معناه يعطون ما أعطوا فدخل فيه كل حق يلزم إيتاؤه سواء كان ذلك من حق ٱلله تعالىٰ : كالزكاة والكفارة وغيرهما ، أو من حقوق الآدميين : كالودائع والديون وأصناف الإنصاف والعدل ، وبين أن ذلك إنما ينفع إذا فعلوه وقلوبهم وجلة ، لأن من يقدم علىٰ العبادة وهو وجل من تقصيره وإخلاله بنقصان أو غيره ، فإنه يكون لأجل ذلك الوجل مجتهداً في أن يوفيها حقها في الأداء . وعليه فالذين يؤتون ما أعطوا فهم المؤمنون حقاً بأن ما آتوه هو في أساسه ليس منهم ، بل هو من الرحمـٰن الرحيم الذي بجلاله يريدهم أن يعطوه طاعة له ومخافة من التقصير في العطاء ، ولهـٰذا فهم يؤتون وهم يؤمنون بأنهم سيجزون الجزاء الأوفىٰ والأوفر من عند الجليل العاطي والكريم المغني .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ الإشفاق يكون من أمرين ، إما الخوف من ترك الواجبات أو الخوف من الإقدام علىٰ المحظورات ، وهـٰذا كقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (1) . وكقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (2) . صدق ٱلله العظيم الذي بذكره تطمئن القلوب وتخشع بالطاعة والعمل الصالح الذي به تُفلح الأرض وتزرع بأفعال الخير حتىٰ تعم الرحمة الأرض ومن عليها .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون وجلون ، والخشية مخافة مع رفعة في الأدب والتقدير للمخشي منه وهو الجليل عز وجل ، والشفقة مخافة مع حرص علىٰ أن لا يحدث فعل لا يرتضيه ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذه

(1) المؤمنون ، 60 .
(2) الحج ، 35 .

من صفات المؤمن الذي سكن الإيمان في قلبه حتىٰ جعله ٱلله خليفة في الأرض يعمل ويصلح ولا يُفسد ولا يسفك الدماء فيها بغير حق . ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي بكتب ٱلله كلها لا يفرقون بين كتبه كالذين تقطع أمرهم بينهم وهم أهل الكتاب . ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ يؤمنون به واحداً أحداً لا شريك له ، فهم الذين يُؤْتُونَ مَا آتَواْ ، أي يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات ولا يبخلون عن العطاء في سبيل ٱلله تعالىٰ . وقرىء (يأتون ما أتوا) بالقصر أي يفعلون ما فعلوا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ خائفة أي لا تقبل منهم لتقصيرهم ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ الرجوع لله مخافة من غضبه ، وطاعة لأمره ، وعرفاناً بوحدانيته ، وتسليماً بما أنزل في الرسالة الخاتمة ، ولهـٰذا هم راجعون إليه في كل أمر وهم وجلون . ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ لأنهم يعرفون النهاية ويؤمنون بأمر الخاتمة وبرغبتهم في الطاعة فيبادرونها وَهُمْ لَهَا سابقون ، لأجل الخيرات سابقون إلىٰ الجنات أو لأجلها سبقوا الناس وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

قال تعالىٰ : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [1] . وَفِي السماء رِزْقُكُمْ ، من سحب ورياح ملقّحة ومخصبة ، ومطر غيث يحيي الأرض الميتة التي فيها الأقوات . وعن الحسن أنه كان إذا رأىٰ السحاب قال لأصحابه : فيه وٱلله رزقكم ، ولـٰكنكم تحرمونه لخطاياكم [2] ، وَمَا تُوعَدُونَ : الجنة : وهي الغاية المطلقة من وراء كل قول حق وفعل حق ، وفي السماء ، المقصود : العلو والرفعة التي مثالها السماوات السبع طباق فوق طباق ، أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبىٰ كله مقدّر مكتوب في السماء . إن هـٰذا لحق ، كما أنك ترىٰ وتسمع ، ومثل

(1) الذاريات ، 22 ـ 23 .

(2) النكت والعيون ، ج 4 ، ص 217 .

ما أنك ههنا . وهـٰذا الضمير إشارة إلىٰ ما ذكر من أمر الآيات والرزق . وعن الأصمعي : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي علىٰ قعود له فقال : من الرجل ؟ . قلت : من بني أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلىٰ فيه كلام الرحمـٰن . فقال : اتل عليّ ، فتلوت (و الذاريات) فلما بلغت قوله تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾ قال : حسبك ، فقام إلىٰ ناقته فنحرها ووزعها علىٰ من أقبل وأدبر ، وعمد إلىٰ سيفه وقوسه فكسرهما وولىٰ ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق ، فالتفتّ فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر ، فسلم عليّ واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : وهل غير هـٰذا ؟ فقرأت : فوربّ السماء والأرض إنه لحق ، فصاح وقال : يا سبحان ٱلله ، من ذا الذي أغضب الجليل حتىٰ حلف ، لم يصدقوه بقوله حتىٰ ألجؤوه إلىٰ اليمين ؛ قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [2] .

في قوله تعالىٰ : ﴿ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ ﴾) وجهان :

أحدهما : أنه الجليل .

الثاني : أنه المستحق للإجلال والإعظام .

---

(1) النكت والعيون ، ج 4 ، ص 217 .

(2) الرحمـٰن ، 62 ـ 78 .

وفي (الإِكْرَامِ) وجهان :

أحدهما : الكريم .

الثاني : ذو الإكرام لمن يطيعه [1] .

فقوله تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ تعاظم وتعالىٰ ربُّ العزة باسمه الرحمـٰن ذي الجلال والإكرام ، أي برحمته يُكرم مخلوقاته ويفيض من عطائه عليها بغيثه ورزقه وفضله علىٰ من خلقهم في أحسن تقويم ، وباسم الرحمـٰن يتبارك المؤمنون المستخلفون في الأرض بإدراكهم اسم ربهم الرحمـٰن ذي الجلال والإكرام . ولذا فهو برحمته يكرم خلقه ، وبجلاله يضفي عليهم البركة ، وبكرمه يرحمهم سبحانه لا إلـٰه إلا هو واحد أحد تبارك وتعالىٰ .

الجليل مالك الملك الواحد القهار ، الذي يكيد الكائدين ويمكر بالماكرين وهو جل جلاله علىٰ كل شيء قدير . قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [2] .

إنها آيات عظام من عظيم جليل ، لو قرأها كافر عن وعي وبضمير وتيقن ، ليس له بدّ إلا أن يسلم وجهه لله رب العالمين ، وعندما يقرأها المؤمن ليس له بد إلا أن يُكَبِّر لنصر ٱلله المبين . قالت عائشة : رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين مقعدين يستطعمان أهل مكة .

ووقفوا بالمغمّس فقال عبد ٱلله بن مخزوم :

أنـت الجليـل ربنـا لـم تـدنـس أنـت حبسـت الفيـل بـالمغمّـس

---

(1) النكت والعيون ، ج 4 ، ص 455 .

(2) الفيل ، 1 ـ 5 .

حبستـــه فـــي هيئـــة المكـــركـــس ومـــا لهـــم مـــن فـــرجٍ ومنفـــسِ [1]

ويوم معركة الحق مع أهل الفيل (طير الأبابيل مع الفيل) بصر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر ، فقال عبد المطلب : إن هـٰذه لطير غريبة بأرضنا ، ما هي بنجدية ولا تهامية ولا حجازية ، وإنها أشباه اليعاسيب ، وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة ، فلما أطلت علىٰ القوم ألقتها عليهم حتىٰ هلكوا ، قال عطاء بن أبي رباح : جاءت الطير عشية فباتت ، ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم .

قال الشاعر :

أيـــن المفـــر والإلـٰـــه الطـــالـــبْ والأَشـــرمُ المغلـــوبُ ليـــس الغـــالـــبْ

يعني بالأشرم أبرهة ، سمي بذلك لأن أرياط ضربه بحربة فشرم أنفه وجبينه ، أي وقع بعضه علىٰ بعض .

وقال أبو الصلت بن مسعود ، وقيل بل قاله عبد المطلب :

إنّ آيـــاتِ ربِّنـــا نـــاطِقـــاتٌ لا يُمـــاري بهـــنّ إلا الكَفُـــور
حَبَـــسَ الفيـــلَ بـــالمغّمـــس حتـــىٰ مَـــرَّ يعْـــوي كـــأنـــه مَعْقـــورُ [2]

« والْجَلِيلُ وَذَلِكَ مِمَّا وَرَدَ بِهِ الأَثَرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَبَرِ الأَسَامِي ، وَمَعْنَاهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، فَإِنَّ جَلالَ الْوَاحِدِ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ إِنَّمَا يَظْهَرُ بِأَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ أَمْرٌ نَافِذٌ لا يَجِدُ مِنْ طَاعَتِهِ فِيهِ بُدًّا ، فَإِذَا كَانَ مِنْ حَقِّ الْبَارِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَلَىٰ مَنْ أَبْدَعَهُ أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ عَلَيْهِ نَافِذًا ، وَطَاعَتُهُ لَهُ لازِمَةً ، وَجَبَ لَهُ اسْمُ الْجَلِيلِ حَقًّا ، وَكَانَ لِمَنْ عَرَفَهُ أَنْ يَدْعُوهُ بِهَذَا الاسْمِ ، وَبِمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ ، وَيُؤَدِّي مَعْنَاهُ . فهُوَ مِنَ الْجَلالِ وَالْعَظَمَةِ ، وَمَعْنَاهُ مُنْصَرِفٌ إِلَىٰ جَلالِ الْقَدْرِ ،

---

(1) تفسير حقي ، ج 2 ، ص 107 .

(2) المصدر السابق ، ص 107 .

وَعِظَمِ الشَّأْنِ ، فَهُوَ الْجَلِيلُ الَّذِي يَصْغُرُ دُونَهُ كُلُّ جَلِيلٍ ، وَيَتَّضِعُ مَعَهُ كُلُّ رَفِيعٍ » [(1)] .

الجليل المطلق ٱلله ، والجليل بالإضافة الخليفة الذي استخلف في الأرض لمنع الفساد وسفك الدماء فيها بغير حق ، وهو الذي لا يشهد زوراً ، وإذا تداين بدين إلىٰ أجل مسمًىٰ يكتبه ، وهو الذي إذا حكم بين الناس يحكم بينهم بالعدل ، وإذا كتب بينهم كتاباً يكتبه بالعدل ، وهم كذلك يفعلون اتقاءً لله تعالىٰ وٱلله بكل شيء عليم . قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [(2)] .

﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ جمع بين الاسم الجليل والنعت الجميل للمبالغة في التحذير أي وليتق المملي دون الكاتب كما قيل لقوله تعالىٰ ﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ ﴾ أي من الحق الذي يمليه علىٰ الكاتب ﴿ شَيْـًٔا ﴾ فإنه هو الذي يتوقع منه البخس خاصة . وأما الكاتب فيتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه البخس ، وإنما شدد في تكليف المملي حيث جمع فيه بين الأمر بالاتقاء والنهي عن البخس لما فيه من

(1) الأسماء والصفات ، البيهقي 1 ، 70

(2) البقرة ، 282 .

الدواعي إلىٰ المنهي عنه فإن الإنسان مجبول علىٰ دفع الضرر عن نفسه وتخفيف ما في ذمته [1] .

الجليل هو الذي بجلاله يملك الملك ويؤتي الملك من يشاء من عباده ، وينزعه ممن يشاء كيف يشاء ، بيده الملك لا إلـٰه إلا هو جل جلاله بعظيم قدسيته ، إنه هو الذي يُعز من يشاء ويُذل من يشاء بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ ﴾ أصله : يا ٱلله ، فالميم عوض عن حرف النداء ولذلك لا يجتمعان وهـٰذا من خصائص الاسم الجليل وشددت لقيامها مقام حرفين . وقيل أصله يا ٱلله أمنا بخير أي اقصدنا به فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته ﴿ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي مالك جنس الملك علىٰ الإطلاق ملكاً حقيقياً بحيث يتصرف فيه كيف يشاء له إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً وتعذيباً وإثابةً من غير مشارك ولا ممانع ، وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية لأنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء علىٰ حد اللهُمَّ . ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ ﴾ بيان لبعض وجوه التصرف الذي يستدعيه مالكية الملك وتحقيق لاختصاصها به تعالىٰ وكون مالكية الغير بطريق المجاز كما ينبئ عنه إيثار الإيتاء الذي هو مجرد الإعطاء علىٰ التمليك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة . ﴿ مَن تَشَآءُ ﴾ إيتاءه إياه ﴿ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ نزعه منه فالملك الأول حقيقي عام ومملوكيته حقيقية والآخران مجازيان خاصان ونسبتاهما إلىٰ صاحبهما مجازية . ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ أن تعزه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ أن تذله في إحداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة

---

(1) تفسير حقي ، ج 2 ، ص 143 .

(2) آل عمران ، 26 .

﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ وتعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أي بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد من غيرك تتصرف فيه قبضاً وبسطاً حسبما تقتضيه مشيئتك ، وتخصيص الخير بالذكر لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلىٰ المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة ، فقال : بيدك الخير تؤتيه أولياءك علىٰ الرغم من أعدائك ، ولأن كل أفعال ٱلله تعالىٰ من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه . روي أن رسول ٱلله ﷺ لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعاً وجميع من وافىٰ الخندق من القبائل عشرة آلاف وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالفيل العظيم لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان إلىٰ رسول ٱلله ﷺ يخبره فجاء عليه الصلاة والسلام وأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعتها مقدار ثلثها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها كأنه مصباح في جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه المسلمون وقال : « أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ». ثم ضرب الثانية، فقال : «أضاءت لي منها القصور الحمر في أرض الروم» . ثم ضرب الثالثة فقال : «أضاءت لي قصور صنعاء وأخبرني جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن أمتي ظاهرة علىٰ الأمم كلها فابشروا»» . فقال المنافقون : ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرىٰ وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تَبَرَّزوا، فنزلت الآية : ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الإعزاز، والإذلال » (1) .

الجليل جل جلاله هو الذي يؤتي الملك من يشاء ، أي هو الذي يضفيه علىٰ من يراد له أن يكون خليفة له ، ومع أنه يضفيه عليه ، إلا أن من يضفى الحكم إليه يكون في حالة اختبار ، فتكون نتيجة الفوز أو السقوط ، فإن عدل

---

(1) تفسير حقي ، ج 3 ، ص 410 .

بين الناس إذا ما دعي لأن يحكم بينهم فقد فاز بما استخلف به في الأرض ، وإن ظلم ولم يعدل سقط في الامتحان ولا يعد مع تعداد الخلفاء في الأرض وذلك لإفساده في الأرض بما ارتكب من مظالم .

ولأن الجليل بمقام عدله جليل ، فهو من باب عدله وجلاله ينزع الملك ممن يشاء ، ويؤتيه لمن يشاء ، أي ينزعه من الظالم والمُفسد في الأرض وسافك الدماء فيها بغير حق ، ويؤتيه لمن يُراد له أن يكون خليفة ، فإن اقتدىٰ بخير سلف كان خليفة ، ومن لم يقتد سقط في الامتحان وسينزع الجليل منه الحكم ويؤتيه لا محالة لمن يشاء إلىٰ أن تتم مشيئة الجليل علىٰ العدل ومشيئة الرحمـٰن علىٰ الرحمة ومشيئة الملك في ملكه لا إلـٰه إلا هو جل جلاله .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (1) .

قال المولىٰ أبو السعود وليس هـٰذا الكلام منه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أول ما خاطبهم اثر دعوتهم إلىٰ التوحيد بل إنما قاله بعد ما نصحهم وذكرهم بنعم ٱلله فلم يقبلوا كلامه وكذبوه ألا يرىٰ إلىٰ ما في سورة هود من قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ إلىٰ آخر الآيات ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ ﴾ استئناف كأنه قيل ما هـٰذه البينة فقال هـٰذه ناقة ٱلله أنبهكم عليها أو أشير إليها في حال كونها آية وعلامة دالة علىٰ صحة نبوتي وإضافة الناقة إلىٰ الاسم الجليل لتعظيمها كما يقال بيت ٱلله أو لمجيئها من جهته تعالىٰ بلا أسباب معهودة ووسائط معتادة ، يعني كانت بالتكوين من غير اجتماع ذكر وأنثىٰ ولم تكن في صلب ولا رحم ولم يكن للخلق فيها سعي ولكم بيان لمن هي آية له وخصوا بذلك لأنهم هم الذين طلبوها وينتفعون بها لو تركوا العناد وطلبوا الاهتداء

(1) الأعراف ، 73 .

بالدليل والبرهان ، ﴿ فَذَرُوهَا ﴾ تفريع علىٰ كونها آية من آيات ٱلله تعالىٰ فإن ذلك مما يوجب عدم التعرض لها أي دعوها ﴿ تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ جواب الأمر أي الناقة ناقة ٱلله والأرض أرض ٱلله فاتركوها ترتع ما ترتع في أرض الحجر من العشب فليس لكم أن تحولوا بينها وبينه وعدم التعرض للشرب للاكتفاء عنه بذكر الأكل ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ الباء للملابسة أي لا تمسوها ملتبسين بسوء ولا تتعرضوا لها بشيء مما يسوءها أصلاً من قتل أو ضرب أو مكروه إكراما لآية ٱلله تعالىٰ ، والسوء اسم جامع لأنواع الأذىٰ ، ويجوز أن تكون الباء للتعدية وفيه مبالغة حيث نهىٰ عن المس الذي هو مقدمة الإصابة ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ جواب النهي (1) .

فالخليفة من أطاع أمر ٱلله ، وبعض البشر هم الذين لم يكن للخلافة حظ لهم فيها وهم الذين عقروا الناقة الآية فكانت الدمدمة عقاباً لهم علىٰ معصيتهم الأمر المطلق من الجليل المطلق جل جلاله .

إن المعجزة للعوام أن يخرج لهم من حجارة الصخرة ناقة عشراء والمعجزة للخواص أن يخرج لهم من حجارة القلب ناقة السر بسقب سر السر وهو الخفي وناقة ٱلله التي تحمل أمانة معرفته وتعطىٰ ساكني بلد القالب من القوىٰ والحواس لبن الواردات الإلـٰهية ، فذروها تأكل في أرض ٱلله أي ترتع في رياض القدس وتشرب في حياض الأنس ولا تمسوها بسوء مخالفات الشريعة ومعارضات الطريقة فيأخذكم عذاب أليم بالانقطاع عن مواصلات الحقيقة (2) .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ

(1) تفسير حقي ، ج 4 ، ص 329 .

(2) تفسير حقي ، ج 4 ، ص 329 .

سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] . يستنبط من هـٰذه الآية الكريمة أن الخلفاء في الأرض هم الذين يؤمنون بأسمائه الحسنىٰ وهم الذين يدعونه بها ، وهم الذين يعلمون العاقبة بما يؤمنون ، وبما يكفر الضالون الملحدون في أسمائه جل جلاله .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ تأنيث الأحسن أي الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لأنها دالة علىٰ معاني هي أحسن المعاني وأشرفها والمراد بها الألفاظ الدالة الموضوعة علىٰ المعاني المختلفة دل علىٰ أن الاسم غير المسمىٰ ولو كان هـٰذا المسمىٰ لكان المسمىٰ عدد الأسماء وهو محال .

قال الإمام الغزالي : « الحق إن الاسم غير التسمية وغير المسمىٰ فإن هـٰذه ثلاثة أسماء متباينة غير مترادفة (فادعوه بها) فسموه بتلك الأسماء واذكروه بها ، وفي الحديث « إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة هو ٱلله الذي لا اله إلا هو الرحمـٰن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القويُّ المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيىٰ المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور » [2] .

---

(1) الأعراف ، 180 .

(2) تفسير حقي ، ج 4 ، ص 374 .

هٰذه الأسماء التي سمىٰ بها ٱلله نفسه ووصف بها أفعاله لا إلٰه إلا هو ، إنه الجليل بهٰذه الأسماء الحسان والصفات العظام ، ولأنه الكامل بالتمام ، فهو الجليل ، ولأنه ٱلله الكامل والمنزه عن النقيصة فهو الجليل جل جلاله . أما الجليل بالإضافة فهو الخليفة الذي يتخذ صفاته الخاصة من صفات ٱلله ويتخذ أفعاله الخاصة مما يُرضي ٱلله .

وعليه نحن نفرق بين من يتخذ صفاته من صفات ٱلله ، وبين من يتخذ صفاته من صفات ما خلق ٱلله ، والفرق كبير بين هٰذا وذاك ، فهٰذا من عند الخالق الكامل ، وذاك من عند المخلوق الناقص ، مما يجعل الفرق بيِّناً بين هٰذا وذاك .

بناء علىٰ ما تقدم : لا كمال إلا لله ، ولا كمال للناس إلا لمن اتخذ صفاته وأفعاله من صفات وأفعال ٱلله الكاملات الحسان . ومع أن الإنسان بإمكانه أن يكون علىٰ درجات الكمال إلا أنه لن يكون علىٰ كمال ٱلله جل جلاله ، ولٰكن يكون كماله علىٰ درجة رضا ٱلله تعالىٰ ، التي بها ينال الوصف بأنه خليفة ٱلله في خلقه علىٰ أحسن تقويم ، حتىٰ بلغ هٰذا الحسن التقويمي الذي به كان علىٰ درجة الكمال من رضا ٱلله عليه .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (1) .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ﴾ عندهم ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ من هيبة الجلال وتصور عظمة المولىٰ جل جلاله ، وهٰذا الخوف لازم لأهل كمال الإيمان سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً

(1) الأنفال ، 2 ـ 3 .

مرسلاً أو مؤمناً تقياً نقياً وهـٰذا بخلاف العقاب الذي يحصل بالمعصية .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ ﴾ قرئت بروية ووضوح بيِّن مع دقة وافية وتوحُّد وجداني مع المقروء ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ آيات ٱلله يعني : القرآن أمراً ، ونهياً ، وغير ذلك. ﴿زَادَتْهُمْ ﴾ تلك الآيات والإسناد مجازيٌّ ﴿ إِيمَانًا ﴾ أي يقيناً وطمأنينة نفس فإن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين .

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ علىٰ مالكهم ومدبر أمورهم الخاصة يفوضون أمورهم ولا يخشون إلا الجليل جل جلاله ولا يرجون إلا إياه جل جلاله .

فالخوف من الصفات التي يتحلىٰ بها الخليفة ولـٰكنه الخوف من ٱلله فقط لذا فمن يخاف ٱلله يخاف منه كل شيء ، ومن لا يخاف ٱلله لا يخاف من أن يفعل أي شيء في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع ، أي تتساوىٰ عنده الأعمال الصالحة مع الأعمال الطالحة ، وللخليفة الأسوة الحسنة في سيد الخلفاء سيدنا رسول ٱلله ﷺ فهو الأخوف من ٱلله والأتقىٰ له عز وجل ، لذا فالأكثر تقوىً هو الأكرم عند ٱلله الأعلىٰ بين العباد ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ من آدمَ وحواءَ أوْ خلقنَا كُلَّ واحدٍ منكُم من أبٍ وأمٍّ الكُلُّ سواءٌ في ذلكَ فلا وَجْهَ للتفاخرِ بالنسبِ ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ﴾ الشَّعبُ الجمعُ العظيمُ المنتسبونَ إلىٰ أصلٍ واحدٍ وهو يجمعُ القبائلَ ، والقبيلةُ تجمعُ العمائرَ ، والعَمارةُ تجمعُ البطونَ ، والبطنُ يجمعُ الأفخاذَ ، والفَخِذُ يجمعُ الفصائلَ ، فخُزَيمةُ شعبٌ وكنانةُ قبيلةٌ وقريشٌ عمارةٌ وقُصَي بطنٌ وهاشمٌ فخذٌ والعباسُ فصيلةٌ . وقيلَ : الشعوبُ بطونُ العجمِ والقبائلُ بطونُ العربِ ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ ليعرفَ بعضُكم بعضاً وتتبادلوا ما لديكم من معارف تفيد

(1) الحجرات ، 13 .

بعضكم بعضاً ، ولا تستهزؤا ببعضكم فكلكم لآدم وآدم من تراب ، وجميعكم خلقتم في أحسن تقويم وجميعكم خلقتم وأنتم في حاجة لبعضكم بعضاً فتناسبوا وتصاهروا واعملوا صالحاً يفيدكم في الدار الآخرة ، واعلموا أنكم في الدار الدنيا لن تكونوا مخلدين ولا خالدين . وبحسب الأنسابِ فلا يعتزَىٰ أحدٌ إلىٰ غيرِ آبائِه ، لا لتتفاخرُوا بالآباءِ والقبائلِ وتَدَّعُوا التفاوتَ والتفاضلَ في الأنسابِ وقُرِىء : (تتعارفُوا) عَلىٰ الأصلِ و(لِتّعارفُوا) بالإدغامِ و(لتعرِفُوا) ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ تعليلٌ للنَّهي عنِ التفاخر بالأنسابِ المستفادِ من الكلامِ بطريقِ الاستئنافِ التحقيقيِّ كأنَّه قيلَ إنَّ الأكرمَ عندَهُ تعالَىٰ هُو الأتقَىٰ فإنْ فاخرتُم ففاخِروا بالتَّقوىٰ وقُرِىء بأَنَّ المفتوحةِ عَلىٰ حذفِ لامِ التعليلِ كأنَّه قيلَ : لِمَ لا نتفاخرُ بالأنسابِ؟ فقيلَ : لأَنَّ أكرمَكُم عندَ ٱلله أتقاكُم لا أنسبُكم فإنَّ مدارَ كمالِ النفوسِ وتفاوتِ الأشخاص هُو التَّقوىٰ ، فمَنْ رامَ نيلَ الدرجاتِ العُلاَ فعليهِ التَّقوىٰ قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ « مَنْ سَرَّهُ أنْ يكونَ أكرمَ النَّاسِ فليتقِ ٱلله » وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ « يَا أيُّها الناسُ إنَّما الناسُ رجلانِ مؤمنٌ تقيٌّ كريمٌ عَلىٰ ٱلله تعَالَىٰ وفاجرٌ شقيٌّ هينٌ علىٰ ٱلله تعَالَىٰ » (1) . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بكُم وبأعمالِكم ﴿ خَبِيرٌ ﴾ ببواطنِ أحوالِكم (2) .

﴿ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾ أي : إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضُكم نسبَ بعض ، ويعرف بعضكم ثقافة بعض وعادات بعض حتىٰ تستفيدوا معرفة الأفضل والجيِّد والحسن الذي به تستخلفون في الأرض وترثون الجنة من بعدها .

ثم ذكر الخصلة التي يفضل بها الخليفة ، ويكتسب الشرفَ والكرمَ عند ٱلله ، فقال : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ وذلك لأن مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوىٰ ، فمَن رام نيل الدرجات العلا والفوز بالجنة

---

(1) تفسير أبي السعود ، ج 6 ، ص 188 .

(2) المصدر السابق ، ص 188 .

فعليه أن يكون الخليفة بإيمانه الذي لا يتزعزع بأن ٱلله واحد أحد لا شريك له ، وأن محمداً رسول ٱلله وخاتم النبيين صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً ، وإن فعل الخير والإصلاح في الأرض هو الذي يحقق الفوز في الدارين والنجاة من النار .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [1] . العلماء هم الذين يُدركون الحق هو كما هو ، وهم الذين بإدراكهم له ، يسلمون وجوههم إليه ، وهم الذين يعملون عل إعلاء كلمته في الأوساط غير العالمة بالحق الذي تمكنوا من إدراكه ، ولهٰذا فإن ٱلله بجلاله المطلق لا يخاف أحداً ولا يخشىٰ أحداً ، ولٰكنه يُقدِّر العالم بما علم وعمل ، وإن علم العالم ولم يخش ٱلله فيما علم ليكون من خلفائه في الأرض يكون ضلاله كبيراً ، وهٰذه معيبة كبيرة علىٰ من يعلم بالحق ولا يعمل به ، وإن عاد وحاد عن انحرافه بمبلغ العلم يجد ٱلله عزيزاً غفوراً .

والخوف علىٰ مراتب ثلاث : الخوف ، والخشية ، والهيبة :

أولاً : فالخوف من شرط الإيمان وقضيته : فمن يولي أمره لأحد يخافه إن لم يكن تقياً ، ولهٰذا الذين يولون أمرهم للشيطان بطبيعة الحال سيخافونه ، وهٰكذا من يولي أمره لملك أو سلطان بالضرورة يخافه ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [2] . أما من يولي أمره لله فلا يخاف أحداً وٱلله لا يظلم أحداً مصداقاً لقوله

(1) فاطر ، 28ـ30 .

(2) آل عمران ، 175 .

تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ (1) .

ثانياً : الخشية من شرط العلم ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ .

ثالثاً : الهيبة من شرط المعرفة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (2) .

والخوف علىٰ ضربين : رهبة ، وخشية .

فصاحب الرهبة يلتجئ إلىٰ الهرب إذا خاف ، وصاحب الخشية يلتجئ إلىٰ الرب . وعليه من خاف من شيء هرب منه ، ومن خاف من ٱلله عزَّ وجل هرب إليه (3) .

بناء علىٰ ما تقدم فإن الخليفة لا يخاف الحق ، بل يخاف الكذب فلا يكذب ، ولا يخاف العدل بل يخاف الظلم فلا يظلم ، ولا يخاف الزواج فيتزوج ، ولـٰكنه يخاف الزنا فلا يزني ، ولا يخاف الإصلاح بل يخاف الفساد فلا يُفسد ، ولأنه يخاف الكفر آمن ، ولا يخاف الكيد والمكر من الماكرين فهو مولي أمره لمن آمن به وبما آمن من قوله جل جلاله : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾ (4) ، وقوله

(1) النساء ، 40 .
(2) آل عمران ، 28 .
(3) الرسالة القشيرية ، ج 1 ، ص 59 .
(4) الطارق ، 13ـ17 .

تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [1] .

وعليه الجليل صفة المولىٰ عز وجل ، وهو نعت إلـٰهي يملأ القلوب مهابة وتعظيماً ، وبه يظهر اسم الجليل تبارك وتعالىٰ وهو من أعجب صفات ٱلله تعالىٰ للمتأمل فيها فإنه ليس كمثله شيء ، فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [2] ، وهـٰذا تنزيه لله خالق الخالق والقوة والغلبة عما ينعتونه به من المفتريات ، فهو مالك العزة والغلبة علىٰ الإطلاق ، وتعالىٰ وتنزه عما يصفونه به مما لا يليق بجناب كبريائه وجلاله ، وذلك لأن أهم ما يعني المخلوق العاقل معرفة إلـٰه الكون علىٰ قدر استيعاب العقل البشري ، وأقصىٰ ما يمكن معرفته والوقوف عليه من صفات ٱلله تعالىٰ ثلاثة أنواع :

أولها : التسبيح تنزيهاً وتقديساً عن كل ما لا يليق بصفات جلال ٱلله تعالىٰ .

والثاني : وصفه بكل ما يليق بالذات الإلـٰهية الذي يجمعه لفظ ربُّ العزّة ، وهو ما يدل علىٰ الاستغراق والشمول لأية عزة كانت ولأي مخلوق كان له عزة ، وفيها كمال القدرة والحكمة والرحمة .

والثالث : أنه منزه عن الشريك والنظير والمثيل وهي كلمة محتوية علىٰ أقصىٰ الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إلـٰه الكون ، وسبحان ربك رب العزة في غاية التمجيد لله تعالىٰ ، وهو من أعلىٰ درجات الجلال له سبحانه .

« فمن وصفه إنما وصف نفسه ولا يعرف منه إلا نفسه لأن رب العزة لا يعينه وصف ولا يقيده نعت ولا يدل علىٰ حقيقته اسم خاص وإن يكن الحكم ما ذكرناه فما هو رب العزة ، فإن العزيز هو المنيع الحمىٰ ومن يوصل إليه بوجه

---

(1) آل عمران ، 54 .

(2) الصافات ، 180 .

ما من وصف أو نعت أو علم أو معرفة فليس بمنيع الحمىٰ ولذلك عم بقوله سبحان ربك رب العزة عما يصفون ولحضرة الجلال السبحات الوجهية المحرقة ولهـٰذا لا يتجلىٰ في جلاله أبداً لـٰكن يتجلىٰ في جلال جماله لعباده فبه يقع التجلي فيشهدونه مظهر ما ظهر من القهر الإلـٰهي في العالم ، قال الشاعر :

إن الجليل هو الذي لا يعرف وهو الذي في كل حال يوصف

فهو الذي يبدو فيظهر نفسه في خلقه وهو الذي لا يعرف (1)

فلجلال الجليل يقوم القائمون ويصوم الصائمون خشية من ٱلله وهيبة له حيث قال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ (2) فهـٰؤلاء الذين ملأ الإيمان قلوبهم هيبة من ٱلله الجلية وخشية منه ، فأعلنوا ذلك بألسنتهم ضارعين إلىٰ ٱلله ربنا إننا آمنا استجابة لدعوتك فاعف عن ذنوبنا ، واحفظنا من عذاب النار ، وهم الذين يتحملون المشقة في سبيل الطاعة وتجنب المعصية واحتمال المكروه في أقوالهم وأفعالهم ونياتهم ، المداومون علىٰ الطاعة في خشوع وضراعة ، الباذلون ما يستطيعون من مال وجاه وغيره في وجوه التأمل والتفكير في عظمة الخالق ، لذلك فهم في تسبيح وتكبير وتهليل ، تنزيهاً له عن الصفات التي لا تليق بجلاله ، و هـٰذا هو الذي يعطيه حكم الجلال بما يسكن في قلوب خلقه من مهابته سبحانه وتعالىٰ . والجلال أيضاً نقف عليه في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (3) القدر هو التعظيم لله الجليل والمراد أنهم ما عظموا ٱلله حق

(1) الفتوحات المكية 4 ، 243 .
(2) آل عمران ، 16 ـ 17 .
(3) الزمر ، 67 .

تعظيمه حيث جعلوا له شريكاً بما لا يليق بشأنه العظيم ، فهم لم يقدروا عظمته تعالىٰ في أنفسهم حق عظمته مهابة منه ووقاراً له ، وإن كان هٰذا قد بدر منهم إما لمعصيتهم وإما لعدم إدراكهم ، فٱلله تعالىٰ لا يُعرف حق المعرفة بحسب كنهه ، ولٰكن تتعلق به تلك المعرفة بقدر عقولنا ، وعلىٰ هٰذا فالمقصود أنهم ما عرفوا ٱلله حق معرفته بحسبهم لا بحسب ٱلله ، إذ لو عرفوه بحسبهم ما أضافوا إليه الشريك والولد ، تعالىٰ ٱلله الجليل عما يقولون علوّاً كبيراً ، فهم لم يعرفوا ٱلله حق معرفته وما وصفوه حق وصفه وما عظموه حق تعظيمه ، فمن اتصف بتمثيل أو جنح إلىٰ تعطيل حاد عن جادة الحق ، وانحرف عن الطريقة الحسنىٰ ، فوصفوا الحق بالأعضاء وتوهموا في نعته الأجزاء فما قدروا ٱلله حق قدره ، وإظهار قدر الجليل بأن الأرض جميعاً مقبوضة له يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، أي في ملكه وتصرفه من غير منازع يتصرف فيها تصرف المالك في ملكه ، وهٰذا غاية العظمة وكمال القدرة في الوقوف علىٰ هيبة الجليل من قبل الخلق .

والخليفة الذي ملأ قلبه مهابة الجليل ، فإنه لا يفعل غير الحق ولا يقدم علىٰ غير الخير ولا يسعىٰ في غير الصلاح ، حتىٰ وإن ابتلي ونزلت به النوازل ، فهو يعلم أن هٰذا البلاء أو تلك النازلة إنما هي اختبار من الجليل ، فهل سيحافظ علىٰ هيبته ووقاره وجلاله الذي كساه إياه الجليل فيما ابتلاه به ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ يبتلي النبيين والصديقين والخلفاء والشهداء والصالحين ، وليس بلاؤه لهٰؤلاء دليلاً علىٰ سخطه عليهم أو عدم رضاه عنهم ، ولٰكن ذلك كرامة لهم وزيادة في أجورهم .

إن من عظمة ٱلله وجلاله وما يعرفه الخليفة ومن تخلق بأخلاق الجليل وصفاته النسبية هم الخلفاء الذين تنكسر قلوبهم هيبة وتمتلئ صدورهم رهبة من الجليل جل جلاله ، فإذا ذكروا عظمة ٱلله انكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم وطاشت أحلامهم وعقولهم فزعاً من ٱلله وهيبة له ، فإذا عادوا استبقوا إلىٰ ٱلله

بالأعمال الزاكية ، يعدون أنفسهم مع الظالمين وإنهم لهم الأبرار ، ومع المقصرين وإنهم هم الأتقياء ، ولـٰكنهم لا يستكثرون لله عز وجل الكثير ، ولا يرضون له القليل ، ولا يمنون عليه بالأعمال ، فهم حيث تراهم خائفون وجلون من جلال ٱلله وعزته ، فمن أخذ بهـٰذه الصفات فهو الجليل بالإضافة ، وهو الخليفة الذي استخلفه ٱلله تعالىٰ في أرضه . فهـٰؤلاء هم الخلفاء الذين آمنوا بٱلله رغبة ورهبة ، رغبة فيما وعد الذين آمنوا ، ورهبة مما أوعد الذين كفروا ، لذلك فهم قلوبهم وجلة كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [1] . إن المؤمنين حقّاً وصدقاً هم الخلفاء الذين يستشعرون دائماً الخوف من هيبة ٱلله وجلاله ، ويطمعون بما عنده بطاعته ، فإذا ذكر سبحانه فزعت قلوبهم وجلة ، وامتلأت منه هيبة ، ولذا كلما تذكروا جلال ٱلله تعالىٰ ازداد إيمانهم رسوخاً ، وازدادوا لله إذعاناً وعلماً ، ولا يعتمدون إلا علىٰ ٱلله ، ولا يهابون سواه ، ولا تأخذهم في غيره لومة لائم .

فالخلفاء هم أصحاب الإيمان التام المخلصون فيه ، لذلك تراهم إذا ذكر ٱلله عندهم وجلت قلوبهم من هيبة الجلال وتصور عظمة المولىٰ التي لا تزال ساكنة في نفوسهم ، وهـٰذا الخوف لازم لأهل كمال الإيمان سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً أو مؤمناً تقياً نقياً أو خليفة ٱلله في أرضه ، ويكون ذلك ملازماً لهم هيبة من ٱلله وجلاله ، وهـٰذا بخلاف الذي يخاف العقاب فإنه لا يحصل بمجرد ذكر ٱلله ، بل مما ارتكب من المعصية ، وذكر عقاب ٱلله انتقاماً من العصاة ، يجعلهم يخافون من جرّاء ما ارتكبوا من الذنوب ، وفرق كبير بين من يهم بمعصية فيقال له اتق ٱلله فينزع عنها خوفاً من عقابه ، وبين من ينزع بمجرد ذكره من غير أن يذكر هناك ما يوجب النزع من صفاته وأفعاله

---

(1) الأنفال ، 2 .

استعظاماً لشأنه الجليل وتهيباً منه .

فالخليفة عندما يتحلىٰ بهـٰذه الصفة يكون شهماً شجاعاً ، جريئاً ، بعيد الهمة ، نافذ العزيمة ، قوي الشكيمة ، لبيباً ، جواداً ، حازماً ، وتظهر فيه نباهة القدرة وجلالة النفس ، وسمات الخلافة التي ارتضاها الجليل لخليفته ، مما لا يتصف به الآخرون الذين يعجزون عن حمل الأمانة التي أمر بها ٱلله عباده المؤمنين الذين يرثون الأرض . فالجليل بالإضافة مثلما يحمل صفات الهيبة والوقار ، كذلك يحمل من الذكاء والنبل والفطنة والتؤدة ، ما يكون بها متممات ما يشتغل به الخلفاء مما هم مكلفون به ، لذلك فهو يسعىٰ لنشر الفضيلة والدعوة إلىٰ الخير بما أمر ٱلله به الخلفاء من إقامة الدين للناس فيحتمل الكبير والصغير وما يصيبه من أذىٰ فهو يصبر له ابتغاء مرضاة ٱلله ، ولهـٰذا نراه عظيم الهيبة جليلاً ، كثير المروءة واسع الصدر ، كثير الجلال والوقار محافظاً علىٰ مودة الناس وقضاء حوائجهم ، دائم التفقد لهم حريصاً عليهم . فٱلله سبحانه وتعالىٰ أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق رحمة بالمؤمنين وخوفاً عليهم وهو سيد الخلفاء عليه الصلاة والسلام لحرصه علىٰ أمته حيث قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (1) فٱلله تعالىٰ خاطب الناس بأرقّ خطاب حيث أن هـٰذا الرسول الخليفة الذي جاءكم أيها الناس ، هو رسول ولـٰكنه من البشر مثلكم في تكوينه ، غير أنه يشق عليه ما يصيبكم من الضرر ، وهو حريص علىٰ هدايتكم ، ولذلك كان عظيم العطف عليكم والرحمة بكم .

إن ٱلله يزرع الهيبة والجلال بالرحمة في قلب من يشاء من عباده صغيراً أو كبيراً ، وتظهر علىٰ خلقه من خلال أفعالهم وأقوالهم وتصرفاتهم ، فمتىٰ كانت في القلب ظهرت علىٰ اللسان ولا تكون المهابة من قبل السن والشيبة ولا طول

(1) التوبة ، 128 .

التجربة ، وإذا جعل ٱلله تعالىٰ عبده مهيباً جليلاً يهابه الصغير ويجله الكبير عند الصبا لم تسقط منزلته عند الكبر ، فيقبل علىٰ ربه مستغيثاً به متضرعاً إليه ، فالخليفة يكون من جلال ٱلله وخيفته ، للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم ولياً وللأرملة قيماً ، لما في صدره هيبة من الجليل ، ومخافة منه من أجل رضوانه جل جلاله . فالخليفة طالما أنه اتصف بصفات الجليل النسبية فهو عاقل ، فاضل ، حسن السياسة ، كثير الإصابة ، شديد الهيبة ، بعيد الهمة ، ثاقب الرأي ، محب للفضائل وأهلها ، باذل في مواضع العطاء ، مانع في أماكن المعصية ، ناظر في عواقب الأمور ، وهو ثقة صدوق شديد الورع ، عظيم المهابة ، وله مع ٱلله جانب كبير كثير الذكر دائم المراقبة والفكر ، وهٰذا دأبه علىٰ الدوام . ويحاذر الرياء ويكون مع مسايرته للناس وبشاشته ومخاطبته لهم علىٰ قدر عقولهم عظيماً جليلاً في نفوسهم وقوراً محتشماً ذا جلال وجمال ، وتكون الهيبة فيه مقرونة بالورع ، فمن قل ورعه قلت هيبته ، ويكون سكوته فكراً ونطقه ذكراً وكلامه عبراً ، لأن سقطات الكلام تذهب الهيبة ، وأقل ما في الكلام من الزلل سقوط هيبة الرب سبحانه وتعالىٰ من القلب ، والقلب إذا عري من الهيبة عري من الإيمان ، ومن تمام أخلاق الخليفة أن يكون شديد الهيبة ، رزين المجلس ، وقوراً صامتاً ، بطيء الالتفات ، قليل الإشارات ، ساكن الحركات ، لا يصخب ولا يغضب ، ولا يبهر في كلامه ، ويكون كلامه في علم وأدب وثروة وعفة ، ولم يزل يتخلق بمكارم الأخلاق ويسمو إلىٰ معالي الأمور حتىٰ تبعد همته ، ويشتد أمره ، ويعلو صوته ، ويكون عزيزاً في الناس ، فيلقي ٱلله تعالىٰ عليه الهيبة ، وبها يكون جليلاً . وعندما يتحلىٰ الخليفة بهٰذه الأخلاق فإن ٱلله الجليل سيطوقه بالمحبة من الناس ، ويشرح له صدره ، فيسمع كل شيء ، ويقوي له فهمه فيفقه كل شيء ، ويطلق له لسانه فينطق بكل شيء ، ويفتح له سمعه فيعي كل شيء ، ويمد له بصره فينقد كل شيء ، ويشد له ركنه فلا يغلبه شيء ، ويقوي له قلبه

فلا يروعه شيء ، ويحفظ له عقله فلا يعزب عنه شيء ، ويبسط له ما بين يديه فيسطو فوق كل شيء ، ويشد له وطأته فينهدّ له كل شيء ، ويلبسه الهيبة فلا يهولنه شيء ، ويسخر له النور ويهديه به ، فهـٰذا حجاب من الجليل المطلق يكسو به الجليل بالإضافة ليكون خليفته في أرضه ، وهـٰذه الجلالة التي هو في تعظيمها علىٰ نورٍ وهدىً من ربه ، وعندما يعلم الناس ما هو عليه من هـٰذه الصفات الجلالية ، يسارعون إلىٰ إجابة دعوته حين تتضح لهم أدلة الصواب ، فيفوضون الأمر إليه لأنهم وثقوا من عدله ، والبشر من مهابته قد أمنت من الوجل ، والنفوس الأبية قد رضيت خلافـته من غير مهل ، فيرد ٱلله به مثيري الفتنة ، وتظهر الألفة والمودة من سرائر الذين التفوا حوله ، وقد أنزل ٱلله عليه ناموس المهابة والجلال ، وفوض إليه ما ولاه ٱلله من أمور الخلافة ، وأسند إليه مصالح عباده المؤمنين ، ليقيم علىٰ أساس أحكامه دعائم الدين القويم ، وتسير الخلائق علىٰ منهاج طريقه المستقيم ، وتحسن إن شاء ٱلله برعايته عاقبة الناس كما أصبحت قلوبهم به راضيةً مرضية ، فإذا صار هـٰكذا كان خليفة ٱلله في أرضه ويده يد الملك فكل من بايعه فإنما بايع ٱلله يد ٱلله فوق أيديهم وٱلله ذو الفضل العظيم ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [1] لقد أراد قارون أن يلبس ثوب الجليل تكبراً علىٰ ٱلله وعلىٰ الناس ، غروراً بنفسه وماله ، وقد أعطاه ٱلله كنوزاً زاخرة بالأموال ، بلغت مفاتيحها من الكثرة بحيث يثقل حملها علىٰ الجماعة الأقوياء من الرجال ، وحين اغتر بنعمة ٱلله عليه وكفر بما نصحه قومه عندما نهوه علىٰ عدم الاغترار بالمال والملك ، حيث فتن بهـٰذا المال وأخذته الفرحة في زينة الحياة الدنيا بما يأخذ من زينة ولباس ونسي شكر الجليل الذي أنعم عليه هـٰذه النعم ، فٱلله الجليل لا يرضىٰ عن المغرورين المفتونين الذين اغتروا بما أعطاهم ٱلله فأصبحوا من المتكبرين المتعالين ، فالذي يريد أن يكون جليلاً ، إذا أنعم ٱلله عليه بنعمه يجعل نصيباً مما آتاه ٱلله في سبيل الخير من الصدقات ومساعدة المحتاجين في تقىً وتواضع حتىٰ يكون جليلاً ، فيحسن مثلما أحسن ٱلله إليه ، ولا يسعىٰ في الأرض فساداً في تجاوز حدود ٱلله تعالىٰ ، لأنه تعالىٰ لا يحب المفسدين ، فالذين لا يستجيبون لأوامر الجليل في التواضع ، ولا لنصح خليفته ، وينسون ما تفضل الجليل عليهم من النعم التي أكسبهم المهابة بين الناس ، ويتجاهلون أن ٱلله قد أهلك قبلهم كثيرين كانوا أكثر منهم قوة وقدرة علىٰ كسب المال وخبرة بوجوه استثماره ، فهـٰؤلاء يدخلون النار بغير حساب ، وذلك لأنهم لم يحمدوا ٱلله علىٰ ما آتاهم ، وكذلك لتكبرهم علىٰ خلق ٱلله ظناً منهم أنهم أجلاء وأصحاب هيبة فما ينبغي لهم أن يخالطوا الفقراء ويجالسونهم . إن المتكبرين الذين يدعون الجلال بغير حق ، فإن ٱلله سبحانه وتعالىٰ بجلال عزته يلبسهم ثوب الذلة والصغار جزاء بما كانوا يتكبرون ، وهـٰكذا كان أمر قارون الذي لم يعبأ بنصح قومه ، وخرج عليهم في زينته ، فاغتر به الذين يحبون متاع الحياة الدنيا ، وتمنوا أن يكون لهم مثل ما أُعطي قارون من المال والحظ العظيم في الحياة .

(1) القصص ، 76 ـ 81 .

أما الذين يرزقهم ٱلله التواضع لجلال ٱلله تعالىٰ فلا تفتنهم الحياة الدنيا وزينتها ، وهم يتوجهون بالنصح والإرشاد للمفتونين ، بأن لا يتمنوا زينة الحياة الدنيا وزخرفها ولا ينصرفوا عما أمر به الجليل من التواضع ولين الجانب وسهولة الخلق في معاملة الناس والنظرة إليهم ، فإن ما عند ٱلله من ثواب ونعيم أزكىٰ لمن آمن به وعمل صالحاً ، وتلك نصيحة حقة لا يتقبلها إلا من يجاهدون أنفسهم ويصبرون علىٰ الطاعة ، الذين يتصفون بصفات الجليل ليكونوا خلفاء في الأرض . لذلك عندما أراد قارون أن يلبس ثوب الجلال تكبراً علىٰ عباد ٱلله ، خسف ٱلله به الأرض فابتلعته هو وداره بما فيها من أموال وزينة ، فلم يكن له أنصار يمنعونه من عذاب ٱلله ، ولم يكن يستطيع أن ينتصر لنفسه .

فٱلله الجليل برحمته وحكمته عندما أرسل موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام إلىٰ فرعون الذي عاث في الأرض فساداً وتكبراً وتجبراً ليضفي علىٰ نفسه الهيبة المصطنعة والجلال الزائف الزائل ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [1] فقد أمره ٱلله تعالىٰ أن يذهب مع أخيه مُؤَيَّدين بمعجزات الجليل الدالة علىٰ المهابة والجلال وأوصاهما بأن لا يضعفا أو يستكينا في تبليغ رسالة الجليل ، ولا يغفلا عن ذكر الجليل تواضعاً له جل جلاله . إن فرعون تجاوز الحد في كفره وطغيانه وتكبره ، ومع هـٰذا ٱلله تعالىٰ جليل فقد أمرهما أن يدعواه إلىٰ الإيمان في رفق ولين ، رجاء أن يتذكر ما غفل عنه من الإيمان ، ويخشىٰ عاقبة كفره وطغيانه وتجبره . ولشدة تكبر فرعون وتجبره فقد تضرع موسىٰ وهارون إلىٰ الجليل خوفاً من أن يُبادرهما فرعون بالأذىٰ ، ويتجاوز الحد في الإساءة ، ولـٰكن العظيم الجليل نهاهما عن الخوف من فرعون ، لأن

---

(1) طه 42 ـ 46 .

هيبة ٱلله أعظم وجلاله أكبر وقدرته أسمىٰ فهو معهما بالرعاية والحفظ ، سميع لما يقول ، مبصر لما يفعل ، ولٰكن الدين النصيحة فعسىٰ أن يرتدع أو يهاب الجليل ، ويتذكر أن ما به من نعمة وسلطان وملك هو من العزيز الجليل .

فلما بعث ٱلله عز وجل موسىٰ وهارون عليهما السلام إلىٰ فرعون قال : لا يروعنكما لباسه الذي لبس من الدنيا ، فإن ناصيته بيد ٱلله ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنه تعالىٰ ، ولا يعجبنكما ما متع به منها ، فإنما هي زهرة الدنيا وزينة المترفين . فلو شاء ٱلله أن يزينهما بزينةٍ من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته أعجز من أن تأتي مثلها لفعل ، ولٰكن الجليل القدير يرغب بهما عن ذلك لأنه كساهما جلال الإيمان ، وكذلك يفعل بخلفائه ، لأنه تعالىٰ يذودهم عن نعيم الدنيا شفقة عليهم ورحمة بهم وتكريماً لهم وإبعاداً لهم عن مراتع الهلكة ، وما ذاك لهوانهم علىٰ الجليل ، ولٰكن ليستكملوا نصيبهم من كرامته سالماً موفراً . إنما يتزين له خلفاؤه وأولياؤه بالذل والخضوع والخوف والتقوىٰ التي تنبت في قلوبهم فتظهر علىٰ أجسادهم ، فهي ثيابهم التي يلبسون فيها الجلال ، ودثارهم الذي يظهرون به المهابة ، وضميرهم الذي يستشعرون به الإيمان ، ونجاتهم التي بها يفوزون بالجنة ، ورجاؤهم الذي إياه يأملون عقبىٰ الدار ، ومجدهم الذي به يفخرون في الآخرة ، وسيماهم التي بها يعرفون أنهم الأتقياء . فإذا شاهدهم أحد فإنه يخفض لهم جناحه ويذلل لهم قلبه ولسانه ، فهٰؤلاء خلفاء ٱلله في أرضه كساهم ثوبه الجليل بما أدّوا من الطاعات ، ومنحهم الهيبة والعظمة بما كانوا عليه من التواضع ، وجللهم بالوقار لما خفضوا جناح الذل للجليل جل جلاله .

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لبس ثوب العزة والجلال ، فتعزز بالقدرة وتفرد بالوحدانية ، وأعرف خلق ٱلله بالجليل من خلقه أدناهم إلىٰ آيات قدرته ، لما علم يقينهم بأن العزة لله ، فذلت قلوبهم وخشعت من جلال هيبته ، فهو

الجليل الدائم الجلال ، وكل شيء هالك إلا وجهه الكريم ، فكان الخلفاء مدركين أن أي مخلوق بما أنعم ٱلله عليه صائر إلىٰ الفناء والموت ، ولهٰذا رسّخ في يقين الخليفة بما أنعم ٱلله عليه من ذل التواضع مهابة من الجليل ، وما أعزه ٱلله به ورفعه بين خلقه بتواضعه ، كانت دعوته ونصيحته للخلق بما علم من هيبة الجليل ، حيث يذكر أن الخلق كلهم ميتون ومبعوثون من بعد الموت ، ثم موفون علىٰ أعمالهم ، فيجازيهم الجليل بها ، فيميز المتكبرين المتجبرين الذين كانوا ينازعون ٱلله ثوب الجلال فيومئذٍ تسودّ وجوههم بما كانوا يطلبون بغير طائل فقد قال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [1] فمن كان يريد الشرف والقوة والجلال والهيبة ، فليطلبها بطاعة الجليل فإن هـٰذه الصفات لله تعالىٰ ، ومن أراد أن يأخذ بنصيبه منها ويكون خليفة ٱلله في أرضه فعليه بتقوىٰ ٱلله وطاعته خضوعاً وعبودية وذلاً لله تعالىٰ ، فمن كان كذلك رفعه ٱلله وألبسه الهيبة والجلال من غير زينة الحياة الدنيا ، وإنما لما يقع له في قلوب الآخرين من التواضع والاحترام والمهابة التي يكون بها جليلاً ، ولأنه جليل فله القوة كلها ، و إليه يعلو الكلم الطيب ، ويرفع ٱلله العمل الصالح فيقبله ويجزي عليه بأحسن ما عمل العاملون .

فالعزة حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب ، وعندما يكون غالباً أبداً فهو جليل عن أن يدخل في منازعات ومخاصمات مع الآخرين لأنهم عرفوا أن الغلبة تكون له ، ولذلك يهابونه ويجلونه ، فلا ينازعونه الجلال لأنه جليل ، ومن جلال العزة أيضاً أن العزيز هو قهّار فلا يقهر ، ولأنه سبحانه وتعالىٰ عزيز قهّار جليل ، فقد أضفى علىٰ خليفته من هـٰذه الصفات ما يكون بها جليلاً بين

---

(1) فاطر ، 10 .

الناس ، بحبهم له وتواضعهم بين يديه وإطاعة أمره فيما يدعوهم إليه بما أمر به الجليل ، لأنهم إليه يرجعون ، وبأمره يعملون ، وعن رأيه يصدرون ، ومن قوله يستهدون ، فإذا كانت الملائكة والإنس والجن خلقاً للبارئ جل ثناؤه ولم يكن بهم استغناء عنه في بدء أمرهم وهو إيجادهم ، إذ لو لم يوجدهم ما وجدوا ، ولا في إبقاء حياتهم بعد الإيجاد ، ولا في العوارض التي تعرض لهم أثناء البقاء ، كان حقاً له جل جلاله أن يكون جليلاً ، وكان حقاً عليهم أن يدعوه بهـٰذا الاسم المستحق للأمر والنهي ، فإن جلال الواحد فيما بين الناس إنما يظهر بأن يكون له علىٰ غيره أمر نافذ لا يجد من طاعته فيه بداً ، فإذا كان من حق ٱلله تعالىٰ جل جلاله علىٰ من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذاً ، وطاعته له لازمة ، وجب له اسم الجليل حقاً ، وكان لمن عرفه أن يدعوه بهـٰذا الاسم ، وبما يجري مجراه ، ويؤدي معناه ، فهو من الجلال والعظمة ، و منصرف إلىٰ جلال القدر وعظم الشأن ، فهو الجليل الذي يصغر دونه كل جليل ، ويتضع معه كل رفيع ، ولننظر إلىٰ صورة الجليل في قوله تعالىٰ : ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (1) فهـٰذه الصورة من المهابة والجلال بحيث أن الملائكة ـ وهم أشدّ خلق الخالق ـ محيطون بالعرش ينزهون ٱلله تعالىٰ عن كل نقص ، تنزيهاً مقترناً بحمد ربهم وخالقهم ، وقد فصل بين جميع الخلائق بالعدل ، ونطق الكون كله قائلا : الحمد لله رب العالمين .

وكذلك نقف علىٰ صورة الجليل بقوله تعالىٰ : ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (2) ففي ذلك الموقف المهيب الجليل حين يجمع ٱلله الرسل ويسألهم بماذا أجابتكم به أممكم الذين

---

(1) الزمر ، 75 .

(2) المائدة ، 109 .

أرسلتكم إليها ، أبالإيمان أم بالإنكار ؟ والأمم حينئذ حاضرة لتقوم عليهم الحُجة بشهادة رسلهم ، بأننا لا نعلم ما كان بعدنا من أمر من أرسلنا إليهم ، وليس المقصود منه نفي العلم بجوابهم حال التبليغ ولا وقت حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل المقصود نفي علمهم بما كان من الأمم بعد الأنبياء في العاقبة وآخر الأمر الذي به الاعتبار لأن الثواب والعقاب إنما يدوران علىٰ الخاتمة وذلك غير معلوم لهم عليهم صلوات ٱلله وسلامه أجمعين ، وهـٰذا الموقف في يوم الحساب تتجلىٰ فيه عظمة الجليل تبارك وتعالىٰ : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴾ (1) فٱلله سبحانه يتجلىٰ بجلاله في ذلك اليوم الجليل ، وهو علىٰ كل شيء قدير سبحانه جل جلاله .

اللهُمَّ يا الجليل يا صاحب العزة والجلال ، أنت أعلم بحالنا وغني عن سؤالنا ، نسألك أن نكون من عتقائك يوم تتجلىٰ لخلقك !

اللهُمَّ أنت الجليل العظيم ، نسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك ، أن تسدل علينا من نعمتك ثوب المهابة والجلال في الدنيا والآخرة تواضعاً لعلوّ شأنك ، وأن تجلّنا عن النار وعذابها وتربأ بنا عنها نحن ووالدينا وأزواجنا وذريتنا إنك غني حميد !

اللهُمَّ أنت الجليل فاجعلنا من الأجلاء عما نهيتنا عنه من المعاصي ، واجعلنا من الأجلاء بما أمرتنا به من الطاعات ، فسبحان الجليل الذي تعطف بالمجد وتكرم به ، وسبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا بحمده ، سبحان ذي الفضل والنعم ، سبحان ذي العزة والكرم ، سبحان الذي أحصىٰ كل شيء بعلمه ، وسبحان الذي خضع كل شيء لعزته ، وسبحان الذي عنت الوجوه لجلال هيبته ، نسألك اللهُمَّ أن تلبسنا ثوب الجليل في الدنيا والآخرة ، والحمد

---

(1) النبأ ، 38 .

لك علىٰ ما رزقت ووهبت لنا من خيرات حسان والحمد لله رب العالمين .

اللهُمَّ بجلالك العظيم أن تجعل الرحمة علينا وتجعلنا من الأقوياء الراشدين لا من الضعفاء ، واجعلنا من العلماء والحكماء لا من الجاهلين ، ومن المؤمنين الصالحين المستخلفين في الأرض والمصلحين لا من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق .

الكريم جل جلاله

الكريم : « هو الذي إذا قدر عفا وإذا وعد وفىٰ وإذا أعطىٰ زاد علىٰ منتهىٰ الرجاء ولا يبالي كم أعطىٰ ولمن أعطىٰ وإن رفعت حاجة إلىٰ غيره لا يرضىٰ وإذا جفي عاتب وما استقصىٰ ولا يضيع من لاذ به والتجأ ويغنيه عن الوسائل والشفعاء فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف فهو الكريم المطلق » (1) .

الحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً سرّاً وعلناً كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك حمداً طيباً مباركاً فيه ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، والصلاة والسلام التامان الأكملان علىٰ أشرف خلقك سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه .

الكَريم : اسم كمال من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وهو كثير الخير الجَوادُ المُعطِي الذي لا يَنْفَدُ عَطاؤه وهو الكريم المطلق والكَريم الجامع لأَنواع الخير والشرَف والفضائل ، والكَريم اسم جامع لكل ما يُحْمَد ، فٱلله عز وجل كريم حميد الفِعال ورب العرش الكريم العظيم .

من اسمه الكريم تستمد صفة الكرم في خلفائه في الأرض ، ولذا فإن جمع الكَريم كُرَماء وكِرام .

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 117 .

الكَرَمُ الحقيقي المطلق هو من صفة ٱلله تعالىٰ ثم هو من صفة الخليفة مَنْ آمن به وأَسلم لأَمره وهو مصدر يُقام مُقام الموصوف فيقال رجل كَرَمٌ ، والكريم بالإضافة هو الرجل المسلم المستحق للاسم المشتقِّ من الكريم المطلق ، وقوله : كَرائمَ الأَموال أي نَفائِسها التي تتعلَّق بها نفْسُ مالكها [1] .

الكريم جل جلاله هو مصدر العطاء دون انتظار مقابل ، فهو يخلق الأسباب ويجعل تيسيرها بين أيدي من هم في حاجة . ولذا فالعلاقة قوية بين اسمه الكريم واسمه الجواد إلا أن تميّزاً كبيراً لكل فعل مترتب علىٰ اسم من أسمائه المطلقة .

الجود والكرم :

إن الكرم يتصرف علىٰ وجوه فيقال لله تعالىٰ كريم ومعناه أنه عزيز وهو من صفات ذاته ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [2] . أي العزيز الذي لا يغلب ، ويكون بمعنىٰ الجواد المفضال فيكون من صفات فعله ، ويقال : رزق كريم إذا لم يكن فيه امتهان أي كرم صاحبه ، والكريم الحسن في قوله تعالىٰ : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [3] . ومثله ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [4] أي حسناً ، والكريم بمعنىٰ المفضل في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [5] . أي أفضلكم ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [6] . أي فضلناهم ، والكريم أيضاً السيد ، كما في قوله ﷺ « إذا أتاكم

---

(1) لسان العرب ، ج 12 ، ص 510 .
(2) الانفطار ، 6 .
(3) الشعراء ، 7 .
(4) الإسراء 23 .
(5) الحجرات ، 13 .
(6) الإسراء ، 70 .

كريم قوم فأكرموه » [1] أي سيد قوم ، ويجوز أن يقال الكرم هو إعطاء الشيء عن طيب نفس قليلاً كان أو كثيراً .

والجود سعة العطاء ومنه سمي المطر الغزير الواسع : جوداً ، ويجوز أن يقال : الكريم هو إعطاء من يريد إكرامه وإعزازه . وقيل في الفرق بينهما : إن الجواد هو الذي يعطي مع السؤال . والكريم : الذي يعطي من غير سؤال . وقيل بالعكس [2] . والحق : الأول ، لما ورد في أدعية الصحيفة الشريفة : « وأنت الجواد الكريم » ترقياً في الصفات الحسان ، وقيل : الجود إفادة ما ينبغي لا لغرض [3] .

الكريم والجواد لا فرق بينهما إنهما صفتان لاسم واحد هو ٱلله عز وجل ، ولذا فالكريم هو الجواد بالتمام ، وهما الأول والآخر ، إلا أن الفرق بين فعل الكرم وفعل الجود : الكرم صفة لفعل العطاء قبل انتظار الطلب أو قبل توجيهه ، والجود فعل عطاء مترتب علىٰ فعل الطلب ، فيكون فعل سريع الإجابة لمن تضرع أو تقدم بطلب ، ولذلك كلا الصفتين حسنتان .

والخليفة الكريم هو من لا ينتظر طلب محتاج إذا علم بحاجته ، وإذا لم يعلم يجود بعد علم ومعرفة ، ولذا فالفرق كبير ودون مقارنة فقط للتبيان ، الفرق كبير بين الكريم والجواد المطلق وبين الكريم والجواد بالإضافة ، الأول جل جلاله في الحالتين هو عليم ، ولذلك فهو يعلم من هو في حاجة ويكرمه بمكرمة ، ومن هو مؤمن به ويتوجه إليه بالطلب والدعاء ويستجيب له بالجود الواسع . وعليه الكريم يعطي خلقه دون طلب سواء بشراً أو حيواناً أو طيراً أو سمكاً أو نباتاً وكل من هو في حاجة للحياة التي يعلمها الكريم جل جلاله .

---

(1) سنن ابن ماجه ، ج 11 ، ص 121 .
(2) الكليات 2 ، 172 .
(3) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 170 ، 171 ، وتهذيب اللغة ، ج 3 ، ص 374 .

فللخليفة أن يكون معرضاً عن تصرفات اللئام متصرفاً تصرف الكرام؛ لتظهر مكرماته، فيعمل المستخلفون بعمله، فيكون طبقاً لما قال الشاعر :

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرُّما

مسميات كريمة :

المسميات الكريمة جميعها إعجازية ، ولذا فهي مكارم ذات فضائل حسان ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [1] . واعلم أنه تعالىٰ سمَّىٰ سبعة أشياء بالكريم: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [2] . إذ لا جواد أجود منه ، والقرآن بالكريم ، لأنه لا يستفاد من كتاب من الحكم والعلوم ما يستفاد منه إنه عطاء دون طلب ، وفيه كل مفاتيح الخير والسلامة والحفظ من كل شر ، وسمَّىٰ موسىٰ كريماً : ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [3] . وسمَّى ثواب الأعمال كريماً : ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [4] . وسمَّى عرشه كريماً : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [5] لأنه منزل الرحمة ، وسمَّىٰ جبريل كريماً : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [6] . ومعناه أنه عزيز ، وسمَّىٰ كتاب سليمان كريماً : ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [7] فهو كتاب كريم من رب كريم نزل به ملك كريم علىٰ نبي كريم لأجل أمة كريمة ورسالة عظيمة ، فإذا تمسكوا به نالوا ثواباً كريماً واتبعوا ما يقول الخليفة ويفعله لأنه هو أهل الإنقاذ من العذاب للدخول

---

(1) الواقعة ، 77 ـ 78 .
(2) الانفطار ، 6 .
(3) الدخان ، 17 .
(4) يس ، 11 .
(5) المؤمنون ، 116 .
(6) التكوير ، 19 .
(7) النمل ، 29 .

للجنة والفوز بالنعيم بأمر ربه بما منحه البركة والبرهان [1] .

معاملة الكريم للسائل :

الخليفة الذي يوده ٱلله أن يكون خليفة له في الأرض هو فاعل الخيرات وهو الكريم الذي يجود علىٰ من هم في حاجة كلما علم بحاجتهم دون أن ينتظر طلباً منهم ودون أن ينتظر وجاهة أو مقابلاً مهما كان ، إنه كريم لوجهه الكريم عز وجل . قال تعالىٰ : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [2] . في هـٰذه الآية الكريمة ثلاث مسائل :

الأولىٰ : قوله تعالىٰ : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أي قول معروف أولىٰ ، وهو القول الذي اعتاده الناس وتعارفوا عليه بأنه مملوء بالأفعال الحسان المرغوبة من قبلهم وهي في درجات التفضيل القيمي عندهم مما جعلها محببة إليهم ويرغبونها أن تسود وهم يتوادون بها في كل خير . والقول المعروف هو الدعاء والتأنيس والترجية بما عند ٱلله ، خير من صدقة هي في ظاهرها صدقة وفي باطنها لا شيء ، لأن ذكر القول المعروف فيه أجر وهـٰذه لا أجر فيها . قال ﷺ : « الكلمة الطيبة صدقة وإن من المعروف أن تلقىٰ أخاك بوجه طلق » [3] . فيتلقىٰ السائل بالبشر والترحيب ، ويقابله بالطلاقة والتقريب ؛ ليكون مشكوراً إن أعطىٰ ومعذوراً إن منع . وقد قال بعض الحكماء : ٱلق صاحب الحاجة بالبشر فإن عدمت شكره لم تعدم عذره . وحكي أن رجلاً قصد بعض الوزراء في حاجة لم يقضها وظهر له منه ضجر فقال شاعراً :

لا تـدخلنـك ضجـرة مـن سـائـل ... فلخيـر دهـرك أن تـرىٰ مسـؤولا
لاتجبهـن بـالـرد وجـه مـؤمـل ... فبقـاء عـزك أن تـرىٰ مـأمـولا

---

(1) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 283 .
(2) البقرة ، 263 .
(3) صحيح مسلم ، ج13 ، ص69 .

تلقــىٰ الكــريــم فتستــدل ببشــره ... وتــرىٰ العبــوس علــىٰ اللئيـم دليــلا

واعلـم بـأنـك عـن قليـل صـائـر ... خبــراً فكــن خبــراً يــروق جميــلا

وروي من حديث عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال النبي ﷺ : « إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتىٰ يفرغ منها ، ثم ردوا عليه بوقار ولين ، أو ببذل يسير ، أو رد جميل ، فقد يأتيكم من ليس بإنس ولا جان ينظرون صنيعكم فيما خولكم ٱلله تعالىٰ »(1) . قلت : دليله حديث أبرص وأقرع وأعمىٰ ، وذلك أن ملكاً تصور في صورة أبرص مرة وأقرع أخرىٰ وأعمىٰ أخرىٰ امتحاناً للمسؤول . وقال بشر بن الحارث : رأيت علياً في المنام فقلت : يا أمير المؤمنين ! قل لي شيئاً ينفعني ٱلله به ، قال : ما أحسن عطف الأغنياء علىٰ الفقراء رغبة في ثواب ٱلله تعالىٰ ، وأحسن منه تيه الفقراء علىٰ الأغنياء ثقة بموعود ٱلله(2) . هـٰذا للخليفة أن ينظر في المساكين والفقراء والمحتاجين كما عمل من سبقه من الخلفاء ، فهـٰذا رسول ٱلله يأمر بالعطف والرحمة وإكرام المسكين والفقير والإحسان إليهم ليرفعه ٱلله تعالىٰ بهم فهم أحق الخلق بمعروفه وفضله فيكون بذلك قد أدىٰ ركناً من أركان الأمانة والتي تبدأ بهـٰذا العمل القليل في حجمه الكبير في معناه وثوابه .

الثانية : قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَغۡفِرَةٌ ﴾ فالمغفرة تسامح وتجاوز عن الخطايا ممن يعلم ما فعل الآخرون به ومع ذلك يمتلك المقدرة التي بها يسامح ، ويغفر الذنب ، ويعفو عن كثير .

الثالثة : قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴾ ٱلله لأنه كريم غفور فهو بطبيعة

---

(1) تفسير القرطبي ، ج 3 ، ص 309 ، 310 . شرح النيل وشفاء العليل ، ج22 ، ص 310 .

(2) تفسير القرطبي ، ج 3 ، ص 309 ، 310 .

الحال هو غني حليم بمودته وحفظه للذين خلقهم خلائف في أحسن تقويم ، ولهٰذا أخبر تعالىٰ عن غناه المطلق أنه غني عن صدقة العباد ، وإنما أمر بها ليثيبهم ، وعن حلمه بأنه لا يعاجل بالعقوبة من مَنَّ وأذىٰ بصدقته [1] .

شرط الكريم :

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن   ليـس الكـريـم إذا أسـدىٰ بمنـان

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [2] . قوله تعالىٰ : ﴿ بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ عبر تعالىٰ عن عدم القبول وحرمان الثواب بالإبطال ، والمراد الصدقة التي يمن بها ويؤذي ، لا غيرها . والعقيدة أن السيئات لا تبطل الحسنات ولا تحبطها ، فالمن والأذىٰ في صدقة لا يبطل صدقة غيرها . قال جمهور العلماء في هٰذه الآية : إن الصدقة التي يعلم ٱلله من صاحبها أنه يمن أو يؤذي بها فإنها لا تقبل . وقيل : بل قد جعل ٱلله للملك عليها أمارة فهو لا يكتبها ، وهٰذا حسن . وقال بعض البلغاء : من مَنَّ بمعروفه سقط شكره ، ومن أعجب بعمله حبط أجره [3] . وسمع ابن سيرين رجلاً يقول لرجل : وفعلت إليك وفعلت ! فقال له : اسكت فلا خير في المعروف إذا أحصي . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر ـ ثم تلا ـ ﴿ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [4] . وقوله تعالىٰ : ﴿ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ

---

(1) تفسير القرطبي ، ج 3 ، ص 309 ، 310 .
(2) البقرة ، 264 .
(3) تفسير القرطبي ، ج 3 ، ص 311 .
(4) البقرة ، 264 .

ٱلنَّاسِ ﴾[1] . مثَّل ٱلله تعالىٰ الذي يمن ويؤذي بصدقته بالذي ينفق ماله رئاء الناس لا لوجه ٱلله تعالىٰ ، وبالكافر الذي ينفق ليقال جواد وليثنىٰ عليه بأنواع الثناء . ثم مثَّل هـٰذا المنفق أيضاً بصفوان عليه تراب فيظنه الظان أرضاً منبتة طيبة ، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقي صلداً ، فكذلك هـٰذا المرائي . فالمن والأذىٰ والرياء تكشف عن النية في الآخرة فتبطل الصدقة كما يكشف الوابل عن الصفوان . وقيل : المراد بالآية إبطال الفضل دون الثواب ، فالقاصد بنفقته الرياء غير مثاب كالكافر ، لأنه لم يقصد به وجه ٱلله تعالىٰ فيستحق الثواب . وخالف صاحب المن والأذىٰ القاصد وجه ٱلله المستحق ثوابه ـ وإن كرر عطاءه ـ وأبطل فضله[2] . فالخليفة ولأنه يسير بما أمره ربه في مستخلفيه فلن يكون مناناً بما أسدىٰ من صالح لمستخلفيه وإلا ضاع كل ما بنىٰ في مهمته التي كلفه ٱلله بها وسقط ـ والعياذ بٱلله ـ فيما هو محذور عليه فيقع في غضب ٱلله تعالىٰ ، فنسال ٱلله تعالىٰ أن يرقق قلب كل إنسان حتىٰ تعم قيم الخليفة البشرية كلها ويعم الرخاء والكرم والجود من فضل ٱلله ، وأن يطعم الخليفة القاصي والداني فلربما جاءه رجل يشق آلاف الأميال طمعاً في ثرائه وجاهه فيكون في رده النكبة والنكسة وهو لا يراه . وعلىٰ المستخلفين أن يراعوا ما بالخليفة من قوة صرف وسعة يد فلا يطلبوا مستحيلاً وذلك بالتخفيف عليه وحتىٰ لا يثقلوا كاهله بالطلبات الضرورية وغير الضرورية فلربما طلب إنسان أمراً ليس بالضروري ضيع به شيئاً علىٰ إنسان آخر أمراً ضرورياً . ومع ذلك التصدق رحمة والزكاة رحمة والعطاء بدون منة كرم والعطاء بعد الطلب جود ، فليكن الإنسان رحيماً وكريماً وجواداً يجود ٱلله عليه بواسع فضله من غير ما يحتسب . ولهـٰذا من يكرم يُكرم ويُكرَّم من الكريم المتعال .

---

(1) البقرة ، 264 .

(2) تفسير القرطبي ، ج 3 ، ص 312 .

عفو الكريم :

قال الشاعر :

يستوجب العفو الفتىٰ إذا اعترف   بما جنىٰ من الذنوب واقترف

إن ملازمة الإلحاح بباب الكريم ، دليل علىٰ صحة التوبة وأنه لا غافر للذنوب سواه . قال ﷺ : « إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلىٰ ٱلله تاب ٱلله عليه » (1) . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب ٱلله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » (2) . وهٰذه فائدة اسم ٱلله تعالىٰ الغفار والتواب فكلها من كريم حكيم . والذنوب التي يتاب منها إما حق ٱلله تعالىٰ يكفي في التوبة منه الترك ، غير أن منها ما لم يكتف الشرع فيها بمجرد الترك بل أضاف إلىٰ ذلك في بعضها قضاء كالصلاة والصوم ، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحنث في الإيمان والظهار وغير ذلك ، وأما حقوق الآدميين فلابد من إيصالها إلىٰ مستحقيها ، وعلىٰ الخليفة أن يراعي حقوق العباد الموكول إليه أمرهم فإن لم يوجدوا تصدق عنهم ، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فعفو ٱلله مأمول ، وفضله مبذول ، فكم ضمن من التبعات وبدل من السيئات بالحسنات فهو أكرم الأكرمين (3) .

صفة الكريم :

الكريم اسم عظيم لصفة عظيمة ، بها يتم تقدير الذات بالقدرة ، وتقدير الآخر بالعطاء دون منة ، يترتب عليها رضا نفسي وقناعة تامة بأن فعلها هو

---

(1) صحيح البخاري ، ج9 ، ص148 .

(2) صحيح مسلم ، ج13 ، ص301 .

(3) تفسير القرطبي ، ج 4 ، ص 213 .

الحق ، ولذا فالكرم صفة لكريم ، والصفة الثابتة ترتبط بالفعل المنفذ لها ، مما يجعلها تنتقل من القول إلىٰ الفعل الذي يُرضي أربعة :

أولاً : يُرضي الكريم المطلق جل جلاله .

ثانياً : يرضي من أقدم علىٰ الفعل الكريم ، أو من قام بفعل المكرمة .

ثالثاً : يُرضي من قدمت المكرمة إليه .

رابعاً : يرضي كل كريمٍ ومحبٍّ للكرم .

قال تعالىٰ : ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [1] . انحدر بهم من علوٍ إلىٰ دنيا سفلية ، فأوقعهما في الهلاك . قال ابن عباس : غرهما باليمين . وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بٱلله كاذباً ، فغررهما بوسوسته وقسمه لهما . وقال قتادة : حلف بٱلله لهما حتىٰ خدعهما . وقد يخدع المؤمن بٱلله إذا صدَّق كل حديث يقال أو قسم يُحلف . كان بعض العلماء يقول : من خادعنا بٱلله خدعنا . وفي الحديث عنه ﷺ : « المُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ والفاجِرُ خَبٌّ لَئِيمٌ » [2] . فالخليفة لا يتأثر بخدع الخادعين فيحرم به من ليس كذلك فإنه يُخدع خير من أن يحرم محتاجاً وهو يظنه مخادعاً ويبقىٰ من شيمه كما قال الشاعر :

إن الكريم إذا تشاء خدعته وترىٰ اللئيم مجرباً لا يخدع

ولهٰذا فالخليفة صادق الوعد ، وهو المؤمن الذي بإيمانه التام لا يظن من مسلم أو مؤمن أن يكذب إذا أقسم بٱلله تعالىٰ ، ومع أن إبليس يؤمن بٱلله كما هو مبين في قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

(1) الأعراف ، 22 .
(2) سنن الترمذي ، ج 7 ، ص 226 .

ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [1] . في هـٰذه الآية يذكر إبليس ربه ويقسم بعزته تعالىٰ أن يغويهم أجمعين ثم تيقَّن فاستثنىٰ منهم عباده (عباد الرحمـٰن المخلصين) . ولأن إبليس ـ أعوذ بٱلله منه ـ هو أول المُغرِّرين بالعباد فقد أقسم لهم وهو يعلم أنه بقسمه لهم سيصدِّقونه وهـٰذا ما حدث مع أبينا آدم وأمنا حواء ، اللذين غفر لهما الجليل عز وجل ما سلف منهما من ذنب بأسباب الغفلة التي أوقعتهما في الخطيئة ، وبمغفرته لهما أصبحا في الجنة خالدين فيها أبداً . اللهُمَّ اغفر لنا خطايانا وتب علينا أنت مولانا فنعم المولىٰ ونعم الكريم !

ولأن ٱلله هو الخالق وهو الرازق وهو المحيي والمميت ، فهو الكريم الذي يعلم بالأمر فيعطي قبل الطلب وقبل الترجي ، ولهـٰذا أكرم أبانا آدم وأمنا حواء بالجنة ، وذلك لعلمه بنواياهما تجاهه ، فهو يعلم أن إبليس قد غرر بهما ، ويعلم أنهما من عباده الصالحين ولهـٰذا أخرجهما من الجنة إلىٰ الدار الدنيا ثم أعادهما إليها بواسع فضله . وهـٰكذا الخليفة الذي جعله ٱلله في الأرض معرضاً للأخطاء والتغرير به ، ولأنه مخلوق في أحسن تقويم فإن هـٰذا التقويم بطبيعة الحال سيرتقي به إلىٰ الدرجات العُلىٰ وسيكون من الوارثين للجنة . الخليفة إنسان لم يخلقه ٱلله تعالىٰ ملكاً ، ولم يخلقه شيطاناً رجيماً ، لقد خلقه في أحسن تقويم ، له حقوق ونصيب في الدنيا يجب أن يأخذها ولا ينسىٰ شيئاً من نصيبه منها ، وله عقل يدرك به المجرد الذي به يتعلم ويتذكر ويتفكر حتىٰ يدرك الحق ولا يحيد عنه ولأجل ذلك يفوز بالجنة . وله واجبات ينبغي أن يؤديها تجاه خالقه الكريم الذي أنعم عليه بمكرمة العيش في الدنيا وأخذ نصيبه منها والفوز بالجنة والحياة فيها دائماً أبداً ، وعليه أن يؤدي واجبه تجاه نفسه التي لها الحق عليه ، وأن يؤدي واجبه تجاه والديه وأبنائه وزوجه وكل من له حق عليه . وله مسؤوليات يجب عليه حملها دون تردد ، فليعبد ٱلله

---

(1) ص ، 79ـ83 .

الكريم ويصون الدين والعرض ويلتزم بما أمره الكريم جل جلاله ولا يتعدىٰ الحدود التي حددها له الخالق ، حيث يصدق ولا يكذب ويصوم ويصلي ويزكي ويحج ، ويتعبد ويذكر ٱلله ربه ويصلي ويسلم علىٰ كل الأنبياء والرسل وأن يؤمن بمحمد خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات ٱلله وسلامه عليه .

رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ :

قال تعالىٰ : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [(1)] . فتعالىٰ ٱلله استعظام له تعالىٰ ولشؤونه سبحانه التي يصرف عليها عباده جل وعلا من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة أي ارتفع سبحانه بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح الحميدة . الملك الحق : أي الحقيق بالمالكية علىٰ الإطلاق إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة إحياء وإماتة عقاباً وإثابة وكل ما سواه مملوك له مقهور تحت ملكويته ، وقيل : الحق أي الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه ، وهـٰذا وإن كان أشهر إلا أن الأول أوفق بالمقام ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فهو الأول والآخر واحد أحد لا شريك له وكل ما عداه عبيده تعالىٰ : ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ وهو جرم عظيم وراء عالم الأجسام والأجرام وهو أعظمها وقد جاء في وصف عظمه ما يبهر العقول فيلزم من كونه تعالىٰ ربه كونه سبحانه رب كل الأجسام والأجرام ، ووصف بالكريم لشرفه وكل ما شرف في بابه وصف بالكرم كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [(2)] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [(3)] . وقد شرف بما أودع ٱلله تعالىٰ فيه من الأسرار ، وإسناد الكرم إليه مجازي والمراد

---

(1) المؤمنون ، 116 .

(2) الدخان ، 26 .

(3) الإسراء ، 23 .

الكريم ، وقيل : هو علىٰ تشبيه العرش لنزول الرحمة والبركة منه بشخص كريم [1] . ولأن الكريم منزه قال : ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ والملك الذي بيده الحكم المطلق والملك المطلق ، هو المالك للأشياء الذي لا يبيد ولا يزول ملكه وقدرته ، وأما الحق فهو الذي يحق له الملك لأن كل شيء منه وإليه ، وهو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه ، وبين أنه لا إلـٰه سواه وأن ما عداه فمصيره إلىٰ الفناء وما يفنىٰ لا يمكن أن يكون إلـٰهاً كريماً ، وبين أنه تعالىٰ : ﴿رَبُّ ٱلْعَـرْشِ ٱلْكَـرِيمِ ﴾ . قال أبو مسلم : « والعرش ههنا السموات بما فيها من العرش الذي تطوف به الملائكة ويجوز أن يعني به الملك العظيم » ، وقال الأكثرون : المراد هو العرش حقيقة وإنما وصفه بالكريم لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة ولنسبته إلىٰ أكرم الأكرمين كما يقال بيت كريم إذا كان ساكنوه كراماً » [2] .

قال حقي : « وإنما وصف العرش الكريم لأنه مقسم فيض كرم الحق ورحمته منه تنقسم آثار رحمته ، كرمه الىٰ ذرات المخلوقات » [3] .

الكريم هو الذي تنزل منه الخيرات الحاصلة للعباد ، مع شرف جوهره ، وعلوّ رتبته ، والكريم من ستر مساوئ الأخلاق بإظهار معاليها وتنزه عن كل دناءة ؛ قال القزاز : وأصل الكرم في اللغة الفضل والرفعة [4] وبه يأخذ الخليفة في ستر أحوال مستخلفيه ولا يفضحهم بذكرهم والترفع عن ذلك بالفضل والرفعة التي حباه ٱلله بها وبطبيعة الحال يجد نفسه كذلك وتلك نعمة يجب المحافظة عليها .

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 13 ، ص 303 .
(2) تفسير الرازي ، ج 11 ، ص 214 .
(3) نظم الدرر للبقاعي ، ج 5 ، ص 435 .
(4) المصدر السابق ، ص 435 .

الكريم بالإضافة هو من يتعالىٰ عن الصغائر ، ويرتفع عن مواضع الشبهة ، وينطق بالحق في كل حديث ، ولا يفعل إلا العمل الذي يرضاه ٱلله والعباد المستخلفون في الأرض ، ولا يزني ولا يشرب مسكراً ولا يشهد شهادة زور ، ولا يظلم أحداً ولا يطفف الميزان إذا وزن ولا ينقص المكيال إذا اكتال الناس ويتقي الكريم الذي أكرمه بخلقه في أحسن تقويم .

أما أولئك الطامعين الهامعين المفسدين في الأرض ، وسافكي الدماء فيها بغير حق ، آكلي أموال اليتامىٰ ظلماً هم المذنبون الذين سيجازون العذاب الشديد وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (1) .

الكريم هو شديد العقاب وعفو يحب العفو ، فمن أذنب واستغفر وندم وصدَّق واهتدىٰ واتبع سبل الخير دون تردد وجد الكريم يتعالىٰ به إلىٰ المقامات العظام ، وإن تمسَّك بضلاله وكفره ليس له من بد إلا الشقاء والعذاب ولهـٰذا فإن الإنسان حر يمتد في دائرة الممكن المخيّر والمسيّر . عن عبد ٱلله بن شميط قال : سمعت أبي ذكر المعاصي فأكبرها وأعظمها ، ثم قال : وإن كان كل ما عصيت به عظيماً فإنه في سعة كرمك ورحمتك صغير . وقالت امرأة من العرب ذات عقل ودين : سبحانك إلـٰهي إمهالك المذنبين أطمعني لهم في حسن عفوك عنهم ، سبحانك إلـٰهي لم يزل قلبي يشهد برضاك لمن نال عفوك ، سبحانك إلـٰهي تفضلاً منك وامتناناً علىٰ خلقك يا كريم » (2) وعن زيد بن سعد المجاشعي حدثتني امرأة من أهلي قالت : « أتاني آت في منامي وكانت هـٰذه المرأة تطيل الدعاء جدا قالت : قال لي : قولي يا جميل الفعال

---

(1) النساء ، 10 .

(2) حسن الظن بالله ، ج 1 ، ص 64 .

أنت وليي يا كريم الصنيع أنت القريب ، قالت : فما دعوت بها في كرب قط إلا كشفه ٱلله عني »[1] .

ولأن النفس أمارة بالسوء إلا من تاب وآمن واهتدىٰ فإن الخليفة هو من يفوز برحمة ومغفرة الكريم جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[2] ثم قال : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾[3] . إن نفس كل شيء حقيقته وهو الجوهر الذي هو محل المعقولات ، ولذلك تختلف أسماء النفس باختلاف أحوالها العارضة عليها :

أولاً : النفس المطمئنة :

فإن اتجهت إلىٰ صواب الصواب ونزلت عليها السكينات الآلهية ، فتطمئن إلىٰ ذكر ٱلله عز وجل وتسكن إلىٰ المعارف الإلـٰهية ، فيقال : نفس مطمئنة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾[4] . هـٰذه صفات النفس الخليفة التي ترث الأرض حقاً وتملؤها عدلاً وتفوز بالجنة .

ثانياً : النفس اللوامة :

إن كانت مع قواها وجنودها في حراب وقتال وشجار ونزاع ، فتارة تنزع إلىٰ جانب العقل فتتلقىٰ المعقولات وتثبت علىٰ الطاعات ، وتارة تستولي عليها القوىٰ فتهبط إلىٰ الحضيض فهـٰذه النفس نفس لوامة غير ثابتة علىٰ موقف متأرجحة فهي بين هـٰذا وذاك ، تلوم علىٰ ما فعلت من سلبيات وإيجابيات

---

(1) الامات ، ج 1 ، ص 83 .
(2) يوسف ، 53 .
(3) يوسف ، 31 .
(4) الفجر ، 27 ـ 28 .

ولهـٰذا فهي النفس المعرضة دائماً للوم ، وهـٰذا اللوم يتخذ سبيلين :

السبيل الأول : العودة عن المنهي عنه : بالرجوع إلىٰ ما أمر الكريم به ، وهـٰذه لازالت تتخير فإن ثبتت علىٰ الحق واستقرت أصبح صاحبها من الخلفاء المتصفين بالنفس المطمئنة ، وإن بقيت متذبذبة بين ارتكاب السلوك المنهي عنه والسلوك المرضي عنه فهي لا زالت الموصوفة بالنفس اللوامة . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [1] . النفس اللوامة هي غير الثابتة علىٰ اليقين ، ولهـٰذا كان القسم بيوم القيامة ولم يكن بالنفس اللوامة . الكريم عز وجل دائماً يقسم بالثوابت والآيات العظام ولا يقسم بالمهتزات ، فقد أقسم بيوم القيامة ، وبالفجر ، والعصر ، والضحىٰ ، والليل إذا سجىٰ ، والشفع ، والوتر ، وياسين والقرآن الحكيم ، وغيرها من الآيات الثابتة الدالة علىٰ الوجود الإعجازي لله تعالىٰ ، ولذا فقوله : ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ تعني نفيه القسم بالنفس اللوامة ولا تعني القسم بها كما جاء في قوله : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ .

السبيل الثاني : سبيل العودة عن المُفضَّل والمُحبَّب : النفس اللوامة هي التي قد تفعل خيراً ثم تندم علىٰ فعله ، وهـٰذه النفس هي الراجعة المائلة المتأرجحة سالباً ، وفي هـٰذه الحالة كمن يقوم بمعروف ومغفرة ثم يتبعهما بأذىً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ قَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ۝٢٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [2] . إنها النفس التي تتقدم خطوة وتتأخر إلىٰ الخلف أربع

(1) القيامة ، 1 ـ 2 .
(2) البقرة ، 263 ـ 264 .

خطوات ، هـٰذه لم ترتقِ بعد لأن تكون النفس الخليفة ، ولـٰكن لازالت الفرصة أمامها وهي إمام الرحمـٰن الرحيم وبين يديه واسع المغفرة ، ويجوز أن تنتقل إلىٰ النفس المطمئنة إذا تولىٰ أمرها مربون ووعاظ للخير وفاعلون للمعروف وناهون عن المنكر .

ثالثاً : النفس الزكية :

التي تتطهر من الخطيئة والذنوب ، فهي التي تذنب وتتوب كلما أذنبت ، ولهـٰذا فهي تتطهر بالتوبة حتىٰ توصف أفعالها بالزكية ، ولو كانت لم تُذنب قط لكان الوصف لها بالنفس الزاكية التي لم تقع في أفعال الذنوب . قال تعالىٰ : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [1] . نزلت هـٰذه الآية الكريمة لتوضح من أدرك علم الغيب وهو الرجل الصالح (السيد الخضر صلوات ٱلله وسلامه عليه) ، ومن يؤمن بعلم الغيب ويُسلم به بالمطلق إيمان بالكريم المطلق جل جلاله وهو (سيدنا موسىٰ صلوات ٱلله وسلامه عليه) . وعليه فالفرق كبير بين من أظهره ٱلله تعالىٰ علىٰ علم الغيب وأدركه به فيرىٰ ما لم يره الآخرون ، وبين من أظهره علىٰ شيءٍ من علم الغيب فآمن به وسلم تسليماً صادقاً مطلقاً . ويتضح هـٰذا الأمر في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ . النفس التي قُتلت بالنسبة لسيدنا موسىٰ صلوات ٱلله وسلامه عليه هي نفس زكية ، وبالنسبة للسيد الخضر صلوات ٱلله وسلامه عليه ، فهي لم تكن كذلك ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ

---

(1) الكهف ، 74 .

وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (1) . هٰذه النفس هي التي باهتدائها تُستخلف في الأرض وترث الجنة .

رابعاً : النفس الظالمة :

التي لا تقف عند الحد بل تتجاوزه إلىٰ المنهي عنه فتفعله وهٰذه ظالمة لنفسها أولاً ، وللآخرين ثانياً . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (2) . الكريم جل جلاله هو صاحب الحق والعدل ، فهو لا يظلم أحداً ، وأولئك الذين أسروا الندامة تكبراً ولم يعتذروا ولم يكفِّروا عن سيئاتهم هٰؤلاء لن ينفعهم شيء ، ولا ينجيهم من عدل ٱلله فيهم بالعذاب شيء ، فبعد أن يفوت الأوان لن ينفعهم الندم ولو افتدوا بما في الأرض جميعاً . وهٰؤلاء هم الذين أعطيت لهم الفرصة لأن يكونوا من الخلفاء في الأرض لأجل أن يرثوا الجنة من بعدها فخسروا بارتكابهم المظالم كل شيء . اللهُمَّ اجعل أنفسنا طاهرة زاكية مطمئنة ولا تجعلها ظالمة ومتجاوزة للحدود المنهي عنها . قال تعالىٰ : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (3) . يظن أن بستانه بما فيه من أشجار متنوعة ومتعددة أنه الجنة التي لا تزول أبداً ، وبهٰذا ظلم نفسه بكفره ، يقول الطبري : هٰذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ وهي بستانه ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ وظلمه نفسه : كفره بالبعث ، وشكه في قيام الساعة ، ونسيانه المعاد إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، فأوجب لها

---

(1) الكهف ، 78ـ82 .
(2) يونس ، 54 .
(3) الكهف ، 35 ـ 36 .

بذلك سخط ٱلله وأليم عقابه . وقال البغوي : أعطت كل واحدة من الجنتين أُكُلَهَا أي ثمرها تاماً ﴿ وَلَمْ تَظْلِم ﴾ لم تنقص مِنْهُ شَيْئاً .

خامساً : النفس الشح :

قال تعالىٰ : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (1) . أُحْضِرَتِ الأنفس الشح : إن النفوس عرضة للبخل ، فينبغي أن يكون التسامح بينها كاملاً . والشح أكثر من التقليل في العطاء ، وكأنه مرتبط بمقابل ، فإن توفَّر المقابل كان العطاء وإن لم يتوفر لا يحدث العطاء ، ولذا فالأنفس الشح هي الأنفس التي لا تتقي ٱلله في الآخر المناظر في الحقوق والواجبات لأسباب لا تتعلق بالإيمان كما هو حال الزوجين عندما يتخلىٰ الزوج عن زوجه بأسباب الكبر أو عدم الرغبة وهي تود أن تستمر معه ولرعاية أبنائها .

سادساً : النفس الأمارة بالسوء :

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) وما أبرئ نفسي ، والنفوس مائلة إلىٰ الشهوات أمارة بالسوء . وقال الزمخشري : وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة فإني قد خنته حين قذفته وقلت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ، وأودعته السجن ، تريد الاعتذار لما كان منها أن كل نفس أمارة بالسوء إلا نفساً رحمها ٱلله بالعصمة إن ربي غفور رحيم ، استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت . ولذا فالنفس الأمارة بالسوء هي التي لا تفعل الخير ، السوء فتنة ، فمن يفعله فعل إثماً وبهتاناً كبيراً ، والفتنة أشد من القتل ، وهـٰذه النفس هي التي وضعها الكريم في امتحان ، فإن استغفرت ، وتابت؛ رحمها ٱلله بالاستخلاف في الأرض ، وإن لم تفعل ذلك ، خسرت الدنيا والآخرة .

---

(1) النساء ، 128 .
(2) يوسف ، 53 .

سابعاً : النفس المجادلة :

قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (1) . يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ ، تخاصم عن نفسها ، وتحتجّ عنها بما أسلفت في الدنيا من خير أو شرّ أو إيمان أو كفر ، ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ في الدنيا من طاعة بالجزاء الأوفىٰ الذي به تورَّث في الجنة ، ولهٰذا قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (2) والجدل لا يتم بيسر ، بل يتم بنقاش يؤدي إلىٰ البيِّنة التي بها الإنسان يدرك مميزاً بين ما يجب ويقدم عليه وبين ما لا يجب ويبتعد عنه ، ولذلك فالجدل يؤدي إلىٰ اليقين إذا سادت روح الديمقراطية والمشاورة بكل شفافية بين المتحاورين حيث لا غالب ولا مغلوب إلا سيادة الحق وإحقاقه . وعليه فإن اعتدلت النفس بالجدل مع إحقاق الحق كانت الخليفة ، وإن مالت عن الحق مالت عن مبررات سيادة الخليفة .

ثامناً : النفس المتحسرة :

قال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (3) . والحسرة الغم والندم علىٰ ما فات ، أي من شدة الغم يتحسر الإنسان علىٰ ما فات وهو نادم ويا ليته لم يفعل ما فعل ، أو يا ليته فعل ما يجب في وقته ، ولأن الوقت لا يعود إلىٰ الخلف والفعل حدث فإن الندم يحلُّ بالنفس حتىٰ توصف به ، وهٰذه النفس أن كانت نادمة في الزمن الذي يُمكِّنها من الإصلاح أو التكفير فقد تكسب خيراً علىٰ ندمها وتكفيرها علىٰ ما قدَّمت يداها ، وإن لم يسعفها الوقت

---

(1) النحل ، 111 .

(2) الكهف 54 .

(3) فاطر ، 8 .

لكي تُكفِّر عن ما أقدمت عليه فلا ندم ينفعها . ولذلك فالخليفة هو المؤمن الحق الذي إذا ما غضب تملَّك نفسه عند الغضب ، وإذا ما أخطأ كفَّر عن سيئاته ، ولهٰذا فالحسرة من أجل أفعال الخير حسرة خير ، والحسرة علىٰ عدم فعل الشر ، عقابها شديد إن لم يرحم ٱلله ويغفر .

تاسعاً : النفس ذات البصيرة :

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [1] . البصيرة : ما يُمكِّن من بلوغ عين اليقين فيما يُدرك ويُتخذ قرار بشأنه عن وعي وبيِّنة واضحة أي حجة بينة واضحة علىٰ ما صدر عن النفس من الأعمال ، ولهٰذا لا تنفع المعاذير بما أن النفس علىٰ بينة بما حدث ، وليتقي الإنسان ربه الكريم ، فإن اتقاه ؛ كانت نفسه ذات بصيرة ، وإن لم يتقه ؛ فلا معاذير تنفعه .

قال الفراء منشداً :

كـأن علـىٰ ذي العقـل عينـاً بصيـرة   بمجلســه أو منظــر هــو نــاظــره
يحـاذر حتـىٰ يحسـب النـاس كلهـم   مـن الخـوف لا يخفـىٰ عليهـم سـرائـره

عاشراً : النفس الهاوية :

النفس الهاوية هي المنحدرة عن المستوىٰ القيمي والفضائل التي يرتضيها ٱلله تعالىٰ ، وإن هوت وآثرت الحياة الدنيا وقعت في الرذيلة ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [2] يقول ابن كثير : من تَمَرّد وعتا ، وقدم الْحَيَاةَ الدُّنْيَا علىٰ أمر دينه وأخراه ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ أي : فإن مصيرَه إلىٰ الجحيم وإن مطعمه من الزقوم ، ومشربه من الحميم ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ

---

(1) القيامة ، 14 ـ 15 .

(2) النازعات ، 37 ـ 39 .

ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [1] . يقول الطبري في تفسيره : ونهىٰ نفسه عن هواها فيما يكرهه ٱلله ، ولا يرضاه منها ، فزجرها عن ذلك ، وخالف هواها إلىٰ ما أمره به ربه ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي أن الجنة هي مأواه ومنزله يوم القيامة .

وعليه فالخليفة هو الذي لا ينسىٰ نصيبه من الدنيا ولا يملأ يديه منها ، أي يجعلها بين يديه ولا يجعلها في قلبه ، ويعمل لآخرته وهي الغاية التي لا يحيد عنها أبداً . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [2] .

الحادية عشرة : النفس العاملة :

العمل فعل خير في كل أوجهه بالنسبة للخليفة ، وقد لا يكون كذلك لغيره ، ولذا يقول تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ [3] الآية جاءت موجهة للمؤمنين لتحثهم علىٰ العمل ، ولـٰكن أيُّ عمل ؟ ، إنه العمل الصالح مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [4] . ولذلك فٱلله تعالىٰ يخاطب النفس العاملة للخير ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۖ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [5] .

وعمل النفس لايوافق بالضرورة عمل الجسد ، فكل ما لا يظهر في أفعال الجسد ويؤثر في المقابل هو من أفعال النفس ، فالنوايا من عمل النفوس يقول

---

(1) النازعات ، 40 ـ 41 .
(2) القصص ، 77 .
(3) التوبة ، 105 .
(4) الكهف ، 110 .
(5) آل عمران ، 30 .

الصادق الأمين ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوىٰ » ، ومع أن النفس العاملة تحاسب علىٰ أفعالها بالنيات ، إلا أن الجريمة ما بين البشر يكون الفعل فيها دليلاً شاهداً حتىٰ ولو كان الفعل نتاج خطأ ، ولهـٰذا أوجب ٱلله تعالىٰ التكفير عن الخطايا ، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (1) . والنفس العاملة بعملها تستخلف في الأرض وبعملها ترث الجنة ، وبعملها تُفسد الأرض وتسفك الدماء فيها بغير حق ، وبعملها ترث جهنم .

والمكر من صفات النفوس التي طالما أشار إليه ٱلله متحدياً كيد النفس الإنسانية : مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ (2) وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ (3) فالكيد من عمل النفس ، وفي سورة يوسف عليه الصلاة والسلام يتعالىٰ عز وجل علىٰ كيد النفس الإنسانية فيقول : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (4) . لأنه يعلم في علم الغيب عنده أن كيد الشر في نفوس إخوة يوسف أقوىٰ من كيد الخير في نفس يوسف فهو يحسب لغضب ٱلله حساباً

(1) النساء ، 92 ـ 93 .
(2) آل عمران ، 54 .
(3) الطارق ، 15 ـ 17 .
(4) يوسف ، 76 .

كما يحسب لرضاه عز وجل ، فنفس يوسف عليه الصلاة والسلام تأبىٰ أن تخوض في الباطل الذي هو مباح لنفوس أعدائه . والكره من عمل النفس لأنه لا يظهر في أفعال الجسد لـٰكنه يُحس من قبل الآخر . وقد يتساءل البعض : عمن يحسه ؟ بطبيعة الحال تكون الإجابة النفس . ولهـٰذا ليس لحواس الجسد قدرة علىٰ الإحساس بأفعال النفوس ، وإنما النفوس تحس وتشعر بعمل النفوس الأخرىٰ .

الثانية عشرة : النفس الوسواسة :

قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ (1) لقد خلق ٱلله تعالىٰ الإنسان في أحسن تقويم ، وفي هـٰذا التقويم ظاهر وهو الشكل الذي صوره عليه وهو يمشي سويّاً ، والباطن الذي يتعرض للامتلاء الاحتمالي علىٰ النحو الآتي :

1 ـ **الامتلاء باليقين الإيماني** : الذي به يتمكن من إدراك الحقيقة ، وبلوغ الغايات العظام ، حتىٰ يتمكن من الاستخلاف في الأرض ويكون من الوارثين في الجنة .

2 ـ **الامتلاء الشكّي** : الذي يعتمد علىٰ سلامة المدركات العقلية والجدل والحوار إلىٰ أن يحدث التبيُّن وحينها يكفر من يكفر ويسلم من يسلم وجهه لله تعالىٰ .

3 ـ **الامتلاء الظنّي** : الذي يملأ النفس بالظنون والوساوس التي بعضها إثم وذلك لفقدانها المعطيات والمبررات الصادقة .

ولذا فالخليفة هو مَنْ خلقه الكريم جل جلاله أكثر شيْء جدلاً بتذكره وتفكره في خلق السماوات والأرض إلىٰ أن يقف علىٰ الحقيقة الظاهرة والباطنة

---

(1) ق ، 16 .

في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (1) .

وعليه فالخليفة هو الذي يؤمن أن ما يُقدِم عليه من عمل أو ما يجول بخاطره من خواطره ٱلله يعلمها ، ولهـٰذا يخافه ويتقيه ويخشاه ويؤمن به ظاهراً وباطناً . وهـٰؤلاء هم الذين جعلهم ٱلله تعالىٰ خلفاء علىٰ خلقه ؛ لترفعهم عن الدنايا والخطايا والزلات ؛ وبما خصهم ٱلله جل جلاله من صفات الرفعة والعلو ، فكان اسم الكريم وارداً في حقهم بكل وضوح وجلاء ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين .

ولأن الخالق عز وجل جعل الإنسان خليفة في الأرض لذا فقد آمن المستخلف فيها بأن يعمل صالحاً يرضاه الخالق فيتصدق ويتعبد ويطيع ويزكي ويوحده واحداً أحداً لا شريك له في الملك ولا يتضرع إلا إليه سبحانه وتعالىٰ ربُّ العرش العظيم . في الصحيحين من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي ٱلله عنه قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلىٰ ٱلله إلا الطيب فإن ٱلله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتىٰ تكون مثل الجبل » (2) . عن سلمان الفارسي رضي ٱلله عنه عن النبي قال : قَالَ رسول الله ﷺ : « إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ

---

(1) آل عمران ، 189 ـ 194 .

(2) صحيح البخاري ، ج5 ، ص221 .

حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا إن ربكم حي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً » (1) .

ولأنه الكريم المطلق فكتابه كريم مطلق ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾ (2) . النجوم هي الكواكب ومواقعها مساقطها عند غروبها ، قال مجاهد مواقع النجوم يقال مطالعها ومشارقها واختاره ابن جرير ، وعلىٰ هـٰذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه : أن النجوم جعلها ٱلله ليُهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن هداية بها في ظلمات الغي والجهل فتلك هداية في الظلمات الحسية ، وآيات القرآن هداية في الظلمات المعنوية فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة للعالم وفي القرآن من الزينة الباطنة . ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن ، والنجوم آياته المشهودة العيانية ، والقرآن آياته المتلوة السمعية مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة علىٰ آياته القرآنية ومواقعها عند النزول . وفي قوله : ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ قال ابن كثير : « أي وإن هـٰذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم عليه وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾ هـٰذا هو المقسم عليه وهو القرآن أي أنه وحي ٱلله وتنزيله وكلامه لا كما يقول الكفار إنه سحر وكهانة أو شعر بل هو قرآن كريم أي عظيم كثير الخير ؛ لأنه كلام ٱلله ، وقيل : فوصفه بما يقتضي حسناً وكثرة خيره ومنافعه وجلالته فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع وهو من كل شيء أحسنه وأفضله ، وٱلله سبحانه وصف نفسه بالكريم ووصف به كلامه ووصف به عرشه ووصف به

(1) سنن أبي داود ، ج 4 ، ص 287 .
(2) الواقعة ، 75ـ77 .

ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن ، قال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمده وٱلله تعالىٰ كريم جميل الفعال وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدىٰ والبيان والعلم والحكمة ، وهـٰذا من إشارة الآية وتنبيهها وهو أنه لا يلتذ به وبقراءاته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام ٱلله تكلم به حقاً وأنزله علىٰ رسوله وحياً وخاصة الذين كلفوا بالخلافة في أرضه إذ لا يفهمه ولا يفهم معاني كرمه إلا من يستحق أن يكون خليفة ؛ وبذلك يكون أجدر بها بما منحهم ٱلله من فهم وإدراك لمعانيه ومبانيه ، والسير علىٰ نهجه الكريم (1) .

وعليه فكتابه كريم لأنه ممتلئ بالبيان الحق ، الذي يرشد للتي هي أحسن وأقوم ، وكريم لأنه أعطىٰ كل شيء لِما خلق دون أن ينتظر مقابلاً ، فمن اهتدىٰ فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فقد أضلَّ نفسه عن هداها وما ربك بظلام للعبيد .

ال تعالىٰ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (2) . ﴿لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾أي : كرامة ، وعلو مكانة علىٰ أن يراد بالدرجات العلو المعنوي وقد يراد بها العلو الحسي ، وفي الخبر ، عَن النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ لَوْ أَنَّ الْعَالَمِينَ اجْتَمَعُوا فِي إِحْدَاهُنَّ ؛ لَوَسِعَتْهُمْ » (3) . والدرجات المراد المستويات الرفيعة المتراتبة علىٰ بعضها البعض والتي تتميز من حسن إلىٰ الأحسن ومن جيد إلىٰ الأجود ومن الأفضل إلىٰ الأكثر تفضيلاً ، والمؤمنون المستخلفون في الأرض لهم درجات وَمَغْفِرَةٌ عظيمة وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وهو ما أعطي لهم من نعيم الجنة .

والكرم كما نقل الواحدي اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن في بابه

---

(1) شرح كتاب التوحيد ، ج 1 ، ص 406 ، 407 .
(2) الأنفال ، 4 .
(3) سنن الترمذي ، ج 9 ، ص 76 .

فلعل وصف الرزق به هنا حقيقة . وقال بعض المحققين : معنىٰ كون الرزق كريماً أن رازقه كريم ، ومن هنا وصفوه بالكثرة وعدم الانقطاع إذ من عادة الكريم أن يجزل العطاء ولا يقطعه فكيف بأكرم الأكرمين تبارك وتعالىٰ ، وجعله نفسه كريماً علىٰ الإسناد المجازي للمبالغة ، ولم يذكروا لتوسيط المغفرة ، والرزق الكريم بمقابلة الإنفاق منه في الأوجه التي بها يُستخلف الإنسان في الأرض وذلك لأجل الإصلاح ، والمناسبة في ذلك ظاهرة ، وإلىٰ هـٰذا يشير كلام أبي حيان ، أو يقال : قدم سبحانه الدرجات لأنها بمحض الفضل ، وذكر بعدها المغفرة لأنها أهم عندهم من الرزق مع اشتراكهما في كونهما في مقابلة شيء ، ويؤيد هـٰذا ما قاله ابن زيد : « المغفرة بترك الذنوب والرزق الكريم بالأعمال الصالحة » فتدبر [1] .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [2] . لقد أوضح ٱلله تعالىٰ من هم أصحاب الشمال بأنهم هم الذين في سموم الحر والعذاب الشديد ، وهم مكمورون في ظلامات الدخان الفائر في جهنم اللهُمَّ احفظنا منه وأدخلنا الجنة إنك واسع المغفرة والفضل سبحانك لا إلـٰه إلا أنت جل جلالك وتعاليت يا أكرم الأكرمين ! ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ لا بارد المدخل ولا كريم المنظر ، والسموم هو الريح الحارة . وهـٰذه الآية تضمنت ذكر ما يتبرد به في الدنيا من الكرب والحر وهو ثلاثة : الماء ، والهواء ، والظل ، أما هواء جهنم فهو السموم الشديدة الحر وماؤها الحميم الذي قد اشتد حره وظلها اليحموم [3] . ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ : أي لا بارد كسائر الظلال ، ولا نافع لمن يأوي إليه من أذىٰ الحر وذلك كرمه فهناك استعارة ، ونفي ذلك ليمحق توهم ما في الظل من الاسترواح إليه وإن وصف

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 7 ، ص 17 .

(2) الواقعة ، 41ـ44 .

(3) التخويف من النار ، ج 1 ، ص 82 .

أولاً بقوله تعالىٰ : ﴿مِّن يَحْمُومٍ﴾ والمعنىٰ أنه ظل حار ضار إلا أن للنفي شأناً ليس للإثبات ومن ذلك جاء التهكم والتعريض بأن الذي يستأهل الظل الذي فيه بـرد وإكـرام غيـر هـٰؤلاء فيكـون أشجـىٰ لحلـوقهـم وأشـد لتحسـرهـم ، وقيل : الكرم باعتبار أنه مرضي في بابه ، فالظل الكريم هو المرضي في برده وروحه ، وفيه أنه لا يلائم ما هنا لقوله تعالىٰ : ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ والمراد أنهم يستظلون به وهم مهانون [1] وبناء علىٰ ذلك أتساءل : هل للخليفة مع كرمه أن يعاقب من خالف نهج ٱلله تعالىٰ ؟ . بطبيعة الحال الخليفة هو من اتصف بصفات ٱلله تعالىٰ ولهـٰذا فعليه أن يعاقب وفقاً للخطأ بعد حكم عادل ، ولذلك فهـٰذه الآية الكريمة تؤيد وتوجب العقاب في محله . قال تعالىٰ : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [2] .

ولأن ٱلله تعالىٰ كريم قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [3] . وهـٰذه المحبة من كرمه جل جلاله ، فلو لم يكن كريماً ما كان تواباً ومحباً للتوابين والمتطهرين ، فهـٰذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له ، وكذلك قال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [4] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [5] . ورد عن النبي ﷺ أنه قال فيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ قَالَ : « إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » [6] .

قال تعالىٰ : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 20 ، ص 236 .

(2) النحل ، 126 .

(3) البقرة ، 222 .

(4) البروج ، 14 .

(5) الملك ، 2 .

(6) صحيح البخاري ، ج 23 ، ص 70 .

أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ (1) . فالقرآن قول رسول أرسله ٱلله لم يرسله الشيطان وهو ملك كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ، فهو مطاع عند ذي العرش في الملأ الأعلىٰ ، والشياطين لا يطاعون في السماوات ، بل ولا يصعدون إليها ، وإبليس من حين أهبط منها لم يصعد إليها . وإن الشياطين تعين الكهنة والسحرة وتخبرهم وتعاونهم بتصرفات خارقة ومقصودهم الكفر والفسوق والعصيان ، والأنبياء صلوات ٱلله عليهم تعينهم الملائكة هم الذين يأتونهم فيخبرونهم بالغيب ويعاونونهم بتصرفات خارقة كما كانت الملائكة تعين النبي ﷺ في مغازيه مثل يوم بدر أمده ٱلله بألف من الملائكة ويوم حنين ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (4) . من هـٰذا يتضح أن الخلفاء منصورن بإذنه تعالىٰ وبكل الأحوال كما فعل مع الرسول

---

(1) التكوير ، 19ـ25 .
(2) التوبة ، 25 ـ 26 .
(3) التوبة ، 40 .
(4) الأنفال ، 12 .

الكريم في أكثر من موقف ومكان ، لذلك علىٰ الخليفة أن لا يخشىٰ أحداً في سبيل تحقيق ما يصلح برعيته ليعينهم علىٰ حياتهم وعبادتهم للكريم جل جلاله الذي بفضله يستخلفهم في الأرض ويدخلهم الجنة . كن كريماً في طاعة ٱلله تَفُزْ بالآتي :

أولاً : رضا الكريم المطلق .

ثانياً : تكون من المستخلفين في الأرض .

ثالثاً : رضا الصالحين .

رابعاً : الفوز بالجنة .

عن جرير بن عبد ٱلله قال : لما بعث النبي أتيته لأبايعه فقال لي : « ما حاجتك يا جرير . قلت : جئت لأسلم علىٰ يديك قال : فألقىٰ لي كساءه ، ثم أقبل علىٰ أصحابه فقال : « إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ » [1] .

من خصائص الاسم الكريم للخليفة :

قضاء الدين والغنىٰ :

الكريم اسم من أسماء ٱلله الحسان وهو ذو الصفة المتعالية بالمكارم العظام ، فهو الذي يغني من غير حساب ، وهو الذي بكرمه يرحم العباد من حيث لا يحتسبون ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [2] ولذلك فالخليفة هو المؤمن بالكريم المطلق ويولي أمره إليه ، حتىٰ يخلصه من كل دين ومن كل حاجة وفاقة ، فهو علىٰ كل شيء قدير ، ومن يتمسك بالكريم ليس له بدٌّ إلا أن يكرم الناس بالخيرات التي تتوفر بين يديه ،

(1) سنن ابن ماجه ، ج 11 ، ص 121 .
(2) الطلاق ، 2ـ3 .

ولهـٰذا الكريم قال اعملوا فالعمل الناجح هو الذي يفك الدين عن المدينين ، ويغنيهم عن كل عوز . وفيه ما أخرج مسلم عن أبي هريرة قال : « جاءت فاطمة رضي ٱلله تعالىٰ عنها إلىٰ رسول ٱلله ﷺ تسأله خادماً فقال لها قولي : « اللهُمَّ رب السماوات السبع ورب العرش الكريم العظيم ربنا ورب كل شيء منزل التوراة والإنجيل والفرقان فالق الحب والنوىٰ أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر » [1] .

الشـــفاء :

قال تعالىٰ : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [2] . الأكمه هو الذي ولد أعمىٰ ، أو أنه الممسوح العين الذي لم يشق بصره ولم يخلق له حدقة ، والأبرص هو الذي به الوضح المعروف ، وتخصيص هـٰذين الأمرين لأنهما أمران معضلان أعجزا الأطباء وكانوا في غاية الحذاقة مع كثرتهم في زمنه ، ولهـٰذا أراهم ٱلله تعالىٰ المعجزة من جنس الطب . ومن الأدعية الشافية كما روي علىٰ لسان موسىٰ عليه الصلاة والسلام : « اللهُمَّ أنت إلـٰه من في السماء وإلـٰه من في الأرض لا إلـٰه فيهما غيرك وأنت جبار من في السماء وجبار من في الأرض لا جبار فيهما غيرك وأنت ملك من في السماء وملك من في الأرض لا ملك فيهما غيرك قدرتك في الأرض كقدرتك في السماء وسلطانك في الأرض كسلطانك في

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج20 ، ص302 . صحيح مسلم ، ج13 ، ص239 .
(2) آل عمران ، 49 .

السماء أسألك باسمك الكريم ووجهك المنير وملكك القديم إنك علىٰ كل شيء قدير »[1] .

وعليه فالخليفة هو من يستمد صفة الكريم بعلمه ومعرفته ليقف علىٰ الحق ويُعرِّف الناس عليه ، ويعمل بما أظهره الكريم له من علم في كل ما يُفيد العباد ، ويشفي مرضاهم ويقوي نفوسهم وحواسهم في مرضات ٱلله تعالىٰ . ولهـٰذا فالعلم والدواء والشفاء مكارم من الكريم المطلق من عمل بها وعمل عليها نال صفة الكريم ورضاه واستخلف في الأرض بعلم من عليم حكيم كريم .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾[2] . هـٰذه الآيات بدأت بالعزة والرحمة ووقف الرسول الكريم علىٰ المغفرة والكرم ، وماذا كان نتاج ذلك ؟ فعن عمر بن عبد ٱلله مولىٰ غفرة ، أن قريشاً اجتمعوا ليقتلوا النبي ﷺ ، وليبلغوا منه بعض ما يكره ، فقال لهم عتبة بن ربيعة : لا تعجلوا علىٰ ابن أخيكم حتىٰ أذهب فأكلمه ورسول ٱلله ﷺ حينئذ يصلي عند البيت العتيق ، فأتاه فجلس إلىٰ جنب رسول ٱلله ﷺ حتىٰ قضىٰ صلاته ، فقال : يا ابن أخي إنه قد عظم علىٰ قومك ما جئتهم به ، وقالوا : إنما أراد الشرف والمال ، فإن كنت أردت ذلك فانزع عما جئت به ، ولك ٱلله علي أن أجمع لك من المال ما تكون به أكثر قريش مالاً ، وأن يشرفك قومك حتىٰ تكون أعظمهم ، وقد قالوا : إن بك جنوناً ، فإن كنت اعترفت ؛ فأعلمني ، فلا أترك طبيباً إلا طلبته لك حتىٰ يشفيك ، فأطعني وانزع عما أنت تذكر ، فلما فرغ عتبة من كلامه ؛ فقرأ رسول ٱلله ﷺ قوله تعالىٰ : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ

(1) تفسير الآلوسي ، ج 3 ، ص 50 .
(2) ياسين ، 11 .

سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (1) . فرجع عتبة إلىٰ كبراء قريش ، فقال : لقد سمعت قولاً مغدق الأعلىٰ مثمر الفرع حديث العهد بالعرش ، وإني سمعت السحر والشعر والكهان فما هو شيء من ذلك ، وأمر رسول ٱلله ﷺ بأن يأتي جماعتهم فآتاهم وفي يده قبضة من تراب فقرأ من سورة ياسين قوله تعالىٰ : ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ إلىٰ قوله ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ جعل رسول ٱلله ﷺ يضع علىٰ رأس كل إنسان منهم من ذلك التراب شيئاً وقد أمسك ٱلله عنه أيديهم وألسنتهم ثم انصرف سالماً والحمد لله فقال لهم عتبة : قد كنتم تنفلتون عليه فقد آتاكم فلم تصنعوا شيئاً فقالوا : لكأن عقولنا قد ذهبت فقال : لينظر كل امرىء منكم أي شيء وضع علىٰ رأسه فإذا علىٰ رأس كل امرئ من التراب فلم يبق من أولئك الذين وضع علىٰ رؤوسهم التراب إلا قتل يوم بدر (2) . وللخليفة أن يكون رحب الصدر وكريم الكف وواسع العطاء وأن يحذر عدوه ولا يتهاون في الحق ؛ لأنه المسؤول أمام ربه وبما كلفه به من إصلاح وخير وتعمير وألا يلتفت إلىٰ أقوال وأفعال الأعداء والخصوم وأن يسير في دربه ونهجه ونسأل ٱلله أن يكون في عونه كما فعل الرسول الكريم فهو جل في علاه كفل الحفظ لخلفائه في أرضه بمنه وكرمه .

فقد جاء في قوله تعالىٰ : ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (3) . أي أن أعداء الدين الذي جاء به محمد ﷺ وهو دين الرسالة الخاتمة ، عملوا كل ما في وسعهم من أجل أن

(1) فصلت ، 1 ـ 14 .
(2) دلائل النبوة ، ج 1 ، ص 222 .
(3) القلم ، 51 ـ 52 .

يعتدوا علىٰ محمد ليهلكوه ما استطاعوا وذلك لحفظ ٱلله الكريم له من كل شر ، لقد سهروا الليالي وعيونهم لم تغمض ومع ذلك فشلوا في مراقبته حيث جعل ٱلله بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشاهم جميعاً حتىٰ عندما حاصروه خرج عليهم وعيونهم مبصرة ، ولم يستطيعوا إبصاره حيث أغشاهم الكريم جل جلاله .

كرم الكريم :

كرم الكريم من كرم ٱلله ، ولذا فالقاعدة تقول : (أكرم مما أكرمك ٱلله به) وذلك لأن ما بين أيدي العباد هو من عند ٱلله ، ولم يكن من عندهم ، فٱلله خالق الأشياء كلها ، من سموات سبع وأراضي سبع ، وما فيهم وما بينهم كله ملك لله ، ولأنه الكريم المطلق فهو الذي بكرمه جعل كل الخيرات ميسرة وذلولة بين أيدي العباد ، ولهٰذا فمن المستغرب وهو الاستثناء أن لا يكرم البعض بعضاً . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [1] . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ : هٰذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلىٰ الجواب ؛ حيث قال : (الْكَرِيمِ) حتىٰ يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنىٰ في هٰذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم ـ أي : العظيم ـ حتىٰ أقدمت علىٰ معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء في الحديث : « يقول ٱلله يوم القيامة : ابن آدم ، ما غرك بي ؟ ابن آدم ، ماذا أجبتَ المرسلين ؟ » . وعن سفيان : أن عمر سمع رجلاً يقرأ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ فقال عمر : الجهل . وقال قتادة : ﴿ غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ شيءٌ ، ما غرّ ابن آدم غير هٰذا العدو الشيطان . وقال الفضيل بن عياض : لو قال لي : « ما غرك بي ؛ لقلت : سُتُورك المُرخاة . وقال أبو بكر الوراق : لو قال لي : ﴿ غَرَّكَ بِرَبِّكَ

(1) الانفطار ، 6 ـ 7 .

ﵟٱلۡكَرِيمِﵞ لقلت : غرني كرم الكريم .

قال البغوي : وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال : (بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقنه الإجابة . وهـٰذا الذي تخيله هـٰذا القائل ليس بطائل ؛ لأنه إنما أتىٰ باسمه الْكَرِيم ؛ لينبه علىٰ أنه لا ينبغي أن يُقَابَل الكريم بالأفعال القبيحة ، وأعمال السوء . وقوله : ﵟٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَﵞ أي : ما غرك بالرب الكريم الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، أي : جعلك سَوِيّاً معتدل القامة منتصبها ، في أحسن الهيئات والأشكال [1] .

المقام الكريم :

قال تعالىٰ : ﵟوَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖﵞ [2] ، وقال تعالىٰ : ﵟأُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌﵞ [3] . الكريم الذي تملأه المكارم وهي الآيات العظام ، التي تُظهر الإعجاز لتمد به العباد وليقتدوا به في الكرم ، حتىٰ يستمدوا الصفة من صفاته التي بها يرثون الأرض ويرثون الجنة . والمقام كريم ، المجلس اللائق الذي ميزه ٱلله عز وجل عن المقامات السفلىٰ ، فهو المقام العالي بالمكارم والفضائل الحسان ، ولذا فمن يُراد له أن يكون خليفة للكريم عليه أن يختار الأماكن الخيرة التي تليق به ولا يذهب إلىٰ أماكن الفساد وضياع الأخلاق وفعل المنكرات .

المقام الكريم هو مقام القول الطيب والفعل الطيب والذوق الرفيع ، ولأن المقام الرفيع هو المجلس الحسن ، ألا ترىٰ إلىٰ قول ٱلله عز وجل لنبيه ﷺ : ﵟٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖﵞ وقوله لموسىٰ وهرون : ﵟفَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰﵞ . وكلها وجوه حسان وهـٰذا

(1) تفسير ابن كثير ، ج 8 ، ص 342 .
(2) الشعراء ، 58 .
(3) النمل ، 29 .

أحسنها . وقد روي : أنه لم يكتب « بسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم » أحد قبل سليمان . والوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف ، ألا ترىٰ قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير وبالأثير وبالمبرور ، فإن كان لملك قالوا : العزيز ، وأسقطوا الكريم غفلة ، وهو أفضلها خصلة [1] . فنسأل ٱلله تعالىٰ حسن الخاتمة لخلفائنا والثبات علىٰ دينهم الدال علىٰ سبق العناية بتعلق الإرادة لتحقق السعادة داعين ربنا أن يوفق خليفته في أرضه لما يرضي ربه وأن نكون من المتفهمين لحقوق الخليفة علينا وأن نعمل بما يرضيه ويرضي ربنا وأن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ويدخلنا الجنة غير مخزيين ولا مفتونين آمين .

كان الرسول الكريم أحلم في النفار من كل حليم ، وأسلم في الخصام من كل سليم ، وقد مني بجفوة الأعراب فلم توجد منه نادرة ولم يحفر عليه بادرة ولا حليم غيره إلا ذو عثرة ، ولا وقور سواه إلا ذو هفوة ، فإن ٱلله تعالىٰ عصمه من نزغ الهوىٰ وطيش القدرة بهفوة أو عثرة ليكون بأمته رؤوفاً وعلىٰ الخلق عطوفاً قد تناولته قريش بكل كبيرة وقصدته بكل جريرة وهو صبور عليهم ومعرض عنهم ، وما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم ولا أراذلهم دون عظمائهم بل تمالأ عليه الجلة والدون فكلما كانوا عليه من الأمر وألح كان عنهم أعرض وأفصح حتىٰ قهر فعفا وقدر فغفر وقال لهم حين ظفر بهم عام الفتح وقد اجتمعوا إليه : « ما ظنكم بي » ، قالوا : ابن عم كريم فإن تعف فذاك الظن بك ، وإن تنتقم فقد أسأنا [2] ، فقال : « بل أقول كما قال يوسف لأخوته : ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [3] . قال : « اللهُمَّ قد أذقت أول قريش نكالاً فأذق آخرهم

(1) تفسير القرطبي ، ج 13 ، ص 192 .
(2) أعلام النبوة ، ج 1 ، ص 289
(3) يوسف ، 92 .

نوالاً ! » [1] . وأتته هند بنت عتبة وقد بقرت بطن عمه حمزة ولاكت كبده فصفح عنها وأعطاها يده لبيعتها . فإن قيل فقد ضرب رقاب بني قريظة صبراً في يوم أحد وهم نحو سبعمائة فأين موضع العفو والصفح والكرم وقد انتقم انتقام من لم يعطفه عليهم رحمة ولا داخلته لهم رقة ؟ قيل : إنما فعل ذلك في حقوق ٱلله تعالىٰ وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعد بن معاذ عليهم ، فحكم : أن من جرت عليه الموسىٰ ؛ قتل ومن لم تجر عليه ؛ استرقَّ ، فقال رسول ٱلله : « هـٰذا حكم ٱلله من فوق سبعة أرقعة » ، فلم يجز أن يعفو عن حق وجب لله تعالىٰ عليهم وإنما يختص عفوه بحق نفسه [2] . وهـٰذا سلوك من استخلفوا في الأرض بين اللين والشدة تبعاً لما تقتضيه المصلحة فيجعلون لكل ريح شراعاً حتىٰ يكللوا بالنجاح في ما كلفوا به ، فتارة باللين وتارة بالقسوة من غير تفريط ولا معصية ودونما فضاضة ليظهر الكرم الذي ألبسه ٱلله حلته ، وازيَّن بزينته في سلوكه ومنهجه .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إنه لسان الشاكر الذي اعترف بكرم الكريم وجوده وعطائه بدون منة ، وإنه العرفان التام بفضل صاحب الفضل ، فقوله الحمد لله يدل علىٰ أنه لا محمود إلا هو جل جلاله . ولله الحمد والشكر وجوه تتعدد ، والخليفة هو الشاكر له في كل الوجوه والحامد له علىٰ كل حال مع دعواه وتضرعه إليه بالمغفرة والرحمة وهو الرحمـٰن الرحيم .

الأول : أنه تعالىٰ لو لم يخلق داعية الإنعام في قلب المنعم لم ينعم فيكون المنعم في الحقيقة هو ٱلله الذي خلق تلك الداعية .

وثانيها : أن كل من أنعم علىٰ الغير فإنه يطلب بذلك الإنعام عوضاً

(1) أعلام النبوة ، ج 1 ، ص 289 .
(2) المصدر السابق ، ص 288 .

إما ثواباً أو ثناء أو تحصيل حق أو تخليصاً للنفس من خلق البخل ، وطالب العوض لا يكون منعماً ، فلا يكون مستحقاً للحمد في الحقيقة ، أما ٱلله سبحانه وتعالىٰ فإنه كامل لذاته ، والكامل لذاته لا يطلب الكمال ، لأن تحصيل الحاصل محال ، فكانت عطاياه جوداً محضاً وإحساناً محضاً ، فلا جرم كان مستحقاً للحمد ، فثبت أنه لا يستحق الحمد إلا ٱلله تعالىٰ .

وثالثها : أن كل نعمة فهي من الموجودات الممكنة الوجود ، وكل ممكن الوجود فإنه وجد بإيجاد الحق إما ابتداء وإما بواسطة ، ينتج أن كل نعمة فهي من ٱلله تعالىٰ ويؤكد ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [1] .

ورابعها : النعمة لا تكون كاملة إلا عند اجتماع أمور ثلاثة :

أحدها : أن تكون منفعة ، والانتفاع بالشيء مشروط بكونه حياً مدركاً ، وكونه حياً مدركاً لا يحصل إلا بإيجاد ٱلله تعالىٰ .

وثانيها : أن المنفعة لا تكون نعمة كاملة إلا إذا كانت خالية عن شوائب الضرر والغم ، وإخلاء المنافع عن شوائب الضرر لا يحصل إلا من ٱلله تعالىٰ .

وثالثها : أن المنفعة لا تكون نعمة كاملة إلا إذا كانت آمنة من خوف الانقطاع ، وهـٰذا الأمر لا يحصل إلا من ٱلله تعالىٰ ، إذا ثبت هـٰذا فالنعمة الكاملة لا تحصل إلا من ٱلله تعالىٰ ، فوجب أن لا يستحق الحمد الكامل إلا ٱلله تعالىٰ ، فثبت بهـٰذه البراهين صحة قوله تعالىٰ الحمد لله .

وكون الإنسان عاجزاً عن حمد ٱلله وشكره فالوجوه التي تدل عليه هي :

الأول : أن نعم ٱلله علىٰ الإنسان كثيرة لا يقوىٰ عقل الإنسان علىٰ الوقوف

(1) النحل ، 53 .

عليها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [1] . إذا امتنع وقوف الإنسان عليها امتنع اقتداره علىٰ الحمد والشكر والثناء اللائق بها .

الثاني : أن الإنسان إنما يمكنه القيام بحمد ٱلله وشكره إذا أقدره ٱلله تعالىٰ علىٰ ذلك الحمد والشكر ، وإذا خلق في قلبه داعية إلىٰ فعل ذلك الحمد ، والشكر ، فالعبد لا يمكنه الإتيان بالشكر والحمد إلا عند الإتيان به مراراً لا نهاية لها ، وذلك محال ، والموقوف علىٰ المحال محال .

الثالث : أن الحمد والشكر ليس معناه مجرد قول القائل بلسانه الحمد لله ؛ بل معناه علم المنعم عليه بكون المنعم موصوفاً بصفات الكمال والجلال وكل ما خطر ببال الإنسان من صفات الكمال والجلال فكمال ٱلله وجلاله أعلىٰ وأعظم من ذلك المتخيل والمتصور ، وإذا كان كذلك امتنع كون الإنسان آتياً بحمد ٱلله وشكره وبالثناء عليه .

الرابع : أن الاشتغال بالحمد والشكر معناه أن المنعم عليه يقابل الإنعام الصادر من المنعم بشكر نفسه وبحمد نفسه وذلك بعيد لوجوه :

أحدها : أن نعم ٱلله كثيرة لا حد لها فمقابلتها بهـٰذا الاعتقاد الواحد وبهـٰذه اللفظة الواحدة في غاية البعد .

وثانيها : أن من اعتقد أن حمده وشكره يساوي نعم ٱلله تعالىٰ فقد ضلّ .

وثالثها : أن الإنسان محتاج إلىٰ إنعام ٱلله في ذاته وفي صفاته وفي أحواله ، وٱلله تعالىٰ غني عن شكر الشاكرين وحمد الحامدين ، فكيف يمكن مقابلة نعم ٱلله بهـٰذا الشكر وبهـٰذا الحمد ، فثبت بهـٰذه الوجوه أن العبد عاجز عن الإتيان بحمد ٱلله وبشكره فلهـٰذه الدقيقة لم يقل أحمدوا ٱلله ، بل قال الحمد لله لأنه لو قال احمدوا ٱلله فقد كلفهم ما لا طاقة لهم به ، أما لما قال الحمد لله كان المعنىٰ أن كمال الحمد حقه وملكه ولا حمد إلا له عز وجل ،

(1) إبراهيم ، 34 .

سواء قدر الخلق علىٰ الإتيان به أو لم يقدروا عليه ؛ ونقل أن داود عليه الصلاة والسلام قال : « يا رب كيف أشكرك وشكري لك لا يتم إلا بإنعامك عليّ وهو أن توفقني لذلك الشكر ؟ فقال : يا داود لما علمت عجزك عن شكري ؛ فقد شكرتني بحسب قدرتك ، وطاقتك [1] .

حمد الكريم :

يجب علينا أن نبحث عن حقيقة الحمد وماهيته فنقول : تحميد ٱلله تعالىٰ ليس عبارة عن قولنا الحمد لله ، لأن قولنا الحمد لله إخبار عن حصول الحمد ، والإخبار عن الشيء مغاير للمخبر عنه ، فوجب أن يكون تحميد ٱلله مغايراً لقولنا الحمد لله ، فنقول : حمد المنعم عبارة عن كل فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعماً . وذلك الفعل إما أن يكون فعل القلب ، أو فعل اللسان ، أو فعل الجوارح ، أما فعل القلب فهو أن يعتقد فيه كونه موصوفاً بصفات الكمال والإجلال وفي هـٰذا الأمر يترسخ الإيمان الذي لا يكمن إلا في القلب السليم (إنه قلب الخليفة) ، وأما فعل اللسان فهو أن يذكر ألفاظاً دالة علىٰ كونه موصوفاً بصفات الكمال وفي هـٰذا الأمر يتضح القول الحق (الصدق) الذي به تطمئن القلوب ، التي آمنت في الفقرة الأولىٰ وفيه يتميز الكلم للذين لا يقولون إلا ما يفعلون ، ومن هنا يتميز الخليفة بقوله الذي يتماثل مع الفعل الحق . وأما فعل الجوارح فهو أن يأتي بأفعال دالة علىٰ كون ذلك المنعم موصوفاً بصفات الكمال والإجلال فعندما يتطابق القلب مع ما يقال مع ما يُفعل تصبح العلامة الصادقة كما في قوله تعالىٰ : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [2] ، وهـٰذا التماثل هو من صفات الخليفة بالإضافة ، وهو المراد من اسمه الكريم جل جلاله .

---

(1) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 201 .

(2) الفتح ، 29 .

وكما جاء في تفسير الرازي في مسألة الحمد فقد افترق العلماء في هـٰذا المقام إلىٰ فريقين :

الفريق الأول : الذين قالوا : إنه لا يجوز أن يأمر ٱلله عبيده بأن يحمدوه ، واحتجوا عليه بوجوه :

الأول : أن ذلك التحميد إما أن يكون بناءً علىٰ إنعام وصل إليهم أولاً وبناءً عليه ، فالأول باطل ، لأن هـٰذا يقتضي أنه تعالىٰ طلب منهم علىٰ إنعامه جزاء ومكافأة ، وذلك يقدح في كمال الكرم ، فإن الكريم إذا أنعم لم يطلب المكافأة .

وأما الثاني : فهو إتعاب للغير ابتداء ، وذلك يوجب الظلم .

والثالث : قالوا الاشتغال بهـٰذا الحمد متعب للحامد وغير نافع للمحمود ، لأنه كامل لذاته ، والكامل لذاته يستحيل أن يستكمل بغيره ، فثبت أن الاشتغال بهـٰذا التحميد عبث وضرر ، فوجب أن لا يكون مشروعاً .

والرابع : أن معنىٰ الإيجاب هو أنه لو لم يفعل لاستحق العقاب ، فإيجاب حمد ٱلله تعالىٰ معناه أنه قال لو لم تشتغل بهـٰذا الحمد لعاقبتك ، وهـٰذا الحمد لا نفع له في حق ٱلله ، فكان معناه أن هـٰذا الفعل لا فائدة فيه لأحد ، ولو تركته لعاقبتك أبد الآباد ، وهـٰذا لا يليق بالحكم الكريم . الفريق الثاني : قالوا الاشتغال بحمد ٱلله سوء أدب من وجوه :

الأول : أنه يجري مجرىٰ مقابلة إحسان ٱلله بذلك الشكر القليل .

الثاني : أن الاشتغال بالشكر لا يتأتىٰ إلا مع استحضار تلك النعم في القلب ، واشتغال القلب بالنعم يمنعه من الاستغراق في معرفة المنعم .

الثالث : أن الثناء علىٰ ٱلله تعالىٰ عند وجدان النعمة يدل علىٰ أنه إنما أثنىٰ عليه لأجل الفوز بتلك النعم ، وذلك يدل علىٰ أن مقصوده من العبادة والحمد والثناء الفوز بتلك النعم ، وهـٰذا الرجل في الحقيقة معبوده ومطلوبه إنما هو

تلك النعمة وحظ النفس ، وذلك مقام نازل [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴾ [2] . قَالَ مجيباً عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من ذلك : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ﴾ وكان الظاهر علىٰ هـٰذا الاقتصار علىٰ التعرض بما فعل مع الأخ إلا أنه عليه الصلاة والسلام تعرض لما فعل به أيضاً لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما ، فإن المراد بذلك إفرادهم له عنه وإذلاله بذلك حتىٰ كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز ، والاستفهام ليس عن العلم بنفس ما فعلوه لأن الفعل الإرادي مسبوق بالشعور لا محالة ، بل هو عما فيه من القبح بدليل قوله : ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴾ أي هل علمتم قبح ما فعلتموه زمان جهلكم قبحه وزال ذلك الجهل أم لا ؟ وفيه من إبداء عذرهم وتلقينهم إياه ما فيه كما في قوله تعالىٰ : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [3] والظاهر لهـٰذا أن ذلك لم يكن تشفياً بل حثاً علىٰ الإقلاع ونصحاً لهم لما رأىٰ من عجزهم وتمسكنهم ما رأىٰ مع خفي معاتبة علىٰ وجود الجهل وأنه حقيق الانتفاء في مثلهم ، فللّه تعالىٰ هـٰذا الخلق الكريم كيف ترك حظه من التشفي إلىٰ حق ٱلله تعالىٰ علىٰ وجه يتضمن حق إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام أيضاً والتلطف في إسماعه مع التنبيه علىٰ أن هـٰذا الضر أولىٰ بالكشف ، للناظر أن يرىٰ كيف أوجد ٱلله هـٰذا السلوك في خليفته فلم يدعُ نفسه للثأر من إخوته حين تملكه القدرة بل كان عند حسن ظن ربه به فهل لنا الاقتداء بهم ؟ والظاهر أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما رأىٰ ما رأىٰ منهم وهو من أرق خلق ٱلله تعالىٰ قلباً وكان قد بلغ الكتاب أجله شرع في كشف أمره فقال ما قال [4] .

---

(1) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 207 .
(2) يوسف ، 89 .
(3) الانفطار ، 6 .
(4) تفسير الآلوسي ، ج 9 ، ص 119 .

إكرام الكافر بالجحيم :

قال تعالىٰ : ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ (1) . قال قتادة : نزلت في أبي جهل وكان قد قال : ما فيها أعز مني ولا أكرم ، فلذلك قيل له : ذق إنك أنت العزيز الكريم . وقال عكرمة : التقىٰ النبي ﷺ وأبو جهل فقال النبي ﷺ : « إن ٱلله أمرني أن أقول لك أولىٰ لك فأولىٰ » فقال : بأي شيء تهددني ! وٱلله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً ، إني لمن أعز هٰذا الوادي وأكرمه علىٰ قومه (2) . فقتله ٱلله يوم بدر وأذله ونزلت هٰذه الآية . أي يقول له الملك : ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك . وقيل : هو علىٰ معنىٰ الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص ، أي قال له : إنك أنت الذليل المهان . وهو كما قال قوم شعيب لشعيب : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ (3) يعنون السفيه الجاهل في أحد التأويلات علىٰ ما تقدم . وهٰذا قول سعيد بن جبير (4) . في هٰذا إشارة واضحة إلىٰ وجوب ردع الطغاة والظالمين ، فللخليفة أن يردع هٰذا الصنف من الرعية ، فإن من كرم الكريم أن ينزع اللئيم عن طريق السالكين علىٰ نهجه القويم ليظهر كرمه ، وتستقيم الرعية علىٰ طريق الحق الذي أمر ٱلله سبحانه باتباعه وذلك بتوجيه الخليفة لهم ولا يترك المفسدين يعيثون في الأرض فساداً .

الاستغفار سلاح الكريم :

قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (5) . المراد بالآية قيل : وجعلها بعضهم

---

(1) الدخان ، 49 .
(2) أخبار مكة للفاكهي ، ج 5 ، ص 57 .
(3) هود ، 87 .
(4) تفسير القرطبي ، ج 16 ، ص 151 .
(5) الممتحنة ، 4 .

كناية عن الاستغفار ؛ لأن عدة الكريم خصوصاً مثل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لا سيما إذا أكدت بالقسم يلازمها الإنجاز وليس بلازم كما لا يخفىٰ ، وكأن هـٰذه العدة غير العدة السابقة في سورة مريم في قوله تعالىٰ حكاية عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ ولعلها وقعت منه عليه الصلاة والسلام بعد تلك تأكيداً لها وحكيت ههنا علىٰ سبيل الاستثناء [1] . ما يقال في هـٰذا : أن يكون الخليفة كريماً حتىٰ مع أعداء ٱلله رجاء في إيمانهم ؛ لأن هدفه هو أن يتبع المستخلفين ما جاء به الخليفة من ربه لينجح في ما كلف به . ولأن استغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر بمعنىٰ أن يوفقه ٱلله تعالىٰ للتوبة ويهديه سبحانه للإيمان وإن كان جائزاً عقلاً وشرعاً لوقوعه قبل تبين أنه من أصحاب الجحيم وأنه يموت علىٰ الكفر كما دل عليه ما في سورة التوبة [2] .

قال رسول ٱلله ﷺ : « الْمُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ لا فَضْلَ لأَحَدٍ عَلَىٰ أَحَدٍ إلا بِالتَّقْوَىٰ » [3] . ومن جملة خطبته ﷺ عَن ابْنِ عُمَرَ ، أَنَّ رسول ٱلله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ ٱللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاسُ رَجُلاَنِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَىٰ ٱللهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَىٰ ٱللهِ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ ٱللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ، قَالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [4] وقَالَ رسول ٱلله ﷺ : « إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِمَسَبَّةٍ عَلَىٰ أَحَدٍ كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَؤُوْهُ ، لَيْسَ لأَحَدٍ عَلَىٰ أَحَدٍ فَضْلٌ إِلاَّ بِدِينٍ أَوْ

(1) تفسير الآلوسي ، ج 20 ، ص 457 .
(2) تفسير الآلوسي ، ج 20 ، ص 457 .
(3) المعجم الكبير للطبراني ، ج 4 ، ص 18 .
(4) الحجرات ، 13 .

تَقْوَىٰ »[1] . وقوله ﷺ : « الناس سواء كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية »[2] أي كلهم متساوون في الصور وإنما يتفاوتون بالأعمال . ولأن ٱلله جعل في الأرض خليفة وخلقه في أحسن تقويم ، إذاً بطبيعة الحال في أساس الخلق لا فرق بين عبد وعبد ، الكل عبيد ٱلله ، ولـٰكن الفرق يأتي عندما يرضىٰ أحد أن يكون عبداً لغير ٱلله ، ولهـٰذا جاء الإسلام برسالته الخاتمة ليحرر العبيد من قبضة العبيد ، والخليفة هو الخليفة حيث ظل ٱلله في أرضه ، ولـٰكن الناس غير الناس ، فالتفاوت موجود بين المستخلفين في الأرض في كل زمن وحين ، ولهـٰذا يجب علىٰ الخلائف أن يتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ ، ولا يتعاونوا علىٰ الإثم والعدوان ، وأن يستغفروا ٱلله عن كل خطيئة أو ذنب اقترفوه ، والحمد لله رب العالمين الذي بكرمه يغفر كل ذنب بمشيئته جل جلاله .

قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾[3] . ليس المراد من قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود ، ولـٰكنها مرادة قطعًا من هـٰذه الآية ، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطر لتهدمت أبنيتها ، فيسوق ٱلله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشىٰ أرض مصر ، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلىٰ ذلك الماء ، وذلك الطين أيضًا لينبُتَ الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة علىٰ ماء جديد ممطور في غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء . كما قال تعالىٰ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

---

(1) مسند أحمد ، ج 35 ، ص 314 .

(2) أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني ، ج 1 ، ص 208 .

(3) السجدة ، 27 .

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [1] . والأرض الجرز التي ورد ذكرها في الآيات الكريمة السابقة هي الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها وهي التي إذا ما هطلت الأمطار عليها أعطت بفضل الكريم المطلق ، ولهٰذا علىٰ الكريم بالإضافة أن يعمل بفضل الكريم المطلق الذي جاء بالماء إليه من بلد بعيد سيولاً وأنهاراً أو أمطاراً وليتقِ ٱلله ربه فيما يعمل . قال عِكْرِمة ، وغيره : الأرض الجرز : التي لا نبات فيها ، وهي مغبرة . قلت : وهٰذا كقوله : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [2] .

قال تعالىٰ : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [3] .

يقول تعالىٰ مخبرًا عن استعجال الكفار وقوعَ بأس ٱلله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم ، استبعادًا وتكذيبًا وعناداً : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ ؟ أي : متىٰ تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتًا تُدَال علينا ، ويُنْتَقم لك منا ، فمتىٰ يكون هٰذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال ٱلله تعالىٰ : ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ أي : فتح ٱلله وهو يوم أن يقول للشيء كن فيكون إنه اليوم الذي يأذن ٱلله فيه لنا بالنصر ، يومها ستجدون ما قلت لكم حقاً ، ويومها يكون النصر حليفنا بإذن ٱلله صاحب الأمر ومالك الملك جل جلاله . وإذا حَلَّ بكم بأس ٱلله وسَخَطه وغضبه في الدنيا وفي

---

(1) عبس ، 24 ـ 32 .

(2) يس ، 33ـ 35 .

(3) السجدة ، 28ـ 30 .

الأخرىٰ ، ﴿ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ ، ومَنْ زعم أن المراد من هـٰذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النَّجْعة ، فإن يوم الفتح قد قَبِل رسولُ آلله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريبًا من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ؛ لقوله : ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل ، كقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (1) . وقوله : ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (2) . ثم قال : ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي : أعرض عن هـٰؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله : ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (3) . وانتظر فإن آلله سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك علىٰ من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد .

وقوله : ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي : أنت منتظر ، وهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ، ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴾ (4) ، وسترىٰ أنت عاقبة صبرك عليهم وعلىٰ أداء رسالة آلله ، في نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غداً ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك ، من وبيل عقاب آلله لهم ، وحلول عذابه بهم ، وحسبنا آلله ونعم الوكيل ، وآلله أعلم (5) .

وأيضاً فإن فروض الصلاة أكثر من سائر الأعمال ونقتصر منه علىٰ بعض ما تضمنه إكرام آلله تعالىٰ للخليفة في أمر العبادات :

(1) الشعراء ، 118 .
(2) سبأ ، 26 .
(3) الأنعام ، 106 .
(4) الطور ، 30 .
(5) تفسير ابن كثير ، ج 6 ، ص 374 .

ـ **الشهادة** : كانت الشهادة توحيداً واعياً ، وإدراكاً تاماً بالواحد الأحد عز وجل ، ومساواة تامة بين المستخلفين في الأرض لِئَلا يكون أحد منهم عبداً لغير ٱلله تعالىٰ .

ـ **الصلاة** : ولأن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر كانت تؤدىٰ خمس مرات إكراماً من ٱلله لخلائفه في الأرض ، واعترافاً كريماً منهم أن يؤدوها في أوقاتها . إن فرض الصلاة كان رحمة علىٰ رسول ٱلله وعلىٰ العباد المستخلفين في الأرض لأن يلتقوا في اليوم الواحد خمس مرات في الجامع الذي لا يفرق بين من آمن وعمل صالحاً . ولذا يتفقد المؤمنون بعضهم بعضاً كل يوم وليزدادوا رابطة وقوة برابطة الحق وقوته .

ـ **الزكاة** : علىٰ رأس المكارم المادية والروحية ، فهي تعطىٰ عيناً ، وتطهر الأنفس وتصفيها مع الحق وعليه . وذلك لأجل أن يتزكىٰ الملك ، وتتزكىٰ النفس المتزكية مما تملك وفقاً لما أمر الكريم به . فالزكاة هي مفتاح الكرم المباشر ثم تليها الصدقات التي تزيل المصائب والبلايا . اللهُمَّ احفظنا أجمعين وارض عنا وعن البنين والزوجات والوالدين وصحابتنا ومشايخنا وصحابة رسول ٱلله وأمهاتنا زوجات الرسول ﷺ . وبهٰذا الكرم كان الإنسان خليفة لله جل جلاله ، يتزكىٰ ويتطهر ، وهو بهٰذا يزداد كرماً حتىٰ يخلف الكريم في الأرض ويرثه بالجنة .

ـ **الصوم** : اعتراف بالحق الذي غفل الخليفة عنه لأي مسبب من الأسباب فالكمال لله وحده ، فجاءت فريضة الصوم ليتذكر الخليفة ذوي العلاقة به من العباد وفقاً لما أمر به تعالىٰ ، فيصوم حتىٰ يحس بحاجة الفقير ويقدم علىٰ إشباعها ما استطاع في ذلك سبيلاً ، ويتصدق ليصوِّبَ نفسه عن غفلتها وبعدها يكون له العيد بعد إتمامه صوم شهر رمضان الكريم ، وتكون له أعياد في الجنة .

ـ **الحج** : الحج احتفال روحي كبير يتم فيه إظهار القوة واللحمة والوحدة بين العباد المستخلفين في الأرض ليظهروا إيمانهم جهاراً نهاراً وليلاً مخافة من الواحد الأحد ، الذي أمر بذلك لمن استطاع إليه سبيلاً . فالحج نجاة من الكفر والشرك ، والتزامٌ تامٌ بطاعة ٱلله ورسوله الكريم الذي جاء بالرسالة الخاتمة صلوات ٱلله وسلامه عليه . في الحج يلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ليتعارفوا مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) .

ـ **الجهاد** : كرم من كريم لأن يضحي الخليفة بنفسه في سبيل إحقاق الحق الذي يرضاه خالقه ، وهو ليس بقتال ، ويحتوي علىٰ الآتي :

1 ـ جهاد النفس حتىٰ لا تنغمس في الرذيلة والشهوات التي تلهيها عن ذكر ٱلله عز وجل أو تجعلها في حالة غفلة فتعمىٰ بصيرتها التي بها تدرك ٱلله والحق جلياً .

2 ـ جهاد المال وهو علىٰ المستطاع به إن لم يكن بالنفس قديراً ، فيكون صرفه في وجه يرتضيه ٱلله تعالىٰ فيجعل صاحبه وريثاً في الجنة بعد استخلاف في الأرض .

3 ـ جهاد القول بالكلمة المحرِّضة علىٰ الفداء دون الدين ، والوطن ، والشرف ، والعِرض ، ولذلك قائل كلمة الجهاد ناطق بالشهادة ، وقائل كلمة الحق مستخلفٌ في الأرض ، ووارث في الجنة . قول المعروف في كل مكان وزمان جهاد يستوجب التقدير والاحترام وذلك لأن ٱلله تعالىٰ مجازٍ عليه العباد بالاستخلاف في الأرض ، وإراث الجنة .

(1) الحجرات ، 13 .

4 ـ جهاد العين الناظرة فيما ترىٰ حتىٰ لا تقدم علىٰ حرام أو تشهد زوراً .

5 ـ جهاد اليد بالعمل الصالح وإصلاح ما يفسده المفسدون في الأرض ومنع سفك الدماء فيها بغير حق . اليد الصالحة تبني وتعمل حلالاً ، وتقبض علىٰ الأيدي المفسدة وتحول بين اليد التي تحاول الإفساد في الأرض .

6 ـ جهاد السمع بالبعد عن مشاركة القائلين للكلام الحرام والعاملين عليه ، فالخليفة هو الذي يستمع إلىٰ الحق ويتبعه كاملاً ، ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (1) .

7 ـ جهاد الحواس بتمتعها في كل ما من شأنه حلال ، ومنعها عن ملامسة الحرام ، أو المنهي عنه ، فمن يفعل ذلك كان من المستخلفين الكرام في الأرض ، والوارثين الجنة .

8 ـ جهاد النية وهي التي بها تتطهر النفس من كل ظن حيث إن بعض الظن إثم .

9 ـ جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو جهاد يُرسخ الخليفة به كرامته ورضاء ٱلله عليه بالعمل علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

10 ـ جهاد الاستغفار علىٰ ما فات والتكفير عنه ، بالطاعات التامة بالصلات والصدقة والإسراع إلىٰ أفعال الخير .

---

(1) المائدة ، 41 .

11 ـ جهاد الحاضر : هو الذي به يعتصم الخليفة عن الطمع في الدنيا علىٰ حساب الآخرة ، فيتقي ٱلله ربه . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] .

12 ـ جهاد المستقبل : بأن يكون له طموح دائم علىٰ العمل الصالح ومناصرة المظلوم والقبول بالشهادة في سبيل ٱلله تعالىٰ وفي سبيل الوطن إذا تعرض لاحتلالٍ، أو غزوٍ من أجنبي . قال تعالىٰ : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [3] .

وعليه فأصحاب المكارم بالجهاد والعمل الصالح لهم حسن مآب ، قال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ [4] . قال رسول ٱلله ﷺ : « ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلىٰ طوبىٰ ، فتفتح له أكمامها ، فيأخذ من أي ذلك شاء ، إن شاء أبيض ، وإن شاء أحمر ،

---

(1) آل عمران ، 145 .
(2) البقرة ، 283 ـ 284 .
(3) البقرة ، 133 .
(4) الرعد ، 29 .

وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود ، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن »[1] .

ولأن ٱلله يُريد الخليفة كريماً قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ۝٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[2] .

يقـول تعـالـىٰ آمـرًا بـالاقتصـاد فـي العيـش ذامّـاً للبخـل نـاهيًـا عـن السَّرَف : وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ أي : لا تكن بخيلاً منوعاً ، لا تعطي أحدًا شيئاً ، كما قالت اليهود عليهم لعائن ٱلله : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾[3] . أي نسبوه إلىٰ البخل ، تعالىٰ وتقدس الكريم الوهاب .

وقوله : ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ أي : ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك ، وتخرج أكثر من دخلك ، فتقعد ملومًا محسورًا . ومتىٰ بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلا شيء تنفقه ، فتكون كالحسير ، وهو : الدابة التي قد عجزت عن السير ، فوقفت ضعفًا وعجزًا ، وهو مأخوذ من الكلال ، كما قال تعالىٰ : ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾[4] كليلاً عن أن يرىٰ عيباً . هٰكذا فسر هٰذه الآية ـ بأن المراد هنا البخل والسرف ـ ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم . وعن أبي هريرة ، أنه سمع رسول ٱلله ﷺ يقول : « مثل البخيل والمنفق ، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما إلىٰ تراقيهما . فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغَت ـ أو وفرت ـ علىٰ جلده ، حتىٰ تُخفي بنانه وتعفو أثره . وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة

(1) رواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة برقم 146 .
(2) الإسراء ، 29 ـ 30 .
(3) المائدة ، 64 .
(4) الملك ، 3 ـ 4 .

مكانها ، فهو يوسعها فلا تتسع »[1] ، وعن أسماء بنت أبي بكر ؛ قالت : قال رسول ٱلله ﷺ : « أنفقي هٰكذا ، وهٰكذا ، وهٰكذا ، ولا تُوعِي ؛ فَيُوعي ٱلله عليك ، ولا توكي ؛ فيوكي ٱلله عليك » وفي لفظ : « ولا تُحصي ؛ فيحصي ٱلله عليك »[2] .

إكرام الضيف :

قال تعالىٰ : ﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾[3] . الاستطعام كان طلباً للطعام علىٰ وجه الضيافة بأن يكونا قد قالا : إنا غريبان فضيفونا أو نحو ذلك كما يشير إليه التعبير بقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ دون فأبوا أن يطعموهما مع اقتضاء ظاهر ﴿ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا ﴾ إياه ، وإنما عبر باستطعما دون استضافا للإشارة إلىٰ أن جل قصدهما الطعام دون الميل بهما إلىٰ منزل وإيوائهما إلىٰ محل . وذكر بعضهم أن في ﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ من التشنيع ما ليس في أبوا أن يطعموهما ؛ لأن الكريم قد يرد السائل المستطعم ، ولا يعاب كما إذا رد غريباً استضافه ، بل لا يكاد يرد الضيف إلا لئيم ، ومن أعظم هجاء العرب : فلان يطرد الضيف . وعن قتادة : أنه قال : « شر القرىٰ التي لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه »[4] . وقيل : إنما خص سبحانه الاستطعام بموسىٰ والخضر عليهما السلام والضيافة بالأهل لأن الاستطعام وظيفة السائل والضيافة وظيفة المسؤول لأن العرف يقضي بذلك فيدعو المقيم القادم إلىٰ منزله يسأله ويحمله إليه . ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا ﴾ روي : أنهما التجآ إليه حيث لم يجدا مأوىً وكانت ليلتهما ليلة باردة وكان علىٰ شارع الطريق ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾

---

(1) صحيح البخاري ، ص 1443 .

(2) صحيح البخاري ، ص 1433 .

(3) الكهف ، 77 .

(4) تفسير الآلوسي ، ج 11 ، ص 356

أي يسقط والمعنىٰ يريد أن يتفتت فيصير حصىٰ . انتهىٰ [1] . وعليه فالمكارم تُجنِّب العباد المصائب ، اللهم اجعلنا من عبادك الكرماء ولا تجعلنا من المسرفين ولا المبذرين ولا البخلاء وزدنا صفاءً ونقاءً ، وأعنا علىٰ الدنيا ، وارحمنا بالاستخلاف فيها ، واجعلنا من الوارثين ، وأرضَ عنا ، وعن الوالدين ، والأبناء ، والزوجات ، والصحابة ، وأمهاتنا زوجات الرسول ، صلىٰ ٱلله عليه وسلم تسليماً .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [2] . أي قدم الكلمة الطيبة التي تفيد وتنفع وتصلح ولا تفسد ولا تثير الغضب ، واصبر وما صبرك إلا بٱلله العظيم ، وادفع بالحسنة التي هي أحسن الحسنات التي يدفع بها السيئة بأن تحسن إلىٰ المسيء ما استطعت ، وادفع بالحسنة السيئة ، وجوز أن تعتبر المفاضلة بين الحسنة والسيئة علىٰ معنىٰ أن الحسنة في باب الحسنات أزيد من السيئة في باب السيئات ، ويطرد هـٰذا في كل مفاضلة بين ضدين كقولهم : العسل أحلىٰ من الخل فإنهم يعنون أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة ، ومن هـٰذا القبيل ما يحكىٰ عن أشعب الماجن أنه قال : نشأت أنا والأعمش في حجر فلان فما زال يعلو وأسفل حتىٰ استوينا فإنه عنىٰ استواءهما في بلوغ كل منهما الغاية حيث بلغ هو الغاية في التدلي والأعمش الغاية في التعلي [3] . وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في « الحلية » عن أنس أنه قال في الآية : يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول : إن كنت كاذباً فأنا أسأل ٱلله تعالىٰ أن يغفر لك ، وإن كنت صادقاً فأنا أسأل ٱلله تعالىٰ أن يغفر لي . وقيل : التي هي أحسن شهادة أن لا إلـٰه إلا ٱلله

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 11 ، ص 357 .

(2) المؤمنون ، 96 ـ 98 .

(3) تفسير الآلوسي ، ج 7 ، ص 445 .

والسيئة الشرك ، وقال عطاء ، والضحاك : التي هي أحسن السلام والسيئة ، وقيل : الأول الموعظة والثاني المنكر ، واختار بعضهم العموم وأن ما ذكر من قبيل التمثيل . ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أي بوصفهم إياك أو بالذي يصفونك به مما أنت بخلافه ، وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة وتسلية لرسول ٱلله ﷺ وإرشاد له عليه الصلاة والسلام إلىٰ تفويض أمره إليه عز وجل . وهـٰذا ما يكون عليه الخليفة في تفويض أمره إلىٰ ٱلله عز وجل ، فيكون أكثر صوناً واعترافاً لربه ورعاية لمستخلفيه ، وٱلله يهدي إلىٰ سواء السبيل [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [2] . وقيل : لعلهم يقولون : سبحانك اللهُمَّ عندما يعاينون من تعاجيب آثار قدرته تعالىٰ ونتائج رحمته ورأفته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر تقديساً لمقامه تعالىٰ عن شوائب العجز والنقصان ، وتنزيهاً لوعده الكريم عن سمات الخلف ، ويكون خاتمة دعائهم أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين نعتاً له تعالىٰ شأنه بصفات الإكرام إثر نعته بصفات الجلال ، والمعنىٰ دعاؤهم منحصر فيما ذكر إذ ليس لهم مطلب مترقب حتىٰ ينظموه في سلك الدعاء ، ولعل توسيط ذكر تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسل إلىٰ ختم الحكاية بالتحميد تبركاً .

وعليه يكون الخليفة جاداً في تهـٰذيب مستخلفيه بدءاً بإكرامهم بالتحية وغرسها في نفوسهم ، فينشؤوا علىٰ المحبة والكرم ؛ لأنه مسؤول عن تصرفات مستخلفيه أمام ربه ، يكون قد نجا من غضب ربه إذا ما نصح وأمر بما يرضي ربه [3] . فنسأل ٱلله الكريمَ المنانَ القادرَ علىٰ ما يشاء ، أن يخلّصنا مما يُسْخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام

(1) تفسير الآلوسي ، ج 7 ، ص 445 .
(2) يونس ، 10 .
(3) تفسير الآلوسي ، ج 7 ، ص 445 .

بمقتضاه آناء الليل وأطرافَ النهار ، إنه الأكرم الكريم والأرحم الرحيم ، والحمد لله رب العالمين .

اللهُمَّ يا الكريم ما لدينا من فضل وكرم هو من فضلك وكرمك فاجعل أنفسنا كريمات الدعاء سخيات العطاء فنكون ممن كرّمتهم بالجنة ! اللهُمَّ اغفر لنا واجعلنا من المكرمين ! اللهُمَّ يا الكريم أكرمنا بعلمٍ مفيد وعقلٍ سديد ونفسٍ مطمئنة آمنة مستقرة ، وأسبغ علينا كرمك فما من فضلٍ إلا منك وما من كرمٍ يفوق كرمك يا الكريم ! اللهُمَّ أكرمنا في الدنيا والآخرة كرماً نكون فيه من السعداء أنت ولينا سبحانك فلا نطلب ولا نسعىٰ إلا إليك متيقنين أن كرمك سيصيبنا لأنك أنت الكريم سبحانك جل جلالك .

اللهُمَّ إنك الكريم نسألك أن تكون حياتنا مكرَّمة بكرمك وجودك وفضلك وعزتك وغناك وقدرتك وعلمك وحكمتك ، اللهُمَّ يا الكريم إننا نتوجّه إليك بالمطالب فلا تجعلنا من الذين يتوجهون إلىٰ سواك ! اللهُمَّ أجب مطالبنا بواسع رحمتك فنرفع آيادينا إليك فلا تردها خائبة ، وتتوجه قلوبنا إليك فاجعلها راضية مسرورة ، وتتوجه أنفسنا إليك فاجعلها آمنة مطمئنة ، ونتوجه بحاجاتنا إليك فاجعلها بمايشبعها مجابة !

اللهُمَّ إنك الكريم نسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه عبدك ونبيك . اللهُمَّ إنك الكريم فنسألك الجنة ، ونعوذ بك من النار ، ونسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لنا خيراً ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين أكرمتهم في الدنيا والآخرة ولا تجعلنا من الخاسرين .

نسألك يا الكريم مغفرة كلِّ ما أحاط به علمك من ذنوبنا ، والتجاوز عن كل ما كان منا ، إنك الجواد تحب الجود ! اللهُمَّ بك نعوذ ، وبك نلوذ ! اللهُمَّ اجعل لنا في اللهف إلىٰ جودك ، والرضا بضمانك مندوحة عن منع البخلاء ، وغنىً لا عوز من بعده إلا الفوز بالجنة !

الرَّقِيبُ جلَّ جلاله

الرقيب « المطلع علىٰ ما أكنته الصدور ، القائم علىٰ كل نفس بما كسبت » [1] .

الرقيب « هو العليم الحفيظ فمن راعىٰ الشيء حتىٰ لم يغفل عنه ولاحظه ملاحظة دائمة لازمة لزوماً لو عرفه الممنوع عنه لما أقدم عليه سمي رقيباً » [2] .

واسم ٱلله الرقيب « يدل علىٰ ذات ٱلله وصفة الرؤية والمتابعة بدلالة المطابقة ، وعلىٰ ذات ٱلله وحدها بالتضمن ، وعلىٰ صفة الإبصار وحدها بدلالة التضمن ، ويدل باللزوم علىٰ الحياة والقيومية ، والعلم والهيمنة ، والإحاطة والقوة والعظمة والعزة ، وكل ما يلزم لقيام معنىٰ المراقبة المطلقة ودوامها وما يترتب عليها » [3] .

الحمد لله القائم علىٰ كل نفس بما كسبت ، الرقيب علىٰ كل جارحة بما اجترحت ، المطلع علىٰ ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب علىٰ خواطر عباده إذا اختلجت ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب علىٰ النقير والقطمير والقليل والكثير

---

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 58 .

(2) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 117 .

(3) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 14 ، ص 24 .

من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت . وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت ، فسبحان من عمّت نعمته كافة العباد وشملت ، واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت ، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت ، وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت ، وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت ، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت . فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء ، والصلاة والسلام علىٰ محمد سيد الأنبياء وعلىٰ آله سادة الأصفياء وعلىٰ أصحابه قادة الأتقياء [1] .

ومن يراقب ٱلله يعلم بأن ٱلله عزّ وجلّ علمه يحيط بخلقه وهم في أحوال العدم والوجود والظهور والقبور والبعث والنشور ، ومن علمه المحيط المطلق أنه سبحانه وتعالىٰ خلق المخلوقات لحكمة لا يعلمها إلا هو ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] . ومن تلك الحكمة أنه سبحانه وتعالىٰ خلق الإنسان ليكون الخليفة علىٰ الأرض فيعمرها ويصلحها ولا يفسدها ، يقول ٱلله تعالىٰ للخليفة في الأرض : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [3] ، ويقول تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [4] ويقول تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ

---

(1) إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 479 .
(2) يس ، 79 .
(3) الأعراف ، 142 .
(4) المائدة ، 64 .

نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [1] ولسان حال الخليفة الذي يبغي الإصلاح في الأرض ويراقب ٱلله ويعلم أن ٱلله يراقبه يقول مستعيناً بٱلله : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [2] ، وطالما أن الخليفة لا يفسد في الأرض فهو من فريق المصلحين ، وٱلله لا يضيع عمله سدىً وسيكافئه عليه بما يليق يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [3] لذا فالخليفة لا يبغي إلا الإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً ، إنه الفاعل للخير المبعد عن الشر ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [4] وٱلله سبحانه وتعالىٰ أعطىٰ الخليفة من المقوِّمات التي تعينه علىٰ ذلك من جوارح تطيعه ولا تعصيه من يد تبطش وتدمر أو تحنو وتعمّر ورجل تمشي في الشر والفساد أو تخطو للطاعة والرشاد وعين تبصر آلاء الرحمٰن أو تنتهك الحرمات وتهيم في العصيان وأذن تسمع للعلم ودلائل الإيمان أو تتجسس لتعرف ما لا يحق لها ولا يجوز أن تخرجه من طي الكتمان ، وهٰذه النعم وغيرها وإنّ كانت في طاعة الإنسان ؛ إلا أنها رقيبة عليه وشاهدة لما يرتكب من أعمال حسنة أو سيئة ، وٱلله جل جلاله وعلا ذكره يراقب الإنسان بحفظه لأعماله من خير وشر ، فهو جلّ جلاله قد كلّف من الملائكة الحفظة الذين يقومون بهٰذا العمل حتىٰ يحاسب الإنسان علىٰ أعماله خيراً بخير وشرّاً بما يليق به ، ويظهر أثر عمله عليه ، فعَنْ جُنْدُبِ بن سُفْيَانَ ، قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « مَا أَسَرَّ عَبْدٌ سَرِيرَةً إلا أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَها إنْ خَيْراً فَخَيْرٌ وَإِنْ

(1) القصص ، 77 .
(2) العنكبوت ، 30 .
(3) الأعراف ، 170 .
(4) هود ، 88 .

شَرًّا فَشَرٌّ » [1] . أي إنّ ٱلله يراقب الإنسان و يعلم ما يسرّه في نفسه ويظهر من أثر ذلك علىٰ وجهه من خير أو شر في ملامحه وسلوكه وأقواله وأفعاله ، وٱلله رقيب علىٰ أعمال العباد ولا يحتاج إلىٰ الحفظة من الملائكة ولـٰكن ذلك من باب تقريب المعنىٰ للإنسان حتىٰ يعلم أن ٱلله قد أحاط به ولم يتركه دون رقابة وذلك نوع من التوجيه للإنسان حتىٰ يستقيم ولا يعيث فساداً ويرتدع ليتفرغ للمهمة العظمىٰ الملقاة علىٰ عاتقه ألا وهي الخلافة وإصلاح الأرض والقيام بما كلف به رقابة الأرض وما يحدث فيها وتوجيه نفسه وغيره للإصلاح انطلاقاً من التخلق بصفة الرقيب التي تحتوي علىٰ العليم والخبير والسميع والبصير والشاهد والحافظ والحفيظ والمهيمن والعلي والحكم والعدل لأنه لو لم يكن متحققة فيه تلك الصفات بشكل كلي مطلق لما كانت رقابته مطلقة ولما كانت خلافة الخليفة له كاملة شاملة .

مع العلم بأن علم ٱلله شمولي ورقابته محكمة ولا يغيب عن علمه ساكن أو متحرك في ملكه أو ملكوته ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [2] فيخاطب ٱلله عزّ وجل هـٰؤلاء الذين لم يرقبوه ويحفظوه في أعمالهم ولم يتوقعوا أنه قادر عليهم رقيب لهم حافظ لما عملوه محاسب علىٰ كل صغيرة وكبيرة فيقول لهم : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [3] .

---

(1) المعجم الكبير للطبراني ، ج 2 ، ص 235 .
(2) الرعد ، 8ـ11 .
(3) آل عمران ، 182 .

أما الذين لم يعرفوا ٱلله حق المعرفة وغرَّتهم الأماني وأرادوا أن يضلوا الناس عن طريقه ولم يعملوا بالمنهج الذي وضعه لهم ليحققوا الخلافة المرجوة منهم وساروا وفق آراء فاسدة وعقول عقيمة ضالة مضلة فلهم عذاب الحريق المادي في الآخرة ؛ والمعنوي في الدنيا ببعدهم عن شرف الخلافة والسير في ركب الخليفة الذي يراقب ٱلله في السر والعلن ليحيي الخلافة المنطمسة معالمها بشكل جديد وبنسق يتناسب مع روح العصر . قال ﷺ : « كل نفس من بني آدم سيد فالرجل سيد أهله والمرأة سيدة بيتها ومن لا أهل له ولا بعل سيد علىٰ جوارحه »[1] ، فعلىٰ كل أحد أن يعرف قدر ما ولاه ٱلله عليه ويعلم أنه رقيب عليه وهو الذي استخلفه علىٰ ذلك وجعل له عليه السيادة ونبه بذلك علىٰ أن السيد إذا نقص من حال من ساد عليه نقص من سيادته بقدر ذلك وعزل بقدره[2] .

والخليفة يراقب ٱلله في أعماله ويراقب الآخرين بترشيدهم ودفعهم لتولي المسؤولية الكاملة في خلافة ٱلله وإصلاح النفس والأرض ، وتلك الدعوة المنبثقة من الإيمان بٱلله بأن الخلافة خلافة علمية عملية إيمانية بأن ٱلله رقيب قريب وقادر سيحاسب الجميع علىٰ أعمالهم ليجازي أو يعاقب ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾[3] ، ويقول أصدق القائلين عزّ وجلّ : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ

(1) فيض القدير ، ج 5 ، ص 47 .
(2) فيض القدير ، ج 5 ، ص 47 .
(3) الأعراف ، 8ـ11 .

لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (1) .

فٱلله هو الحق المطلق ، ولأنه الحق المطلق فهو الذي يملك القدرة المطلقة في وهب الحياة وسلبها والبعث وعنده علم الساعة ، ويتحدىٰ الذي يجادل بغير علم ولا هدىً ولا كتاب ينير له الطريق ليصل إلىٰ الخلافة المرجوة علىٰ الأرض ويتخذ وسائل مضلة من عقل ناقص لا يرىٰ نور الحق الواضح ويبتعد عن طريق الهداية ولا يراقب ٱلله في نفسه وفي الآخرين ولا يعتقد بأن ٱلله رقيب علىٰ المخلوقات جميعها ، ورقيب علىٰ كل إنسان رقابة عامة وخاصة علنية وسرية خارجية وداخلية ، فهو عزّ وجلّ قد وكل من الملائكة لمراقبة أعمال الإنسان ، بل جعل من جوارح الإنسان رقباء عليه يشهدون بما فعل إن أراد الإنكار ، فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ (2) ، وهـٰذه رقابة محكمة لصيقة لا يفطن لها إلا الخليفة المتحقق بالاسم الرقيب ، أمّا الذي لا يرىٰ أن رقابة ٱلله سبحانه وتعالىٰ ملازمة له في أنفاسه وحركاته وسكناته فهو ينكر علىٰ تلك الأدوات الرقيبة عليه من قبل الرّقيب فيقول : ما الذي جعلكم تشهدون عليّ ؟ ويصوّر القرآن ذلك الموقف بقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟

(1) الحج ، 6ـ14 .
(2) النور ، 24 ـ 25 .

لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [1] .

فٱلله رقيب علىٰ العباد والكل عباد ٱلله طوعاً أو قهراً ، فهو رقيب علىٰ الشمس التي تشرق وتغيب بمقدار ونظام محكم لا يمكن أن يتم بهٰذه الصورة المحكمة دون رقيب ، فيأتي النهار ثمّ الليل بالطريقة والكيفية التي أرادها الرقيب الأعلىٰ ، والسماء تمطر بأمره وبالقدر الذي يريد وفي الزمان والمكان الذي يريده ولا يستطيع كائن من كان أن يخالف إرادته لأنه رقيب علىٰ خلقه يسيره كيفما شاء ، وذلك لأنه الذي خلق الإنسان وأرسل له المنهج في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم يعرض من أراد لنفسه التخلف عن ركب الخلافة ويغلق قلبه وعقله عن النور والهداية ويشرك بالذي خلق الأرض والسماء وجعل الجبال لتثبيت الأرض وزين السماء بالنجوم ، وأطاعته الأرض والسماء ومن فيهما من كائنات ، وقدر أقوات الخلق لأنه الخالق المدبر الرقيب الحافظ ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى

(1) فصلت ، 21 ـ 23 .

ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (1) . وهو يحفظ أعمال الخلائق ويحصيها ولا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء وبهـٰذا العلم يحفظهم من شر أعمالهم ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) .

لذا فالله تعالىٰ هو الرَّقِيبُ المطلق ومعناه الحافظُ الذي لا يَغيبُ عنه شيءٌ (3) ، وفي الحديث عَن ابْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِي بكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَالَ : « ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ في أَهْلِ بَيْتِهِ » (4) أَي : احفظوه فيهم .

والرَّقيبُ هو من لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يتعب ولا يغفل يعلم بالشيء والشيء المترتب عليه وهو القادر الحَفِيظُ ، ولذا فالرقابة رصد وتتبع دون غفلة .

ولأن ٱلله رقيب فعلىٰ الإنسان الخليفة المتحقق بالاسم الرقيب أن يراقب ٱلله في كل أعماله وأقواله ، لأن الكلام إمّا له أو عليه ، له بالحسنة والثواب ، أو عليه بالسيئة والعقاب ، ولهـٰذا إنْ لم يرقب الإنسان نفسه في لسانه فعليه بالصمت ، فعن أبي هريرة رضي ٱلله عنه : أن رسول ٱلله ﷺ قال : « من كان يؤمن بٱلله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بٱلله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بٱلله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » (5) . لأن من آمن بٱلله حق إيمانه خاف وعيده ورجا ثوابه واجتهد في

(1) فصلت 1 ـ 11 .
(2) الأنعام ، 59 .
(3) لسان العرب ، ج 1 ، ص 424 .
(4) الحديث في صحيح البخاري ، ج 12 ، ص 51 .
(5) شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية ، ج 1 ، ص 17 .

فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه ، وأهم ما عليه من ذلك ضبط جوارحه التي هي رعاياه وهو المسؤول عنها كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (2) . الرقيب وحده يعلم ما توسوس به النفس ، ولذا كل ما يمكن أن يقال يعلمه وكل ما يقال ، ﴿ لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ لا يغيب ولا يغفل صامد لا يتحرك عن مهمة الرقابة المكلف بها .

وٱلله الـرّقيـب قـد وكَّـلَ مـلائكـةً لحفـظ الإنسـان مـن نفسـه وغيره ـ إلا بقدر ٱلله ـ ومن بين يديه ، عَنْ كِنَانَةَ الْعَدَوِيِّ ، قَالَ : « دَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ عَلَىٰ رسول ٱلله ﷺ فَقَالَ لَهُ : « يَا رَسُولَ ٱللهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْعَبْدِ ، كَمْ مَعَهُ مَلَكٌ ؟ فَقَالَ : عَلَىٰ يَمِينِك مَلَكٌ عَلَىٰ حَسَنَاتِك ، وَهُوَ أَمِينٌ عَلَىٰ الْمَلَكِ الَّذِي عَلَىٰ الشِّمَالِ ، فَإِذَا عَمِلْت حَسَنَةً كُتِبَتْ عَشْرًا ، وَإِذَا عَمِلْت سَيِّئَةً ، قَالَ الَّذِي عَلَىٰ الشِّمَالِ لِلَّذِي عَلَىٰ الْيَمِينِ : أَكْتُبُ ؟ فَيَقُولُ لَهُ : لاَ ، لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَيَتُوبُ ، فَإِذَا قَالَ ثَلاَثًا ، قَالَ : نَعَمْ ، أُكْتُبْ أَرَاحَنَا ٱللهُ مِنْهُ ، فَبِئْسَ الْقَرِينُ ، مَا أَقَلَّ مُرَاقَبَتَهُ للهِ ، وَأَقَلَّ اسْتِحْيَاءَهُ مِنَّا ، يَقُولُ ٱللهُ : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، وَمَلَكَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْك وَمِنْ خَلْفِك يَقُولُ الله : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (3) وَمَلَكٌ قَابِضٌ عَلَىٰ نَاصِيَتِك ، فَإِذَا تَوَاضَعْت لِلَّهِ رَفَعَك ، وَإِذَا تَجَبَّرْت عَلَىٰ اللَّهِ قَصَمَك ، وَمَلَكَانِ عَلَىٰ شَفَتَيْك ، لَيْسَ يَحْفَظَانِ عَلَيْك إلا الصَّلاةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ، وَمَلَكٌ قَائِمٌ عَلَىٰ

---

(1) الإسراء ، 36ـ38 .

(2) ق ، 16ـ18 .

(3) الرعد ، 13 .

فِيك ، لاَ يَدَعُ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَّةُ فِي فِيك ، وَمَلَكَانِ عَلَىٰ عَيْنَيْك ، فَهَؤُلاَءِ عَشْرَةُ أَمْلاكٍ عَلَىٰ كُلِّ ابْنِ آدَمَ يَتَبَدَّلُونَ ، مَلائِكَةُ اللَّيْلِ عَلَىٰ مَلَائِكَةِ النَّهَارِ ، لأَنَّ مَلاَئِكَةَ اللَّيْلِ سِوَىٰ مَلاَئِكَةِ النَّهَارِ ، فَهَؤُلاَءِ عِشْرُونَ مَلَكًا ، عَلَىٰ كُلٍّ » [(1)] .

فكل هـٰؤلاء الملائكة لمراقبة أعمال الإنسان وحفظ أعماله له وعليه بسيطة كانت أم كبيرة ، مع أن ٱلله قادر وعالم ومحيط ورقيب ولا يحتاج إلىٰ هـٰؤلاء الملائكة ، ولـٰكن ذلك علىٰ سبيل المثال حتىٰ يفهم الإنسان أن ٱلله يراقبه ويحصي عليه أعماله ويحفظه من بين يديه ومن خلفه .

وهنا نتذكر العظة التي وعظها الرسول ﷺ لحبر الأمة عبد لله بن عباس رضي ٱلله عنهما ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول ٱلله ﷺ لعبدٱلله بن عباس : « يا غلام ، ألا أعلمك شيئاً لعل ٱلله عز وجل أن ينفعك به ، احفظ ٱلله يحفظك ، احفظ ٱلله يكن أمامك ، إذا سألت فاسأل ٱلله عز وجل ، وإذا استعنت فاستعن بٱلله ، تعرَّف إلىٰ ٱلله في الرخاء يعرفك عند الشدة ، وجف القلم بما هو كائن ، فلو أن الناس اجتمعوا جميعاً علىٰ أن يعطوك شيئاً لم يعطك ٱلله لم يقدروا عليه ، ولو أن الناس اجتمعوا علىٰ أن يمنعوك شيئاً قدره ٱلله لك وكتبه لك ما استطاعوا ، واعلم أن لكل شيء شدة ورخاء ، وأن مع العسر يسراً ، وأن مع العسر يسراً » [(2)] والحديث بلفظ آخر : عن ابن عباس رضي ٱلله عنهما قال : قال لي رسول ٱلله ﷺ : « احفظ ٱلله يحفظك ، احفظ ٱلله تجده أمامك ، تعرف إلىٰ ٱلله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن الخلائق لو اجتمعوا علىٰ أن يعطوك شيئاً لم يرد ٱلله أن يعطيك لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا أن يصرفوا عنك شيئاً أراد ٱلله أن يصيبك

(1) نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية ، ج 2 ، ص 425 .
(2) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة ، ج 4 ، ص 34 .

به لم يقدروا علىٰ ذلك ، فإذا سألت فاسأل ٱلله ، وإذا استعنت فاستعن بٱلله ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً ، واعلم أن القلم قد جرىٰ بما هو كائن » [1] .

والحفظ بمعنىٰ المراقبة ، فإن راقب الإنسان ٱلله وحفظه في أوامره ونواهيه راقبه ٱلله وحفظه وكان معه بالحفظ والعون والتوفيق ، وٱلله قريب من الإنسان في كل وقت وهو حاضر معه ولا يغيب عنه ، والخليفة المتحقق بنور الاسم الرقيب يعلم ذلك ويعلم أن ٱلله مع أي مخلوق يسمع السر وأخفىٰ ويسمع نجوىٰ الإنسان ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] .

قد يتساءل البعض : لماذا المعية مع كل كثرة أو قلة ؟ فيكون البحث في هـٰذا الموضوع مبنيّاً علىٰ الإحاطة والرقابة ، وذلك لأجل متابعة سلوك من خُلق في أحسن تقويم ، هل هو علىٰ القول والفعل الحق أم انه علىٰ غير ذلك ؟ ولذا يسأل الإنسان عما يعمل ؟ ولماذا لم يعمل خيراً ؟ ولا يسأل لماذا لم يفعل شرّاً ، وذلك لأن القاعدة (خلق الإنسان في أحسن تقويم) ولأنه كذلك لا يسأل عما يعمل أو يفعل من خير مع أنه سيجازىٰ بالمثوبة علىٰ كل فعل خير بأسباب ارتباط الإجابة مع أمر الطاعة لله تعالىٰ .

وجاء في تفسيرها : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ استشهاد علىٰ شمول شهوده تعالىٰ والخطاب للرسول عليه السلام أو لكل من يستحق الخطاب ، ألم تعلم علماً يقينياً بمرتبة المشاهدة أنه تعالىٰ يعلم ما في السموات وما في الأرض من الموجودات . (روي) عن ابن عباس رضي ٱلله عنهما أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوماً يتحدثون فقال

---

(1) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم ، ج 14 ، ص 408 .
(2) المجادلة ، 7 .

أحدهم أترىٰ ٱلله يعلم ما نقول فقال الآخر يعلم بعضاً وقال الثالث إن كان يعلم بعضه فهو يعلم كله وصدق لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقط علمها كلها لأن كونه عالماً بغير سبب ثابت له مع كل معلوم فنزلت الآية ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ ﴾ ما : نافية ويكون : تامة بمعنىٰ يوجع ويقع ومن مقحم ونجوىٰ : فاعله وهو مصدر بمعنىٰ التناجي كالشكوىٰ بمعنىٰ الشكاية يقال نجاه نجوىٰ ونجوىٰ ساره كناجاه مناجاة والنجوىٰ السر والنجوىٰ مصدر مضاف إلىٰ فاعله ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ أي ٱلله تعالىٰ ﴿رَابِعُهُمْ ﴾ أي جاعلهم أربعة من حيث أنه تعالىٰ يشاركهم في الاطلاع عليها ، بمعنىٰ إلا هو رابعهم علماً وحكماً وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي ما يوجد في حال ما إلا في هٰذه الحال وفي الكلام اعتبار التصبير ، وقيل : من شهد معية الحق معه زجره عن كل مخالفة وعن ارتكاب كل محذور ، ومن لا يشاهد معيته فإنه مختط الىٰ الشبهات والمحارم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ ﴾ أي ولا نجوىٰ خمسة نفر﴿ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ إلا وهو تعالىٰ جاعلهم ستة في الاطلاع علىٰ ما وقع بينهم وتخصيص العددين بالذكر لخصوص الواقعة لأن المنافقين المجتمعين في النجوىٰ كانوا مرة ثلاثة وأخرىٰ خمسة ويقال إن التشاور غالباً إنما يكون من ثلاثة إلىٰ ستة ليكونوا أقل لفظاً وأجدر رأياً وأكتم سراً . ثم عمم الحكم فقال ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ ﴾ أي أقل مما ذكر كالاثنين والواحد فإن الواحد أيضاً يناجي نفسه ﴿وَلَآ أَكْثَرَ ﴾ كالستة وما فوقها ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ أي : ٱلله مع المتناجين بالعلم والسماع يعلم ما يجري بينهم و لا يخفىٰ عليه ما هم فيه فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم وقد تعالىٰ عن المشاهدة والحضور معهم حضوراً جسمانياً﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ أي : في أي مكان كانوا من الأماكن ، ولو كانوا تحت الأرض فإن علمه تعالىٰ بالأشياء ليس لقرب مكاني حتىٰ يتفاوت باختلاف الأمكنة ولو كانوا تحت الأرض فإن علمه تعالىٰ بالأشياء ليس لقرب مكاني حتىٰ يتفاوت باختلاف الأمكنة قرباً وبعداً (1) .

(1) تفسير حقي ، ج 15 ، ص 171 .

ولأن الرقيب هو الأول والآخر فلا أول قبله ولا آخر بعده ، إنه الواحد الأحد لا شريك له فهو المحيط بكل أمر وهو العليم الحكيم يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو الملك المتعال ، ولأنه خالق الزمان والمكان والحركة والسكون فهو يعلم بالزمان في أي مكان سواء كان المعلوم به أو بأمره في حالة حركة أو حالة سكون أي سواء كان ظاهراً بالقول أو كاتماً له أو متقلباً في الأمر أو دارباً عليه ، ولذا فهو الرقيب .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ قال مجاهد : أي : رصيد وقوله الرقيب هو من أسماء ٱلله سبحانه وتعالىٰ ومعناه الحافظ ، وقوله : ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ أي : انتظر ، وقوله﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ هم المكاتبون يعطون من الصدقات ما يفكون به رقابهم [1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [2] الرقيب المطلق : هو القريب الذي لا تفصل بينه وبين من يراقب مسافة ولا زمن ، فهو مع كل حركة تحدث ومع كل سكون واستقرار ، ومع كل قول يسمع أو يناجىٰ به أو يسر ويكتم ، وقد وقعتِ الإشارةُ في القرآن العظيم إلىٰ هـٰذا المعنىٰ في مواضع كثيرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [4] ، وقال

---

(1) مقدمة الفتح ، ج1 ، ص 121 .

(2) ق ، 18 .

(3) ق ، 16ـ18 .

(4) يونس ، 61 .

تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (1) . وأكثر ما يُراد بترك ما لا يعني حفظ اللسان من لغو الكلام كما أشير إلىٰ ذلك في الآيات الأولىٰ التي هي في سورة (قٓ) .

وسخر ٱلله من الرقباء علىٰ الإنسان ملائكة كراماً عن يمينه وشماله يكتبون ما يفعله بدقة ونزاهة وقد سماهم ٱلله : كراماً كاتبين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (2) .

وجاء في تفسير قَوْله تعالىٰ : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ مَا يَتَكَلَّم مِنْ شَيْء إِلاَّ كُتِبَ عَلَيْهِ ، وَصَلَهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق شُعَيْب بْن إِسْحَاق عَنْ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَةَ وَالْحَسَن فِي قَوْله « مَا يَلْفِظ مِنْ قَوْل » قَالَ مَا يَتَكَلَّم بِهِ مِنْ شَيْء إِلاَّ كُتِبَ عَلَيْهِ خيراً كان أم شراً (3) . بما أنه رقيب مطلق لابد وأن يكون له كتبة يكتبون كل شيء يلفظ أو يعمل أو يفعل ، ولـٰكن الفرق أن كتابة ما يلفظ وما يفعل أو يُعمل علىٰ وجوه :

الوجه الأول : ما يلفظ كفراً وشركاً يكون له سجل عقاب مؤجل إلا من رحم ٱلله قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ

(1) الزخرف ، 80 .
(2) ق ، 16ـ22 .
(3) مصنف ابن أبي شيبة ، ج 8 ، ص 289 .
(4) الدخان ، 40ـ42 .

﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (1) .

الوجه الثاني : ما يلفظ قولاً لا تصاحبه نية التنفيذ السالبة فهـٰذا الأمر فاقد للنية التي عليها تتم المحاسبة بالجزاء أو الثناء وذلك فالأعمال بالنيات ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (2) .

الوجه الثالث : قول سالب يُلفظ به مع نية وعزم علىٰ التنفيذ وحال ٱلله بينه وبين ما يجب أن يُعمل أو يُفعل فهـٰذا القول أو اللفظ وكأنه عُمل أو فُعل فالرقيب سبحانه ليس بغافل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (3) .

الوجه الرابع : لفظ مع نية سالبة للتنفيذ مع بلوغ العمل أو الفعل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (4) فيكون العقاب مضاعفاً بثلاثة :

1 ـ بسلبية اللفظ .

2 ـ بسلبية النية المنهي عنها .

3 ـ بسلبية الفعل أو العمل المنهي عنه أو المحرم .

---

(1) هود ، 118 ـ 119 .

(2) يونس ، 44 .

(3) الأحقاف ، 17ـ19 .

(4) النساء ، 18 .

الوجه الخامس : لفظ ظاهره موجب ونيته سالبة تندرج تحت أبواب النفاق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [1] .

الوجه السادس : لفظ اجتنابي مع فعل ابتعادي يفوز صاحبه بالمغفرة والثواب بالتكفير عن سيئاته ، قال تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [2] .

الوجه السابع : لفظ طيب يلفظ به مع نية طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [4] .

الوجه الثامن : اللفظ الإفك الذي يلفظ ولا يُفعل ، إنه مجرد قول وهراء

---

(1) الأحزاب ، 13ـ15 .

(2) النساء ، 31 ـ 32 .

(3) إبراهيم 24ـ26 .

(4) يـٰس ، 34ـ36 .

أي أن أصحابه يلفظون بما لا يفعلون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ (1) .

الوجه التاسع : لفظ حق مع نية حق مع فعل حق ويهدي إلىٰ الحق يستوجب الاتباع ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ (2) .

والرقيب المطلق سبحانه وتعالىٰ أراد أن يعطي الإنسان الخليفة درساً عملياً في مراقبة ٱلله ، وأن يقع اليقين في قلبه بأن ٱلله يراقبه ، وهـٰذا التدريب العملي متمثل في فرض الصيام ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (3) ، فالصوم

---

(1) الشعراء ، 217ـ226 .

(2) النجم ، 3ـ11 .

(3) البقرة ، 183ـ186 .

من أكبر الوسائل التي يستعين بها الإنسان علىٰ تدريب نفسه وعلىٰ مراقبة ٱلله عز وجل ، لذا فقد فرض ٱلله الصيام علىٰ الأمم السابقة وعلىٰ الأمة المحمدية لأن الإنسان يمكن أن يخلو بنفسه فيأكل ويشرب ثم يخرج ويدعي أنه صائم ، أمّا من يريد إحياء خلافة الرقيب في نفسه وفي الآخرين فهو يحيي ذلك الاسم بالصدق مع الذات ومع الآخرين بمراقبة ٱلله في أعماله ومراقبة الآخرين بتوجيههم إلىٰ العمل الصحيح المبني علىٰ الصدق في القول والفعل ، لأن القول دون فعل مصيبة المصائب وكارثة الكوارث لأن من يفعل ذلك لا يراقب ٱلله ولا يعتقد بأن ٱلله يراقبه فيقول ٱلله تعالىٰ للذين آمنوا به : إنه هو العزيز الحكيم القادر علىٰ كل شيء الذي يسبح بحمده ويقر بقدرته من في السموات والأرض من مخلوقات لا يعلمها ولا يحصيها ولا يراقب أعمالها إلا الرقيب عز وجل ، ويخص ٱلله الذين آمنوا بالحديث بأنه سبحانه وتعالىٰ لا يحب القول دون عمل ولا يحب العمل دون إخلاص ، ومن أفضل الأعمال التي تظهر إخلاص المؤمن الصيام لأنه من الأعمال السرية التي لا يطلع عليه إلا الرقيب ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (1) . وعليه لو لم يكن رقيباً وعليماً بما قيل ويقال ما قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي إنه سمع وعلم بكل ما قالوا وشهد علىٰ كل ما فعلوا فرأىٰ أنهم يقولون ما لا يفعلون . وهنا لابد أن نعود إلىٰ الصيام ونلقي نظرة علىٰ ما جاء في تفسير آيات الصيام ونقوم بالربط بين القديم في التفسير وبين الرؤية الآنية التي ننطلق منها في ربط أسماء ٱلله بالخليفة بمفهوم جديد يعتمد علىٰ أن الخلافة يمكن أن تتحقق عن طريق الأخلاق والسلوكيات التي تؤدي إلىٰ الإصلاح والتعمير ، وهـٰذا هو الهدف الذي من أجله قد جعل ٱلله الخليفة من النوع الإنساني إن راقب ٱلله وأصلح

---

(1) الصف ، 1 ـ 3 .

وعمّر ، وجاء في تفسير آيات الصيام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ ﴾ فرض ﴿ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ من الأمم ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ المعاصي فإنه يكسر الشهوة التي هي مبدؤها . واختلف أهل العلم في معنىٰ قوله : فليقل : إني صائم ، فقيل : يقول : إني صائم ، للذي يشاتمه ، ليكف عن شتمه ، واستدل بعضهم بقول مريم : ﴿ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ (1) .

قال الشاعر :

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾ (2) ، فالإطعام لوجه ٱلله بلفظ أو بدون لفظ ، وبلفظ سالب أو بلفظ موجب ، صادق أو كاذب ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ (3) .

وقوله : «الصيام لي وأنا أجزي به » فالأمر يرتبط بنية الصائم التي

---

(1) مريم ، 26 .
(2) الإنسان ، 9 .
(3) هود ، 6ـ11 .

لا يعلمها إلا الرقيب العزيز جل جلاله ، ولذا فالأعمال بالنيات ، والنية شرط لقبول الأعمال ، ولذا فالصيام وجميع الأعمال لله تعالىٰ ، ولذا فالأعمال تصعد للرقيب الأعلىٰ ليجازي بها من يشاء من عباده .

وقد ورد الاسم الرقيب في القرآن الكريم مرتين ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [1] إن للإنسان حقوقاً وعليه واجبات وله مسؤوليات ، فعليه أن يمارس حقوقه ويحترم ويقدر الآخرين وحقوقهم ، وأن يؤدي واجباته ويساعد الآخرين علىٰ ذلك ، وأن يحمْل مسؤولياته ويتحمّل ما يترتب عليه من أعباء ويتقي الرقيب ربه ولا يظلم أحداً ، وليعلم أن ٱلله رقيب فلا يغفل ولا يقرب ما نهىٰ عنه ويجتنبه بأعمال الخيرات ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ والرقيب هو المراقب الذي يحفظ عليك جميع أفعالك أي : حافظاً مطلعاً علىٰ جميع ما يصدر عنكم من الأفعال والأقوال وعلىٰ ما في الضمائر من النيات ، وما تكنه الأنفس .

والتقوىٰ هي العمدة وهي سبب الكرامة العظمىٰ في الدنيا والعقبىٰ والتقوىٰ في عرف الشرع « وقاية النفس عما يضرها في الآخرة » وهي علىٰ مراتب :

المرتبة الأولىٰ : التوقي عن العذاب المخلد بالتبري من الشرك ، قال تعالىٰ : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ

---

(1) النساء ، 1 .

عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (1) ، لأنه بالتقوىٰ يشعر الإنسان أن ٱلله سيحاسبه ، وطالما أنه سيحاسبه فإنه عزّ وجل يراقبه ، وبما أنه يرقبه فلابد للإنسان بوصفه الخليفة في الأرض أن يتقي ٱلله بالبعد عن نواهيه واجتناب معاصيه ، ومن هنا تكون المرتبة الثانية .

المرتبة الثانية : التجنب عن كل إثم وهو المتعارف باسم التقوىٰ ، وهو المعني بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (2) ، فالتقوىٰ سبب رئيس في تكفير الذنوب وسترها في الدنيا والعفو والمغفرة في الآخرة ، وهٰذا لأنه هو الرقيب الذي يحصي السيئات ولأنه الرءوف الرحيم يستر في الدنيا ويغفر في الآخرة .

المرتبة الثالثة : التنزه عن جميع ما يشغله ، وهي التقوىٰ الحقيقية المطلوبة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ

---

(1) الفتح ، 25ـ28 .

(2) المائدة ، 65ـ69 .

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [1] . فينبغي للسالك أن يتقي ربه ويراقب ٱلله في جميع أحواله كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

والمراقبة كما يراها حقي : علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه ، فباستدامته لهـٰذا العلم تتحصل مراقبة لربه وهـٰذا أصل كل خير ، ولا يكاد يصل الىٰ هـٰذه الرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه علىٰ ما سلف وأصلح حاله في الوقت ولازم طريق الحق وأحسن ما بينه وبين ٱلله من مراعاة القلب وحفظه مع ٱلله الأنفاس وراقب ٱلله سبحانه في عموم أحواله فيعلم أنه عليه رقيب ومن قلبه رقيب يعلم أحواله ويرىٰ أفعاله ويسمع أقواله ، ومن تغافل عن هـٰذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة فكيف عن حقائق القربة [2] .

ولأن ٱلله رقيب علىٰ العباد فهو يطلب ممن أعطاهم شرف الخلافة أن يعملوا ويخبرهم أنه يعلم ويرىٰ ما يعملون وما لا يرون ، وليس الأمر إلىٰ هـٰذا الحد فقط ولـٰكن يخبرهم أن الرسول ومن سار علىٰ هديه يرون أعمال الناس وهـٰذه الرؤية ليست لأي أحد ولـٰكن للرسول والخليفة المؤمن الذي يعمل ما أمر به ٱلله ورسوله ويسير في طريق الخلافة الحقيقية ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [3] . إن العمل المسيء ظلمة تصعد الىٰ السموات بقدر قوة غفلة وخباثة نفسه ، فٱلله تعالىٰ يراها وروح رسوله وأرواح المؤمنين ، وفي الحديث « تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصوم وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالىٰ وتشيعه ملائكة السموات

---

(1) آل عمران ، 101 ، 102 .
(2) تفسير حقي ، ج 2 ، ص 396 .
(3) التوبة ، 105 .

السبع حتىٰ يقطعون به الحجب كلها إلىٰ ٱلله تعالىٰ فيقفون بين يدي الرب جل جلاله ويشهدون بالعمل الصالح المخلص لله ، فيقول ٱلله لهم : أنتم الحفظة علىٰ عمل عبدي وأنا الرقيب علىٰ ما في نفسه ، إنه لم يردني بهـٰذا العمل ولا أخلصه لي وأنا أعلم بما أراد بعمله »[1] ، ولذا فالرقيب لا تخفىٰ عنه خافية في السماوات العلىٰ والأرضين وما بينها وهو علىٰ كل شيء قدير .

والتقوىٰ تدل علىٰ الإيمان التام بالرقيب وبوحدانيته وقدسيته وهيمنته وعظمته ، فالرقيب بالإضافة هو المؤمن بالرقيب المطلق الذي بإيمانه يراقب نفسه ويجنبها عن الظن الإثم ، ويوجهها إلىٰ العمل الصالح وينهاها عن الإفساد في الأرض ، ويتقي الرقيب ربه في كل قول وفعل ويتقيه في والديه وأبنائه وزوجه ومن لهم الحق عليه . ويراقب إيمانه بٱلله تعالىٰ بتدبر القرآن ليعلم ما يُرضي ٱلله فيتبعه حق الاتباع ، ويحمده ويشكره علىٰ مغفرته ورحمته وعزته له خليفة في الأرض ، ويتقي ٱلله ربه الذي خلقه من نفس واحدة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطاب يعم بني آدم . ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ هي النفس البشرية . ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ خلق من النفس البشرية الزوجين الذكر والأنثىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾[3] . ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ بيان لكيفية تولدهم منهما ، والمعنىٰ ونشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة ، ﴿ كَثِيرًا ﴾ حملاً علىٰ الجمع وترتيب الأمر بالتقوىٰ علىٰ هـٰذه القصة لما فيها من

---

(1) تفسير حقي ، ج 2 ، ص 396 .
(2) النساء ، 1 .
(3) النجم ، 45 ، 46 .

الدلالة علىٰ القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشىٰ ، والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليها ، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوىٰ فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه علىٰ ما دلت عليه الآيات التي بعدها . وقد نبه سبحانه وتعالىٰ إذ قرن الأرحام باسمه الكريم علىٰ أن صلتها بمكان منه . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ لن يترككم هـٰكذا عبثاً فتفسدون ولا تصلحون ، إنه الرقيب الذي يرىٰ في خليفته خير ما خلق ولهـٰذا تدوم الرقابة لأجل البقاء الأصلح .

وٱلله سبحانه وتعالىٰ يخاطب النبي ﷺ في مسألة منعه ﷺ من تبديل زوجة مكان أخرىٰ ولو أعجبه ﷺ حسن المرأة التي يريد الزواج منها وٱلله هو الرقيب علىٰ ذلك ، وهـٰذا بالنسبة لسيد الخلق ﷺ الذي هو أتقىٰ الناس بل أتقىٰ الخلق جميعاً وأكثرهم مراقبة لله فما الحال بالنسبة لنا أو لمن أراد التخلق بأخلاق الاسم الرقيب ؟ أظن أن الأمر فيه من الصعوبة التي لا تسهل إلا بالاستعانة بٱلله الرقيب لذا يقول المؤمن في سورة الفاتحة : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي نحن نعبدك يا ألله وحدك لا نشرك بك وفي الوقت ذاته نستعين بك لأنك الرقيب علىٰ عبادتنا لك وما يشوبها من قصور ونقص فالكمال لك وحدك سبحانك لا إلـٰه إلا أنت ، فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [1] .

وقوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ جاءت مطلقة دون استثناء لشيء من الأشياء ، وبذا لا يوجد شيء خارج رقابته .

والخليفة المتحقق بالاسم الرّقيب يعلم بأن ٱلله رقيب عليه ولا يحتاج إلىٰ رقابة من بشر عليه ، أمّا الذي لم يتحقق بهـٰذا الاسم ولا يريد أن يراقب ٱلله يذكره ٱلله ويقول له ولمن هو علىٰ شاكلته وبغض النظر عن السبب الذي نزلت

---

(1) الأحزاب ، 52 .

الآية بسببه فنحن الآن في مقام رؤية منهجية حديثة للقرآن الكريم ومحاولة استبيان الوسيلة التي تتحقق بها الخلافة لله عز وجل من خلال التخلق بأسمائه الحسنىٰ علماً وعملاً فنلقي نظرة علىٰ الآية في السياق التي نزلت بسببه وربط معناها ومدلولها بالرؤية التي تعالج فكرة الخلافة والتحلي بصفة الرقيب ، ومن هنا ينطلق الإنسان الخليفة في تعمير الأرض مراقباً لله ، ومتيقناً بأن ٱلله تعالىٰ رقيب عليه ، ولهـٰذا يقول ٱلله للإنسان الذي يعمل علىٰ الإفساد معتقداً بأنه بعيد عن الرقيب : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [1] .

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ أي حين كان ينفق ما ينفق رئاء الناس أو حرصاً علىٰ معاداته للنبي ﷺ يعني أن ٱلله تعالىٰ كان يراه وكان سبحانه عليه رقيباً فهو عز وجل يسأله عنه ويجازيه عليه ، ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ أي أن الإنسان الذي يخالف المنهج ولا يريد أن يصلح في الأرض معتقداً بأنه بعيد عن الرقابة يذكره الرقيب أنه يراه ويعد له وعليه وسيحاسبه ، وعليه فلابد من مراجعة النفس وأخذ الأمر علىٰ محمل الجد ، فالرقيب موجود ويرىٰ كل شيء ويسمع كل شيء ويعلم بأمر كل شيء إنه السميع العليم ، فٱلله لم يخلقنا عبثاً ولم يتركنا في الأرض عبثاً ولـٰكن لحكمة وهدف محكم يعلمه عز وجل وهو الإصلاح يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [2] . ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ ﴾ أيها الخلق ﴿ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ أي : سدىً وباطلاً تأكلون وتشربون وتمرحون ، وتتمتعون بلذات الدنيا ، ونتركـكم لا نـأمـركـم ، ولا نـراقبكـم ، و لا ننهـاكـم ، ولا نثيبكـم ،

---

(1) البلد ، 7 .

(2) المؤمنون ، 115ـ118 .

ولا نعاقبكم ؟ ولهـٰذا قال : ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ لا يخطر هـٰذا ببالكم ، ولأن كل شيء من ٱلله فالرجوع إليه ضرورة لإشباع حاجات متنوعة ومتطورة عبر الزمن ، ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ﴾ تعاظم وارتفع عن هـٰذا الظن الباطل ، الذي يرجع إلىٰ القدح في حكمته . ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فكونه ملكاً للخلق كلهم حقاً ، في صدقه ، ووعده ، ووعيده ، إلـٰهاً معبوداً ، لما له من الكمال ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فما دونه من باب أولىٰ ، يمنع أن يخلقكم عبثاً [1] . ولأنه سبحانه لم يخلقنا عبثاً فهو الرقيب علينا الذي ينظر ما نفعله وينتظر منا التوبة والعودة إلىٰ الطريق الصحيح طريق الهداية فيذكرنا بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أي مراقباً ، وهي صيغةٌ من رقَب يرقُب رَقْباً ورُقوباً ورُقباناً إذا أحدّ النظرَ لأمر يريد تحقيقَه ، أي حافظاً مطلعاً علىٰ جميع ما يصدُر عنك من الأفعال والأقوالِ وعلىٰ ما في ضمائرك من النيات مُريداً لمجازاتك بذلك [2] .

ومن صور التحقق بالاسم الرقيب العبادة علىٰ المشاهدة ، بمعنىٰ أن الذي يعبد ٱلله بيقين يعلم أن ٱلله يراه ويراقبه ، ولذا فعليه أن يراقب هو ٱلله وهـٰذه المراقبة بالبعد عن الدنيا بمعنىٰ البعد عن الرغبة التخريبية واللهث وراء المفاسد والرغبات الدنيئة ، وضد ذلك يكون بالرغبة في الإصلاح من خلال العمل الجاد والبناء والعمار الذي ينطلق من مبدأ أن ٱلله رقيب ، وهـٰذا العمل يثمر صفاء الروح وشفافيتها فترىٰ ما يحدث في الجنة والنار وهـٰذا ما نقصده من العبادة علىٰ المشاهدة ، فعن محمد بن صالح الأنصاري أن رسول ٱلله ﷺ لقي عوف بن مالك فقال : « كيف أصبحت يا عوف بن مالك ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال رسول ٱلله ﷺ : إن لكل قول حقيقة ، فما ذلك ؟ فقال يا

---

(1) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 560 .

(2) تفسير أبي السعود ، ج 2 ، ص 29 .

رسول ٱلله : لم أطلب نفسي عن الدنيا ، سهرت ليلي ، وأظمأت هواجري ، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغنون فيها . فقال رسول ٱلله ﷺ : عرفت ، وآمنت ، فالزم » (1) .

وورد الحديث مع صحابي آخر ، فعن أنس بن مالك ، أن رسول ٱلله ﷺ خرج يوماً فاستقبله شاب من الأنصار يقال له : حارثة بن النعمان ، فقال له : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : فقال رسول ٱلله ﷺ : « انظر ما تقول ، فإن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار كيف يتعادون فيها ، فقال : فقال له النبي ﷺ : « أبصرت فالزم ، مرتين ، عبد نور ٱلله الإيمان في قلبه » قال : فنودي يوماً في الخيل : يا خيل ٱلله اركبي ، فكان أول فارس ركب ، وأول فارس استشهد ، فجاءت أمه إلىٰ النبي ﷺ فقالت : يا رسول ٱلله ، أخبرني عن ابني حارثة ، أين هو ؟ إن يكن في الجنة لم أبك ولم أحزن ، وإن يكن في النار بكيت ما عشت في الدنيا ، قال : فقال لها رسول ٱلله ﷺ : « يا أم حارثة ، إنها ليست بجنة ولـٰكنها جنان ، وحارثة في الفردوس الأعلىٰ ، قال : فانصرفت وهي تضحك وتقول : بخ بخ لك يا حارثة !» (2) .

ومن المراقبة أن يغلب علىٰ قلب الإنسان المتحقق بالاسم الرقيب أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتىٰ يرىٰ نسبة الطاعات إلىٰ الثواب كنسبة الخبز إلىٰ الشبع ، ونسبة

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة ، ج 7 ، ص 226 .

(2) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 22 ، ص 15 .

العاصي إلىٰ العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلىٰ الهلاك ، فكما يحرص علىٰ التحصيل للخبز طلباً للشبع فيحفظ قليله وكثيره فكذلك يحرص علىٰ الطاعات كلها قليلها وكثيرها ، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها فكذلك يجتنب المعاصي قليلها و كثيرها وصغيرها وكبيرها ؛ فاليقين بالمعنىٰ الأول قد يوجد لعموم المؤمنين أما بالمعنىٰ الثاني فيختص به المقربون ، وثمرة هـٰذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات الخطرات والمبالغة في التقوىٰ والتحرز عن كل السيئات ، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ .

ومن ذلك ؛ اليقين بأن ٱلله تعالىٰ مطلع عليك في كل حال ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهـٰذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنىٰ الأول وهو عدم الشك ، وأما بالمعنىٰ الثاني وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون ، وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدباً في جميع أحواله كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر إليه فإنه لا يزال مطرقاً متأدباً في جميع أعماله متماسكاً محترزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ، ويكون في فكرته الباطنة كما هو في أعماله الظاهرة ، وهنا يتحقق بأن ٱلله تعالىٰ مطلع علىٰ سريرته كما يطلع الخلق علىٰ ظاهره ، فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين ٱلله تعالىٰ الكائنة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس ، وهـٰذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة ، وهـٰذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة ، فاليقين والمراقبة في كل باب من هـٰذه الأبواب مثل الشجرة وهـٰذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها وهـٰذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان ، فاليقين بأن ٱلله رقيب هو الأصل والأساس . وعلىٰ الذي يراقب ٱلله أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً يظهر أثر الخشية علىٰ هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً ٱلله تعالىٰ وكان صورته دليلاً علىٰ عمله ، فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في

السكينة والذلة والتواضع ، وقد قيل : ما ألبس ٱلله عبداً لبسة أحسن من خشوع في سكينة فهي لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصديقين [1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [2] فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن ٱلله تعالىٰ لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات ، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هٰذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلىٰ الخزي والمقت سيئاته ، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة ٱلله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة . فكانت لهم في المرابطة ست مقامات ، ولٰكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة ، فلنذكر شرح هٰذه المقامات وبٱلله التوفيق :

المقام الأول من المرابطة :

المشارطة :

اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح ، وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتىٰ يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ

---

(1) إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 469 .

(2) البقرة ، 235 .

مَن دَسَّـٰهَا ﴾ [1] ، وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة ، والعقل يستعين بالنفس في هـٰذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله ، وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلىٰ أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه رابعاً ؛ فكذلك العقل يحتاج إلىٰ مشارطة النفس أولاً فيواظب عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلىٰ طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتهما لحظة ، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هـٰذه تجارة ربحها الفردوس الأعلىٰ وبلوغ سدرة المنتهىٰ مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هـٰذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا معه إنها محتقرة بالإضافة إلىٰ نعيم العقبىٰ ، ثم كيفما كانت فمصيرها إلىٰ التصرم والانقضاء ، ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضىٰ الشر ، والخير الذي لا يدوم يبقىٰ الأسف علىٰ انقطاعه دائماً وقد انقضىٰ الخير [2] .

يقول الجنيد : سمعت أبا عبد ٱلله الحارث بن أسد يقول : وسئل عن المراقبة لله ، وعن المراقب لربه ـ فقال : إن المراقبة تكون علىٰ ثلاث خلال ، علىٰ قدر عقل العاقلين ومعرفتهم بربهم ، يفترقون في ذلك .

فإحدىٰ الثلاث : الخوف من ٱلله .

والخلة الثانية : الحياء من ٱلله .

والخلة الثالثة : الحب لله .

---

(1) الشمس ، 9 ، 10 .

(2) إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 480 .

فأمّا الخائف فمراقب بشدة حذر من ٱلله تعالىٰ ،وغلبة فزع من عقاب ٱلله .

وأما المستحيي من ٱلله فمراقب بشدة انكسار وغلبة إخبات .

وأمّا المحب فمراقب بشدة سرور وغبطة نشاط وسخاء نفس ، مع إشفاق لا يفارقه .

ولن تكاد أن تخلو قلوب المراقبين من ذكر اطلاع الرقيب بشدة حذر من قلوبهم أن يراهم غافلين عن مراقبته .

والمراقبة ثلاث خلال في ثلاثة أحوال أولها :

التثبيت بالحذر قبل العمل بما أوجب ٱلله ، والترك لما نهىٰ ٱلله عنه مخافة الخطأ ، فإذا تبين له الصواب بالمبادرة إلىٰ العمل بما أوجب ٱلله والترك لما نهىٰ ٱلله مخافة التفريط ، فإذا دخل في العمل فالتكميل للعمل مخافة التقصير ، فمن لم يثبت قبل العمل مخافة الخطأ فغير مراقب لمن يعمل له إذ كان لا يأمن من أن يعمل علىٰ غير ما أحب وأمر به ، ومن لم يبادر ويسارع إلىٰ عمل ما يحب ٱلله بعد ما تبين له الصواب ، فما راقب إذا بطأ عن العمل لمحبة من يراقبه ، إذ يراه متثبطاً عن القيام بما أمر به . ومن لم يجتهد في تكميل عمله فضعيف مقصر في مراقبة من يراقبه ، إذا قصر عن إحكام العمل لمن يعمل وقد علم أن ٱلله جل ثناؤه يحب تكميله وإحكامه . وقال : سبع خلال يكمل لها عمل المريد وحكمته :

1 ـ حضور العقل .

2 ـ نفاذ الفطنة .

3 ـ سعة العمل بغير غلط .

4 ـ قهر العقل للهوىٰ .

5 ـ عظم الهم كيف يرضىٰ الرب تعالىٰ .

6 ـ التثبت قبل القول والعمل .

7 ـ شدة الحذر للآفات التي تشوب الطاعات .

وأقل المريدين غفلة أدومهم مراقبة مع تعظيم الرقيب ، والدليل علىٰ صدق المراقبة بإجلال الرقيب شدة العناية بالفطنة لدواعي العقل من دواعي الهوىٰ ، والتثبيت بالنظر بنور العلم ، والتمييز بين الطاعة وما شابهها من الآفات ، وقوة العزم علىٰ تكميل المراقبة في الحظوة في عين المليك المطلع ، وشدة الفزع مما يكره خوف المقت ، والدليل علىٰ قوة الخوف شدة الإشفاق مما مضىٰ من السيئات أن لا تغفر ، وما تقدم من الإحسان أن لا يقبل ، ودوام الحذر فيما يستقبل أن لا يسلم ، وعظم الهم من عظيم الرغبة ، وعظيم الرغبة من كبر المعرفة بعظيم قدر المرغوب فيه وإليه ، وسمو الهمة يخفف التعب والنصب ، ويهون الشدائد في طلب الرضوان ، ويستقل معه بذل المجهود بعظيم ما ارتفع إليه الهم . والنشاط بالدءوب دائم ، والسرور بالمناجاة هائج ، والصبر زمام النفس عن المهالك وإمساك لها علىٰ النجاة ، فاليقين راحة للقلوب من هموم الدنيا ، وكاسب لمنافع الدين كلها ، وحسن الأدب زين للعالم وستر للجاهل ، من قصر أمله حذر الموت ، ومن حذر الموت خاف الفوت ، ومن خاف الفوت قطع الشوق ، ومن قطع الشوق بادر قبل زوال إمكان الظفر ، فاجعل التيقظ واعظك ، والتثبت وكيلك ، والحذر منبهك ، والمعرفة دليلك ، والعلم قائدك ، والصبر زمامك ، والفزع إلىٰ ٱلله عز وجل عونك ، ومن لم توسعه الدنيا غنىٰ ، ولا رفعة أهلها شرفاً ، ولا الفقر فيها صفة فقد ارتفعت همته وعزفت عن الدنيا نفسه . من كانت نعمته السلامة من الآثام ، ورغب إلىٰ ٱلله في حوادث فوائد لمريد نقل عن الدنيا بقلبه . ومن اشتد تفقده ما يضره في دينه وينفعه في آخرته ، وذكر اطلاع ٱلله إليه ومثل عظيم هول المطلع وأشفق مما يأتي به الخير فقد صدق ٱلله في معاملته وحقق استعمال

ما عرفه ربه . ومن قدم العزم لله علىٰ العمل بمحبته ووفاء لله بعزمه وجانب ما يعترض بقلبه من خطرات السوء ونوازع الفتن فقد حقق ما علم وراقب ٱلله في أحواله ، كهفه المريد وحرزه التقوىٰ ، والاستعداد عونه وجنته التي يدفع بها آفات العوارض وصور النوازل . والحذر يورثه النجاة والسلامة ، والصبر يورثه الرغبة والرهبة ، وذكر كثرة سوالف الذنوب يورثه شدة الغم وطول الحزن ، وعظم معرفته بكثرة آفات العوارض في الطاعات تورثه شدة الإشفاق من رد الإحسان [1] .

ومن المراقبة الإخلاص والورع فقيل : المخلصون من الورعين هم الذين تفقدوا قلوبهم بالأعمال والنيات في كل أحوالهم وأعمالهم وحركاتهم وسكونهم ، مواظبين للاستقامة المفترضة علىٰ طاعة ٱلله ، وله محافظين ، ومن دخول الفساد عليهم مشفقين ، فأورثهم ٱلله مراقبته ، فهنالك تنتصب قلوبهم بمداومة المحافظة لنظر ٱلله إليهم ونظره إلىٰ سرائرهم وعلمه بحركاتهم وسكونهم ، فهنالك تقف القلوب بعلم ٱلله بهم في ذلك ، فلم تبرز حركات الضمير إلىٰ تحريك الجوارح إلا بالتحصيل والتمييز لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [2] . ولقوله سبحانه : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [3] . ما من عمل إلا والرقيب شاهد عليه ، فهو الذي لا تخفىٰ عنه خافية فأينما تكون ٱلله يعلمها في الأرض وفي السماوات العلا كبيرة كانت أم صغيرة لا تخفىٰ عن بصره ولا تغيب عن رقابته ، وكل شيء في كتاب مبين .

---

(1) حلية الأولياء ، ج 4 ، ص 293 .
(2) النساء ، 1 .
(3) يونس ، 61 .

والخليفة الذي يستوعب ما قيل عن المراقبة وعن الرقيب ويعلم أن ٱلله رقيب شاهد بصير حافظ محصٍ مبدئ معيد حسيب عليٌّ كبير عظيم وغير ذلك من صفات ترتبط بالرقيب الذي لا تنتهي أدوات رقابته علىٰ الإنسان ، ومن هـٰذه الأدوات ما أشرنا إليه قبل ذلك ونزيده في هـٰذا المكان أن الرقابة لصيقة ولهـٰذا يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (1) .

ففي نفس الإنسان من الرقباء ما قد يغفل عنهم ، ومن مثل ذلك شهادة الجسم أو أجزاء منه علىٰ الإنسان كالرجل التي يستخدمها الإنسان في سعيه خيراً وشراً ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ (2) .

ولأن الخليفة هو الأكثر مراقبة لله فهو الذي يوفي بالعهد الذي عاهد ٱلله بني آدم عليه بعدم اتباع الشيطان وعدم السير في طريق الضلال لأن ٱلله تعالىٰ رقيب عليهم بعلمه الشامل وبما رصد من أدوات كلّفها بمراقبة أعمال الإنسان ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ (3) .

---

(1) الذاريات ، 10ـ21 .
(2) النور ، 24 ، 25 .
(3) يس ، 60ـ66 .

والعهد يتلخص في الخلافة الصحيحة المبنية علىٰ المنهج الذي أراده ٱلله بالإصلاح والتعمير علىٰ كافة المستويات من أخلاق وعادات وتقاليد وتعليم واقتصاد وسياسة وزراعة وبناء للإنسان لأنه الثروة الحقيقية التي يجب الاهتمام بها ، فما فائدة علم دون أخلاق ؟ وما فائدة حضارة دون إنسان أنموذجي ؟ ولذالك فلا جدوىٰ إلا بمراقبة الإنسان الخليفة لأفعاله وأفعال الآخرين والتيقن أنها تصب في بناء الإنسان الذي يمثل الأداة الإلـٰهية في تعمير الأرض ، وعندما يخلق الإنسان النموذجي الجديد يمكن أن نقول : إن الإنسان قد أوفىٰ العهد مع ٱلله ، لأنه في هـٰذه الحالة سيؤدي وباقتدار الدور الذي خلق من أجله وهو خلافة ٱلله في الأرض انطلاقاً من فهم وعلم وإتقان ومراقبة لله في ٱلله ولله وفي نفسه ولنفسه وفي الأرض محل الخلافة بما ينفع ، والبعد عما يضر نفسه والآخرين .

ومن تجليات الرقيب أنه سيجمع كل من كان في الأرض ليعمرها ، وذلك عندما يأخذ ٱلله الجبال التي تثبت الأرض هنا يصبح الكل في حال كشف فتكون الأرض بارزة ظاهرة مستوية لا تخفي شيئاً ولا يستطيع أي مخلوق أن يختفي من الرقيب لأنه في هـٰذا الموقف قد انتهت ولاية الإنسان علىٰ الأرض وحتىٰ علىٰ نفسه ولأنه الرقيب الذي لا يغيب عليه وعنه شيء فقد جعل أعمال العباد مجموعة في كتاب حصر أعمالهم الصغيرة والكبيرة ولم يغادر أقل حركة أو سكنة أو كلمة أو خاطر قام به الإنسان ، وهـٰذا لأنه سبحانه العادل الذي لا يظلم أحداً يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [1] .

(1) الكهف ، 47 ـ 49

قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) . ولأنه الرقيب المطلق فهو معنا أينما نكون ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ يراقبكم ويبصر أعمالكم وهو مالك ملك السماوات والأرض ، لذا ترجع كل الأمور إليه وحده لا شريك له سبحانه عز وجل ، ولأنه الرقيب فأكثر من ذلك إنه يعلم ما تكنه الصدور ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ ، والعلم بالذات يعني علماً بمكوناتها ونواياها وأفعالها التي تضمر عليها قبل أن تقدم علىٰ تنفيذها .

قال تعالىٰ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (2) . التسبيح اعتراف إيماني بخالق عظيم وعلم بأمره رقيب مطلق لا تخفىٰ عليه خافية ، ولأنه رقيب عادل رحمـٰن رحيم فالحمد له والشكر له رب عظيم . والتسبيح بذلك الاعتراف بالوحدانية والقدرة المطلقة يعني الطاعة التامة له واحداً أحداً لا شريك له في الأمر والملك ، والمصير له فهو الخالق الباسط الرازق الذي يعلم ما يُسر ويُعلن ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (3) .

فالرقيب هو الذي يعلم ما في السموات والأرض من الأمور الكلية والجزئية والأحوال الجلية والخفية ، ويعلم ما يُسر وما يُعلن ، أي : ما تسرونه فيما بينكم وما تظهرونه من الأمور والتصريح به مع اندراجه فيما قبله

---

(1) الحديد ، 4ـ6 .
(2) التغابن ، 1ـ4 .
(3) التغابن ، 4 .

لأنه الذي يدور عليه الجزاء ، ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما ، قال في برهان القرآن إنما كرر ما في أول السورة لاختلاف تسبيح أهل الأرض وأهل السماء في الكثرة والقلة والبعد والقرب من المعصية والطاعة وكذلك اختلاف ما تسرون وما تعلنون فإنما ضدان ولم يكرر ما في السموات والأرض لأن الكل بالإضافة الىٰ علم ٱلله جنس واحد لا يخفىٰ عليه شيء . ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي : هو محيط بجميع المضمرات المستكنة في صدور الناس بحيث لا تفارقها أصلاً فكيف يخفىٰ عليه ما يسرونه وما يعلنونه . وإنما قيل لها ذات الصدور وصاحبتها لملابستها لها وكونها مخزونة فيها ، ففي الآية ترقٍ من الأظهر إلىٰ الأخفىٰ لأنه عالم بما في السموات وما في الأرض وبما يصدر من بني آدم سرّاً وعلناً وبما لم يصدر بعد بل هو مكنون في الصدور ، وإظهار الجلال للإشعار بعلية الحكم وتأكيد استقلال الجملة قبل وتقديم القدرة علىٰ العلم لأن دلالة المخلوقات علىٰ قدرته بالذات وعلىٰ علمه بما فيها من الاتفاق والاختصاص ببعض الجهات الظاهرة مثل كون السماء في العلو والأرض في السفلىٰ أو الباطنة .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (1) .

في هـٰذه الآية تساؤل ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ أَلا يَعْلَمُ الرقيب جلّ ثناؤه (مَنْ خَلَقَ) من خلقه ؟ يقول : كيف يخفىٰ عليه خلقه الذي خلق وَهُوَ اللَّطِيفُ بعباده ، الْخَبِيرُ بهم وبأعمالهم وبكل أمر ، والذي بفضله جعل الأرض ذلولاً ممتلئة بالرزق الذي هو من فضل ٱلله تعالىٰ .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (2) . بما أنه عليم فبطبيعة الحال

---

(1) الملك ، 14 ، 15 .
(2) آل عمران ، 119 .

أن يكون رقيباً ، ولأنه رقيب فبطبيعة الحال يكون عليماً ، وعلمه بذات الصدور علم بالخفي فما بالك بالظاهر الذي يتمكن العباد من مراقبته والتعرف عليه .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (1) . ابتلاء الصدور بما فيها من أسرار لا يعلمها إلا الرقيب الذي يلم بكل ما فيها من كبيرة وصغيرة وبكل تفاصيلها من محبة أو كره وود أو حقد وسوء نية أو صفاء نية ، والقلوب هي مكامن الأسرار التي تحس بالأثر الموجب المُفرح والأثر السالب المُؤلم والمُحزن ، ولذا عندما تحب أحداً لا تجد مكاناً يليق به إلا القلب وأحاسيسه الراقية التي تحف من تحب بالمودة والصدق والوفاء ، مما يجعل المحب مدخلاً للفرحة في القلوب . وهٰكذا أمر الحزن لا مكان له إلا القلب فعندما تفارق حبيباً يؤلمك في قلبك ولا يؤلمك في رأسك ، وعلينا أن نتذكر عندما نفرح وعندما نحزن لو وضعنا يدنا علىٰ صدرنا لأحسسنا بمكان ومكانة من نفرح أو بمن نحزن .

قال تعالىٰ : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (2) . ثني الصدر تغليفه بما ليس حق ، مما يجعل صاحبه يظهر مالا يخفي فيحجب حقيقته عن الأمر الواقع ، والذي يثني صدره غافل عن الرقيب الذي لا يغفل عن شيء ظاهر أو كامن سبحانه علام الغيوب عالم ما في السموات والأرض وما تكنه الصدور أو تخفيه .

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قيل : في سبب نزولها خمسة أقوال :

أحدها : « أنها نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان يجالس

(1) آل عمران ، 154 .

(2) هود ، 5 .

رسول ٱلله ﷺ ويحلف إنه ليحبّه ، ويضمر خلاف ما يُظهر له ، فنزلت فيه هـٰذه الآية . رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في ناس كانوا يستحيون أن يُفضوا إلىٰ السماء في الخلاء ، ومجامعة النساء ، فنزلت فيهم هـٰذه الآية . رواه محمد بن عباد عن ابن عباس .

والثالث : أنها نزلت في بعض المنافقين ، كان إذا مرَّ برسول ٱلله ﷺ ، ثنىٰ صدره وظهره وطأطأ رأسه ، وغطىٰ وجهه لئلا يراه رسول ٱلله . قاله عبد ٱلله بن شداد .

والرابع : أن طائفة من المشركين قالوا : إذا أغلقنا أبوابنا ، وأرخينا ستورنا ، واستغشينا ثيابنا ، وثنينا صدورنا علىٰ عداوة محمد ﷺ ، كيف يعلم بنا ؟ فأخبر ٱلله عما كتموا ، ذكره الزجاج .

والخامس : أنها نزلت في قوم كانوا لشدة عداوتهم رسولَ ٱلله ﷺ إذا سمعوا منه القرآن حنَوا صدورهم ، ونكسوا رؤوسهم ، وتغشوا ثيابهم ؛ ليبعد عنهم صوت رسول ٱلله ﷺ ولا يدخل أسماعهم شيء من القرآن . ذكره ابن الأنباري » [(1)] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ المشركون يضمرون في صدورهم الكفر ظنًا منهم أنه يخفىٰ علىٰ ٱلله ما تضمره نفوسهم [(2)] وفي هـٰذا الأمر خمسة أقوال :

أحدها : « يكتمون ما فيها من العداوة لمحمد ﷺ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

(1) زاد المسير ، ج 4 ، ص 77 .
(2) التفسير الميسر ، ج 3 ، ص 486 .

والثاني : يثنون صدورهم علىٰ الكفر . قاله مجاهد .

والثالث : يثنونها ؛ لئلا يسمعوا كتاب ٱلله . قاله قتادة .

والرابع : يثنونها إذا ناجىٰ بعضهم بعضاً في أمر رسول ٱلله ﷺ . قاله ابن زيد .

والخامس : يثنونها حياءً من ٱلله تعالىٰ ، وهو يخرَّج علىٰ ما حكينا عن ابن عباس »[1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[3] . جميع الآيات الكريمة تؤكد علمه المطلق بما يظن البعض أنه لا يعلمه ، وهـٰذا الأمر يدل علىٰ سذاجة التفكير لدىٰ البعض من العباد ولذلك فإن بعض الظن إثمٌ . ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[4] .

وعليه أتساءل :

ـ هل يمكن لأحد أن يعلم بالشيء إن لم يكن الشيء موجوداً ؟ وهل

---

(1) زاد المسير ، ج 4 ، ص 78 .
(2) فاطر ، 38 .
(3) الزمر ، 7 .
(4) يونس ، 35 ـ 36 .

يمكن للشيء أن يكون لو لم يكن سابقاً علىٰ وجوده من بيده أمر الكينونة (كن) فيكون ؟ وهل يمكن أن يكون هو كما هو لو لم يكن عليه رقيب عتيد ؟

ـ هل يمكن لأحد أن يدرك إن لم يكن له عقل سليم ؟ وهل يمكن للعقل أن يترك سدىً لا رقيب عليه ؟ أم أن العقل من مكوناته وملكاته الذاتية الرقابة التي تمكن من التمييز بين ما يجب وبين ما لا يجب ؟ وإذا سلمنا بذلك ، ألا يكون من الصواب أن نبتعد ونجتنب عما يجب تجنبه والانتهاء عنه ، وأن نقدم علىٰ ما يجب أن يكون ؟ إذا سلمنا بذلك جدلاً ، ألا يحق للخليفة أن يراقب نفسه حتىٰ لا تخطئ أو تنحرف عن أداء ما يجب وتبتعد عما يجب الابتعاد عنه ؟ وإذا سلمنا بذلك جدلاً ، ألا يحق للعقلاء أن يرعوا غير العقلاء حفظاً علىٰ النوع ، وحفظاً علىٰ مكارم الأخلاق ؟

ـ هل يمكن للإنسان أن يرىٰ لو لم يكن بصيراً ؟ الرؤية قد تكون عينية وقد تكون إدراك حقيقة بخبر لا شك فيه ، ومع ذلك فالتبيُّن سيِّد الأحكام . وبذلك ألا تكون العقول قادرة علىٰ التقصي والتتبع الواعي والبحث في أغوار الأشياء حتىٰ تدرك كنهها ؟ ألا يكون الكافر والمشرك بالحقيقة كافراً بالحق المطلق ؟ إذا كانت الإجابة بنعم ، ألا يكون من يكفر بالحق المطلق مفسداً في الأرض ؟ إذا كان كذلك ألا يكون من يفسد في الأرض يشكل خطراً علىٰ العباد ؟ إذا كان كذلك ألا تكون مراقبته ضرورة حفظاً علىٰ النوع البشري ؟ إذا لم ينته ألا يكون عقابه حقاً يستوجب الإحقاق ؟

ـ ألا يكون العقل شيئاً لا يوصف ولا يشاهد وبه تدرك الأشياء القابلة للمشاهدة والملاحظة . إذا كانت الإجابة بنعم ، ألا يكون العقل أفضل ما نملك ؟ وإذا كان كذلك ألا يحق لنا أن نتساءل :

بما أنه الأفضل الذي به تدرك الأشياء المادية والروحية أو المعنوية ، إذا كان الأمر كذلك ألا نكون قد سلمنا بوجود ما هو مادي قابل للمشاهدة البصرية وما هو غير مادي لا يقبل للمشاهدة المادية ، إذا سلمنا بذلك ألا نسلم بوجود

مطلق يدرك ولا يشاهد ؟ وإذا سلمنا به ألا نسلم برقابته علينا وعلىٰ ما نقول ونعمل أو نفعل وما نُظهر وما نكن ونخفي في صدورنا ؟

ـ ألا يكون الإنسان العاقل قدراً علىٰ أن يميز بين الحق والباطل ؟ بما أنه يكون بدون شك ، فلِمَ لا يميز ؟ ألا يكون ما تكنه الصدور وتثنىٰ عليه انسحاباً بدل الإقدام علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

كل التساؤلات السابقة تحمل إجاباتها فيها ، فمن يدرك الحق يدركها ، ومن غفل عنه غفل عن الحقيقة . ومن يغفل عنها جهل ، وضل ، ومن أدركها اهتدىٰ سبل الرشاد .

فالتساؤلات السابقة مبنية علىٰ الآيات الكريمة السابقة عليها ، التي تؤكد حق الرقابة لأجل ترسيخ ما يجب من حق وتجنب ما لا يجب من باطل ، ولذا فالرقيب المطلق هو ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، والرقيب بالإضافة هو الخليفة الذي أدرك الحق واتبعه ، قال تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) . ولأن الكمال للرقيب المطلق وحده لا شريك له ، فالرقيب بالإضافة ليس بكامل ولذا فهو في حاجة لمن يغفر له إن أدرك الحق واتبعه فكان فضل الرقيب المطلق واسع الرحمة ومجيب الدعاء فالحمد له وحده لا شريك له . وعليه : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ

(1) البقرة ، 284 .

مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) . جاء أمر التسليم من الخليفة الذي اصطفاه الرقيب المطلق ليكون شهيداً (رقيباً) عليهم ويكونوا هم شهداء علىٰ الناس ، ولذلك فأمة الإسلام هي الأمة الوسط التي جاء موقعها بين شهادة رسول ٱلله عليها وبين شهادتها علىٰ الناس ، وأمة وسط هي أمة العدل التي لا تظلم أحداً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (2) . ويكون الرسول عليكم شهيداً ليراقبكم فيما أمرتم باتباعه ، وتكونوا أنتم شهداء لتراقبوا بعد أن تعملوا علىٰ هداية الناس أن تراقبوهم فيما يعملون لتصححوا لهم الأخطاء وتعلموهم وتؤموهم تجاه الحق ، وتصلحوا ما استطعتم ، والصلح خير ، وقولوا : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ (3) ولذا فعليكم بقول الحق ، فالرقيب المطلق لا تخفىٰ عليه خافية ومن اعترف بذنبه وكفَّر عنه يجد ٱلله غفوراً رحيماً ، وما ربك بظلام للعبيد .

والجملة الكريمة صريحة في أن ٱلله تعالىٰ يحاسب العباد علىٰ نياتهم وما تكسبه قلوبهم سواء أخفوه ، أم أظهروه .

(1) البقرة ، 285 ـ 286 .
(2) البقرة ، 143 ـ 144 .
(3) البقرة ، 284 .

وقد بين المحققون من العلماء أن هـٰذه المحاسبة إنما تكون علىٰ ما يعزم عليه الإنسان وينويه ويصر علىٰ فعله ، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته : كمن عزم علىٰ السرقة واتخذ الوسائل لذلك ولـٰكن لم يستطع التنفيذ لأسباب لم يتمكن معها من السرقة التي أصر عليها ، وبهـٰذا الخصوص أعرض قصة سرقت الليمونة مع أنها لا زالت في الشجرة .

سرقت الليمونة مع أنها لازالت في الشجرة :

قرر مجموعة من اللصوص سرقة الليمونة من الشجرة ، كل وفق الفرصة التي تمكنه من النجاة بها .

فالأول : قرر السرقة ونفذ قراره . وقبض عليه متلبساً في حالة سرقة وجُرم وفق القانون .

والثاني : قرر السرقة ولـٰكنه لم ينفذ قراره ، وبالتالي لم يتهم بالسرقة . ولـٰكن بما أنه قرر سرقة الليمونة وهو عاقل ، ألا يعد بالنسبة للعقل سارقاً ؟ مضمون القصة هنا تأثر بالزمن وحدوث المتغيرات . إنه قرر السرقة والوقت كان منتصف النهار تقريباً ، وفي قراره إنه سيسرق الليمونة في الليل ، وعندما جاء المساء علم بأن الأول قد قبض عليه أثناء قيامه بسرقة الليمونة المستهدفة ، وبالتالي الليمونة التي يود سرقتها قد سرقت ، مما جعله لا ينفذ قراره ، لا لتقوىٰ ومخافة ٱلله ، بل لأن الفرصة قد ضاعت بالنسبة له . إنه في هـٰذه الحالة ووفق المدركات العقلية مثله مثل السارق الذي قبض عليه ، مع أنه لم يتهم بالسرقة لعدم قيامه بها . ولا فرق في هـٰذه الحالة بين السارق الأول والثاني ، إلا أن الأول قد نفذ قراره ولم ينج ، والثاني لم تتح له فرصة التنفيذ فنجا من القبض ، وقد يعتقد البعض أنه خال من عيوب السرقة . ولـٰكن لو لم ينفذ الأول قراره في ذلك اليوم ، يجوز أن يكون الثاني هو السارق الذي قبض عليه .

أما الثالث : فهو الذي قرر سرقة الليمونة من شجرة الجيران ، وفق خطة تتضمن بدائل لتنفيذ عملية السرقة . الخطوة الأولىٰ : يقوم بسرقة الليمونة عندما يكون جيرانه خارج المنزل ، وهـٰذه تتطلب منه مراقبة الجيران عند خروجهم من المنزل . والبديل الثاني : إذا لم يخرج الجيران جميعهم من المنزل قرر أن يكوِّن علاقة مع الحارس والكلب الذي قد يعيقه أثناء تنفيذه قرار السرقة . والبديل الثالث : أن يقتل الحارس والكلب .

كل هـٰذه العملية الحسابية عملية عقلية ، وغير عفوية ، لأنها وفق خطة وإصرار علىٰ دخول المخاطرة ، وبعقل مدبر . وما التنفيذ إلا خطوة من خطوات الخطة ، ولهـٰذا لم تكن المشكلة في فعل السرقة ، بل المشكلة في العقل الذي قرر السرقة ووضع لها خطة . وعليه ينبغي أن يستهدف العلاج العقل .

والرابع : قرر سرقة الليمونة ، ولـٰكنه تراجع نتيجة خوفه من أن يقبض عليه . في هـٰذه الحالة لا يختلف عن سابقيه فهو لم يخف ٱلله بل خاف القبض عليه . إنه سارق ولـٰكن الخوف حال بينه وبين ارتكاب فعل السرقة . لم تمنعه الأخلاق ، ولا القيم والأعراف ، ولا الدين ، بل شيء آخر أنتج الخوف . إنه العقل المدبر الذي يقرر ، ويخطط ، ويغيِّر قراراته وخططه وفق المواقف والظروف والمتغيرات الطارئة .

تعد الليمونة في كل الحالات مسروقة ، وتُعتبر سُرقت منذ أن اتخذ قرار سرقتها ، وما التنفيذ إلا خطوة لاحقة لذلك . هـٰذه القصة تذكرني بقصة أخرىٰ بعنوان : ذبح الخروف ليلاً وأصبح بخير :

ذبح الخروف ليلاً وأصبح بخير :

حضر الضيف إلىٰ المدينة ، واتصل بصديقه من الفندق ، ليبلغه بوصوله ، فدعا الصديق المقيم صديقه الزائر إلىٰ وجبة الغذاء ليوم الغد . وقرر ذبح الخروف الذي اشتراه يوم الأمس لهـٰذه الضيافة . وصدر قرار ذبح

الخروف ليلاً ، علىٰ أن ينفذ صباحاً لتتمكن الزوجة من إعداد وجبة الغذاء في وقتها المناسب . في هـٰذه الحالة يعد الخروف مذبوحاً وفقاً لقرار ذبحه ، سواء بالنسبة للخروف أو لمالكه ، ولـٰكن من الناحية التنفيذية لازال الخروف علىٰ قيد الحياة . إن التنفيذ في حقيقته ما هو إلا تأكيد علىٰ اتخاذ القرار .

في الصباح الباكر اتصل الصديق الزائر بصديقه يعتذر له علىٰ عدم حضوره وجبة الغذاء التي اتفقا عليها نتيجة ظروف طارئة اضطرته إلىٰ المغادرة في الحال . إنه متغير تابع أثر علىٰ تنفيذ القرار المتخذ بشأن ذبح الخروف . وعليه مع أن العقل قد قرر ذبح الخروف ، إلا أن الظروف جعلته لا يزال حيّاً ، ولهـٰذا ذبح الخروف ليلاً ، وأصبح بخير [1] .

قال الفخر الرازي : الخواطر الحاصلة في القلب علىٰ قسمين : فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم علىٰ إدخاله في الوجود ، ومنها ما لا يكون كذلك ، بل تكون أموراً خاطرة بالبال مع أن الإنسان يكرهها ولـٰكنه لا يمكنه دفعها عن النفس .

فالقسم الأول يكون مؤاخذاً به .

والثاني لا يكون مؤاخذاً به ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [2] . وقال الآلوسي : المؤاخذة علىٰ تصميم العزم علىٰ إيقاع المعصية في الأعيان وهو من الكيفيات النفسانية التي تلحق بالملكات ، وليس كذلك سائر ما يحدث في النفس أي من خواطر لا تصميم ولا عزم معها [3] .

(1) عقيل حسين عقيل ، سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي . مالطا ، شركة الجأ ، 1997 ، ص ، 28 .
(2) البقرة ، 225 .
(3) الوسيط لسيد طنطاوي ، ج 1 ، ص 530 . ،

وجاء في تفسير الآيات أيضاً ، قوله عز وجل : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ملكاً وأهلها له عبيد وهو مالكهم . ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ وهـٰذا يتناول حديث النفس والخواطر الفاسدة التي ترد علىٰ القلب ولا يتمكن من دفعها ، والمؤاخذة بها تجري مجرىٰ تكليف ما لا يطاق : وأجيب عن هـٰذا بأن الخواطر الحاصلة في القلب علىٰ قسمين فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم علىٰ إظهاره إلىٰ الوجود ، فهـٰذا مما يؤاخذ الإنسان به . والقسم الثاني ما يخطر بالبال ولا يمكن دفعه عن نفسه لـٰكن يكره ولا يعزم علىٰ فعله ولا إظهاره إلىٰ الوجود فهـٰذا معفو عنه بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ وقال قوم : إن هـٰذه الآية خاصة ثم اختلفوا في وجه تخصيصها فقال بعضهم : هي متصلة بالآية التي قبلها وإنما نزلت في كتمان الشهادة ومعنىٰ الآية : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أيها الشهود من كتمان الشهادة أي تخفوه أي تخفوا الكتمان يحاسبكم به ٱلله وهـٰذا ضعيف ، لأن اللفظ هام وإن كان وارداً عقيب قضية فلم يلزم صرفه إليها . وقال بعضهم : إن الآية نزلت فيمن يتولىٰ الكافرين من المؤمنين والمعنىٰ : وإن تبدوا أي تظهروا ما في أنفسكم يعني من ولاية الكفار أو تخفوه فلا تظهروه يحاسبكم به ٱلله .

عن أبي هريرة قال : لما نزلت علىٰ رسول ٱلله ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ . اشتد ذلك علىٰ أصحاب رسول ٱلله ﷺ فأتوا رسول ٱلله ﷺ ثم بركوا علىٰ الركب فقالوا : أي رسول ٱلله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هـٰذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول ٱلله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل ٱلله تعالىٰ في أثرها : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا

وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (1) ثم جاء التيسير بقوله تعالىٰ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) .

وأخيراً فيجب أن نراقب ٱلله في أنفسنا وفي الآخرين ، ونعلم أننا لا نستطيع أن نستخفي من ٱلله لأنه معنا في أي مكان وزمان ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (3) .

فسبحان ٱلله الرقيب الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم الذي يحيط علمه بنا في الظاهر والباطن في السر والعلن في الليل والنهار وهو السميع البصير .

الرقيب هو الذي لا يغفل ولا يغيب ولا يتأخر عن مهمة الرقابة أو المراقبة ، ورقيب تعني الاستمرارية المتصلة دون انقطاع ، وتدل علىٰ الدقة المتناهية والوعي الكامل بأمور من وضع تحت المراقبة ، ورقابة ٱلله تعالىٰ بعباده متصلة مع الحياة والحركة والسكون ، ولهٰذا فللرقيب المطلق جنود يعملون تحت أمره يسجلون عن اليمين والشمال ويحفظون خلفاءه في الأرض ويشهدون عليهم وما ربك بظلام للعبيد . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا

(1) البقرة ، 285 .
(2) البقرة ، 286 .
(3) النساء ، 106ـ108 .

حَكِيمًا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [2] .

اللهُمَّ إنك الرقيب الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [3] اجعلنا يا رقيب تحت رقابتك محفوظين مما يعمله لنا شياطين الجن والإنس ، وأحطنا بعنايتك وحفظك .

اللهُمَّ يا الرقيب إننا نؤمن بك واحداً أحداً ولا نشرك بك شيئاً ونؤمن بثوابك ونرتقبه فلا تجعلنا خائبين ، ونؤمن بعقابك فنخشاك ونتقيك فجنبه عنا إنك أنت الرحمـٰن الرحيم .

اللهُمَّ يا الرقيب اجعلنا علىٰ الفطنة كي لا نغتر ، واجعلنا علىٰ الطاعة كي لا نعصي ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اللهُمَّ يا الرقيب اجعلنا وآبائنا وأولادنا ونسائنا وإخوتنا تحت رعايتك مسلمين خاشعين لك طائعين ، وألحقنا بالصالحين الأبرار الذين بروا بما وعدوا من الاستقامة علىٰ هـٰذا الإيمان إلىٰ أن قبضتهم إليك وأنت راض عنهم (وآتنا ما وعدتنا علىٰ رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد) ! اللهُمَّ ارحمنا ولا تعذبنا ، ووفقنا ، فإنه لا ملجأ لنا إلا إليك ، ولا معول لنا إلا عليك .

اللهُمَّ إنك الرقيب لا تخفىٰ عليك خافية فطهّر أنفسنا من ضعفها وطهرها من وساوس الشيطان ! اللهُمَّ يا الرقيب اجعل بيننا وبين الحفظة المكلفين بنا

---

(1) الفتح ، 4 .
(2) المدثر ، 31 .
(3) الأنعام ، 59 .

خير علاقة ، واجعلنا من الذين ثقلت موازينهم ، ولا تجعلنا من الخاسرين الذين خفت موازينهم !

اللهُمَّ يا الرقيب لا ملجأ لنا إلا إليك ، ولا معول لنا إلا عليك ، ولا حافظ ، ولا نافع ، ولا رؤوف وعفو وغفور إلا أنت ، لا إلـٰه إلا أنت سبحانك !

اللهُمَّ يا رقيب ارحمنا ، وأكرمنا ، وآثرنا ، ولا تؤثر علينا ، إنك علىٰ كل شيء قدير !

✍ ✍ ✍

المجيب جل جلاله

المجيب « هو الذي يقال مسألة السائلين بالإسعاف ودعاء الداعين بالإجابة وضرورة المضطرين بالكفاية ، بل ينعم قبل النداء ويتفضل قبل الدعاء وليس ذلك إلا لله عز وعلا ، فإنه يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم وقد علمها في الأزل فدبر أسباب كفاية الحاجات بخلق الأطعمة والأقوات وتيسير الأسباب والآلات الموصلة إلىٰ جميع المهمات »[1] .

المجيب « من أسمائه تعالىٰ (المجيب) لدعوة الداعين وسؤال السائلين وعبادة المستجيبين »[2] .

المجيب هو الذي يسأل فيجيب دون منَّة ، ولا مجيب بالمطلق إلا مالك الملك المطلق . والمجيب هو السميع الذي يدرك الأمر وما يتعلق به من حاجة فيستجيب إليها ، والمجيب هو السريع في الإجابة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[3] فالفعل قريب يتعهد الإجابة الفورية لمن استجاب لله دون سواه .

أما الاستجابة فهي في حق العبد الذي لم يعرف الحقيقة بعد فيمر بزمن

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 118 .

(2) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 62 .

(3) البقرة ، 186 .

الانتظار المشروط بالاستجابة التي لمَّا يصل إليها يدعو ٱلله ، حينها يكون ٱلله هو المجيب وليس المستجيب ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (1) ولأنه العليم بالشيء وأسبابه والحاجة ومشبعاتها من ملكه ، قال تعالىٰ : ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (2) . الدابة البرية ترعىٰ فيما استجاب إليها ٱلله به ، فهي لا تملك أن تنتج ولا تزرع ولا تمتلك بذور الزرع ولا تخرج الماء من بطن الأرض كما يفعل الذي خلقه تعالىٰ في أحسن تقويم ، ومع ذلك المجيب يرزقها بما يشبع حاجتها للماء والطعام سبحانه جل جلاله .

وقال تعالىٰ : ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (3) .

وقال تعالىٰ : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (4) . المجيب لا يجيب إلا بما يفيد وفقاً لما يراه من حق وعدل ، فالقرية التي ضرب بها ٱلله مثلاً كانت آمنة مطمئنة بما آتاها ٱلله من رزق مفيد ونافع وغير منقوص ، ولما كفرت به

---

(1) آل عمران ، 172 ، 173 .

(2) العنكبوت ، 60 .

(3) هود ، 6 .

(4) النحل ، 112ـ115 .

وبنعمه جاء الحق بما عملت أيديهم من فساد في الأرض ، خاصة وأن ٱلله قد أنذرهم برسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب بظلمهم ، وفي هٰذا درس وحكمة لبني آدم ليعلموا أن المجيب هو محق الحق ومزهق الباطل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [1] .

المجيب جل وعلا هو الذي يسمع الظاهر والباطن من الدعاء ، فهو الذي يسمع الملفوظ من دعاء العباد و يحثهم عليه ليجيبهم فيقول : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2] ، وإن لم ينطق العبد استجاب الرحمٰن لما في صدره فهو الذي يعلم المكنون في الصدور : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [3] ، وعلمه سبحانه كلي مطلق شامل ، وسمع الدعاء من علمه بالبواطن ، فلا يشترط لفظ القول في ما يدعو الإنسان به ربه لأنه عليم بذات الصدور : ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [4] ، فهو السميع الذي لا تخفىٰ عليه خافية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾

(1) الأنبياء ، 16ـ22 .
(2) غافر ، 65 ـ 66 .
(3) ق ، 16 ـ 17 .
(4) الملك ، 13 .

قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ [1] .

والمجيب دائم الإجابة لا يمل ولا يبخل فهو الكريم ، لأن إجابته مطلقة نص عليها سبحانه مشروطة بالدعاء ظاهراً كان أم خفيّاً : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [2] ، وفي هـٰذه الآية الكريمة نشعر بكرمه سبحانه إذ جعل الإطلاق صفتها الأساسية ، فليس هناك تحديد للدعاء ، فأنت تستطيع أن تدعو المجيب بكل ما تريد وما تشتهي نفسك ، وإذا سأل السائل عن دعوة تخالف مرضاة ٱلله ؟ فالإجابة تكون بقوله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [3] ، أما الكلام غير الصالح فإنه لا يرقىٰ إلىٰ ملكوته عز وجل ، والذين يمكرون السيئات لا يغفل عنهم فلهم العذاب الشديد فهـٰؤلاء يمكرون ويمكر ٱلله وٱلله خير الماكرين ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [4] .

فللعبد أن يدعو ٱلله في الحاجة الواحدة ما يشاء من الدعاء ، وفي كثرة

(1) الحاقة ، 18ـ33 .
(2) غافر ، 60 .
(3) فاطر ، 10 ـ 11 .
(4) الأنفال ، 30 .

الحاجات فوق ذلك . كما أنه من كرمه لم يحدد نوع الدعاء المطلوب لتحقيق الإجابة لأنه يعلم بعلمه أن بين عباده المتمكن من القول بدرجات البلاغة والفصاحة والبيان ، ومنهم الأمي الذي لا يعرف من القول إلا ما سمع من غيره وكل ذلك مقبول عنده مرضي من جلاله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [1] . الحديث موجه للخليفة الذي لا يدعو مع ٱلله إلـٰهاً آخر ، ولأن الأعمال بالنيات فأيا ما يدعوه له الأسماء الحسنىٰ ، وأيا ما يدعوه تكون الإجابة .

وكما الدعاء مطلق فالإجابة مطلقة تتبع إرادته سبحانه ، فهي فورية أحياناً لا تأخير فيها وذلك عندما يكون الدعاء بقصدٍ مخصوص كما في دعاء سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2] ، سأل عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ربه فكانت الإجابة فورية لأن الدعاء كان لغرض إلزام الحجة التي يجب أن تكون قاطعة لا لبس فيها . وسؤال عيسىٰ يقيني بأنه مجيب وظن الآخرين فيه شك فكانت الإجابة يقيناً كما رآها عيسىٰ يقيناً . وهـٰكذا يكون الخليفة أبداً ، مؤمناً بأنه المجيب ، أي بطبيعة الحال بما أنه المجيب لابد وأن يجيب فهـٰذه من صفاته ، وإنه لمن الغرابة أن يؤمن الإنسان بأنه المجيب ويظن في دعائه إليه بين شك ويقين ، استغفر ٱلله دائماً من يدعوه دون شكٍ يجده أسرع المجيبين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ

(1) الاسراء ، 110 .

(2) المائدة ، 114 ـ 115 .

وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (3) . ما أجمل كلمة (فاستجبنا) المعبرة عن الالتزام مع أمره كن فيكون ، فهي ليست استعجالية بل هي المتلازمة مع الأمر كن ، ولذا تتكون من معطيات القوة التي ترتبط بقوة المجيب دون تردد وذلك لارتباط قوة السائل بالمجيب دون شك وتردد .

وللإجابة الفورية شرط أساس هو الإخلاص التام في الدعاء والانقطاع إلىٰ ٱلله عز وجل دون غيره ، وأمثلة القرآن المؤكدة لذلك عديدة منها قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا

(1) الأنبياء ، 76ـ 81 .
(2) الأنبياء ، 83 ـ 84 .
(3) الأنبياء ، 87ـ 90 .

مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[1] ، ولأن الإنسان في الحياة الدنيا هو محل اختبار في كل ما يقول ويفعل ولأن ٱلله يمهل ولا يهمل فٱلله يجيب دعاء السائل المحتاج إليه حين السؤال ليبين له أنه المجيب المطلق فإن آمن كان خيراً له وإن ارتد أو كفر فله عذاب أليم ، قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾[2] .

فالإخلاص في الدعاء أنجىٰ هـٰؤلاء ومثلهم كثير مع معرفته سبحانه بأنهم سيعودون إلىٰ سابق عهدهم في النكران ، ولـٰكنه سبحانه يريد أن يُفهم خليفة ٱلله في الأرض أن الإخلاص له مكانة عالية ودرجة رفيعة يجب أن يثاب عليه المخلص ، قال تعالىٰ : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٠ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾[3] . ٱلله جل جلاله يريد بالإنسان خيراً ولهـٰذا خلقه في أحسن تقويم ، ولـٰكن بعض من بني الإنسان يريدون الحياة الدنيا علىٰ حساب الآخرة فمثل هـٰؤلاء ليس لهم في الآخرة من نصيب ، قال تعالىٰ : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ۝١٩ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ

(1) يونس ، 22 ـ 23 .
(2) الانفطار ، 6 ـ 19 .
(3) الإسراء ، 8 ـ 11 .

رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [1] .

والتوحيد الخالص المطلق الذي يجعل الإنسان مع ربه الكريم فقط ودون غيره مع التيقُّن بالإجابة من دواعي الإجابة الفورية : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [2] .

وقد تكون إجابة المجيب سبحانه أجلية أي بأجل مخصوص كما في إجابة دعاء سيدنا أيوب علىٰ عظمة عبادته وإخلاصه كما يصفه عز وجل في كتابه العزيز : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ [3] .

وربما لنا أن نقف مع هـٰذه الإجابة ونتساءل : إذا كان أيوب عليه الصلاة والسلام كما وصفه ٱلله تعالىٰ من العبادة والصبر والإيمان فلم تأخر في دعوته حتىٰ يستجيب ٱلله له ؟

لأنه يعلم بأنه نبي .

---

(1) الإسراء ، 18ـ21 .

(2) الاسراء ، 67 .

(3) ص ، 44ـ61 .

لأنه يعلم أن لا قدرة علىٰ الصبر إلا عند الصالحين .

لأنه يعلم أن في ذلك أجراً عظيماً .

لأنه يعلم أن في الصبر عبادة .

وذلك لعلمه بأن ٱلله مجيب ، ولذا عندما حان وقت الدعاء دعا فكانت الإجابة .

قال تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ (1) ، لأن ما مر به أيوب بمثابة الدرس لخليفة ٱلله ليأخذ من قصته العبرة التي تعينه في القيام بأمر الخلافة ، وأيوب ﷺ كان ممن خصه ٱلله تعالىٰ بأنواع البلاء وهو غير مغضوب عليه ، والمقصود من جميع هـٰذه القصص الحكمة والاعتبار . كأن ٱلله تعالىٰ قال : يا محمد اصبر علىٰ سفاهة قومك فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالاً وجاهاً من داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب عليه الصلاة والسلام ، فتأمل في أحوال هـٰؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل المؤمن لا بد له من الصبر علىٰ المكاره ، واعلم أنه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات ، والألم الشديد في الجسم ، ولما حصل هـٰذان النوعان لا جرم ، ذكر ٱلله تعالىٰ لفظين وهما النَّصب والعذاب ، وقد روي أن إبليس سأل ربه ، فقال هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني ؟ فقال ٱلله تعالىٰ : نعم عبدي أيوب ، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرىٰ إبليس عياناً ولا يلتفت إليه ، فقال : يا رب إنه قد امتنع علي فسلطني علىٰ ماله ، وكان يجيئه ويقول له : هلك من مالك كذا وكذا ، فيقول : ٱلله أعطىٰ وٱلله أخذ ، ثم يحمد ٱلله ، فقال : يا رب إن أيوب لا يبالي

---

(1) العنكبوت ، 43 .

بماله فسلطني علىٰ ولده ، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية ، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه ، فقال يا رب لا يبالي بماله وولده فسلطني علىٰ جسده ، فأذن فيه ، فنفخ في جلد أيوب ، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه ، فمكث في ذلك البلاء سنين ، حتىٰ صار بحيث استقذره أهل بلده ، فخرج إلىٰ الصحراء وما كان يقرب منه أحد ، فجاء الشيطان إلىٰ امرأته ، وقال لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هـٰذا البلاء ، فذكرت المرأة ذلك لزوجها ، فحلف بٱلله لئن عافاه ٱلله ليجلدنها مائة جلدة ، وعند هـٰذه الواقعة قال : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ (1) فأجاب ٱلله دعاءه ، فأظهر ٱلله من تحت رجله عيناً باردة طيبة فاغتسل منها ، فأذهب ٱلله عنه كل داء في ظاهره وباطنه ، ورد عليه أهله وماله (2) .

فهـٰذه الآية وأخواتها في الكتاب الحكيم تبين لنا ولغيرنا صبر أيوب عليه الصلاة والسلام فلا نعبد ٱلله علىٰ حرف : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (3) ، وبهـٰذا المثل يتبن أن ليس تأخير إجابة الدعاء دليلاً للإنكار وإنما تكون هـٰذه الأمثال دليلاً علىٰ الوجود ، وتبيان قوة الإيمان لدىٰ المستخلف بالاصطفاء ليكون الخليفة من بعده مقتدياً بأمر الطاعة للمجيب المطلق .

وقد تكون الإجابة إجابة تدبير لأن المجيب هو المدبر ، فربما دعا إنسان ربه طلباً للمال مثلاً فإن الإجابة تكون بالتدبير كأن يسهل ٱلله لهـٰذا العبد عملاً من الأعمال ويبارك له فيه وهـٰكذا يجيب المدبر : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

(1) ص ، 41 ، 42 .
(2) تفسير الرازي ، ج 13 ، ص 197 .
(3) الحج 11 .

وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (1) .

ومن كرمه سبحانه أنه يجيب المحتاج مثل سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (2) ، في قوله : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ الخليفة موسىٰ عليه الصلاة والسلام يشكر ربه علىٰ عطائه واستجابته له ، ويقر أنه لا غنىٰ عنه في أي إجابة بل كل ما يجيب المجيب جل جلاله تزداد الحاجة إليه إثباتاً . والحاجة التي يلبيها المجيب سبحانه لا تكون بالضرورة حاجة مادية كالمال أو الطعام فربما تكون حاجة معنوية كالصحة والشفاء ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾ (3) ، أو السلطان أو الحكم : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (4) ، أو الذرية وهي من الحاجات التي جبل ٱلله العباد

---

(1) يونس ، 31 ، 32 .
(2) القصص ، 23 ـ 25 .
(3) طه ، 25 ـ 37 .
(4) ص ، 35 .

علىٰ حبها ، فما من بشر إلا ورغب في ذرية علىٰ ما فيها من نصب وعناء في الإنفاق والرعاية لـٰكنها سنة ٱلله في خلقه ليكون من بعد الخليفة خليفة ، وقد طلب هـٰذه الحاجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ (1) ، وطلبها زكريا عليه الصلاة والسـلام : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (2) ، وهـٰذه الحاجات هي الدنيوية ، وعلىٰ العبد أن يدعو لحاجته الأخروية فلا يجعل كل دعائه للدنيا كما يأمرنا المجيب : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (3) .

وغير المحتاج إجابته واقعة بإذن ٱلله وليس المقصود بغير المحتاج أنه الغني عن المجيب ، فلا مخلوق من بشر وشجر وحيوان وأفلاك ونجوم غني عن ٱلله سبحانه فكل المخلوقات فقيرة ومحتاجة إلىٰ ٱلله وإنما المقصود من يمتلك عوناً مادياً يجعله في واسع أمره كأن يملك المال فله أن يطلب مزيداً ، وإذا امتلك القوة والصحة فله طلب المزيد ، وإذا رزق بالبنين فله أن يطلب مزيداً ، يقول المولىٰ سبحانه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (4) ، وفي هـٰذه المسالة أمور مهمة أولىٰ بنا

---

(1) هود ، 69ـ71 .

(2) الانبياء ، 89 .

(3) البقرة ، 200ـ202 .

(4) إبراهيم ، 7 .

أن نقف عليها للإجابة عن سؤال لماذا يدعو غير المحتاج ؟ ولماذا يجيب ٱلله سبحانه دعوته ؟

غير المحتاج يدعو ٱلله لعلمه : أن ما أعطاه إياه هو فضل منه ، ولذا فإن الاعتراف بالفضل اعتراف بالحق الذي لا يكون إلا من مجيب ، ولهٰذا تكون الزيادة مرضاة من السميع المجيب ، أما دعوة المحتاج فتكون أحياناً للضرورة أي للحاجة وبالتالي ليس دائماً كل سائل خليفة ، فغير الخليفة لا ضامن له بالاستمرار في الدعاء ، وقد يظن أن ما أتاه ليس بأسباب الدعاء والسؤال لله تعالىٰ ، فيتغير ، أو يحيد عن النفس التي بها دعا ٱلله حتىٰ الإجابة ، وإجابة ٱلله دليل إثبات : أنه قريب مجيب الدعاء .

المجيب يجيب لثبات صفة الإجابة عنده ، ووقت الإجابة لم يكن بيد البشر ، فهو دائماً بيد المجيب العليم الخبير الذي يعلم ويخبر متىٰ تكون الإجابة ومتىٰ لا تكون من حيث الظرف الزماني والمكاني ومن حيث التقدير العام . فٱلله سبحانه وتعالىٰ يعلم مصلحة الداعي فيقدر وقت الإجابة تأجيلاً أو تعجيلاً بما تقتضيه المشيئة الإلـٰهية المتعلقة بالمصلحة التي من أجلها دعا الداعي فتكون الإجابة في وقتها أمراً نافذاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والإجابة أنواع :

- إجابة لإثبات قدرة ومُلك .
- إجابة ليقين السائل بأنه المجيب .
- إجابة لإزالة الظن والشك في القوة والقدرة والسمع والبصر .
- إجابة ابتلائية .
- إجابة عقابية .
- إجابة لإحقاق حق وزهق باطل .

وعليه فبالنسبة لله الكل محتاج إليه ، أما بالنسبة لمن يقارن بغيره من حيث الحاجة ودرجات إشباعها فالأمر يستوجب التعرف علىٰ ما يجيب علىٰ السؤال السابق بجزءيه المركب منهما .

إن قصر الإجابة علىٰ المحتاج هو نقيض للكرم الذي هو من صفاته عز وجل فهو الكريم ، فإذا تَرك غير المحتاج أوّل مرضىٰ النفوس البخل للعزيز الأكرم سبحانه وتعالىٰ عما يصفون ، وكذلك فيه مدخل للقول بالضعف عن إجابة الكل وٱلله هو القوي ، لذا فإن المجيب وفي كل الآيات المتعلقة بالدعاء استخدم أسلوب الإطلاق لا الحصر وهو أسلوب يتناسب مع صفات المجيب من حيث الكرم والقوة والدوام والغنىٰ وكل الصفات له سبحانه : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (1) .

وربما يتخذ بعض مرضىٰ النفوس مسألة قصر الإجابة علىٰ المحتاج ذريعة للقول بالحاجة إلىٰ إله أو آلهة تجيب من تركهم المجيب ، وليس غريباً أن نجد مثل هـٰؤلاء ، فقد قال نفر منهم أن ٱلله فقير : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (2) ، وقال نفر أن له أبناءً : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (3) ، والمجيب سبحانه

(1) الأعراف ، 54ـ56 .
(2) آل عمران ، 181 .
(3) التوبة ، 30 .

إلـه واحد فرد صمد ، ووحدانيته تغني عن سؤال غيره ، وكل ما سواه مقصِّر عن الإجابة إما كلياً وإما جزئياً ، كلياً لأن ٱلله الواسع الغني يجيب الدعاء صغيراً وكبيراً ، فلو دعا إنسان يطلب الذرية وهو فاقدُ الوسيلة إليها لأي سبب كان فلا يستطيع أحد إجابة دعوته إلا ٱلله : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (1) .

وجزئياً من حيث أن قدرة البشر علىٰ العطاء مهما كبرت فإنها تبقىٰ محدودة قاصرة ، فلو طلبت من بشر كريم مالاً أعطاك لـٰكن من الضامن لدوام حال البقاء للمال أو لغيره إلا المعطي سبحانه ، وإذا سألت طبيباً علاج مرضك فمن يضمن البراء من الداء إلا المجيب اللطيف جل وعلا .

الدعاء دليل إيماني وهو عبادة لا تؤدىٰ إلا بالدعاء الصالح الذي تكون إجابته إحقاق حق ، وإزهاق باطل ، أو تخلصاً من مظالم ، أو فتح باب رزق ، وخير ، ورحمة ، وهداية ، وشفاء .

ولذا فإن ترك الدعاء هو تقصير عن عبادة وتكبر في غير محله ، قال تعالىٰ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(1) يس ، 78ـ79 .

لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) .

الدعاء تقرب إلىٰ ٱلله ، والتقرب إلىٰ ٱلله عبادة ، فمن عبد ٱلله كفر بالشرك وبالظلم وأكل الحرام ، ولذا فللتقرب لله معطيات محمودة منها :

أولاً : الاعتراف المسبوق بالنية الخالصة : بشهادة لا إلـٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ، وهـٰذه الدعوة الأولىٰ المستجابة . قال تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (3) .

ثانياً : التسليم بمن أرسل : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (4) ، هـٰذه الآية تعني فيما تعني : أن ٱلله خالق محمد والملائكة وخالق كل شيء يصلي أي يبارك علىٰ محمد وملائكته الطائعة له تصلي علىٰ محمد مثلما يصلي جل جلاله عليه ، والفرق بين الصلاتين : الأولىٰ صلاة معرفة ، والثانية صلاة تسليم بما أمر ٱلله بـ : (الصلاة عليه) .

في هـٰذه الآية الرسالة موجهة للمؤمنين الذين تستخلف الأرض بهم ، وهم الطائعون مثلما أطاع الملائكة أمر ٱلله تعالىٰ بالصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد صلوات ٱلله وسلامه عليه أبداً ؛ وجاءت المخاطبة هنا للمؤمنين وذلك

---

(1) غافر ، 60ـ66 .
(2) النحل ، 125 .
(3) النجم ، 32 .
(4) الأحزاب ، 56 .

لارتباط الإجابة منهم بالطاعة التامة لمن صلىٰ علىٰ النبي وأمر بالصلاة والسلام عليه .

وعليه فقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ تدل علىٰ وجوب المباركة بمن جاء به رسولاً ، أي من يصطفيه ٱلله للعباد الصالحين يستوجب مباركتين اثنتين هما :

الأولىٰ : مباركة الاختيار : أي مباركة من اختاره ٱلله فهو علام الغيوب وهو السميع العليم وهو الخالق الذي له جميع صفات الجمال والكمال جل جلاله ولهٰذا سجد الملائكة لله ولأمره طائعين ، قال تعالىٰ : ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴾ [1] . ولذا فالصلاة عليه تدل علىٰ الاعتراف به مصطفياً من عند ٱلله واعترافاً بأن اختيار ٱلله هو الاختيار الذي لا يدخله الباطل من أمامه وخلفه ولا من بين جانبيه ولا من تحته ولا من أعلىٰ منه ، إنه الاختيار الحق الواجب الاتباع . و﴿ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ هٰذه الأخرىٰ هي دليل اعتراف تسليمي ، أي أنها التسليم بالمطلق بمحمد وبما أتىٰ به محمد من عند ٱلله تعالىٰ ، ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴾ [2] . ولأن محمداً عليه الصلاة والسلام مستخلف بالاصطفاء المباشر من عند ٱلله تعالىٰ فاتباعه واجب ومن تبعه وجوباً يكون من المستخلفين فيها حيث الغاية واحدة وهي الإصلاح في الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ

(1) الحجر 30 .
(2) النجم 4 ـ 5 .
(3) الجاثية 14 ـ 15 .

قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[1] . لا شيء يبقىٰ غير الهداية ، والهداية عمل صالح ، والصلح خير .

وعليه فالتسليم اعتراف عن يقين ، ولهـٰذا آمن الرسول بما أنزل إليه والمؤمنون كل آمن بٱلله وبالرسول وبالكتاب ، والإيمان بالكتاب يتضمن الإيمان بما يحتويه الكتاب من أوامر ونواهي وعبادات ، وبما فيه من عبر وقصص وفقاً لقاعدة الأخذ بما يجب الأخذ به ، والابتعاد عما يجب الابتعاد عنه . ولذا فالصلاة والسلام علىٰ الرسول الكريم أمر تسليم وطاعة ، والمؤمنون هم الخلفاء الذين يصلون عليه ويسلمون تسليماً .

والثانية : مباركة المختار : الذي أمره ٱلله بأن يقول : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[2] ، فقال المحسنون منهم كما جاء في الكتاب العزيز : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3] . ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[4] . ولذا علينا أن نقول إيمانا : تبارك ٱلله علىٰ محمد صلوات ٱلله وسلامه عليه الذي ارتبطت طاعته بطاعة ٱلله .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ

---

(1) القيامة ، 14ـ19 .
(2) الأعراف ، 158 .
(3) المائدة ، 84 ـ 85 .
(4) النساء ، 80 .

﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (2) . هـٰذا الإيمان المتسلسل من خليفة بالاصطفاء إلىٰ خليفة بالاتباع والاهتداء جاء بهيئته التسليمية المطلقة بألله تعالىٰ ، ثم بالملائكة التي ارتبطت مباركتها للرسول مع مباركة ألله له ، ثم الكتب التي أنزلها ألله علىٰ من اصطفىٰ من الرسل ، ثم جاء إيمان الرسل بالرسل الذين سبقوهم ، ولهـٰذا فنحن لا نفرق بين أحد من رسله ، وهـٰكذا جاء إيمان الخليفة بالرسل حتىٰ الرسالة الخاتمة .

ثالثاً : التسليم بما أمر : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (3) . والأمر الذي احتوته الآية السابقة هو :

1 ـ **الإيمان بألله** : وخير ما نستدل به ما قاله تعالىٰ في سورة محمد ﷺ تسليماً : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ (4) .

2 ـ **الإيمان باليوم الآخر** : قال تعالىٰ : ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا

(1) الأعراف ، 158 .
(2) البقرة ، 285 .
(3) البقرة ، 177 .
(4) محمد ، 19 .

بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ (1) .

3 ـ **الإيمان بالملائكة** : قال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (3) ، وفي سورة النحل قال تعالىٰ : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ (4) .

4 ـ **الإيمان بالكتاب** : قال تعالىٰ : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٩٩ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠٠ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (6) .

5 ـ **الإيمان بالنبيين** : قال تعالىٰ : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

---

(1) التوبة ، 29 .
(2) البقرة ، 285 .
(3) فاطر ، 1 .
(4) النحل ، 2 .
(5) البقرة ، 1 ـ 2 .
(6) البقرة ، 99 ـ 101 .

مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ (2) .

6 ـ **إيتاء المال علىٰ حبه لمن لهم حق فيه وهم :**

أ ـ **ذوو القربىٰ** : قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (4) . وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (5) .

ب ـ **اليتامىٰ** : قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (6) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ

---

(1) البقرة ، 213 .
(2) مريم ، 58ـ60 .
(3) البقرة 177 .
(4) النساء ، 8 .
(5) النحل ، 90 .
(6) البقرة ، 220 .

بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴾ [1] .

ج ـ **المساكين** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [3] .

د ـ **ابن السبيل** : قال تعالىٰ : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾ [5] .

هـ ـ **السائلون** : قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴾ [6] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(1) النساء ، 2 .

(2) التوبة ، 60 .

(3) الحشر ، 7 .

(4) البقرة ، 215 .

(5) الإسراء ، 26 ـ 27 .

(6) الضحىٰ ، 10 .

﴿ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ (1) .

و ـ **في الرقاب** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ (3) .

ز ـ **إقامة الصلاة** : قال تعالىٰ : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ (5) .

ح ـ **إيتاء الزكاة** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (6) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ

---

(1) البقرة ، 177 .

(2) التوبة ، 60 .

(3) البقرة ، 177 .

(4) البقرة ، 1ـ3 .

(5) النساء ، 103 .

(6) التوبة ، 18 .

وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (2) .

ط ـ **الوفاء بالعهد** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (4) .

ي ـ **الصَّابِرِونَ فِي الْبَأْسَاءِ** : قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (6) .

ك ـ **الصابرون في الضَّرَّاءِ** : قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (7) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (8) .

ل ـ **الصابرون حِينَ الْبَأْسِ** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ

---

(1) البقرة ، 43 .
(2) البقرة ، 110 .
(3) الإسراء ، 34 .
(4) البقرة ، 177 .
(5) البقرة ، 214 .
(6) البقرة ، 177 .
(7) الأعراف ، 95 .
(8) الحج ، 35 .

لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [2] .

رابعاً : الإقدام علىٰ العمل الصالح : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [4] .

فقد يتوهم بعض البشر بمقارنته مع الآخرين : أنه غني ، ويعلم المتقون منهم : أنهم الفقراء أمام الغني المطلق ، ولذا فالخليفة فقير لله في حاجة إليه في كل حين ، وسيظل كذلك وهو يعلم أنه لا يستغني إلا به فيمد يديه إليه حتىٰ يفوز برضاه يستغني بالعمل الصالح في الأرض حتىٰ يرث الجنة . قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [6] .

(1) الأحزاب ، 18 .
(2) البقرة ، 177 .
(3) البقرة ، 62 .
(4) الكهف ، 110 .
(5) المؤمنون ، 1ـ11 .
(6) محمد ، 38 .

وعلىٰ ذلك كانت الإجابة من المجيب سبحانه للمحتاج وغير المحتاج ، فهو رب الجميع ولا إلـٰه غيره ، وكل من يدعو غيره فهو في ضلال عقدي وفكري ، عقدي من حيث فساد الاعتقاد عنده بقدرة غير ٱلله علىٰ الإجابة : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ (1) ، والضلال الفكري يتمثل في تصور وجود قوة غير ٱلله سبحانه قادرة علىٰ فعل شيء : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ (2) .

إذاً من الذي ينصرك إذا غُلبت أو تغلَّبتَ ؟ المناصرة يمكن أن تأتيك من بشر ، أما النصر فلا يأتيك إلا من ٱلله الذي يملك الأسباب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (3) . ولذا فالخليفة ليس له بدٌّ إلا أن يقول كل صباح ومساء توكلت علىٰ ٱلله توكلت علىٰ ٱلله ، وما توفيقي إلا بٱلله وما توفيقي إلا بٱلله وما توفيقي إلا بٱلله .

والكريم يجيب المضطر : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ

---

(1) الأحقاف ، 5 .

(2) الأعراف ، 197 .

(3) آل عمران ، 160 .

ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [1] ، والمضطر هو الذي أحوجته شدة من الشدائد وألجأته إلىٰ اللجاء والضراعة إلىٰ ٱلله عز وجل ، فهو اسم مفعول من الاضطرار الذي هو افتعال من الضرورة ، وعليه فالمضطر في أشد الحاجة لنصير ، وعندما تضيق الحظيرة به ويعقل الحق يدرك أن لا ناصر له إلا هو جل جلاله ، فيلتجئ إليه واحداً أحداً فيجيبه سؤله بما أنه قرر بكل وعي أن لا ملجأ منه إلا إليه ، فهو المجيب الذي يملك الأمر ، المجيب علىٰ كل سؤال ، والحمد لله رب العالمين ، ﴿ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ المجيب وحده يعلم الأسباب فيكشفها أي يظهرها بعد أن كانت خفية ، وأسباب السوء هي أسباب ظالمة جائرة ، وبمعرفتها يتم التمكن من الإصلاح ومغالبتها بنصر من المجيب عز وجل ، فإن كان السوء بمرض يكشف سر علاجه ويتحقق الشفاء بتوفر الدواء ، وإن كان عطشاناً ، يكشف الماء ويُمكّن الخليفة من بلوغه ، وهـٰكذا من يملك الأمر يُجيب والحمد لله . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [2] .

وعليه فقوله ﴿ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ أي يرفع عن الإنسان ما يعتريه من الأمر الذي يسوؤه ، والكشف لا يتم إلا بقوة مالك الإجابة ، وبالكشف لن يعود هناك خافية ، ولهـٰذا الكشف أعم من الدفع والرفع .

---

(1) النمل ، 59ـ63 . .

(2) الأنعام ، 39ـ44 .

وٱلله يجيب غير المضطر وهو من وسع ٱلله عليه في الرزق وفي الذرية وفي كل شيء مما كتبه ٱلله له في الدنيا والآخرة ، ومثالنا امرأة فرعون المؤمنة العارفة بٱلله التي تسكن في قصر من أعظم قصور الدنيا في زمانها وعند ملك تخشاه الملوك في زمانه ، ومثلها غير مضطر ، فالاضطرار لم يكن بالنسبة لها مادياً فهي لم تكن محتاجة فعندها خير القصور والجواري في الدنيا ، غير أن الاضطرار كان معنوياً ، فقد أرادت أن تفر من ضيق الماديات إلىٰ واسع رحمته جل جلاله ، فطلبت مكاناً لها في الجنة نجاة من فرعون وكفره . ولمعرفتها برحمة ٱلله وحسن ثوابه طلبت قصراً في الجنة ، وهو ما لا يمكن لأحد أن يجيب مثل هـٰذه الدعوة إلا ٱلله : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (1) .

والمجيب الكريم لا يرد الدعاء لأنه عليم بالحاجات ، فلم يرد دعوة القوي بالإضافة (داوود) وهو يطلب المزيد لتحقيق نصر ٱلله : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن

(1) التحريم ، 11 .

فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) ، فقوة داوود عليه الصلاة والسلام من إيمانه بٱلله سبحانه وثقته بالمؤمنين من حوله لـٰكنه لم يكن بغنىً عن إجابة المجيب ، فدعاه فأجابه سبحانه وحقق له ما يأمل به كل مؤمن ، ولهـٰذا فالمؤمن القوي أحب إلىٰ ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) .

أما الجبارون فبطشهم بالناس من ظلمهم وليس من إجابة دعاء ، لأن الجبابرة ممن وصفهم ٱلله بالخيبة والخذلان فقال : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (3) .

أما جبابرة العناد الفكري من المجادلين بغير حق فهـٰؤلاء ممن حكم ٱلله عليهم بالضلال إلىٰ يوم القيامة ، ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (4) .

وكما القوي فإن للضعيف عند المجيب إجابة لأنه النصير : ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ (5) ، أي ضعيف مستحقر ، فيه من الإهانات

(1) البقرة ، 247ـ251 .
(2) الصف ، 13 .
(3) إبراهيم ، 15 .
(4) غافر ، 35 .
(5) الزخرف ، 52 .

ما يعيبه ويجعل السخرية فيه ، وعندما دعا هٰذا الضعيف وجد إجابة القوي العزيز ، ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، وهٰذه الإجابة كانت لنصرة الضعيف علىٰ فرعون المتكبر الجبار ، والمثير في هٰذه الآية أن الحوار كان لموسىٰ عليه الصلاة والسلام والإجابة كانت له ولأخيه ، وفي ذلك قول يتعلق بصفة الإجابة فهي إجابة العليم الذي يسمع الظاهر من الكلام علىٰ لسان موسىٰ والمخفي في صدر هارون في آن واحد فيجيبهما معاً وليس لأحد سواه قدرة علىٰ ذلك ، سبحانه إنه المجيب .

ومن صفة إجابة المجيب أنها دائمة ، ويتلازم دوام الإجابة مع قدرة المجيب ، فٱلله سبحانه يجيب من يسأله وهو قادر علىٰ الإجابة ، ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) ، وهٰذا الدوام مرتبط بالقدرة فهو القوي الدائم ، فلا كثرة الدعاء ولا كبر ما يُطلب من القوي يقلل من قدرته علىٰ الإجابة .

وإجابة المجيب سبحانه دائمة من حيث الزمن ، فلا زمن وقتي مخصوص ، وإنما هو زمن مطلق لأن المجيب حي قيوم ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (3) ، فإذا دعوت في

(1) يونس ، 88 ، 89 .
(2) الملك ، 1 .
(3) البقرة ، 255 .

الصباح أو في المساء أو في السحر أو في الفجر تجد السميع مجيب الدعاء .

ولا حدود مكانية تمنع الإجابة لأن المجيب يقول : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

وربما يسأل السائل عن أماكن مخصوصة كالكعبة المشرفة أو المدينة المنورة وعن الدعاء فيهما ؟ والجواب يكون بالآتي : إن شرف المكان يزيد في صدق وإخلاص الدعاء فيكون الرجاء في الإجابة أقوىٰ ، لأن العبد في هـٰذه المواضع يفترض أن يتجرد من الدنيا ويخلص الدعاء لربه ، فإذا فعل وأيقن بالإجابة وهو يدعو نال مراده من رب كريم ، وهـٰكذا ستكون الإجابة لكل خليفة مخلص . ومع ذلك فإن للمحظوظين شأناً عظيماً عند المجيب الكريم ، يقول المجيب في الكتاب المحفوظ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (2) ، فهو العالم الذي يعرف صدق الدعاء من زيفه فيُجيب لمن يشاء .

والمجيب الكريم عادل ، فهو يسمع كل دعاء ويجيب متىٰ يشاء ، كيف يشاء ، لمن شاء ، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ (3) ، ضمير الدعاء يعود علىٰ سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام ، الذي دعا ٱلله عز وجل يشكوه حاله مع قومه الذين لم يقدِّروه حق قدره ، فهم الساخرون منه ، المقللون من شأنه وشأنه عظيم ، وعندما أحسَّ بمغالبتهم له اشتكاهم إلىٰ ربه جل جلاله ، فكانت الإجابة الغرق بأسباب المطر الغزير المنهمر ، والمنهمر هو الساقط بكل قوة ، وفجَّر الأرض عيوناً ، أي

(1) البقرة ، 115 .

(2) القصص ، 56 .

(3) القمر ، 10ـ14 .

وكأن الأرض أصبحت عيوناً من كثرة العيون التي فجرها المجيب لدعاء نوح عليه الصلاة والسلام ، وهـٰذا دليل الكثرة عن واقع وليس دليلاً للمبالغة ، فالتقىٰ ماء السماء مع ماء الينابيع في الأرض فحُقَّ الحق وزهق الباطل بفعل الغرق وبفعل النجاة ، غرق المكذبون والفاسقون والضالون ونجىٰ نوح ومن معه من المؤمنين الذين رضي ٱلله عنهم فأنجاهم من الغرق . نوح عليه الصلاة والسلام من المطيعين المخلصين ومن أولي العزم ، وإجابة المجيب سبحانه لدعوة هـٰؤلاء خاصة فيها إقبال منه سبحانه للإجابة كما ينص تعالت أسماؤه ، ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (1) .

﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ تدل علىٰ ارتباط الطلب بالإجابة في علاقة صلة لا انفصال فيها ، ولهـٰذا فالمجيب يجيب بالطبيعة لأنه المجيب ، والإجابة له وقتية في الزمن الآن ، والفرق فقط في أن بعض الإجابات الملبية للطلب والدعاء يكون الفعل فيها مرتبطاً مع القول ، والبعض الآخر تسجل الإجابة في الحين ويؤخر موعد فعلها . ولفظ : ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ تدل علىٰ أن تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة ، وبيانه من وجوه :

الأول : أنه تعالىٰ عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم .

والثاني : أنه أعاد صيغة الجمع في قوله : ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ وذلك أيضاً يدل علىٰ تعظيم تلك النعمة وتعزيزه عز وجل لنوح عليه الصلاة والسلام . لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة .

والثالث : أن الفاء في قوله : ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ يدل علىٰ أن حصول

---

(1) الصافات ، 71ـ76 .

هـٰذه الإجابة مرتب علىٰ ذلك النداء ، والحكم المرتب علىٰ الوصف المناسب يقتضي كونه معللاً به ، وهـٰذا يدل علىٰ أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة ، ثم إنه تعالىٰ لما بين أنه سبحانه نعم المجيب علىٰ سبيل الإجمال ، بين أن الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه :

الأول : قوله تعالىٰ : ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو علىٰ القول الأول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق ، وعلىٰ الثاني الكرب الحاصل من أذىٰ قومه .

والثاني : في قوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ يفيد الحصر وذلك يدل علىٰ أن كل من سواه وسوىٰ ذريته فقد فنوا .

والثالث : في قوله تعالىٰ : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ التسليم بنوح حق تم إثباته شاهداً أمام الأبصار والعقول المدركة ، وفي هـٰذا تشريف وتكريم لنوح عليه الصلاة والسلام ، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

ٱلله تعالىٰ سميع لدعاء العاصي والمشرك ويجيب دعاءهما : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (1) . ظلمات البر والبحر ظلمات مخيفة لا يعلم أمرها إلا ٱلله تعالىٰ ، وهو القادر علىٰ أن ينجي من يشاء منها ، وجاءت ظلمات البر والبحر غير محددة فهي في حاجة للتفسير والاجتهاد ، وفي معظم التفاسير والاجتهادات نسب بين اتفاق وتباين أو اختلاف ، ولـٰكن الذي يمكن أن يكون الاتفاق عليه هو أن في الظلمات مخاوف ، وذلك لانعدام تجلي الرؤية وانعدام الوضوح في كل ظلمة ، ولأن في الظلمة غمة ، فالغموض سيكون سائداً في الظلمة سواء كانت ظلمة بر أو ظلمة بحر ، وفي الظلمة يحاط الإنسان بالمخاوف والشكوك والظنون وهو في

(1) الأنعام ، 63 ، 64 .

دائرة الحركة والسكون ، ولذا يلتجئ بالسؤال والدعاء للسميع المجيب ليخرجه من الظلمة وينجيه من كل كرب ؛ وغير المؤمن يدعو ربه حتىٰ تتحقق له الإجابة ثم ينسىٰ ربه والعياذ بٱلله فلا يشكره حتىٰ وإن توعد بشكره أثناء الدعاء أو السؤال .

وقد يتساءل البعض : لماذا تجاب دعوة العاصي وهو عاص لله ؟ المجيب يجيب دعوة العاصي لأنه ربه ولا رب غيره فإذا لم يجب فمن ذا غيره يجيب ؟ لاسيما تلك الدعوات التي تتعلق بالنجاة من الهلاك وفي ذلك حكمة عظيمة ، إذ عسىٰ أن تكون هـٰذه الإجابة سبباً في عودة هـٰؤلاء إلىٰ طاعة الرحمـٰن الرحيم وتوحيد واحد أحد ، ولهـٰذا فهو يمهل ولا يهمل ، ويؤجل ولا يعجل حتىٰ تتاح للاستغفار والتوبة فرصة .

فالمجيب يقبل دعاء الاستغفار علىٰ صغير الذنوب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (1) ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (2) ، فكيف إذا عاد المشرك وأحس بعظم الجرم الذي اقترفه ودعا ربه طالباً التوبة والمغفرة ؟ هل يُغلق بوجهه الباب ؟ إن ربه الأكرم واسع المغفرة لا يغلق باباً للرحمة : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (3) ، و(جميعاً) هـٰذه لوحدها باب من أبواب رحمته عز وجل والوقوف عندها واجب ، فلو وردت الآية من غيرها في هـٰذا الموضع وقيل يغفر الذنوب لما استقام المعنىٰ المراد ولبقي شك وإبهام هل المقصود

---

(1) النجم ، 32 .

(2) النساء ، 116 .

(3) الزمر ، 53 .

بالذنوب الكبيرة أم الصغيرة ؟ هل هي ذنوب المسرفين أم المقلين ؟ لٰكن ورود جميعاً في الآية أزال كل لبس ، فما من ذنب يمكن أن يثني العبد من العودة إلىٰ ٱلله وطلب مغفرته والبدء بطاعته وعبادته ثم الاستمرار في الحياة آمناً فيها سعيداً برحمة ٱلله دون الرجوع إلىٰ المعاصي أو الإصرار علىٰ ما كان منه في الماضي ، فهل من رب غيره بهٰذا الكرم وهٰذه المغفرة ؟ وعلىٰ الخليفة أن يتسع صدره ويقبل من الناس عودتهم عن أخطائهم فلا يغلق الباب بوجه أحد ويسمح للمستغفرين والتائبين ببدء حياة جديدة ما داموا في حالهم الجديد ، فإذا عادوا إلىٰ ما كانوا عليه أخذ علىٰ أيديهم : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾ (1) .

والمجيب يرسل إلىٰ ذوي الألباب من عباده إشارات واضحة ليدركوا دواعي الإجابة ، فالمجيب سبحانه يهدينا الطريق لتصيبنا إجابته ، وهو إلىٰ ذلك يدعو ويهدي ويرسل الرسل لأنه لا يريد لنا العذاب بل يريد لنا الرحمة فهو المجيب الودود : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ۝ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (2) .

ومن دواعي الإجابة :

1 ـ السؤال وهو أن تسأل ٱلله حاجتك التي تريد ولا تشك في إجابته لأن

---

(1) الإسراء ، 8 ـ 11 .

(2) النساء ، 144 ـ 147 .

الكريم الذي لا يرد السائل ويعلّم عباده ذلك فيقول لهم : ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [1] ، فإذا كان المجيب يعلم عباده ويحثهم علىٰ إجابة السائل فلاشك أن من يسأل ٱلله يجده ودوداً مجيباً : ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [2] .

والدعوة طلب يقدم مع ترجٍ ، وأملٍ بأحد الآتي أو بها جميعاً ، أو ببعض منها :

أ ـ **دعوة قولية** : كالاستغفار وطلب العفو والمسندة وغيره كثير . قال تعالىٰ : ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ

---

(1) الضحىٰ ، 10 .
(2) طه ، 25ـ36 .
(3) مريم ، 1ـ11 .

مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (1) .

ب ـ **دعوة عملية** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (4) .

ج ـ **دعوة سلوكية أو فعلية** : فالله تعالىٰ يدعونا إلىٰ أخذ العبرة والعظة ،

---

(1) الأنبياء ، 83ـ90 .

(2) المائدة ، 27ـ30 .

(3) المائدة ، 45 .

(4) الأعراف ، 144ـ146 .

قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ (3) .

د ـ **سؤل قلبية** : التوجه بنية الاستجابة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ (5) ، وقال

(1) النحل ، 35ـ37 .
(2) الفجر ، 6ـ14 .
(3) الفيل ، 1ـ5 .
(4) آل عمران ، 118ـ121 .
(5) البقرة ، 235 .

تعالىٰ : ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (1) .

وكل هـٰذه السؤُل مما يجب علىٰ الخليفة إجابتها امتثالاً لأمر ٱللهِ ولو بكلمة طيبة : ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (2) .

اعلم : أنه تعالىٰ لما شرح أحوال الأشقياء ، وأحوال السعداء ؛ ذكر مثالاً يبين الحال في حكم هـٰذين القسمين ، وهو هـٰذا المثل . وفيه مسائل :

المسألة الأولىٰ : اعلم أنه : تعالىٰ ذكر شجرة موصوفة بصفات أربع ، ثم شبه الكلمة الطيبة بها .

فالصفة الأولىٰ لتلك الشجرة : كونها طيبة ، وذلك يحتمل أموراً . أحدها : كونها طيبة المنظر والصورة والشكل .

وثانيها : كونها طيبة الرائحة .

وثالثها : كونها طيبة الثمرة يعني أن الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة .

ورابعها : كونها طيبة بحسب المنفعة يعني أنها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها ويجب حمل قوله : شجرة طيبة ، علىٰ مجموع هـٰذه الوجوه لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب .

والمسألة الثانية : قوله : ﴿ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ ﴾ أي راسخ باق آمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء ، وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء ، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه ، أما إذا علم من حاله أنه باق دائم

(1) غافر ، 19 .

(2) إبراهيم ، 24 .

لا يزول ولا ينقضي فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به .

والمسألة الثالثة : قوله : ﴿ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ وهـٰذا الوصف يدل علىٰ كمال حال تلك الشجرة من وجهين :

الأول : أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل علىٰ ثبات الأصل ورسوخ العروق . والثاني : أنها متىٰ كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمراتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب .

والمسألة الرابعة : قوله : ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ والمراد : أن الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهـٰذه الصفة ، وهي أن ثمرتها لا بد أن تكون حاضرة دائمة في كل الأوقات ، ولا تكون مثل الأشجار التي تكون ثمارها فصلية أو موسمية حاضراً في بعض الأوقات دون بعض فهـٰذا شرح هـٰذه الشجرة التي ذكرها ٱلله تعالىٰ في هـٰذا الكتاب الكريم ، ومن المعلوم بالضرورة أن الرغبة في تحصيل مثل هـٰذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة ، وأن العاقل متىٰ أمكنه تحصيلها وتملكها فإنه لا يجوز له أن يتغافل عنها وأن يتساهل في الفوز بها .

ولذا فالخليفة إذا سأل لا يسأل إلا المجيب ، ولهـٰذا تكون الإجابة عليه كالشجرة الضاربة في الأرض والمتفرعة في السماء وتؤتي أكلها كل حين سبحانه جل جلاله مجيب عظيم .

وعليه نعود لتبيان الصفات السابقة الذكر :

الصفة الأولىٰ : هي كونها طيبة فهي حاصلة ، بل نقول : لا طيب ولا لذيذ في الحقيقة إلا هـٰذه المعرفة وذلك لأن اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة إنما حصلت ، لأن إدراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن ، فلأجل حصول تلك الملاءمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة ، وهنا الملائم

لجوهر النفس النطقية والروح القدسية ، ليس إلا معرفة ٱلله تعالىٰ ومحبته والاستغراق في الابتهاج به فوجب أن تكون هـٰذه المعرفة في مثالها لذة ، بل نقول : اللذة الحاصلة من إدراك الفاكهة يجب أن تكون أقل حالاً من اللذة الحاصلة بسبب إشراق جوهر النفس بمعرفة ٱلله ، وبيان هـٰذا التفاوت من وجوه :

الوجه الأول : أن المدركات المحسوسة إنما تصير مدركة بسبب أن سطح الحاس يلاقي سطح المحسوس فقط ، فأما أن يقال إن جوهر المحسوس نفذ في جوهر الحاس فليس الأمر كذلك ، لأن الأجسام يمتنع تداخلها ، أما ههنا فمعرفة ٱلله تعالىٰ وذلك النور وذلك الإشراق صار سارياً في جوهر النفس متحداً به وكأن النفس عند حصول ذلك الإشراق تصير غير النفس التي كانت قبل حصول ذلك الإشراق ، فهـٰذا فرق عظيم بين البابين .

والوجه الثاني : في الفرق أن في الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوة الذائقة ، والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية ، والمعلوم والمشعور به هو ذات الحق جل جلاله ، وصفات جلاله وإكرامه ، فوجب أن تكون نسبة إحدىٰ اللذتين إلىٰ الأخرىٰ كنسبة أحد المدركين إلىٰ الآخر .

الوجه الثالث : في الفرق أن اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كلما حصلت زالت في الحال ، لأنها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير ، أما كمال الحق وجلاله فإنه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة أيضاً ممتنع التغير ، فظهر الفرق العظيم من هـٰذا الوجه .

واعلم : أن الفرق بين النوعين يقرب أن يكون من وجوه غير متناهية ، فليكتف بهـٰذه الوجوه الثلاثة تنبيهاً للعقل السليم علىٰ سائرها .

الصفة الثانية : وهي كون هـٰذه الشجرة ثابتة الأصل ، فهـٰذه الصفة في

شجرة معرفة ٱلله تعالىٰ أقوىٰ وأكمل ، وذلك لأن عروق هـٰذه الشجرة راسخة في جوهر النفس القدسية ، وهـٰذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء ، وأيضاً مدد هـٰذا الرسوخ إنما هو من تجلي جلال ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذا التجلي من لوازم كونه سبحانه في ذاته نور النور ومبدأ الظهور ، وذلك مما يمتنع عقلاً زواله لأنه سبحانه واجب الوجود لذاته ، وواجب الوجود في جميع صفاته ، والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال في حقه ، فثبت أن الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الأصل ليست إلا هـٰذه الشجرة المباركة .

الصفة الثالثة لهـٰذه الشجرة : كونها بحيث يكون فرعها في السماء .

واعلم : أن شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة في هواء العالم الإلـٰهي ، وأغصان صاعدة في هواء العالم الجسماني ، وفيها أنواع .

النوع الأول : التأمل في دلائل معرفة ٱلله تعالىٰ في عالم الأرواح ، وفي عالم الأجسام ، وفي أحوال عالم الأفلاك والكواكب ، وفي أحوال العالم السفلي ، ويدخل فيه محبة ٱلله تعالىٰ والشوق إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، والمواظبة علىٰ ذكر ٱلله تعالىٰ والاعتماد بالكلية علىٰ ٱلله تعالىٰ ، والانقطاع بالكلية عما سوىٰ ٱلله تعالىٰ ، والاستقصاء في ذكر هـٰذه الأقسام غير مطموع فيه لأنها أحوال غير متناهية .

النوع الثاني : الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب ، والسعي في إيصال الخير لكل من هو في حاجة ، مع دفع الشر ومقابلة الإساءة بالإحسان . وهـٰذه الأقسام أيضاً غير متناهية وهي فروع ثابتة من شجرة معرفة ٱلله تعالىٰ ، فإن الإنسان كلما كان أكثر توغلاً في معرفة ٱلله تعالىٰ كانت هـٰذه الأحوال عنده أكمل وأقوىٰ وأفضل .

وأما الصفة الرابعة : فهي المستمدة من قوله تعالىٰ : ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ

حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ هٰذه الشجرة أولىٰ بهٰذه الصفة من الأشجار الجسمانية ، لأن شجرة المعرفة موجبة لهٰذه الأحوال ومؤثرة في حصولها والسبب لا ينفك عن المسبب ، فأثر رسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب أن يكون نظره بالعبرة كما قال : ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (1) ، وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (2) ، ونطقه بالصدق والصواب كما قال : ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ (3) .

وهٰذا الإنسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة في أرض قلبه وسمائه أقوىٰ وأكمل ، كان ظهور هٰذه الآثار عنده أكثر ، وربما توغل في هٰذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئاً لاحظ الحق فيه ، وكلما نظر الخير رأىٰ نور المجيب فيه ، وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرىٰ شيئاً إلا وقد ملأ ٱلله قلبه . فهٰذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ وأيضاً فما ذكرناه إشارة إلىٰ الإلهامات النفسانية والملكات الروحانية التي تحصل في جواهر الأرواح وتفيض علىٰ الأنفس المطمئنة ، ثم لا يزال يصعد منها في كل حين ولحظة ولمحة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل ، كثمرة هٰذه الشجرة المباركة .

وقد قال بعض المحققين : الشجرة لا تستحق أن تسمَّىٰ شجرة إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ ، وأصل قائم ، وأغصان عالية . كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : معرفة في القلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأبدان (4) .

ونحن نقول : لا تبقىٰ الشجرة ضاربة الجذور في الأرض ومتفرعة في

---

(1) الحشر ، 2 .
(2) الزمر ، 18 .
(3) النساء ، 35 .
(4) تفسير الرازي ، ج 9 ، 244 .

السماء إلا بالماء ، والماء هو رحمة المجيب علىٰ الخليفة ، ولهٰذا من يتقِ ربه ؛ يجد له مخرجاً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ (3) .

وعليه : عمل الخير في الأرض رحمة ويُمكن من بلوغ شيئين عظيمين هما :

الشيء الأول : الاستخلاف في الأرض : قال تعالىٰ : ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢

(1) الأعراف ، 56 ـ 57 .
(2) الطلاق ، 2 ـ 3 .
(3) آل عمران ، 8 .
(4) الأعراف ، 74 .

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (1) . ولذلك فالاستخلاف في الأرض لا يتم إلا بالعمل الصالح مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (4) .

والشيء الثاني : الوراثة في الجنة : قال تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (6) ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (7) .

---

(1) النمل ، 59ـ63 .
(2) الأنعام ، 54 .
(3) يونس ، 61 .
(4) النحل ، 97 .
(5) المؤمنون ، 1ـ11 .
(6) المؤمنون ، 10 ، 11 ،
(7) الكهف ، 107 ، 108 .

وللخير وجهان :

الوجه المادي : وورد ذلك في آيتين من القرآن ، فالخير بمعنىٰ المال ورد في قوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

وورد الخير للإشارة إلىٰ الخيل في قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ (2) ، والإشارة مخصوصة ولٰكنها تفيد العموم فكل ما ينفق ابتغاء مرضاة ٱلله فهو خير .

الوجه المعنوي : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (3) . قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ أي كلام جميل متعارف عليه آلفه الناس فيه منطق وينال التقدير والاحترام من القائل والمقال له ، مثل يرضىٰ ٱلله عنك ويرحمك بواسع رحمتهن ويحفظك من كل شر وسوء .

أما العمل المخصوص وهو العبادة الخالصة النابعة من إيمان ثابت فإن أجره كبير في الدنيا والآخرة ، ومن أجر هٰذا العمل قبول الدعاء : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ

---

(1) البقرة ، 215 .

(2) ص ، 31 ، 32 .

(3) البقرة ، 263 .

﴿ عَمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ ﴾ [1] .

والعمل المخصوص هو العمل الصالح : ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [2] .

وتطرح هـٰذه الآية عدة أسئلة منها :

السؤال الأول : لفظة « مَنْ » في قوله : ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ تفيد العموم فما الفائدة في ذكر الذكر والأنثىٰ ؟

والجواب : أن هـٰذه الآية للوعد بالخيرات والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة إثباتاً للتأكيد وإزالة لوهم التخصيص .

السؤال الثاني : هل تدل هـٰذه الآية علىٰ أن الإيمان مغاير للعمل الصالح ؟

والجواب : نعم لأنه تعالىٰ جعل الإيمان شرطاً في كون العمل الصالح موجباً للثواب ، وشرط الشيء مغاير لذلك الشيء .

السؤال الثالث : ظاهر الآية يقتضي أن العمل الصالح إنما يفيد الأثر بشرط الإيمان ، فظاهر قوله : ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴾ يدل علىٰ أن العمل الصالح يفيد الأثر سواء كان مع الإيمان أو كان مع عدمه .

والجواب : إنَّ إفادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالإيمان ، أما إفادته لأثر غير هـٰذه الحياة الطيبة وهو تخفيف العقاب فإنه لا يتوقف علىٰ الإيمان .

---

(1) آل عمران ، 191 ـ 195 .

(2) النحل ، 97 .

السؤال الرابع : هـٰذه الحياة الطيبة تحصل في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة ؟

والجواب فيه ثلاثة أقوال :

القول الأول : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، لا يبعد أن يكون المراد به الحياتين : الدنيا والآخرة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [1] .

بقي أن نطرح سؤالاً مهماً عن الأعمال غير الصالحة : هل لها ثواب ؟ فتكون الإجابة :

ـ **الأمر يتعلق بالعامل ولا يتعلق بالمجيب** : لأن المجيب باقٍ دائم الكرم ، أما العامل فهو المتغير ، فإذا غيّر الإنسان عمله الطالح إلىٰ العمل الصالح مخلصاً صادقاً أثيب برحمة ٱلله علىٰ مجمل أعماله ، بل يبدل له المجيب الكريم أجر سيئاته بأجر جديد هو أجر الحسنات : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [2] ، وكلما كان العمل السابق سيئاً كريهاً وكان ترك العبد له تركاً نهائياً منقطعاً ضاعف له المجيب الأجر : ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [3] .

---

(1) القصص ، 77 .

(2) الفرقان ، 70 ـ 71 .

(3) الحديد ، 18 .

ـ **وكذلك ترك المعاصي علىٰ لذاتها** : وهـٰذا من دواعي الإجابة لأن فيه إخلاصاً واستقامة : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (1) ، ومن أبلغ ما علمنا ٱلله مثله الذي ضربه لنا في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام الذي ترك عصيان المجيب بترك اللذة ثم دعا فكانت الإجابة : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (2) .

ـ **والإنفاق وهو البذل بالحق علىٰ النفس أو علىٰ غيرها** : فالإنفاق علىٰ العيال من الإنفاق في سبيل ٱلله ، والإنفاق علىٰ الفقراء والمساكين كذلك ، وهو من دواعي إجابة المجيب : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

ـ **الصبر علىٰ الشدة** : قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝١٠٨ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ

(1) النازعات 40 ـ 41 .
(2) يوسف ، 33 ـ 34 .
(3) السجدة ، 16 ـ 17 .
(4) يونس ، 108 ـ 109 .
(5) النحل ، 127 ـ 128 .

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (1) .

ـ **الإحسان** : قال تعالىٰ : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (3) .

ـ **ترك الحسد** : يختلف البشر في النظر إلىٰ أنعم ٱلله التي أسبغها علىٰ عباده ، فبعضهم حسود يتمنَّىٰ زوال نعمة الغير وبعضهم ودود ، قال تعالىٰ : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (4) . ومنهم من يرىٰ في عطاء ٱلله لعباده سعةً وفرصة لدعاء المجيب لأنه يعلم أنه عادل لا يفرق بين عباده إذا سلكوا نهجه كما حصل مع زكريا عليه الصلاة والسلام مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (5) ، لما وجد زكريا عند مريم ثمر الشتاء في الصيف وثمر الصيف في الشتاء يأتيها به جبريل قال لها : أنَّىٰ لك هـٰذا في غير حينه . قالت : هو رزق من عند ٱلله يأتيني به ٱلله إن ٱلله يرزق من يشاء بغير حساب فرغب زكريا في

---

(1) المزمل ، 10 ـ 13 .
(2) الأعراف ، 55 ـ 56 .
(3) القصص ، 77 .
(4) البقرة ، 109 .
(5) آل عمران ، 37 ـ 39 .

الولد فقال : إن الذي أتىٰ مريم بهـٰذه الفاكهة في غير حينها لقادر علىٰ أن يصلح لي زوجتي ويهب لي منها ولداً ، فعند ذلك دعا ربه وذلك لثلاث ليال بقين من المحرم قام زكريا فاغتسل ثم ابتهل في الدعاء إلىٰ ٱلله تعالىٰ . ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ (1) .

ـ **الإخلاص في العبادة** : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ (2) ، والإشارة بينة فدعاء أيوب وإجابة المجيب سبحانه ذكرىٰ للعابدين لكي يتلمسوا طريق الإخلاص في العبادة كما أيوب لينالوا ما نال من إجابة الدعاء . قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (4) .

وفي هـٰذه الآية مسائل :

المسألة الأولىٰ : قوله : (موْجٌ كالظلل) أي أمواج متراكمة ومتراكبة

(1) آل عمران ، 38ـ 41 .
(2) الأنبياء 83 ـ 84 .
(3) غافر ، 65 .
(4) لقمان ، 31 ، 32 .

فوق بعضها وكأنها جبال في كثافتها وعظمتها .

المسألة الثانية : قال في العنكبوت (فَإِذَا رَكِبُواْ في الفلك دَعَوُاْ ٱللهَ) ثم قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (1) ، وقال ههنا ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ فنقول لما ذكر ههنا أمراً عظيماً وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار ، أو مقتصد في الإخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق علىٰ ما كان عليه من الإخلاص ، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر .

المسألة الثالثة : قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ في مقابلة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ ﴾ (2) ، يعني يعترف بها الصبار الشكور ، ويجحدها الختار الكفور ، والصبار في موازنة الختار لفظاً ، ومعنىً ، والكفور في موازنة الشكور ، أما لفظاً فظاهر ، وأما معنىً فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر ، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر ، لأن الصبور إن لم يكن يعهد مع أحد لا يعهد منه الأضرار ، فإنه يصبر ويفوض الأمر إلىٰ ٱلله ، وأما الغدار فيعهد ولا يصبر علىٰ العهد فينقضه ، وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنىً فظاهر (3) .

ـ **الصفاء مع صدق الإيمان** : قال تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4) .

---

(1) العنكبوت ، 65 .
(2) لقمان ، 31 .
(3) تفسير الرازي ، ج12 ، ص290 .
(4) الأنبياء ، 87 ، 88 .

ـ **الاستغفار طلباً للعفو** : قال تعالىٰ : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [1] الأعراف ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [2] .

والمجيب قريب من عباده ، والقرب ليس قرباً مكانياً لأن ٱلله سبحانه له المشرق والمغرب : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] ، وإنما هو قرب المالك من ملكه أي قرب معرفة وعلم ، يقول المجيب جل وعلا : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [4] اللهُمَّ إني أدعوك أن تفرج كل كربة عني ، وأنا متوكل عليك ، وما توفيقي إلا بك ، لا إلـه إلا أنت سبحانك !

إن قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ يدل علىٰ أمور مهمة منها :

أولاً : أن العبد له أن يسأل .

ثانياً : وقوله : فَإِنِّي قَرِيبٌ يدل علىٰ أن الرب قريب من العبد يسمع ويجيب السائلين بقوة المقربة منه .

ثالثها : أن الداعي ما دام يبقىٰ خاطره مشغولاً بغير ٱلله تعالىٰ فإنه قد يكون بعيداً ، بخلاف ٱلله الذي لا تشغله شاغلة عن شاغلة .

---

(1) الأعراف ، 23 ـ 24 .

(2) هود ، 61 .

(3) البقرة ، 115 .

(4) البقرة ، 186 .

ومن رحمة المجيب العادل أنه أجاب البشر كلهم قبل دعائهم فمنحهم الحواس التي تعينهم : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (1) ، ولو تصور بشر أن الخالق ميّز بين عباده في هٰذه المسألة !

ومن الاستجابات الحاصلة من لدن العزيز الحكيم ما يتعلق بالقوانين الكونية لاسيما حركة الأفلاك ، فهو الذي يحركها بإرادته : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (2) ، وهي استجابة لحاجات خلقه التي يعلمها قبل معرفتهم بها ، ولذلك يُذكرهم سبحانه علهم يشكرون : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (3) .

ومن عظيم إجاباته عز وجل علىٰ دعاء خلقه ما كان مستمراً إلىٰ أن يشاء دائماً غير منقطع بإذنه ، كدعاء سيدنا إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (4) .

(1) الملك ، 23 .
(2) يس ، 38ـ 40 .
(3) القصص ، 71ـ73 .
(4) إبراهيم ، 35ـ37 .

وقصة هـٰذه الدعوة المجابة من غير انقطاع أو انتهاء هي أن هاجر أم إسماعيل عليه الصلاة والسلام كانت أمة من القبط لسارة فوهبتها من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فلما ولدت له إسماعيل غارت فلم تقاره علىٰ كونه معها فأخرجها وابنها إلىٰ أرض مكة فوضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم وليس بها ماء ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفىٰ منطلقاً فتبعته هاجر فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهـٰذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ، ولم يلتفت إليها فقالت له : آلله أمرك بهـٰذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا ثم رجعت ، وانطلق عليه الصلاة والسلام حتىٰ إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت وكان إذ ذاك مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ثم دعا بهـٰذه الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ (1) ، دعاء من مستخلف إلىٰ من استخلفه فكانت الإجابة دائمة بنية السائل الصادقة ، وبإيمان هاجر التي قالت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام : « آلله أمرك بهـٰذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا » . نعم إنه السميع الذي سمع حوارهما ، وإنه المجيب الذي أجاب علىٰ دعائهما وصفاء نيتيهما ، ولأن هاجر واثقة بأن ٱلله لا يضيعها وابنها إسماعيل عادت من وداع إبراهيم لترضع ابنها وتشرب مما في السقاء ، حتىٰ إذا نفد عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلبط ، فانطلقت كراهية أن تنظر

(1) إبراهيم ، 37 ـ 41 .

إليه فوجدت الصفا أقرب جبل يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترىٰ أحداً فلم تر ، فهبطت حتىٰ إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتىٰ جاوزته ، ثم أتت المروءة فقامت عليها ونظرت هل ترىٰ أحداً فلم تر ، ففعلت ذلك سبع مرات ولذلك سعىٰ الناس بينهما سبعاً ، فلما أشرفت علىٰ المروة سمعت صوتاً فقالت : صه تريد نفسه ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه حتىٰ ظهر الماء فجعلت تحوضه وتغرف منه في سقائها وهو يفور ، فشربت وأرضعت ولدها ، وقال لها المَلَكُ : لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيت ٱلله تعالىٰ يبنيه هـٰذا الغلام وأبوه وإن ٱلله سبحانه لا يضيع أهله ، ثم أن مرت بهما فرقة من جرهم فرأوا طائراً عائفاً فقالوا : لا طير إلا علىٰ الماء ، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا بالماء فأتاهم فقصدوه وأم إسماعيل عنده ، فقالوا : أشركينا في مائك نشركك في ألباننا ، ففعلت ، فلما أدرك إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ زوجوه امرأة منهم [1] ، فكانت الإجابة دائمة في آل إبراهيم .

ودوام استمرار الإجابة مما يجب التفكر فيه ، وطرح التساؤلات حوله ، فإلىٰ متىٰ تبقىٰ ؟ وكيف تنتهي ؟

أما الزمن فالإجابة دائمة ما غيّر العبد فكفر أو استغنىٰ ، هنا عليه أن يتوقع تغير حاله ، قال تعالىٰ : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [2] ، فالزمن متعلق بالإنسان ، فإذا شكر زاده ٱلله ، وإذا

---

(1) الآلوسي ، ج 9 ، ص 391 .
(2) الرعد ، 10 ـ 11 .

كفر انتظر من ٱلله ما لا يسره ، وٱلله عليم خبير .

أما انتهاء الإجابة فهو من الأمور الخطيرة التي يجب علىٰ الإنسان تأملها ، لأنه إذا أجاب المجيب إنساناً ثم كفر توالت عليه المصائب ونزل عليه البلاء ، ومن أول هـٰذه الأمور هو سلب ما أجيب وهو من أصعب ما يقع علىٰ الإنسان لتعوده عليه فإذا فقده كانت المصيبة ، فدعاء الإنسان لطلب الذرية وإجابة المجيب مما يكثر بين الناس والعام دوام هـٰذه الإجابة نعمة من عنده ، فإذا فقد الوالد ولده كان في غم وهم وهو يعلم أن السلب إنما حدث بسببه هو ، قال تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (1) .

ومن الأمور التي تحدث للإجابة التبدل إلىٰ حال يذهل منها المستجاب له وهو يعلم أنه لو شكر لزاده ٱلله ولـٰكنه كفر فبدل المجيب حاله : ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ (2) .

---

(1) الأنفال ، 53 .

(2) الكهف ، 32ـ43 .

وقد تنقلب الإجابة انقلاباً معاكساً لشدة كفر العبد بما أنعم ٱلله عليه ، كما حصل مع قارون : ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (1) .

ويسأل سائل عن حالة بقاء الإجابة مع كفر المستجاب له ! والجواب علىٰ عدة وجوه منها :

1 ـ أن المجيب حليم ومن حلمه علىٰ البشر أنه يمهلهم ما شاء رحمة منه بهم . قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) .

2 ـ أن يكون دوام الحال مع الكفر ليضلوا ، فيلقوا من حسابهم ما يلقون في

(1) القصص ، 76ـ82 .

(2) التحريم ، 8 .

يوم لا ينفع مال ، ولا بنون ، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (1) ، ولا غرابه في ذلك فالله القدير المجيب يعلم المشيئة في عباده : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (2) .

3 ـ أن يكون البقاء لغرض الاختبار : ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (3) .

4 ـ أن يكون للاعتبار والدعاء وإخلاص النية والعمل لله ، ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (4) .

5 ـ أن يكون للتفكر عبرة ، فمن اعتبر كان من المستخلفين والوارثين ، ومن لم يتفكر ويعتبر ؛ فليس له من الخلافة في شيء ولن يكون من الوارثين ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ

---

(1) آل عمران ، 178 .

(2) النحل ، 93 .

(3) النمل ، 40 .

(4) فصلت ، 49 ـ 51 .

(5) الأعراف ، 175 ـ 176 .

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) .

6 ـ أن يكون للتذكر قيمة في النفس حتىٰ تطمئن من كل شر وسوء ولهٰذا يقف الخليفة عند المثل ليعتبر قبل الضلال قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ (2) .

7 ـ مخافة ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا

---

(1) يونس ، 23 ـ 24 .

(2) إبراهيم ، 24 ـ 31 .

كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (1) .

8 ـ مد يد العون للمحتاجين تنمي المحبة بين المستخلفين في الأرض وتمكنهم من بلوغ الجنة ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ (2) .

9 ـ رضا ٱلله من رضا النفس ، والعباد ، قال تعالىٰ : ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ (4) .

10 ـ رضا ٱلله من رضا الوالدين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ

(1) الدخان ، 40ـ57 .
(2) البقرة ، 177 .
(3) النحل ، 97 .
(4) فصلت ، 46 .

فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [1] .

11 ـ التصدق مفتاح للخير يطهر النفس ويدخل الخليفة الجنة ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [3] .

وعليه من يستجيب بما سبق ذكره يجيب ٱلله دعاءه ، ويرحمه بواسع رحمته في الدارين ، وبعد أن تفنىٰ الخلائق يبقىٰ المجيب لأنه الملك الحي الذي لا يموت ، وتتضح الإجابة علىٰ السؤال : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ ﴾ [4] ؟ فتكون كما قال تعالىٰ : ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [5] .

وحظ الخليفة من الاسم المجيب أن يجيب ربه فيما أمره ونهاه ، ويتلقىٰ عباده بلطف الجواب وإسعاف السؤال ، يؤمن بٱلله واحداً أحداً ولا يشرك به شيئاً ، يؤمن بما أمر إقداماً علىٰ ما يجب أن يؤدىٰ وابتعاداً واجتناباً لما ينبغي

---

(1) الإسراء ، 23ـ27 .
(2) التوبة ، 60 .
(3) التوبة ، 103 ـ 105 .
(4) غافر ، 16 .
(5) غافر ، 16 .

الابتعاد عنه واجتنابه ، يطيع والديه في غير معصية ٱلله تعالىٰ ، يعمل المعروف في أهله كما يعمله في غيرهم ، يعدل بين الناس إذا حكم بينهم ، يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ، ويستغفر ٱلله في خطأ يرتكبه كلما أدرك : أنه خطأ ، ويتقي ٱلله ربه في أبنائه وزوجه وجيرانه قربىٰ ، وبعدىٰ ، يغيث المستغيث به ، يتصدق ولا ينهر السائل ، فللسائل حق ، وللمجيب حق ، وكلاهما في حاجة علىٰ الأقل للكلمة الطيبة ، يمد يد العون ، والمساعدة لمن يلتجئ إليه محتاجاً وفق المستطاع ، لا ينكر الناس أشياءهم .

والخليفة يعلم علم اليقين : أن المجيب قريب سميع يجيب دعوة الداعي إذا دعاه بنية أو بقول أو بحركة وفعل ، فهو يعلم أنه يعلم ما تكنه الصدور وما تعلنه ، ويعلم : أن المجيب يجيب بطلب وبدون طلب ، ولذا فعليه أن يتحسس حاجات الناس الذين لهم حق عليه قبل أن يتقدموا له أو لغيره بطلب أو سؤال .

وعند الحاجة يدعو الخليفة ربه المجيب عز وجل ، ولذلك فإن المجيب لا يغفل عن سائله وهنا يكون الاستغراب ممن يدعو غير المجيب المطلق جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (1) ، فهـٰؤلاء ومن هم علىٰ غرارهم لا يملكون القدرة علىٰ الإجابة : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ ﴾ (2) .

اللهُمَّ يا المجيب إنك تعلم ما في أنفسنا ولا تغيب عنك غائبة وتعلم مَا نُسِرُّ وَمَا نعْلِنُ إِنَّك عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، فاجعل رحمتك لنا في الدارين هي الإجابة .

اللهُمَّ يا المجيب إنك تملك القوة والقدرة والملك والأمر والموت

---

(1) المائدة ، 76 .

(2) الأحقاف ، 5 .

والحياة وتملك كل شيء فأجب سؤالنا بالرزق الحلال والعلم النافع والصحة الطيبة والزوجة التقية والأبناء الصالحين !

اللهُمَّ إنا نسألك يا فارج الهم ويا كاشف الغم يا المجيب لدعوة المضطرين يا رحمـٰن الدنيا يا رحيم الآخرة ارحمنا برحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك يا أرحم الراحمين !

اللهُمَّ آت أنفسنا تقواها وزكها يا خير من زكاها أنت وليها ومولاها يا رب العالمين ! اللهُمَّ إنا نسألك ألا تجعلنا بدعائك أشقياء وكن بنا رؤوفاً رحيماً يا مجيب الدعاء يا الله !

اللهُمَّ يا المجيب اغفر لنا ما قدمنا ، وما أخرنا ، وما أسررنا ، وما أعلنا سبحانك جل جلالك ، أنت المجيب ، عليك توكلنا ، وأنت رب العرش العظيم !

✍ ✍ ✍

الوَاسِعُ جَلَّ جَلَالُهُ

الحمد لله الذي وسع الأكوان علمه ، فجعل منا خلفاءه بفضله المنان ، وعم فضله الإنس والجان ، وغطت رحمته العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ من بعث رحمة للكافة بالرسالة الخاتمة منذراً ، ومبشراً ، ومحرضاً ، وعادلاً بالقسط والكيل والميزان ، ومجاهداً في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل برسالته التي وسعت العالمين رحمة ، وسلاماً ، وله الحمد في كل حين ، وله الحمد علىٰ ما خلق ، وأعطىٰ ، ويعطي من الكمال والتمام .

الواسع ، الذي وَسِعَ رِزْقُه جميعَ خَلْقِه ووَسِعتْ رحمتُه كل شيء وغِناه كل فَقْر ، والواسع « الكثيرُ العطاءِ الذي يَسَعُ لما يُسْأَلُ » [1] .

اسم الواسع هو الذي وسع علمه الظاهر والباطن ، ووسع فضله الكون سماواته وأراضيه السبع دون عناء أو ضعف أو كلل ، ووسع فضله العابد الزاهد ، كما وسع الكافر الفاجر ، فأطعم بسعته الظالم الكافر كما أطعم منها العالم العارف بفضله ؛ لا لشيء لأن الدنيا بسمائها وأرضها لا تساوي عنده جناح بعوضة ولو كانت كذلك ما سقىٰ منها كافراً شربة ماء .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ

---

(1) لسان العرب ، ج 8 ، ص 392 .

أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [(1)] ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، عَنْ رسول ٱلله ﷺ قال : « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ [(2)] . وَقَالَ : اقْرَؤوا قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [(3)] . وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ في الحديث القدسي : « يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ : « يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَسَلُونِي الْهُدَىٰ أَهْدِكُمْ وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلا مَنْ أَغْنَيْتُ فَسَلُونِي أَرْزُقْكُمْ وَكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلا مَنْ عَافَيْتُ فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَىٰ الْمَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفَرَنِي غَفَرْتُ لَهُ وَلا أُبَالِي وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ ذَلِك فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَشْقَىٰ قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ ذَلِكَ بِأَنِّي

(1) البقرة ، 26 .

(2) صحيح البخاري ، ج 14 ، ص 355 .

(3) الكهف ، 103ـ110 .

جَوَادٌ مَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ عَطَائِي كَلَامٌ وَعَذَابِي كَلَامٌ إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (1) .

وفي هـٰذا الأمر يقول الرازي : « ٱلله تعالىٰ واسع الرزق ، واسع الفضل ، واسع الرحمة ، واسع القدرة ، واسع العلم ، فلو ذكر تعالىٰ أنه واسع في كذا لاختص ذلك بذلك المذكور ، ولـٰكنه لما ذكر الواسع وما أضافه إلىٰ شيء معين دلّ علىٰ أنه واسع في جميع الكمالات ، وتحقيقه في العقل أن الموجود إما واجب لذاته ، وإما ممكن لذاته ، والواجب لذاته واحد وهو ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وما سواه ممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد ٱلله الواجب لذاته ، وإذا كان كذلك كان كل ما سواه من الموجودات فإنما يوجد بإيجاده وتكوينه ، فلزم من هـٰذا كونه واسع العلم والقدرة والحكمة ، والرحمة ، والفضل والجود ، والكرم » (2) .

الواسع : من وسع ملكه كل شيء ولا يسعه شيء ، وهو المحيط لكل شيء ولا يحاط بشيء ، وهو الذي يعلو كل شيء ولا يعلو عليه شيء ، وهو الخالق الذي لا يُخلق ، وهو الرحمـٰن الرحيم . والواسع هو الذي تمتد قدرته وقوته فيما ندرك وما لا ندرك وفقاً للآتي :

1 ـ **تمتد في العدم** : ولأنه تعالىٰ هو الأول والآخر فلا أول سابق عليه ولا آخر لاحق به ، ولأنه الخالق لكل ما خلق وما يخلق لذا فلا خلق أول قبل أن يخلق الأشياء التي منها كان الشيء مع أمره كن مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

(1) سنن الترمذي ، ج 9 ، ص 35 .
(2) تفسير الرازي ، ج 5 ، ص 405 .
(3) يس ، 82 ، 83 .

وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [1] .

2 ـ **تمتد في الحياة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [4] .

3 ـ **تمتد في الموت** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ

(1) البقرة ، 117 ، 118 .
(2) القصص ، 77 .
(3) الأعراف ، 156 ـ 159 .
(4) غافر ، 7 .

رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ (2) .

4 ـ **تمتد في البعث** : قال تعالىٰ : ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ (4) .

5 ـ **تمتد فيما نعلم وما لا نعلم** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (6) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (7) .

---

(1) آل عمران ، 143 .
(2) آل عمران ، 185 .
(3) النمل ، 64 ـ 65 .
(4) المؤمنون ، 100 ـ 104 .
(5) البقرة ، 30 .
(6) البقرة ، 151 ـ 153 .
(7) البقرة ، 216 .

والخليفة الواسع بالإضافة هو الذي يدرك الحقيقة ويُقدِم علىٰ فعلها ويعمل بها دون انحياز لمظلمة ، ويقول الحق ولا يتعصب لرأي في دائرة الشك ، وهو الذي يقوم بالمكرمة ، فيحكم بين الناس إذا حكم بينهم بالحق العدل ، وهو الذي يقدم المكرمة دون طلب منه ؛ لأن الخليفة يستمد سعته من الواسع المطلق الذي مهما طلبت منه فإنه لا يردك خائباً ، ولا خاسراً ، وهو مهما أعطاك فلا ينقص من عطائه شيئاً ، وهـٰذه السعة جاءت من كونه جل جلاله مالك الملك ، فهو يعطي كيف يشاء ومتىٰ شاء ، فيعطي هـٰذا مالاً ، وآخر بنين ، وآخر ملكاً ، وغيرهم من كل ما ذكر يعطي ، ومن غيره كذلك يعطي ، قال تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [2] .

وعليه فالواسع : هو من لا يضيق بشيء وهو من لا تسعه الأشياء ولو جُمِّعت ، يفيض بالعطاء وبما يهب لمن يصطفي ولمن هم في حاجة ولا تلم به حاجة ولا ضائقة ، ويشبع كل حاجة ويفرج كل ضائقة ، وهو الذي وسع كل شيء علماً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [3] . في هـٰذه الآية الكريمة إظهار لسعة ٱلله لكل شيء دون غيره فالعلم مهما تقدم لن يبلغ علم الواسع العليم ، فهو يعلم ما في

---

(1) الشورىٰ ، 49 ، 50 .
(2) آل عمران ، 26 ، 27 .
(3) طه ، 98 .

الأرحام وما تكنه الصدور وما تبديه ، وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمـٰن الرحيم ، وعلم ٱلله علم وحدانية أي أن الاختصاص بالعلم المطلق له وحده لا شريك له ، ووسع كل شيء علماً في حالتي جواز بين اثنين :

الأول : وسع كل شيء علماً ، إنه خلق كل شيء ، وجعل كل شيء علىٰ علم من علمه ، ولهـٰذا ما من شيء إلا يسبح باسمه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [1] ، وبما أن كل شيء يسبح باسمه ، إذاً المسبح باسم ٱلله تعالىٰ مدرك له أي أنه يعلمه هو كما هو دون شك ولا ظن ولا تبديل ولا تعدد ولا مشاركة سبحانه واحد أحد . ولهـٰذا قال : ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [2] . وعليه كل هـٰذه العلوم والمعلومات هي سعة من ٱلله تعالىٰ لكل ما خلق والحمد له واحد أحد لا شريك له .

الثاني : إن علم ٱلله وسع كل شيء أي أحاط بكل شيء ، وهـٰذا الأمر لا يتعارض مع الأمر الأول الذي فيه يتم إدراك المخلوق للخالق وبعلم منه أي بقوة عظيمة ، فوسع كل شيء علماً ، تعني مما تعني أنه أحاط بكل شيء علماً ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

---

(1) الإسراء ، 43 ، 44 .

(2) التغابن ، 1ـ4 .

(3) الأنعام ، 59 .

بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1) .

فٱلله واسع لعلمه بالأشياء جميعها وفي آن واحد دونما عناء أو تعب ، فهو الذي إذا شاء جعل الواسع ضيقاً كما هو حال الكافرين ، قال تعالىٰ : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) ، وإذا شاء جعل الضيق واسعاً كما في قصة نوح عليه الصلاة والسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (3) ، فقوله تعالىٰ : ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ فيه أمر من ٱلله جل جلاله لخليفته بأن يحمل من كل زوجين اثنين ، دون النظر إلىٰ تقاربها وعداوتها ، فٱلله جل جلاله هو الذي تكفل بكل شيء داخل السفينة وخارجها ، فليس لسيدنا نوح أن يفكر في أن يؤلف بين الأعداء ، فهو سبحانه جل في علاه القادر علىٰ أن يجعل الضيق واسعاً ، فاستطاع أن يؤلف بينها حتىٰ نزلت سالمة بحوله وقدرته ، وإلا كيف كان الذئب ، والخروف ، والثعلب ، والدجاجة ، والضبع ، والحمار ، والثعبان ، والإنسان ، وهكذا كان الجميع سالمين متآلفين بالرغم من التنوع الطبيعي في خلق ٱلله تعالىٰ ، ولذا فإن كل

---

(1) الأنعام ، 73 .

(2) الأنعام ، 125 .

(3) المؤمنون ، 23ـ27 .

شيء بحكمة ولحكمة ، فمن حكمه الظاهرة في هـٰذه القصة : أنه يريد أن يحافظ علىٰ كل نوع من هـٰذه الكائنات ، وربما يتساءل البعض : أليس هو القادر الخالق الذي يستطيع أن يخلق غيرها ومن جديد ؟ ! فالإجابة : أن لكل شيء سبباً ، وأن من وراء كل شيء يفعله حكمة ، لهـٰذا علينا أن نسلم له في كل الأمور ، لأنه هو الذي يعلم بكل ما يجري وما يدور حولنا في أرضه وسمائه ، ولـذلـك علىٰ خليفتـه أن لا يشغـل بـالـه فـي الأسئلـة عـن الأمـور التعبـديـة فيقول : لماذا جاءت الصلاة كذا ركعة ، أو الطواف في الحج كذا شوط ، بل يقوم بما يصلح به نفسه ويصلح به عباد ٱلله ، ليفوزوا بالجنة التي وعد ٱلله جل جلاله بها المتقين عرضها السماء والأرض ، قال تعالىٰ : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (1) ، فهـٰذه الآيات الكريمة من يقرأها يرىٰ فيها من مظاهر سعته سِعَاً ومنها :

1 ـ **سعة ملكه** : إنه المالك المطلق للحياة والموت والبعث والجماد والنبات والبر والبحر والماء واليابس والسمـٰوات والأرض ، فله الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير ، قال تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، أي كلها

(1) الحديد ، 21ـ24 .
(2) البقرة ، 115ـ117 .

تحت ملكه وسلطانه الذي لا يرام ولا تستوعبه الأفهام ، فهو ما وعد بشيء إلا وهو قادر علىٰ فعله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [1] ، فكل ما حوت السموات والأرض إلا وكانت كما قال جل في علاه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [3] .

2 ـ **سعة علمه** : قال تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [4] فهذه الآية دلالة واضحة علىٰ علمه وحفظه ، فالكتاب فيه رمز وإشارة إلىٰ الحفظ ، والعلم بكل كبيرة وصغيرة ، فيوم القيامة يفاجأ الكافر بهـٰذه الدقة المتناهية التي لم تكن له في حسبان ، والمؤمن يدخل الجنة بعلمه المسبق أنها الحق من الحكيم الخبير ، قال تعالىٰ : ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ

---

(1) البروج ، 107 ، 108 .
(2) البقرة ، 255 .
(3) الزمر ، 67 .
(4) الحديد ، 22 .

ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [2] ، علم ٱلله تعالىٰ يجمع المعرفة التامة ، والكاملة بالعلوم التالية :

أ ـ علم الحياة .

ب ـ علم الممات .

ج ـ علم البعث .

د ـ علم الظاهر .

هـ ـ علم الباطن .

و ـ علم الوجود .

ز ـ علم المكان .

ح ـ علم الزمان .

ط ـ علم الحركة .

---

(1) هود ، 1 ـ 11 .

(2) الأنعام ، 73 .

ي ـ علم السكون .

ك ـ علم الغيب .

ل ـ علم اليقين .

ولذلك وسع علمه كل شيء ، والخليفة هو الذي يستمد العلم من علمه والحكمة من حكمته حتىٰ تتسع دائرة معارفه ويتقي ٱلله ربه ولا يشرك به أحداً .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۝٤٨ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [4] ، فكذلك الخلفاء هم الذين يمنحهم ٱلله نعمة العقل والفهم والتفهُّم والاستيعاب ليسعوا هـٰذا الكون جزئياً ؛ فغيرهم قد لا تكون لهم القدرة علىٰ التحمل والصبر الذي وضعه ٱلله جل جلاله في قلوب خلفائه فصاروا يحملون صفة الواسع بالإضافة إليه ، بعدما غرس فيهم العلم والدراية ، فهل للخليفة أن يطالع ويقرأ ويدرس ؛ حتىٰ تتسع مداركه ويفهم ما حوله ، فالعلم نور لا يزيد صاحبه إلا معرفة وتقوىٰ .

---

(1) الطلاق ، 12 .

(2) الكهف ، 48 ، 49 .

(3) الأنبياء ، 47 .

(4) لقمان ، 16 .

3 ـ **سعة قدرته** : فقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ يدل دلالة واضحة علىٰ قدرته وسطوته فهو يفعل ما يريد متىٰ يريد ، وإلا من الذي يجعل الصعب يسيراً وسهلاً إذا لم يكن قادراً علىٰ فعل ما يريد وبكل سهولة ويسر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) ، وهنا في هـٰذه الآية الكريمة التقت السعة وبكل وضوح وجلاء مع القدرة ، فهـٰذا التحدي الواضح لكل من يريد أن يختفي أو يظن أنه قادر علىٰ ذلك فليعلم أن هناك رباً واسعاً قديراً يأتي به متىٰ يشاء وكيف يشاء . وهـٰذه القدرة وسعة الملك منحها الواسع العظيم لخلفائه من قبل ولـٰكن بالإضافة لا علىٰ سبيل الإطلاق ؛ لأن ذلك لا يتأتىٰ إلا لله وحده العزيز القاهر فوق عباده ، وذلك عندما أعطىٰ ٱلله سيدنا سليمان الملك الواسع والثراء في الأرض ، وكان ذلك بناء علىٰ طلبه ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (2) وقال تعالىٰ في صفة الملك الذي منحه له : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (3) .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ (4) . وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا

---

(1) البقرة ، 148 .

(2) ص ، 35 .

(3) ص ، 36 ـ 40 .

(4) الإسراء ، 99 ـ 100 .

ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (2) .

4 ـ **سعة ميزانه** : فقوله تعالىٰ في سورة الحديد : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ، هنا يأمر ٱلله جل جلاله خلفاءه بالتوازن في حياتهم ، فٱلله هو الذي وضع هـٰذه الأمور ونبه خليفته لذلك ؛ لأنه مالك الميزان الحقيقي لكل كبيرة وصغيرة ، فهو الواسع الذي وسع كل الأشياء وبعناية تامة ودقيقة بل غاية في الدقة واللطف . قال تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (3) ، فالخليفة يكون متزناً معتدلاً في أمور حياته الدنيوية ، فلا يبطر ، ولا يتكبر ، ولا يتجبر ، بل يسير كما أمره رب العزة ، لأن ٱلله لا يحب المختال الفخور بنفسه ، ونسبه ، وماله ، وليعلم : أن كل ذلك إلىٰ زوال .

ولأن الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوىٰ فبالنية الطيبة تزداد الأعمال الحسنة وبالنية غير الحسنة تنقص الأعمال ، ولذا فالميزان الذي يستوفىٰ علىٰ أيدي المستخلفين فيها يؤدي بصاحبه إلىٰ العيشة الراضية ، أمّا أولئك الذين ينقصون الميزان فأمهم هاوية ، وعليه قد تساءل جل جلاله عما هي الهاوية ؟ ويجيب : بأنها ، نار حامية . فالميزان هو مقياس الأعمال مصداقاً لقوله

(1) إبراهيم ، 19 ، 20 .
(2) فاطر ، 15ـ18 .
(3) الأنبياء ، 47 .

تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾ (2) .

ميزان الخليفة لا يوضع إلا للحق ، ولا يزن إلا بعدل ، وهو الذي لا يقلل من شأن العباد ، يوفىٰ مخافة لله وإحقاقاً للحق ، ويوضع لأجل أن لا يسود ظلم ، ولا تؤكل أموال الناس بالباطل بينهم ويعم الفساد في الأرض ، ولهٰذا فالخليفة مصلح والمصلح هو الذي يسع ميزان عدله كل من يزن إليه . والوزن مراعاة لما يجب والعمل به ، وتجنب عما يجب تجنبه والعمل به .

5 ـ **سعة يومه** : اليوم يسع الحركة والسكون ، ويسع القول والعمل والفعل والسلوك دون أن يكتظ بشيء علىٰ حساب آخر ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (3) . قال تعالىٰ : ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴾ (4) .

اليوم في حسابات الخليفة جزء من الزمن العام المتصل لا المنفصل ، ولذلك فلليوم حساب وللحركة والسكون فيه حساب ، ولـٰكن أية حركة وأي سكون ؟ بطبيعة الحال تقع الحركة في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع ،

---

(1) الرحمـٰن ، 7ـ9 .

(2) الإسراء ، 35 .

(3) السجدة ، 4ـ6 .

(4) المعارج ، 1ـ5 .

مما يجعل الحسنات واقعة في دائرة المستخلفين وغير الحسنات إن وقعت جنباً إلىٰ جنب مع ما يخالف الحسنات سلوكاً أو عملاً وفعلاً تصبح بالنسبة للمؤمنين في نصف الدائرة غير المتوقع ، أي أنه من غير المتوقع أن يقدم خليفة علىٰ عمل الحرام ، فإن أقدم أدخل نفسه في تلك الدائرة التي لا تحمد عاقبتها ، وذلك لفقدانها رضاء ٱلله ورسوله والمؤمنين المستخلفين فيها بحمد ٱلله وفضله ، ومع أن اليوم واحد إلا أن حساباته ليست واحدة ، وإلا هل يستوي من يعمل صالحاً مع من يعمل طالحاً ؟ ولذا فهناك من يخسر يوماً كاملاً ، وهناك من يفوز به مضاعفاً بأعمال الخير وأفعاله ، وفي مقابل ذلك هناك من يخسر حياته بجريمة لا تغفر وبهـٰذا فقد في ذلك اليوم كل أيامه . إذاً هناك أيام تمتد متصلة حتىٰ الجنة ، وهناك أيام تمتد متصلة حتىٰ النار ، ولهـٰذا تتسع الأيام بالأعمال الحسنة وتضيق بالأعمال السيئة التي تكون نتائجها غير محمودة .

6 ـ **سعة كرمه وعطائه** : فقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ وذلك علىٰ غير ما جاء في وصفه للذين وصفهم ٱلله جل جلاله بالبخل ، فٱلله هو الغني الحميد ، ولذلك من مسلمات صفات الغني أن يكون واسعاً وإلا كيف يكون غنياً ؟ إذًا فهما صفتان متلازمتان لكل من وُصِف بأي صفة منهما ، وهـٰكذا اقترنت صفة الواسع بالعليم في القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] ؛ ولأنه وسع كل شيء علماً ، وإدراكاً ، فهو قادر علىٰ أن يضاعف الحسنات كيفما يشاء ودون جهد أو عناء ؛ لأن ذلك عليه سهل يسير ، فهـٰذه الآية الكريمة تبين صفة الخليفة الذي وعده ٱلله بالجنة بأن لا يكون بخيلاً فلابد وأن يكون متصفاً بالجود والكرم إضافة إلىٰ ربه الذي جعله

---

(1) البقرة ، 261 .

خليفة في أرضه ، قال تعالىٰ : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (1) . ومن كرمه علىٰ بني آدم :

أ ـ **حمله في البر والبحر** : فقد هيأ له سبل التنقل في البر والبحر ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (2) .

ب ـ **خلقه في أحسن تقويم** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (3) .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (4) . وقال تعالىٰ : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (5) .

---

(1) الحديد ، 7ـ11 .
(2) الإسراء ، 70 .
(3) المؤمنون ، 12 ، 14 .
(4) السجدة ، 7ـ9 .
(5) الصافات ، 125 .

وقال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (1) .

ج ـ **تذلل الأرض والحيوان له** : قال تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (2) . قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (3) . وعلىٰ الخليفة أن يقابل ذلك الكرم بما أمره تعالىٰ تجاه هـٰذه النعم . قال تعالىٰ : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (4) .

7 ـ **سعة مغفرته** : قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ، مع أن الخالق خلق الإنسان في أحسن تقويم ، إلا أن البعض لم يستثمر هـٰذه الميزة في ما هو أحسن وأفضل وأجود ، وذلك بأسباب خلقه علىٰ التمام وليس علىٰ الكمال ، ولأن الكمال لله وحده ، فالإنسان بطبيعته قد يغفل ، أو يُقصِّر ، أو يضل السبيل ، لذا كان واسع الفضل ذا مغفرة واسعة بها تسوىٰ الأمور ويحدث الصواب والتصويب حتىٰ تعم الرحمة والمغفرة ، وقال تعالىٰ : ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (5) .

---

(1) التين ، 4ـ6 .
(2) يس ، 71ـ73 .
(3) الملك ، 15 .
(4) القصص ، 77 .
(5) الزمر ، 53 .

وقال جل جلاله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (1) .

8 ـ **سعة فضله** : الواسع جل جلاله يضاعف الحسنات أضعافاً كثيرة ، وتحسب الحسنة بمجرد التفكير فيها ، والسيئة لا يعاقب عليها إلا بعد فعلها ولا تكتب إلا سيئة واحدة ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾ (3) ، وأما الكافر المعاند الذي يفسد في الأرض ويعمل علىٰ ملئها جوراً بعكس ما يود له أن يكون عليه وداً وإصلاحاً وعدلاً ، فإن ٱلله جل جلاله يضاعف له العذاب ؛ وفي مقابل ذلك يجازي المحسنين في الأرض بأن لهم المغفرة والتوبة والجنة ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (4) ، ولـٰكن من تاب ، وآمن ، وعمل صالحاً ؛ فإن رحمته ، وكرمه ، وحلمه يستوعبه ، ويدخله الجنة بغير حساب ذلك لسعة فضله . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ

(1) الصف ، 10ـ13 .
(2) البقرة ، 261 .
(3) الحديد ، 18 .
(4) الفرقان ، 68ـ70 .

بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ واسع بذاته ، وعليم بملكه وأمره وفقاً لقاعدة ما يجب وما لا يجب في دائرة المتوقع وغير المتوقع .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾ (2) . بطبيعة الحال كل خليفة في الأرض يؤمن بأن فضل ٱلله واسع ولهٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (4) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ (5) ، الفقراء هم الذين في حاجة لما يشبع حاجاتهم المتطورة والمتغيرة عبر الزمن ، ولأن الإشباع يحدث برزق قد لا يحسب له حساب ، كما هو حال الأرض الجرز التي يعمُّها السحاب ، فيهطل مطراً ينبت عشباً ، وزرعاً فتؤتي أكلها كل

(1) آل عمران ، 73 ـ 74 .
(2) المائدة ، 54 ـ 55 .
(3) البقرة ، 212 .
(4) النور ، 37ـ40 .
(5) النور ، 32 .

حين حتىٰ يتحقق الإشباع رحمة من واسع عليم ، فله الفضل ، والفضل منه رحمة ، والحمد له في كل حين .

9 ـ **سعة أمنه** : جعل المؤمنين آمنين في الدنيا والآخرة ، أما في الحياة الدنيا فقال تعالىٰ : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (1) ، فيكونون آمنين ماداموا في عبادة ربهم جل جلاله ، من الجوع بما وفر لهم من أسباب العيش الرغد ، وآمنين من الخوف بما وفر لهم من أسباب القوة والهيبة الإلـٰهية ؛ لأنهم عملوا بما يستوجب أن يكونوا به خلفاء علىٰ أرضه ، هـٰذا في الحياة الدنيا ، وهـٰذا ما كان يدعو به سيدنا إبراهيم الخليل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (2) ، طلب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الأمن عندما رأىٰ أن ربه قادر علىٰ ذلك ، وهو محتاج إليه ، وذلك بسبب انتشار الكفر وغياب الأمر الإلـٰهي ، وقيام الدستور البشري بما يحمله من تناقضات وفتن وخراب ، فكان بطبيعة الحال نتاجه الهرج والمرج الذي أعقب فوضىً وغوغائية ؛ مما جعل سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يطلب الأمن الذي فقده خوفاً علىٰ ضياع ما بناه لسنوات من دين وعمارة المسجد ، وهـٰذا ليس غريباً ؛ إنه من سلوك الخليفة وطبعه الذي غرسه الله جل جلاله فيه بأن يدعو إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ ليرىٰ البلاد آمنة مطمئنة ، قال تعالىٰ : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝ وَإِن عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

---

(1) قريش ، 3 ـ 4 .

(2) البقرة ، 125 ـ 126 .

لِلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [1] ، أما في الآخرة فـإن سعـة أمنـه واضحـة جليـة بمـا وعـده لهـم مـن الخيـرات ، قـال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [3] .

10 ـ **سعة إمهاله وإرجائه للكافرين والمشركين** : إنه الواسع بفضله علىٰ من آمن وعلىٰ من كفر ، والفرق بين ذلك سعته للمؤمنين في الدارين وسعته علىٰ الكفرة والمشركين في الدار الدنيا ، ولهـٰذا المؤمنون دائماً في عليين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن

---

(1) النحل ، 125ـ128 .

(2) الأنفال ، 74 .

(3) آل عمران ، 133ـ136 .

تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [1] . وقد يتساءل البعض علىٰ سعة الإمهال لا الإهمال فيقول :

ـ هل كان ذلك عبثاً ؟

ـ بالطبع لا .

ـ هل كان ذلك ضعفاً ؟

ـ بالطبع لا .

ـ هل كان ذلك عجزاً ؟

ـ بالطبع لا .

ـ هل كان ذلك جهلاً ؟

ـ بالطبع لا .

ـ هل كان ذلك تقصيراً منه ؟

ـ بالطبع لا .

وهل كان ؟ وهل كان ؟ إلىٰ ما لا نهاية . بالطبع لا .

ولذا فإن تعدوا نعمة ٱلله لا تحصوها . وإلا هل هناك من يستطيع أن يعد نعم ٱلله عليه في عقله الممتلئ بملكات التفكر والتذكر وهي تتكون من مركبات عصبية دقيقة وانبعاث حياة واسعة تمتد مع كل آفاق وتمتد مع الظاهر والباطن أشياء ترىٰ وأخرىٰ أكثر لا ترىٰ ، فإن تعدوه لا تعد ، وانظر إلىٰ العينين هل هناك من يعد ما تراه من جميل وجمال ، واللسان وما يقوله من حق وهو يستمد

---

(1) المطففين ، 7ـ34 .

العبارات من خلايا الدماغ التي لا تعد ، والعلاقات القوية المنتظمة بين العقل واللسان والعينين وما تمتد إليه في علاقات مع الفؤاد والضمير الذي يشغل حيزاً من التفكير ولا يشغل حيزاً من المادة إنه المكون الذي لا يعد ، وهٰكذا في أنفسهم أفلا يبصرون ؟ قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (2) .

سبحانه إنه الواسع الذي بسعته كان ممهلاً ، ولم يكن مهملاً ، وهو الغفور الودود الذي بعدله في الخلق أوجب الثواب والعقاب ، ولٰكن بعد إمهاله لعله يتوب لربه ويتبع نهج الخلفاء في أرضه ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (4) .

11 ـ **سعة استيعابه للمؤمن والكافر** : لأنه يستوعب المؤمن فيرفعه أعلىٰ درجات الجنة ، ويستوعب الكافر فيمهله حتىٰ الغرغرة ، ولو لم يكن واسعاً ما كان حليماً علىٰ المذنب ، وكل ذلك بمغفرته ، قال تعالىٰ : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ

---

(1) السجدة ، 27 .
(2) فصلت ، 53 ـ 54 .
(3) البقرة ، 126 .
(4) هود ، 8 .

وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [1] ، فسعته جعلته يستوعب المؤمن فيدخله الجنة بغير حساب . وسعته جعلته يستوعب الكافر فيمهله ويجعل له رزقاً وهو يعلم أنه العاصي في البر والبحر وفي الجهر والخفاء ، ويطعمه من ثمرات الأرض ويسقيه من أنهارها ماء ثجاجاً ، تحت الشمس الوهاج والقمر المنير ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [3] ، وكذلك لا ننس سعة العذاب الذي أعده للظالمين الكافرين والذي يجب علىٰ الخلفاء أن يَحْذَروه ويحذِّروا منه مستخلفيهم فيفوزون بهم ويدخلون الجنة الواسعة التي أعدها للطائعين ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ

---

(1) الرعد ، 6ـ13 .
(2) النبأ ، 13ـ30 .
(3) النور ، 57 .

ٱلنَّارُ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾ (2) ، وهٰكذا يكون الخليفة واسعاً ؛ وإن كان ذلك نسبياً ، وذلك :

أ ـ أن يكون واسع البال مطمئن النفس فلا يضيق بما يعمل المفسدون وأن يعمل واثقاً بأن الحياة الدنيا متاع الغرور فلا يغتر . قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (3) .

ب ـ أن يكون واسعاً في كتم أسرار غيره ولا يعطيها للآخرين ، فيستوعب الأسرار ولا يذيعها حتىٰ لا يضر بها الآخرين ويؤذيهم .

ج ـ أن يرىٰ الأشياء بنظرة ثاقبة ولا يغفل ، حتىٰ لا تذهب عنه الحقائق والدقائق .

وكل ذلك يزيد عن كون الخليفة سعته نسبية ؛ لأن الواسع المطلق جل جلاله لا يضيق بشيء وإن ضاقت به نفوس الناس . قال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ

(1) الرعد ، 35 .
(2) الحديد ، 21ـ23 .
(3) آل عمران ، 185 ، 186 .

رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ (1) .

12 ـ **سعة مراقبته** : فهو الذي يراقب الأشياء من حيث الزيادة والنقص ، ومن حيث النمو والانعدام ، والانخفاض والرفع المادي للأشياء والمعنوي للنفوس . قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (2) ، أي كل ما علىٰ الأرض آخذ به حيث يشاء وكيف يشاء . وقال تعالىٰ : ﴿ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ (3) .

13 ـ **سعة ثوابه وعقابه** : إنه الواسع الذي يجعل في العمل البسيط الأجر العظيم والثواب الجزيل ودون مِنَّة أو رجاء . قال تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (4) . إذاً بقوته يسع السموات والأرضين وما بين السماوات والأرضين ، ويجعل النفوس المستخلفة في الأرض تسع أوامره ونواهيه وتتعاظم سعة بما تقدم عليه من أفعال وأعمال فلاح ، وتكسب من وراء ذلك الجزاء الوفير والمغفرة الواسعة والرحمة الواسعة والجنة الواسعة ،

---

(1) النحل ، 17 ـ 19 .

(2) هود ، 56 .

(3) هود ، 6 ـ 7 .

(4) هود ، 20 ـ 23 .

سبحانه إنه الواسع العليم جل جلاله الذي جعل في الأرض خليفة يسع الأرض برسالته الخاتمة حتىٰ تمتلئ إيماناً ، ومخافة من ضيق ، أو قصور في غير مرضاة ٱلله .

14 ـ **سعة كرسيه** : وسع كرسيه السماوات والأرض مع الإحاطة الكاملة بحفظهما ، ومع أن كرسيه وسع السماوات والأرض إلا أن وسعه الذاتي جل جلاله أعظم ، فالكرسي منه ولم يكن سابقاً عليه فلو لم يكن عز وجل ما كان الكرسي ، ولذا فخالق الكرسي دائماً أعظم من الكرسي الذي وسعت عظمته السماوات والأرض مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (1) .

15 ـ **سعة بنائه** : سبحانه من أحكم كل شيء سعة وعلماً وعدلاً ، خلق كل شيء وجعل الميزان القسط لتنظيم أمور الحركة والسكون ، وجعل الكواكب والنجوم كل في فلك يسبحون لا تتصادم ولا تتعارض ولا تسقط واحدة علىٰ حساب أخرىٰ ، كل شيء محكم بأمره ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨

(1) البقرة ، 255 .
(2) الحجر ، 14 ، 15 .
(3) ق ، 6 .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ من السعة ، أي : إننا قد خلقنا ولا زلنا نخلق الأكثر فلا استغراب فكل شيء بيده ممكن ، والسعة يمكن أن تكون مادية ويمكن أن تكون نفسية ويمكن أن تكون إدراكية ، ولذلك فإن قوله : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ تدل علىٰ استمرارية القدرة وعدم انقطاعها والخلق وعدم انقطاعه ، فكل شيء بأمره كان ويكون . اتساع كبير للأرض والسماوات السبع واتساع في الامتداد العظيم الذي يربط بين السماوات والأرضين السبع ، وزيادة سعة في الخلق وما يكسبون ، كل جزء من الثانية الملايين والمليارات تخلق في أوساط الخلائق سعة في خلقه دون أن يكون مخلوق علىٰ حساب آخر .

16 ـ **سعة قدرته** : بطبيعة الحال لا تستمد السعة إلا من قدرة ، ولا قدرة إلا من قادر ، والسعة بسطة تسمح بالامتداد حتىٰ نهاية الممتد المالك لقدرة الامتداد من القادر المطلق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (4) . إذاً سعة قدرته تحتوي علىٰ كل قدرة ، وهي

(1) الذاريات ، 47ـ49 .

(2) الذاريات ، 38ـ40 .

(3) الإسراء ، 99 ، 100 .

(4) الأحقاف ، 33 .

القدرة التي تغلب ولا تُغلب ، وهي مصدر لكل قدرة ، وهي المستمدة من القوة والمدفوعة بها في كل حركة .

17 ـ **سعة إدراكه** : الموسع هو العليم بالأمر وهو القادر علىٰ كل أمر وهو العزيز الحكيم ، إنه الخالق المدرك لكل ما خلق ، وهو الذي بإدراكه يعلم الزمان وحاله والمكان وحاله والحركة وحالها والسكون وحاله ، وهو العليم الخبير بكل ماضٍ وكل حاضر وكل مستقبل وكل غيب . والخليفة دائماً في حالة إعجاز أمام خالقه جل جلاله ، فالخالق بدون مقارنة حيث الأمر لا يستوجب ذلك إيماناً تاماً ، وذلك بأسباب علمية حيث لا مقارنة إلا بشبيه ، ولأن ٱلله واحد أحد لا شريك له ، فهو الذي لا يقارن بشيء والحمد له رب العالمين ، ومع ذلك أعرضُ علىٰ القراء الكرام ما يعلمه ٱلله بالمطلق ولا يعلمه الإنسان بالمطلق :

أ ـ **الماضي بالمطلق** : لا يعلمه إلا هو عز وجل ، وإلا هل هناك من يعلم بكل ما حدث غير الذي أحدثه وجوداً ؟ قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ

ٱلرَّحِيمُ﴾ [(1)] ، وقال تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [(2)] .

ب ـ **الحاضر بالمطلق** : لا يعلمه إلا هو ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [(3)] ؛ ولأنه يعلم الأشياء ويتصرف وفقاً لحاجتها . قال تعالىٰ : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [(4)] . الحاضر هو زمن الوجود والعمل فمن يعمل مثقال ذرة في الزمن الآن يره خيراً في الزمن المستقبل ، ولهـٰذا فإن ٱلله لا يضيع أجر العاملين المصلحين في الأرض ولذلك سيجزي المحسنين . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١١ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [(5)] . أي من يعمل سوءاً في الزمن الحاضر أو يظلم نفسه ثم يستغفر في الزمن الحاضر بالنسبة للوجود علىٰ قيد الحياة ستعمه رحمة ٱلله في المستقبل بالمغفرة والرحمة . وهـٰكذا من يكسب إثماً أو خطيئة في الوقت الحاضر دون أن يستغفر سيجد العذاب الشديد في انتظاره في المستقبل . اللهُمَّ اجعلنا من المؤمنين الطائعين ، ولا تجعلنا من

---

(1) البقرة ، 30ـ37 .

(2) البقرة ، 216 .

(3) الأنعام ، 103 ـ 104 .

(4) الرعد ، 10 ـ 11 .

(5) النساء ، 110 ـ 112 .

مرتكبي الخطايا والسيئات والآثام ، وارحمنا إنك الرحمـٰن الرحيم !

ج ـ **المستقبل بالمطلق** : لا يعلمه إلا هو ، قال تعالىٰ : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ (2) . علم المستقبل في دائرة النسبية هو بالتمام في دائرة الممكن بالنسبة للخليفة ، فنحن جميعاً نعلم بأن غداً السبت بما أن اليوم الجمعة ، ونعلم أن الصلاة بعد شهادة أن لا إلـٰه إلا ٱلله فريضة علىٰ كل مسلم وكذلك الزكاة والصوم والجهاد والحج ، ونعلم كل ذلك وفقاً للمستطاع والحمد لله إن الدين الحق يسر وليس فيه شيء من العسر وهـٰذه سعة من ٱلله العزيز الحكيم .

ومع أن المستقبل بالمطلق لا يعلمه إلا هو إلا أن الخليفة يعلم ببعض المستقبل ويعمل من أجله وهو يدرك بأن ما يعمل من أجله معرض للمفاجأة من علم الغيب ، فالإنسان يولد ويتعلم ويسعىٰ لإيجاد فرصة عمل تناسبه ، ويسعىٰ لبناء ، أو شراءِ مسكنٍ ويتزوج وهو يأمل أن تكون له أسرة سعيدة مباركة ، أي أن الخليفة يخطط دائماً من أجل المستقبل ولهـٰذا يصوم ويصلي ويحج ويزكي ويتصدق من أجل مستقبل مأمول ، وهو الفوز بالجنة . والحمد لله رب العالمين ! اللهُمَّ جعلنا من أهل الجنة إنك السميع المجيب !

د ـ **الغيب لا يعلمه غيره** : الغيب هو الذي بيننا وبينه حجاب وهو الميدان الواسع لتنفيذ الأمر كن ، ولهـٰذا فكل المدركات العقلية تعجز قاصرة عن بلوغه وإن اجتهدت العقول بموضوعية تمكنت من أن تبلغ علم المستقبل

---

(1) البقرة ، 151 .

(2) لقمان ، 34 .

الذي تسعىٰ إلىٰ بلوغه بخطط واستراتيجيات توضع وترسم ، ولذا فدائماً يرد إليه علم الساعة التي نعلم يقيناً أن علمها أمر غيب . قال تعالىٰ : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] . الغيب أمر بالمطلق لا يعلمه إلا هو جل جلاله والحمد لله رب العالمين .

18 ـ **سعة هيمنته** : قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [5] وقال تعالىٰ : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [6] .

19 ـ **سعة جبروته** : قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ

(1) فصلت ، 47 .
(2) الأنعام ، 59 .
(3) الحشر ، 22ـ24 .
(4) الأنعام ، 3 .
(5) البروج ، 20 .
(6) فصلت ، 12 .

ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾ (1) ، و قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (3) .

20 ـ **سعة حفظه** : الواسع هو الذي يحوط بالأشياء مكاناً وزماناً وحفظاً واستيعاباً وحركة وسكوناً ، وهو الذي يحفظ كل ما خلق دون أن يغفل عنه في شيء يذكر ، وهو القادر علىٰ إبقاء ما يشاء كيف يشاء دون ضرر وبكل سيطرة ، ولذا كل مخلوق محفوظ بواسع رحمته وملكه . قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ (4) . إن أخذ ٱلله بناصية كل دابة يرجع إلىٰ أسباب سيطرته دون تفريط ، وأخذ ناصية كل دابة ضارة لأجل حفظ النوع وخاصة المستخلفين فيها ، وأخذ ربي دائماً علىٰ الصراط المستقيم دون ظلم أو تحيز وذلك لأن من صفاته العدل القسط والميزان العدل والصراط المستقيم ، ولهـٰذا فإن ربي علىٰ كل شيء حفيظ والحمد لله رب العالمين . ومن صور حفظه :

أ ـ **حفظه أنبياءه** : قال تعالىٰ مخاطبا نبيه الكريم : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

(1) الرعد ، 12 ـ 13 .
(2) الأنعام ، 6 .
(3) البروج ، 12 .
(4) هود ، 56ـ58 .

يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (2) .

ب ـ **حفظه لِلَّوح والكتاب** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (4) .

ج ـ **حفظه سماءه من الشياطين** : قال تعالىٰ : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

(1) المائدة ، 67 .
(2) الأعراف ، 59 ـ 67 .
(3) البروج ، 20 ـ 22 .
(4) فصلت ، 41 ـ 46 .

وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ (3) .

د ـ **حفظه للبشر** : قال تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ (6) .

هـ ـ **حفظه للأعمال** : قال تعالىٰ : ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ (7) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَن يَكُنِ

---

(1) الصافات ، 5ـ10 .
(2) فصلت ، 12 .
(3) الحجر ، 16 ، 17 .
(4) الانفطار ، 10ـ19 .
(5) الفلق ، 1ـ5 .
(6) الناس ، 1ـ6 .
(7) ق ، 3ـ4 .

ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [2] .

و ـ **حفظه لكل شيء** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ [4] .

21 ـ **سعة عرشه** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [5] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ [6] .

22 ـ **سعة سمائه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا

---

(1) النساء ، 38ـ40 .

(2) الزلزلة ، 7 ـ 8 .

(3) سبأ ، 21 .

(4) هود ، 57 .

(5) هود ، 6 ، 7 .

(6) البروج ، 11ـ22 .

لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [3] .

23 ـ **سعة رزقه** : الرزاق خلق كل شيء بحسبان ونشر رزقه لكل شيء حسب الحاجة ، فمن خلقه رزقه مفتوح علىٰ مصراعيه بين أبواب السماء علىٰ الأرض سحب ومطر وحيوانات وعشب الكل يأكل ويسبح بحمده ، وهناك من يحرث ويزرع ويحصد ثم يأكل وهو علىٰ غرار من يخترع ويطوّر ويصنع ويجني ويكسب ، ومع ذلك فإن للعناية الربانية آية يعيش عليها المولود والضعيف حتىٰ يمتلك القوة . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ [4] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن

---

(1) الحجر ، 16 ، 22 .
(2) ق ، 7 ـ 11 .
(3) المؤمنون ، 84ـ89 .
(4) الحجر ، 19 ، 20 .

يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ (1) .

والخليفة هو الحامد للموسع عز وجل علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ ، إنه المدرك للشيء وما يكمن من ورائه ولذا فهو من الطائعين الذاكرين الشاكرين علىٰ ما أعطاه الموسع وعلىٰ ما ميزه به دون غيره ، وهو الذي يعمل من أجل مستقبلاً أفضل وأجود وأحسن . ومن شكره لنعم الموسع جل جلاله الطاعة في إظهار الآتي :

أ ـ **عدم الإسراف** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ (2) .

ب ـ **عدم الاقتراب من المحرمات والفواحش** : قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ (3) .

ج ـ **عدم الإشراك** : قال تعالىٰ : ﴿ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (4) .

د ـ **عدم الاقتراب من مال اليتيم** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ

---

(1) الذاريات ، 56ـ59 .
(2) الأعراف ، 31 ـ 32 .
(3) الأعراف ، 33 .
(4) الأعراف ، 33ـ35 .

أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ (1) .

24 ـ **سعة ميراثه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ (3) .

25 ـ **سعة أبديته** : ولأن ٱلله تعالىٰ هو الأول والآخر إذاً لا باقٍ من بعده أبداً ، ولذا رزقه باق ، وحكمته باقية وعلمه باقٍ وقوته باقية والخلق فانون ، ولهـٰذا تفنىٰ الخلائق ويبقىٰ الملك لله وحده . قال تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾ (6) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ

---

(1) الإسراء ، 34 .
(2) الحجر ، 23ـ25 .
(3) ال عمران ، 180 .
(4) الحديد ، 2ـ3 .
(5) التوبة ، 84ـ86 .
(6) طه ، 131 .

ﭐلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (1) .

26 ـ **سعة جنته** : الجنة أمل كل خليفة وهي ثمار عمل المؤمن في الحياة الدنيا ، فمن زرع خيراً حصد خيراً وفاز بالجنة ، ومن زرع شراً حصد شراً وخسر الجنة وهو حطب في نار جهنم ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ (4) .

الجنة بيت الفردوس والنعيم فمن دخلها عاش في النعيم ، ومن خسرها عاش في جهنم ، اللهُمَّ اجعلنا من الفائزين لا من الخاسرين لقد وعدتنا ووعدك الحق ، فالحمد لله رب العالمين ، إنا بك آمنا وبما أنزلت وأرسلت وأمرت ،

---

(1) القصص ، 60ـ 68 .
(2) ال عمران ، 133ـ 136 .
(3) الحديد ، 21 .
(4) السجدة ، 13 .

وعليك توكلنا ، وأولينا أمرنا إليك إنك سميع مجيب .

27 ـ **سعة كبريائه** : الكبرياء لله وحده ، ومن بعده تستمد الكبرياء بإكبار العمل الصالح حتىٰ ينال القائمون به تقديراً من الآخرين فتعود الكبرياء علىٰ من قام بالعمل الصالح ، والكبرياء غير التكبر ، الكبرياء اجتناب الأعمال الرخيصة الفاقدة للقيم والفضائل التي تنال تقدير الواسع العليم وتقدير الناس المحقين للحق والزاهقين للباطل . أما التكبر فهو تعالٍ بغير حق وبدون وجه حق وفيه تقليل من شأن الذين خلقهم ٱلله خلائف في أحسن تقويم . قال تعالىٰ : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (2) .

28 ـ **سعة عظمته** : الواسع عظيم بسعته التي استوعبت كل ما خلق وكل ما يخلق ، وعظيم بمغفرته التي بها يتم التكفير عن الأخطاء والعيوب

(1) الجاثية ، 36 ، 37 .

(2) يونس ، 71ـ78 .

والذنوب ، إنه مالك كل شيء وبيده أمر كل شيء ومع ذلك بعض من خلقه لا يطيعون أمره ويعصونه ، وفوق كل ذلك يغفر ويرحم ويجازي بالخيرات ، ومع أنه يغفر ويرحم إلا أن بعض القلوب لا تلين فيؤجل كل شيء ولا يتعجله لتكون الفرصة سانحة أمامهم ، ألا يكون هٰذا الأمر لعظيم يجل ؟ ! . إنه العظيم الذي تسبح باسمه وصفاته كل الخلائق التي نحن المستخلفين في الأرض لا نفقه تسبيحها ، ألا يكون عظيماً من خلق الخلائق التي لم نفقه تسبيحها وهي تدركه يقيناً وتسبح له بالحمد والثناء ؟ ! ألا يكون عظيماً من خلق كل شيء وجعل لكل ما خلق رزقاً دون أن يكون لأحد نصيب علىٰ حساب آخر ؟ ألا يكون من خلق الخليفة واصطفىٰ منه الأنبياء والرسل لأجل الهداية عظيماً يجل ؟ ! ألا يكون من ليس له صاحبة ولا ولداً ولا مثيلاً ولا شريكاً في الملك عظيم يجل ؟ ! ألا يكون من يرزق دون أن ينتظر مقابلاً عظيماً يجل ؟ !

ولأنه عظيم فنعمه لا تحصىٰ وجلالته لا تعد ، ومن عظائم سعته :

أ ـ **عظمة كرسيه** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (1) .

ب ـ **عظمة الفوز بجنته** : قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ

(1) البقرة ، 255 .
(2) المائدة ، 119 ـ 120 .

سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (1) .

ج ـ **عظمة رحمته** : قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (3) .

د ـ **عظمة اسمه** : قال تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (4) . وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (5) .

هـ ـ **عظمة فضله** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (6) ، و قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ

---

(1) التوبة ، 71 ـ 72 .
(2) البقرة ، 105 .
(3) التوبة ، 88 ـ 89 .
(4) الواقعة ، 73 ـ 76 .
(5) الواقعة ، 95 ـ 96 .
(6) آل عمران ، 73 ـ 74 .

﴿فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (1) .

و ـ **عظمة قرآنه** : قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ (2) .

ز ـ **عظمة نبئه** : قال تعالىٰ : ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (3) .

ح ـ **عظمة خزيه** : قال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (4) .

ط ـ **عظمة عرشه** : قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ (6) .

29 ـ **سعة أرضه** : الأرض هي المكان الذي يستوعب الخلائف والكائنات الأخرىٰ المصاحبة للعيش عليها ، وسعة الأرض بعلاقتها مع سعة السماء فلو لم تكن الأرض والسموات معاً ما كان البخار وتراكم السحاب

---

(1) الأنفال ، 29 .

(2) الحجر ، 86 ـ 87 .

(3) النبأ ، 1 ، 5 .

(4) التوبة ، 63 .

(5) التوبة ، 128 ـ 129 .

(6) النمل ، 25 ـ 26 .

وسقوط الأمطار الممتدة مع حركة الرياح اللواقح ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ ﴾ (2) .

30 ـ **سعة قصده** : الله الواسع هو الخالق المطلق الذي بيده الملك والأمر وهو علىٰ كل شيء قدير ، ولأنه هو الأول والآخر فهو المحيط بكل شيء وهو الحفيظ عليه ، ولأنه كذلك فهو في كل حركة وزمان وسكون وامتداد واتجاه . قال تعالىٰ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (4) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

---

(1) الزمر ، 10 .
(2) النساء ، 97 .
(3) البقرة ، 115 .
(4) النساء ، 110ـ113 .

وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) .

31 ـ **سعة عطاياه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ (2) . قال ابن الأنباري : الواسع : وهو الكثير العطايا الذي يسع لما يُسأل (3) . قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (4) . ولذلك فمن موجبات العطاء :

أ ـ **الدعاء** : الدعاء صلة بين المحتاج ومالك الملك ، والاستجابة توسع وفضل من المالك علىٰ المحتاج ، ولهـٰذا فالدعاء استعانة تتطلب استجابة ، وعندما تكون الاستعانة بمن يملك تكون الإجابة لمن هو في حاجة ، ولذا الخليفة لا يقصد إلا مالكاً مطلقاً لتكون الإجابة معطية من معطيات المؤمنين المستخلفين فيها بهدف الإصلاح والفلاح . قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (5) .

---

(1) النحل ، 9ـ14 .

(2) يونس ، 107ـ109 .

(3) تهذيب اللغة ، ج 1 ، ص 339 ، 340 .

(4) يونس ، 11 .

(5) غافر ، 60ـ62 .

ب ـ **الشكر** : الشكر اعتراف وثناء علىٰ من كان له الفضل الواسع علىٰ من هو في حاجة له ، ولهـٰذا تكون الزيادة الموسعة بالعطاء تقديراً لشكرهم له جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (1) .

32 ـ **سعة بحاره** : مع أن كل شيء نسبي إلا أن الواسع لا يخلق إلا واسعاً في حجمه أو حركته وامتداده أو ذكائه وتفكيره أو ثباته وصموده أو عزته ومغفرته أو صلاته وزكاته وصدقته وملكه ، ولهـٰذا فالواسع المطلق هو من يسع كل واسع وإن اجتمعت الوسائع . قال تعالىٰ : ﴿ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (3) . ولأن كل شيء في دائرة الممكن نسبياً فإن سعة البحر الممتدة بين اليابسة وبينها وبين المحيطات التي تخوضها ذات الأعلام طولاً وعرضاً فهي لا تكون السعة المطلقة بل هي سعة نسبية من سعة الرحمـٰن الرحيم . قال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (4) .

33 ـ **سعة كلماته** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ

---

(1) إبراهيم ، 7 ، 8 .
(2) النور ، 40 .
(3) إبراهيم ، 32 ، 33 .
(4) الكهف ، 109 .

جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (2) .

34 ـ **سعة يسره** : الموسع هو الميسر لا المعسر وهو الرحمـٰن الرحيم . قال تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (3) ، وشروط تيسيره لخليفته :

أ ـ **أن يكون الخليفة مؤمناً صالحاً** : قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (4) .

ب ـ **أن يكون الخليفة سيره علىٰ نهج قوله تعالىٰ** : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ (5) .

ج ـ **أن يكون الخليفة متقياً ربه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ (6) .

---

(1) الكهف ، 107ـ110 .
(2) لقمان ، 25ـ28 .
(3) الشرح ، 5 ـ 6 .
(4) الكهف ، 88 .
(5) الشرح ، 7 ـ 8 .
(6) الطلاق ، 4 .

د ـ **عدم التكلف بما لا تطيق النفس** : قال تعالىٰ : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (1) .

35 ـ **سعة نصره** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (2) .

ومن دواعي نصرته تعالىٰ لخليفته :

أ ـ **تقوىٰ الله** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ (3) .

ب ـ **الصبر عند اللقاء** : قال تعالىٰ : ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ

(1) الطلاق ، 7 .
(2) الحج ، 40 ، 46 .
(3) آل عمران ، 123 ـ 124 .

لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (1) .

ج ـ **الاستغاثة بالله** : قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (2) .

د ـ **الثبات عند اللقاء** : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (3) .
وقال تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (4) .

36 ـ **سعة وجهه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١١١ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ

---

(1) آل عمران ، 125 ـ 126 .
(2) الأنفال ، 9 ـ 14 .
(3) الأنفال ، 15 ، 16 .
(4) الأنفال ، 43 ـ 45 .

وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (3) .

37 ـ **سعة مضاعفته** : الواسع يضاعف الخيرات للخيرين بالزيادة وهـٰذه رحمة منه علىٰ خلفائه في الأرض الذين يصلحون ولا يفسدون . قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (4) ،

---

(1) البقرة ، 111 ، 112 .
(2) القصص ، 87 ، 88 .
(3) الكهف ، 28ـ31 .
(4) البقرة ، 261ـ264 .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [1] . وفي مقابل مضاعفته للخيرات يضاعف العذاب يوم القيامة للكفرة والمشركين وفاعلي السيئات والمفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حق ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [3] .

38 ـ **سعة زمانه ومكانه** : الزمان هو الملاحظ الذي لا يمكن مشاهدته ، والذي لا يقاس بغيره أو من خارجه ، فالزمان لا يقاس إلا بالزمن ، والدهر كزمن ، لا يقاس إلا بالأعوام والسنين ، والأعوام لا تقاس إلا بالشهور كمواقيت طبيعية ، والشهور لا تقاس إلا بالأيام ، وهٰكذا عرفنا الساعات كزمن لقياس اليوم كزمن . إذاً الزمان هو المتدرج من الكل إلىٰ الجزء الذي هو الآخر يتجزأ .

وقد يتساءل البعض : ما علاقة الزمان بالحركة ؟ وأيهما الأسبق علىٰ

---

(1) الحديد ، 17 ، 18 .
(2) هود ، 19ـ22 .
(3) الفرقان ، 68ـ71 .

الآخر ؟ . تكون الإجابة : لا حركة بلا زمان ، ولا زمان بلا حركة ، ولهـٰذا لا يمكن أن يكون أحدهما سابقاً علىٰ الأخر ، فلو كان الزمان سابقاً علىٰ الحركة ، لكانت الحركة عبارة عن حدث من أحداث الزمان ، وهـٰكذا لو كانت الحركة سابقة علىٰ الزمان لكان الزمان عبارة عن حدث حركي أو مولود الحركة الأول ، وكل منهما مترتب وجوده مع الآخر ، وليس مترتباً عليه . ولهـٰذا لو توقفت الحركة يتوقف الزمان ، وإذا توقف الزمان توقفت الحركة ، فلا حركة إلا بزمان ، ولا زمان إلا بحركة . إذاً الزمان والحركة هما الشيئان المكملان لبعضهما البعض في الوجود المترتب عليهما .

وبما أن الزمان والحركة شيئان ، إذاً هما الموجودان في الآن الواحد ، ولهـٰذا لا يمكن أن يكون الآن بأحدهما ، ولا يمكن أن يكون الماضي ، ولا يمكن أن يكون المستقبل . فالزمان والحركة هما الشيئان اللذان كانا لحظة الانفجار العظيم ، وهما السابقان في الخلق الذي يتكون من الزوجين ، مصداقاً لقول ٱلله تعالىٰ : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] . فالزمان والحركة شيئان اثنان كغيرهما من الأشياء الأخرىٰ التي تم خلقها من عند ٱلله عز وجل . ويقول تعالىٰ : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [2] .

الليل كزمن ، أو ميقات يتوحد مع حركة الأرض الذي يسبح (يتحرك) وكأنه في حالة طفـء ، وهو في حركة منتظمة ، ومتناهية مكاناً ، وزماناً .

ونتيجة انتظام حركة المتحرك مع زمانه فلا يمكن له (المتحرك) أن يدرك

---

(1) الذاريات ، 49 .
(2) يس ، 37ـ40 .

أحدهما الآخر (الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر) . ومع أن الزمان والحركة يلاحظان ولا يشاهدان ، إلا أن المواقيت تشاهد ، فالليل والنهار والفجر والصبح والمغرب مواقيت كلها تشاهد . ولهـٰذا لا متحرك إلا في مواقيت أو بمواقيت . إذاً لا متحرك إلا والزمان معه ، ولا وجود لمواقيت إلا والحركة معها ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

الآن :

يقول ابن سينا : الآن هو « دائماً وصل بين قبل وبعد ، وهو قبل ما بعده ، وبعد ما قبله » [1] . فالآن كالعلامة علىٰ الزمان ويشار به إلىٰ الوقت الحاضر الذي يربط الزمنين الماضي والمستقبل اللذين هما الآخران علامتان علىٰ الزمان ، والزمان متصل غير منفصل ، أما الوقت الذي هو المتكون من الماضي والحاضر والمستقبل فمتجزئ بأحداثه . وعندما نقول الزمان في تشبيهه كالحبل علىٰ البكرة ، فالذي تم سحبه منه أصبح في الوقت الماضي ، وما هو علىٰ البكرة هو في وقت الآن ، وما لم يسحب بعد يقع في الوقت المستقبل ، ولهـٰذا تجزأ الوقت ولم يتجزأ الحبل (الزمان) فالحبل متصل لأنه حبل واحد ، أما الوقت فلم يكن واحداً .

الآن ، إذاً هو ، الظاهر في الحاضر ، والكامن في الماضي ، والمتناهي في المستقبل .

الآن البداية :

هو الذي لم يكن كما قال عنه ابن سينا « الآن دائماً وصل بين قبل

---

(1) إبراهيم العاتي ، الزمان في الفكر الإسلامي . بيروت ، الطبعة الأولىٰ ، 1993م ، ص 183 .

وبعد »[1] . بل الآن البداية هو بداية التوأم (الزمان والحركة) فلا زمان إلا من بعده ولا حركة إلا من بعده ، ولا حياة إلا من بعده . وذلك لعدم وجود ماضٍ سابق علىٰ وجوده ، ولهٰذا الآن البداية هو دائماً بداية لما بعده .

الآن الوسطي :

هو الذي ينطبق عليه ما قاله ابن سينا بأنه « دائماً وصل بين قبل وبعد ، وهو قبل ما بعده ، وبعد ما قبله » ، ولٰكن ليس بالضرورة أن يكون هو الوسط الحسابي بحيث تتعادل أطرافه ، فإذا اعتبرنا الآن في هٰذا اليوم نقطة وصل بين الماضي من البداية ، والمستقبل إلىٰ النهاية ، فهل نحن متأكدون بأن ما قضيناه من الزمان يساوي ما تبقىٰ منه ؟ .

الآن النهاية :

هو دائماً بعد ما قبله ، وليس وصلاً بين قبل وبعد ، فإذا كان للحجرة باب ، فالآن هو المفتاح الذي قفلت به الحجرة . ولهٰذا الآن النهاية ، هو دائماً نهاية لما قبله .

الآن والماضي :

هو المستوعب للتجارب التي وقعت أو التي حدثت بموجبها وسالبها وهو الذي يكتمل بعد حدوث الفعل أو الانتهاء من التجربة ، ويتصل مع كل حاضر بالنقطة الآن . والماضي هو الوقت الذي سجلت فيه الأحداث والأفعال والتجارب في الزمان والحركة وهو القابل للاستدعاء كأحداث وغير قابل للاستدعاء كزمان وحركة ، والسبب هو أن الأفعال الماضية إلىٰ جانب كونها تُسجل في الزمان والحركة فهي أيضاً تسجل في العقول المدركة التي عندما تحاور بالأسلوب العلمي تتمكن من أن تستدعي ما سُجل لديها من

(1) المرجع السابق ، 183 .

مخـزون مـاض . أمـا الـزمـان المـاضـي والحـركـة المـاضيـة فـلا يمكـن استدعاءهما مع الأحداث الماضية إلا كمواقيت ودلائل لتسجيل الأحداث والمواقف والمواضيع والظواهر ، ولذلك لا يمكن استدعاءهما مجردين مع أنهما يتكرران وفقاً للدورة الفلكية المنتظمة . ولذلك نلاحظ تكرار الزمان والحركة ، ونلاحظ اختلاف المحتوىٰ ، بمعنىٰ أن اليوم يتكرر كل أربعة وعشرين ساعة ، ولـٰكن مضمون اليوم ومحتواه قد لا يتكرر ، فعلىٰ سبيل المثال : قد نجد اليوم درجة الحرارة أكثر أو أقل من حرارة يوم أمس ، أو أنها أكثر أو أقل من حرارة اليوم المماثل لهـٰذا اليوم من العام الماضي ، مع أن هـٰذا اليوم يماثل يوم العام الماضي من حيث الزمان والحركة ، ولهـٰذا يختلف المضمون والمحتوىٰ لكل وقت سواء من حيث الكم أو الكيف ، ولـٰكن بالنسبة للحركة الذاتية والزمان الذاتي لا يختلفان بين هـٰذا اليوم ويوم العام الماضي ، فيوم 23 يوليو من هـٰذا العام لا يختلف عن يوم 23 يوليو من العام الماضي باعتباره أطول أيام السنة نهاراً ، ولـٰكن من حيث المضمون والمحتوىٰ فقد لا يكون بينهما تماثل ، وهـٰكذا يكون يوم الفاتح من سبتمبر من هـٰذا العام لا يختلف عن يوم الفاتح من سبتمبر من العام القادم من حيث الزمان والحركة . إذاً الماضي كأعمال لها مضمون ومحتوىٰ يمكن استدعاؤهما في الوقت الآن ، والآن هي لحظة بداية ولحظة نهاية ، ولهـٰذا تقع الآن في الزمان كما يقع الزمان في الحركة ، فلا حركة بدون الآن ، ولا الآن بدون زمان ، فالماضي لا يبدأ إلا به ولا ينتهي بغيره (بغير الآن) ، وهـٰكذا الحاضر هو الآخر بدايته الآن ونهايته الآن ، وكل مستقبل لا يكون إلا به ، فهو أمر البداية وأمر النهاية ، فسبحان ربي إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ولذلك قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ (1) . فالأعمال التي وقعت في الماضي ستكون في المستقبل كما هي أمام مرتكبيها ، ولهـٰذا

---

(1) الكهف ، 49 .

استدعاء الماضي ممكن ، ولـٰكن إعادة الزمان والحركة بالنسبة للمخلوقات غير ممكن .

الآن والمستقبل :

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي علىٰ الآمال ، وهو غير قابل للتذكر ولـٰكنه قابل للتفكر ، والتفكر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة ، بل هو المتطلع إلىٰ ما هو متوقع ، نتيجة استنتاجاته واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتراكم فيه الخبرة ، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن ، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة ، مما يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة ، فلا زمان بلا حركة ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما .

المستقبل لا يحصىٰ ، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ ، مع أنه مسجل كوقت في الزمان والحركة ، ولهـٰذا سيأتي بالقوة الفاعلة من خلال قوة الزمان والحركة الفلكية ، فبما أن اليوم قد حضر والحركة مستمرة إلىٰ النهاية مع الزمان ، فبالضرورة سيأتي غداً لا محالة ، وغداً قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمراراً له ، وهـٰذه بالنسبة لنا غير معلومة مع أنها متوقعة .

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هـٰذه الكلمة في حالة مواصلتي الكتابة ، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه ، وهو الزمن الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع ، والذي من أجله نتنفس ونشرب ، ونأكل ، ونفكر ، ونتعلم ، ونعمل ، ونتصدق ونصلي ، ونحب ونتزوج ، وندخر وفق حاجاتنا ، ونؤمن علىٰ أرواحنا وممتلكاتنا ، ونخاف ، وهو نهاية البداية وثبات الحركة ، وعليه كل حركة من أجل المستقبل .

تتحرك الأرض والكواكب والنجوم بالأمس ، فكان اليوم ، وتستمر في حركتها من أجل أن يأتي غداً ، وهـٰكذا تكون الحركة إلىٰ النهاية ، وعندما تأتي

النهاية يكون الثبات ، وإذا كانت الحركة تتضمن وجود طاقة ، فإن المستقبل يتضمن زمان ومجال توليدها ، وهٰكذا تستمر الحركة والمستقبل ، فلا حركة إلا لمستقبل ، ولا مستقبل بدون حركة ، ومنهما يحدث التغير ، سلباً أو إيجاباً .

يتكون كل من المستقبل والحركة ، من زمان ، وفعل (محتوىٰ ومضمون) ، وعليه لا يمكن أن يتحقق المستقبل بدون زمان وفعل ، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل ، وعندما تصل الحركة إلىٰ لحظة النهاية ، يكون العدم ، وينتهي المستقبل بالنسبة لها مادامت في حالة عدم ، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة ، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل .

لو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل ، ولا أماني ، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا . وبناء علىٰ ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية ، لكي نعرف من نحن ، وما يجب علينا القيام به ؟ ونعرف من أجل ماذا نفكر ؟ ، ومن أجل ماذا نتعلم ؟ ، ومن أجل ماذا نخطط ونُنتِج ؟ ومن أجل ماذا نهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية ؟ ومن أجل ماذا ندرس ، ونحلل ، ونعالج ؟ ولماذا طرحت هٰذه الأسئلة ؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان ، أم يقتصر عليه ؟ إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر ، وإذا كانت بالاقتصار عليه فإننا نتذكر وننتظر ، نتذكر الماضي ، وننتظر حتىٰ يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية ، أي : نعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر لأن الغد لم يأتِ بعد . كل هٰذه وتلك الأمثال تجعلنا نفكر كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (1) ، ويقول تعالىٰ : ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (2) .

---

(1) الحشر ، 21 .
(2) الأعراف ، 176 .

والمستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة ، مما يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن مع أن هـٰذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة ، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي ، وتكون الشجرة في الآن ، وتكون الثمار في المستقبل . وهـٰكذا في التقاء المحبة الآن بين الحيوان المذكر مع البويضة يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلىٰ مرحلة الشيخوخة المتأخرة .

إن ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضراً في الآن المستقبل ، ولهـٰذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلا في الآن ، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل ، ومستقبله سواء كان خيراً أو لا ، هو ما كان له حاضر في الماضي . إذاً الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضراً في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه فيعاقب أو يجاز به ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (1) .

تؤكد هـٰذه الآية علىٰ أن كل عمل ماضٍ هو من أجل المستقبل ، وهـٰكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي فهو لم يكن من أجل الماضي ، بل إنه من أجل المستقبل ، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية ، بل إنها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب ، ولهـٰذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيراً لكي يكون لنا مستقبل خير . وكل الأعمال التي تقع في

(1) آل عمران ، 30 .

الآن ، تمسي في الماضي وتصبح علىٰ خير المستقبل ، وحتىٰ إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيءٌ بالنسبة لسجل الزمان والحركة ، ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (1) . تؤكد هـٰذه الآية علىٰ أن كل شيء وجد يمكن إحصاؤه ، ولـٰكن قصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصىً من قبل الخالق عز وجل ، ولهـٰذا كل عمل قد حدث سيكون حاضراً في المستقبل لتتم المساءلة ويتحقق له الجزاء .

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها ، وبالتالي يمكن التعرف علىٰ الأوقات وحصرها وعدها ولـٰكنه من غير الممكن عد الزمان ، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هـٰذه الأولىٰ في الماضي ، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن ، وتكون 98 حبة واقعة في المستقبل ، ولـٰكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة ، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرىٰ واقعة في المستقبل ، وذلك لأنها هي الأخرىٰ سيتم عدها أو التسبيح بها مرة ثانية ، وفي هـٰذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي 98 حبة ، بل يكون مجموع الحبات المتبقية 99 حبة ، وعلىٰ هـٰذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو 99 حبة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح علىٰ أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع ، ولا يكون العد التناقصي إلىٰ الصفر إلا في الدورة التسبيحية الأخيرة . وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضراً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ

(1) المجادلة ، 6 .

وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [1] . إذاً كل ما قمنا به من أعمال سيكون حاضراً في المستقبل ونكون نحن مسؤولين عنه ، ولهٰذا لن ينتهي الماضي بعد ، لأن نهايته هي في الآن المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية . ويكون قولنا : إن الزمان كالخيط والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزمان فلكياً ، وستكون جميعها في طبيعة الآن المستقبلية ، ولذلك كل الأعمال التي وقعت في الماضي ستكون في المستقبل قبل المساءلة والمراجعة ، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدء المراجعة وكل حاضر منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة . فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك أو أثرت علىٰ الحالة الصحية ، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب والعلل التي تحتويها الحالة مما يجعل هٰذه الحالة بالنسبة للباحث أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل ، وأثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر ، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي .

ومع أن الزمان لم يكن له شكل ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرىٰ المتحركة ، إلا أنه هو الآخر في حالة حركة ، فيقول ٱلله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلًا ﴾ [2] . لو لم يكن هناك ليل ونهار ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنين والدهور

---

(1) آل عمران ، 30 .
(2) الإسراء ، 12 .

ولا كانت هناك حركة ، أي : لم يكن لدينا ما نعد من الزمان ونحن علىٰ سطح الأرض ، أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرىٰ لا تعتمد علىٰ حركة الأرض ، ولذلك لم يقل ٱلله عز وجل لتعلموا عدد الزمان بل قال : ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ ، ولهـٰذا قلنا : الزمان والحركة لا يعدان ، بل الذي يُعد هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقية الكواكب كل في فلكها ، وهـٰذه جميعها قابلة للمشاهدة والملاحظة ، وهـٰكذا حال الليل والنهار والفجر والمغرب كمواقيت تشاهد وتلاحظ وبالتالي فهي تعد . والفارق بين الأجسام والمواقيت هو أن الأجسام قابلة للمس المادي ، أما المواقيت الزمنية كالليل والنهار والفجر فلا يمكن لمسها مادياً ، ولهـٰذا من الممكن الاحتفاظ بشيء ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات ، ولا يمكن الاحتفاظ بشيء ما من المواقيت الزمنية في قوارير المعامل والمختبرات . وعليه لو لم يكن الزمان في حالة حركة ما كان الليل والنهار ، وما كان الفجر والمغرب ، وما عرفنا عدد السنين والحساب ، وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فلكها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه .

والحركة والزمان شيئان لا يمكن مشاهدتهما مع أنهما يلاحظان بسهولة ويسر ، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة ، الكواكب تُلمس وتشاهد وتلاحظ حركتها ، أما الليل والنهار والفجر والمغرب مع أنها تشاهد وتلاحظ إلا أنها لا تلمس ، ومع ذلك كل ما يشاهد يعد حتىٰ ولو لم يلمس كالليل والنهار ، وذلك لأن لكل منهما بداية ونهاية يمكن رصدها وتحديدها وتسجيلها .

الحركة والزمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا ذوقهما ولا شمهما مع أنهما يلاحظان ، ولذلك يمكننا التمييز بين الحركة

والمتحرك ، وبين الحركة والامتداد . فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكل ، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاثة ، ولو لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكل متصل ، وهٰكذا مجال تكوين الشكل الدائري أو الرباعي أو أي شكل من الأشكال المشاهدة ، فالامتداد يكون في تكوين الشكل و في تحديد اتجاه حركة الشكل ، كاتجاه حركة الأرض في دوراتها حول نفسها ، ودوراتها حول الشمس ، فهي لا تمتد إلا في مجالها الفلكي ، ولهٰذا الامتداد هو الذي يَرسِم شكل الدائرة ، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتد المتحرك سواء كان المتحرك قلماً لرسم مستقيم أو منحنٍ أو أي شكل ، أو حركة كوكب ، أو حركة كائن من الكائنات .

الزمان والحركة متناهيان حيث أنهما محصوران بين قوة الأول والآخر الذي خلقهما وجعل لهما امتداداً ، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد ، مما يجعل لهما أجلاً واحداً (نهاية واحدة) ولو لم نؤمن بأن الزمان متناه فكيف نؤمن إذاً باليوم الآخر ؟ فاليوم الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغرب المعروفات في حساباتنا والتي بها تعد أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا ، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر ، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هٰذا الذي نعرفه ، ولأنه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأول . وبما أن للزمان بداية وللحركة بداية إذاً مما لا شك فيه ستكون لهما نهاية .

حركة الزمان تماثل حركة الأجسام الفلكية في قوتها وانتظام سرعتها ولهٰذا تنتظم حركة المواقيت وتتزامن مع حركة الكواكب ، فلا يأتي الليل مرتين في اليوم الواحد ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ويتضاعف زمن الليل ، بل الكل في فلك يسبحون وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة . فاليوم هو اليوم في كل دورة للأرض حول نفسها وعلىٰ الشمس ، وذاك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هٰذا اليوم الذي يماثله

من عامنا هـٰذا ، الاختلاف بينهما في المحتوىٰ الذي تتضمنه الأيام فمحتوىٰ هـٰذا اليوم قد لا يماثل محتوىٰ العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه ، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كل دورة سنوية ، والمحتوىٰ اليومي مختلف بين الحين والآخر ، فاليوم الذي ولد فيه محمد رسول ٱلله ﷺ هو اليوم الذي توفي فيه ، ولذلك قلنا اليوم واحد والمحتوىٰ مختلف .

الزمان دائرة متصلة ، يتواجد فيها الماضي جنباً إلىٰ جنب مع الحاضر والمستقبل ، ولو عدنا إلىٰ الماضي البعيد إلىٰ أن نصل إلىٰ النقطة الآن فلا نجد ماضياً علىٰ الإطلاق ، بل نجد الاثنين معاً الآن والمستقبل ، ولم نجد الماضي ، وذلك لعدم تكونه بعد ، وبعد أن قُضيت الآن أصبحت ماضياً لوحدها ، وكل ماعداها مستقبل ، ولهـٰذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر ، لا بالماضي الذي لم تدخله وتصبح في تعداده إلا الآن الواحدة ، ولا بالحاضر الذي لا يمتلك إلا اللحظة الآنية . وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل ، فالمستقبل الأول هو المتكون من الحياة الدنيا ، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها مما يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة ، والتي يكون فيها كل الماضي كمحتوىٰ هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأول (الحياة الدنيا) ، ولهـٰذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كل ما هو ماضٍ قد فسد ، فالزمان الماضي لم يفسد بل إنه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ثقيلة وخفيفة [1] .

وعليه أتساءل :

هل الزمان والحركة كيفان لا يشاهدان ، أم أنهما كمان يشاهدان ، أم أنهما آخر ؟

---

(1) أرسطوطاليس ، الطبيعة . « ترجمة إسحاق بن حنين » القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، الجزء الأول ، ص 408 .

إذا كان الزمان جسماً ، فبالضرورة يكون كمّاً ، وإذا لم يكن بجسمٍ فهو كيف ، ولذلك الكمُّ يشاهد ويلاحظ إلىٰ جانب تداخل الحواس الأخرىٰ في إثباته ، أما الكيف المجرد فيلاحظ ولا يشاهد ، وهـٰكذا حال الحركة فهي تلاحظ ولا تشاهد علىٰ الإطلاق ، ولذلك فهي كيف ، حالها حال الزمان . وإلا هل هناك من يشاهد الحركة ؟ في اعتقادنا لا يوجد من يشاهدها ، ولـٰكن قد يدعي البعض بأنه يشاهد الحركة ، في هـٰذه الحالة أتساءل : هل هناك من يستطيع رسم صورة للحركة أو صورة للزمان أو حتىٰ تصويرهما فوتوغرافياً ؟ إذا لم يكن هناك من يستطيع إثبات ذلك فلا حجة لأحد علينا ولنا في ذلك حجة .

الحركة والزمان يلاحظان ولا يشاهدان ، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة ، والمتحرك دائماً جسم يشاهد ويلاحظ ، فالقمر كمتحرك تشاهد وتلاحظ وتلمس ولذلك يمكن تصويرها أو رسمها ، أما حركتها فلا تشاهد ولذلك لا ترسم ولا تصور ، وهـٰكذا حركة البشر والكائنات والسيارات والطائرات وغيرها من الأجسام المتحركة هي الأخرىٰ لا تُرسم ولا تصور . وبناء علىٰ ذلك ، لا يُعد الزمان ولا تُعد الحركة ، وإلا هل هناك من يستطيع عد شيء لا يراه (غير قابل للمشاهدة) ؟ فالليل والنهار والفجر والمغرب ، واليوم والشهر والعام هـٰذه مواقيت يمكن عدها ، والمواقيت ليست الزمان . يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [1] . فالليل والنهار آيتان (علامتان) في الزمان تُمكنان البشر من معرفة عدد السنين ومعرفة الحساب الذي ييسر عملية التأريخ للأحداث والمواقف والمواضيع وكل شيء يمكن عده من خلال معرفة تعاقب

(1) الإسراء ، 12 .

الليل والنهار وحركة الكواكب والنجوم فلكياً ، ولذلك ينبغي أن نميز بين المواقيت التي هي علامات دالة علىٰ زمان وحركة ، وبين الزمان المتصل الذي لا يفصله ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل . فالمواقيت تشاهد (الليل ، والنهار ، والفجر ، والمغرب) ، وهي نتاج الحركة الطبيعية للأرض حول نفسها وحول الشمس مع توازن حركة الكواكب الأخرىٰ التي تَسبح في فلكها ، ولذلك يعرف اليوم بالليل والنهار ، ويعرف الشهر بحركة القمر من هلال إلىٰ هلال ، وتعرف السنة من حركة الأرض حول الشمس . ومع أن اليوم ، والشهر ، والسنة ، والدهر مواقيت إلا أن لكل منها زمناً يختلف عن الآخر ، ومثلما تختلف المواقيت في زمانها كذلك تختلف الكواكب والأجسام في حركتها وأحجامها . وعليه لو كان الليل والنهار هما الزمان لكانا هما مقياسي الحركة ، ولو لم يكن هناك حركة وزمان ما كان هناك شيء متحرك ، ولهٰذا كل متحرك هو في حالة زمان ، وكل حركة وزمان هما في حالة اتصال لا انفصال منذ البداية إلىٰ النهاية .

الزمان والحركة تراكميان : أي أنهما في حالة تزايد إلىٰ النهاية ، فالزمان في حالة إضافة ، والحركة كذلك ، ولم يكونا في حالة تناقص ، ولهٰذا قلنا الزمان في حالة زائد لا في حالة ناقص ، ويرمز إلىٰ ذلك بالآتي (ن + لا ـ) .

والحركة هي الأخرىٰ في حالة زائد لا ناقص ويرمز إلىٰ ذلك بالآتي : (ح + لا) .

ولهٰذا الزمان لا ناقص (ن لا ـ) .

والحركة لا ناقص (ح لا ـ) .

والذي ينقص و يزيد هو المتحرك سواء في وزنه أو طوله وعرضه أو مساحته وحجمه وسرعته ، أو عدده وكمه ، ويرمز إلىٰ ذلك بالآتي :

(م + أو ـ) .

* متحرك ـ متحرك = كم من المتحرك .

فإذا كانت كتلة المتحرك الأول 80 كيلو اجرام ، وكتلة المتحرك الثاني 50 كيلو اجرام فيكون الفرق بينهما = 30 كيلو أجرام .

* متحرك + متحرك = كم من المتحرك .

فإذا كان عدد المتحرك الأول 122 متحركاً ، وعدد المتحرك الثاني 323 متحركاً ، فيكون مجموع المتحركات = 455 متحركاً .

والوقت هو الآخر يكون في حالة زيادة ونقصان سواء في طوله أو قصره أو عدده وكمه ، ويرمز إلىٰ ذلك بالآتي :

(و + أو ـ) .

وقت + وقت = كم من الوقت .

30 ليلة + 7 ليالي =37 ليلة .

وقت ـ وقت = كم من الوقت .

7 ليالي ـ 7 ليالي = 0 من الوقت ، والوقت 0 هو وقت البداية أو وقت النهاية أو الاستمرارية .

سرعة الحركة والزمان :

سرعة الحركة = سرعة الزمان (س ح = س ن) .

فعندما تكون س ح = 0 ، تكون من المسلمات س ن = 0 . وعليه لا يمكن أن تكون الحركة أسرع من الزمان ولا الزمان أسرع من الحركة ولهٰذا لا نسبية في الحركة المطلقة بل النسبية في الحركة الجزئية والمتجزئة .

وكذلك سرعة المتحرك = سرعة الوقت .

فلو كان المتحرك هو الأرض ، والوقت هو الليل ، فتكون سرعة الأرض = سرعة الليل ، وإذا كانت سرعة الليل = 12 الساعة عندما يتعادل مع طول النهار ، تكون من المسلمات سرعة الأرض وهي تتحرك حول نفسها = سرعة الليل أي : أنها = 12 الساعة . والليل والنهار هما الزوجان المكونان لليوم ، وأمس وغداً ، وهـٰذه جميعها مواليد التوأم (الحركة والزمان) ، أما إذا تكلمنا بشكل خاص عن القطب الشمالي الذي يختلف فيه توازن الليل مع النهار كما هو في المناطق الغير قطبية فهـٰذا يعود إلىٰ اختلاف مجال الحركة وسرعة المتحرك مما يجعل عدم توازن بين زمن الليل والنهار علىٰ الساكنين في المنطقة القطبية . وعليه فالأمس واليوم والغد لم تكن هي الزمان ، بل هي مواقيت تقع في الزمان ، فبما أن اليوم هو المتكون من الليل والنهار ، فإن لليل زماناً يستغرقه من الزمان العام وهو الممتد من الآن الغروب ، إلىٰ الآن الشروق ، وإلا هل هناك من يعتقد بأن الليل والنهار ليس لهما زمان ؟ وبما أن لهما زماناً ، إذاً فهما ليسا بزمان . وبما أنهما هـٰكذا فما هما ؟ هما ولدا التوأم (الحركة والزمان) ولهـٰذا تكون الأيام هي الأخرىٰ مواليد التوأم وليست من مكوناته أو مسبباته وعلل وجوده .

وعندما تكون سرعة الحركة = 0 فمن المسلمات تكون سرعة المتحرك هي الأخرىٰ = 0 ، وقوته المتحركة = 0 ، وبما أن سرعة المتحرك = 0 إذاً سرعة الزمان بالنسبة لحركة المتحرك = 0 . ولذلك يكون كل شيء بالنسبة للحركة العامة هو في حالة توقف ، وعندما يحدث التوقف العام فلا تكون الحياة . أما بالنسبة للمتحرك الجزئي إذا توقف عن الحركة المتولدة أو المدفوعة بقوة فلا يمكن أن تكون الحركة العامة = 0 . وذلك لأنها سابقة ومستمرة علىٰ المتحرك الجزئي .

فإذا كانت الحركة العامة عند بدء المتحرك الجزئي في الانطلاق من مكانه = 1,000,000 يوم من الزمان ، وسرعة المتحرك الجزئي = سرعة

دوران الأرض حول نفسها ، وإذا توقف المتحرك الجزئي بعد قضائه 48 ساعة من الزمان ، هـٰذا يعني : أن التراكم الزمني عندما يتوقف المتحرك الجزئي = 1,000,002 يوم من الزمان . ولذلك عندما كانت حركة المتحرك الجزئي = 0 كانت الحركة العامة = 1,000,000 يوم من الزمن ، وبعد دوران المتحرك الجزئي 48 ساعة بعدها أصبحت حركته =0 ، وزمان حركته هو الأخر = 0 ، وذلك نتيجة لتوقفه ، ويكون زمانه في هـٰذه الحالة هو زمان وجوده (فترة بدايته ونهايته) وهي الفترة التي تحتوي ما قبل صفر بداية الحركة وصفر نهايتها . فإذا كان زمان وجود المتحرك السابق سابقاً علىٰ زمان حركته المدفوعة بمائة 100 يوم ، وهي فترة ما قبل الزمن الصفري (زمن بداية الحركة) ، واستمر مئة 100 يوم بعد زمن نهاية الحركة (بعد صفر النهاية) ، ثم انتهىٰ من الوجود (أعدم) ، فتكون فترة وجوده = 202 يوم ، وهي مجموع 100 يوم ما قبل صفر البداية + 2 يومين (48 ساعة) فترة الحركة المحصورة بين صفر البداية وصفر النهاية + 100 يوم فترة ما بعد صفر النهاية الحركية .

وعليه لم يكن هناك زمان طويل وزمان قصير ، ولا زمان سريع وآخر بطيء ، بل السريع والبطيء هو المتحرك ، فإذا كان المتحرك سريعاً كانت الحركة في حالة تساوٍ مع الزمان بالنسبة للمتحرك ، وكلما كان المتحرك بطيئاً كذلك يكون حال الحركة والزمان في حالة تساوٍ بالنسبة للمتحرك . ولا يمكن أن يختل توازن الزمان مع الحركة ، ولهـٰذا الزمان والحركة لا يختلفان ، بل الذي يختلف بين الحين والآخر هو السرعة (سرعة المتحرك الجزئي) ، ولهـٰذا الزمان لا يُختصر أو يُطوىٰ ، وكذلك الحركة لا تطوىٰ ولا تُختصر ، فالذي يُطوىٰ ويُختصر هو المسافة بالنسبة للمتحرك الجزئي سواء كان سيارة أو طائرة أو مقذوفاً صاروخياً أو غيرها من المتحركات الجزئية والمتجزئة ، وكل منها يقارن بالآخر من حيث السرعة ولا يقارن به من حيث النوع ، فالنوع

يقارن بنفس النوع ، الغزال مع الغزال والزرافة مع الزرافة والذئب مع الذئب ولا يقارن الذئب مع الكلب ولا الغزال مع الزرافة . ولهٰذا ينبغي مراعاة عناصر المقارنة وهي الخصائص والصفات والنوع والجنس ، فإذا كان الهدف من المقارنة هو معرفة عناصر الالتقاء والتقارب فهٰذا يختلف عن الهدف من معرفة عناصر الافتراق والاختلاف ، فالأولىٰ لكثرة معطيات التوحد ، والثانية لكثرة معطيات التفرق . فالقمر كمتحرك فلكي يقارن بالشمس كمتحرك فلكي ، فكل منهما يشاهد ويلاحظ ويحس به ويُلمس ، وبالإمكان أخذ عينات منهما للمعامل والمختبرات . والليل يقارن بالنهار لأنهما من جنس واحد هو اليوم . إنهما يشاهدان ويلاحظان مع أنهما يختلفان عن القمر والشمس من حيث إنهما لا يلمسان ، ولذلك لا تؤخذ منهما عينة للمعامل والمختبرات . وعليه إذاً للشمس والقمر حركة زمنية علىٰ الأرض وهي حركة الليل والنهار . وللليل والنهار حركة مكانية علىٰ الأرض وهي حركة الشمس والقمر . ولهٰذا ليس كل مشاهد ومحسوس ملموساً كما هو حال الليل والنهار اللذين يشاهدان ولا يلمسان ولا تؤخذ منهما عينة لهٰذا الغرض اللمسي .

دائرة التوأم : (الزمان الحركة) .

المستقيم عبارة عن مجموعة نقاط متصلة بداية ونهاية ، وتعد كل نقطة بداية لِما بعدها ونهاية لِما قبلها ، وهٰكذا يستمر المستقيم في اتجاهه إلىٰ أن تتصل آخر نقاطه بأولها فيكوّن المستقيم دائرة ، ولٰكن لا يمكن أن تقفل هٰذه الدائرة ولا أي دائرة إذا لم تكن هناك حركة . وعندما تُقفل الدائرة بآخر نقطة تكون هٰذه النقطة في منظومة تكوين الدائرة ، وتصبح بعد ذلك بداية لِما بعدها ونهاية لِما قبلها . وعندما يكون وقتها الآن تكون الآن في حالة حركة ، وتصبح كل النقاط السابقة لوقتها هي في الماضي ، وبعد قفل دائرة الزمان بآخر نقطة فلا يكون لغيرها من النقاط مستقبل في تكوين هٰذه الدائرة التي قفلت بها ، ولذلك عندماتقفل دائرة الزمان والحركة فلا يكون في هٰذه الدائرة مستقبل ،

ولهٰذا فمن أراد المستقبل فليعمل عليه قبل قفل دائرة التوأم التي لم يعد فيها مكان للمستقبل بعد النهاية ، وأصبح اليوم الآخر . واليوم الآخر هو يوم الوقت المعلوم ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [1] ، ويوم الوقت المعلوم هو الذي نعلمه ، ونعلم : أننا لا نعلم يوم حدوثه ، ولأن اليوم هو الوقت وليس الزمان فقال ٱلله تعالىٰ : (يوم الوقت المعلوم) ولم يقل اليوم المعلوم . إذاً اليوم هو الوقت ، والليل والنهار والشروق والغروب هي أوقات ، والوقت يرتبط بالمواقيت وهي العلامات الدالة علىٰ الحركة والزمان ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [2] . بمعنىٰ أن الأهلة علامات دالة علىٰ وجود الحركة والزمان . ومن خلال حركة الأهلة وفق المنظومة الفلكية نتعرف علىٰ اليوم وغداً وأمس كمواقيت زمنية تلاحظ ولا تشاهد يحس بها ذهنياً ولا تلمس مادياً ، وبما أنها لا تشاهد فكيف إذاً تعد . تعد لأن مكوناتها تشاهد وتلاحظ ، فمكونات اليوم هي الليل والنهار والشروق والغروب ، وهٰذه جميعها تشاهد وتلاحظ ، ولذلك تعد الأيام بمواقيتها الحركية (الأهلة) ومواقيتها الزمنية (الليل والنهار) . ولذلك تكون (الآن ، وقبل ، وبعد) مؤشرات لمواقيت حركية وزمنية . أما (أسرع ، وأبطأ ، ومتساوي) فهي مؤشرات لمتحرك .

وعليه أتساءل :

هل الزمان يُعد ؟ الزمان لا يُعد ، وذلك لأنه لم يقع تحت سيطرة حواسنا ، فهو لا يُلمس ولا يُشم ولا يُذاق ولا يُشاهد ولا يُسمع ، ولٰكنه يُدرك ويُعقل مُجرداً ، وبما أن الزمان لا يُعد ، فما هو الذي يُعد ونعتقد بأنه الزمان ؟ الذي يُعد ، ويُعد به هو اليوم ، والشهر ، والعام والدهر ، وهٰذه

---

(1) الحجر ، 37 ، 38 .

(2) البقرة ، 189 .

مواقيت لها بداية ونهاية معلومة ترتبط بحركة الفلك المكونة لِليل والنهار والشروق والغروب والأهلة . ولهـٰذا نعرف كم عدد الأيام والشهور والسنين ، وبها تُحسب أعمارنا (كم قضينا من العمر) وتُؤرخ أعمالنا وتُسجل . ولـٰكن هل اليوم الذي به تؤرخ أعمالنا هو اليوم المساوي لأي يوم في حركة الكواكب والنجوم ؟ من المسلمات لا . فاليوم الذي نعيشه علىٰ الأرض لم يكن هو اليوم علىٰ الكوكب عطارد ، فعدد أيام السنة علىٰ الأرض 365 يوم تقريباً ، في حين عدد أيام السنة علىٰ الكوكب عطارد تساوي 88 يوماً تقريباً ، وهـٰذا يعني أن اليوم علىٰ الكوكب عطارد أطول بكثير من اليوم علىٰ الأرض . والسنة علىٰ الكوكب الزُّهَرَة تساوي 224,7 يوماً تقريباً ، وهـٰذا يعني أن اليوم علىٰ الزُّهَرَة أطول من اليوم علىٰ الأرض وأقصر من اليوم علىٰ عطارد . واليوم الذي يعد به ٱلله تعالىٰ يساوي ألف يوم مما نعد علىٰ الأرض وذلك لأنها أيام شدائد ، وأيام الشدائد بالضرورة تكون مستطالة بالنسبة لمن خفت موازينه وهو في الهاوية ، وكذلك قد يكون المعني بأن خيرات ربك التي لا تُحصىٰ سيكون اليوم فيها كألف سنة مما نُعد علىٰ الأرض وذلك جزاء لمن ثقلت موازينه وهي العيشة الراضية ، وطبيعياً قد تختلف الحركة وذلك من حيث مجال امتدادها ، أو من حيث سرعتها ، ولهـٰذا بالضرورة تختلف الأيام في الدنيا عن الأيام في الآخرة ، ولا ينبغي أن ننسىٰ أن الأيام التي يعد بها ٱلله هي أيام الحركة الكلية للكون ، وليس أيام الحركة الجزئية للأرض حول نفسها ، ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (1) .

الزمان والحركة هما توأم الوجود الحي : وهـٰذا الوجود بشكله المطلق مادي ولا مادي ، ولهـٰذا لا يكون المادي لو لم تكن هناك حركة وزمان مصاحبان له ، ولا غير المادي يكون لو لم تكن هناك حركة وزمان مصاحبان له ، وفي هـٰذه الحالة لا يكون أحدهما سابقاً علىٰ الآخر : ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ

(1) الحج ، 47 .

خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] . فلا الحركة سابقة علىٰ الزمان ولا الزمان سابق علىٰ الحركة ، والكل في فلك يسبحون .

ومن خلال دراستنا للزمان والحركة نلاحظ ما يخالف القول بنسبيتهما ، فالزمان مطلق بسبب عدم تحكمنا فيه وسيطرتنا عليه ، وهـٰكذا تكون الحركة هي الأخرىٰ مطلقة . ولتوضيح ذلك أعرض المثال الآتي علىٰ مطلقة الزمان ونسبية السرعة : إذا انطلق متسابقان من النقطة 0 صفر في وقتٍ واحد وليكن 0 الصفر الافتراضي ، ووصل الأول نقطة 0 صفر النهاية بعد أن قطع مسافة 100 متر ، في زمن 10 ثوانٍ ، ووصل المتسابق الثاني نقطة 0 صفر النهاية بعد أن قطع نفس المسافة السابقة في زمنٍ 20 ثانية ، فماذا يعني هـٰذا الاختلاف مع أن زمن البداية واحد والمسافة المستهدف قطعها واحدة ؟

هـٰذا يعني أن في الزمن الواحد قد تختلف السرعة بين المتحركات مما يُؤدي إلىٰ اختلاف المسافة المقطوعة في الزمن الواحد ، فعندما قطع المتسابق الأول المسافة في 10 ث ، قطع الثاني نصف المسافة تقريباً في نفس الزمن الذي وصل فيه المتسابق الأول إلىٰ نقطة النهاية (10 ث) ، وعندما سُلمت راية النصر للمتسابق الأول (الفائز) في الزمن 15 ث بعد الزمن الصفري (زمن البداية) لا زال المتسابق الثاني يجري في المضمار لعدم وصوله نقطة النهاية . وعليه فالزمن لم يتباطأ مع سرعة الثاني ولم يسرع مع سرعة الأول ، فالزمن هو الزمن تراكمي متصل و لم يختلف ، واختلفت السرعة بين المتسابقين ، وذلك باختلاف قوة الامتداد لكل منهما مما جعل متوسط سرعة الأول تساوي 10 متر في الثانية ، ومتوسط سرعة الثاني تساوي 5 متر في الثانية ، ولهـٰذا قلنا الزمان مطلق وثابت ، والسرعة نسبية ومتغيرة .

والفرق أيضاً يكون بين الحركة والامتداد ، فالحركة مطلقة لأنها خارج

---

(1) الذاريات ، 49 .

سيطرتنا وتحكم أدواتنا ، والامتداد نسبي حيث أنه متوافق مع قوة الجسم الممتدة ، فحركة الكون متصلة طبيعياً ومنتظمة ، وحركة الأرض حول نفسها حركة مطلقة ، وهي جزء من الحركة العامة ، وهي المقدَّرة باليوم المتكون من الليل والنهار ، وحركتها حول الشمس هي الأخرىٰ حركة جزئية مطلقة (خارج قدرة تحكمنا) وهي المقدَّرة بالسنة المتكونة من فواصل الأهلة الشهرية . ولهـٰذا يتصل الزمان بالحركة كاتصال التوأم بحبل المشيمة في رحم الأم ، مما يجعل بينهما ثباتاً واتصالاً ، فثبات الزمان بثبات الحركة ، وثبات الحركة بثبات الزمان ، ولهـٰذا كل منهما مطلق . أما الامتداد فنسبي ، فامتداد الأرض حول نفسها نسبيٌّ بالنسبة لامتدادها حول الشمس ، ولذلك يكون زمن امتدادها (دورانها) حول نفسها وامتدادها حول الشمس = 1 ـ 356 يوم تقريباً ، وقد يختلف طول اليوم عن أمس وعن غداً ، وذلك نتيجة اختلاف مجال الامتداد مما يجعله (الامتداد) هو الآخر مختلفاً باختلاف مجاله ، ولهـٰذا لا يختلف طول اليوم نتيجة اختلاف الحركة ، فالحركة ثابتة ومطلقة ، بل الذي يختلف هو مجال الامتداد . وعليه تكون الحركة ثابتة والامتداد متغيراً .

وقد يتساءل البعض : بما أننا لا نشاهد الحركة فما هو الذي نشاهده عندما يكون الجسم في حالة حركة ذاتية أو مدفوعة وهو منطلق من النقطة (أ) إلىٰ النقطة (ب) ؟ الذي نشاهده في هـٰذه الحالة هو أولاً : المتحرك ، وثانياً الامتداد ، فالمتحرك هو الجسم ، والامتداد هو اندفاع الجسم بين صفر البداية وصفر النهاية ، فامتداد الرِجل وفق خُطاها تُشاهد ، وامتداد الفراشة من زهرة إلىٰ زهرة تشاهد ، وامتداد الكرة من الهداف إلىٰ الهدف يشاهد ، وهـٰكذا امتداد المستقيم وكل ممتد بقوة دفع ذاتية أو معتمدة علىٰ قوة . وعليه الامتداد مادي وكل مادي يشاهد .

مجال الامتداد :

لا امتداد ولا حركة إلا في حدود الممكن ، ولذلك يكون الممكن هو

مجال الامتداد ، ومجال الحركة والزمان ، ولأنه ممكن فهو متوقع الحدوث وبعد حدوثه قد يكون مساوياً لما هو متوقع وقد يكون أكثر أو أقل ، وعليه فالممكن ضروري الحدوث ، ولـٰكن نِسبة حدوثه احتمالية مما جعلنا نفترض لها ثلاثة احتمالات ، وهي :

الاحتمال الأول : يكون الممكن مساوياً للمتوقع .

الاحتمال الثاني : يكون الممكن أقل من المتوقع .

الاحتمال الثالث : يكون الممكن أكثر من المتوقع .

وعليه لا يكون الامتداد إلا في مجال الممكن ، ولا ممكن إلا في دائرة الزمان ، فما نشاهده أو نلاحظه ونحس به أو نتذوقه أو نشمه أو نسمعه فهو الواقع في حدود الممكن ، ولذلك يحدث الاختلاف في درجات تمييزنا لما يقع في مجال الممكن بالنسبة لمداركنا وقدراتنا وأحاسيسنا ، فمنَّا من يميز بين الأشياء أكثر من بعضنا وهـٰذا يعني إن البعض منَّا قُدرة تمييزه أقل ، والبعض الآخر يساوينا .

وعندما نتحدث عن الممكن فلا ينبغي الإغفال عن غير الممكن حيث لا وجود لغير الممكن بالنسبة لله تعالىٰ ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] . أما بالنسبة للبشر فهناك الممكن ، وهناك غير الممكن ، الممكن في نضج القدرة ، وغير الممكن في قصورها ، ولهـٰذا قد يتوقع المفكر ما هو ممكن ، ولـٰكنه لا يستطيع تحقيقه نتيجة قصور إرادته وقدرته .

يقع الممكن في الزمان الحاضر والزمان المستقبل ، ولا يقع في الزمان الماضي ، وذلك لأن الممكن هو افتراض قابل للتحقق وليس افتراضاً محققاً ، فالمحقق هو الكائن أو الكائنة ، أما الممكن فهو الذي لم يكن بعد ولـٰكنه

---

(1) البقرة ، 117 .

سيتحقق في الآن أو في المستقبل ، ولهـٰذا يكون الفرق واضحاً بين المحقق ككائنة ، وبين الممكن الذي سيتحقق . وعليه يمكننا الآن الحوار مع السؤال الذي طُرِحَ منذ زمن بعيد في الفكر الفلسفي والسؤال هو : ما هو الأسبق في الوجود : الممكن أم الواقعي ؟ وأجاب أرسطو علىٰ ذلك بأن الواقعي أسبق في الوجود من الممكن معللاً ذلك بقوله : « إن الممكن يحتاج كي يوجد إلىٰ واقعي يسبقه »[1] . من هـٰذه الناحية نعم لولا وجود مصدر للأمر ما كان للأمر وجود أول ، ولـٰكن من ناحية أخرىٰ فالأمر السابق غير مطلق مما يجعلنا نقول : لا يمكن أن تتواجد الأشياء ما لم تكن ممكنة . فٱلله سابق الوجود علىٰ الممكن ، وكل ما تحقق من بعده وما سيتحقق هو الممكن بالنسبة له ، والبشر كمحقق من هـٰذا الممكن عندما يسعون لتحقيق ما هو ممكن من ناحية عقلية ، يكون الممكن في هـٰذه الحالة سابقاً علىٰ المحقق ذهنياً أو إدراكياً . وهـٰكذا يكون حال الممكن الإلـٰهي الذي لم يحقق بعد للمشاهدة والإدراك العقلي ، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2] . بمعنىٰ : عندما يصدر ٱلله أمراً وهو الممكن لا بد وأن يتحقق في الوقت المحدد له ، وفي هـٰذه الحالة يكون الممكن سابقاً علىٰ المحقق . وعليه يكون الممكن قرار معطياته مثبتة للتحقق ، والتحقق فعل تنفيذ الممكن وهو الكائن أو الكائنة ، والبشر لا يحققون إلا الممكن ، أما ٱلله يحقق الممكن والمستحيل ، فسبحان ٱلله العظيم .

الامتداد الفكري :

هو محتوىً لفظي عام في مضمونه حركة ، ولهـٰذا لا يمكن أن يكون هناك امتداد بدون حركة سواء كان هـٰذا الامتداد جسمياً أو فكرياً ، والامتداد قد

---

(1) عبد الرحمـٰن بدوي ، موسوعة الفلسفة . بيروت ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولىٰ ، المؤسسة العربية للدراسة والنشر ، 1984م ، ص 448 .

(2) البقرة ، 117 .

يكون طبيعياً كما هو عند حالات النمو وقد يكون بالإرادة كما هو في حالات الاختيار ، وقد يكون بالقوة عندما يكون في مقابله انكماش بالمغالبة ، ويعتبر الامتداد مساحياً سواء كان فكرياً أو مادياً ، وقد يكون ميسراً ، وقد يكون بالقوة ، وقد لا يكون .

الامتداد في الفراغ ميسراً مثله مثل الامتداد المجالي المسموح به لأنه لم يشكل أي عائق ولا يمتد خارج حدوده ، وامتداد المغالبة بالقوة يؤدي إلىٰ الاستزادة والفقدان بين الأطراف الممتدة ، والامتداد المتساوي في الصلابة قد لا يكون . والامتداد خارج الحيز يكون علىٰ حساب حيز آخر ، وعندما تتلامس الأفكار أو الأجسام الممتدة يحدث الاحتكاك بينها وقد ينجم عنه استيعاب أو صدام يكون له تراض أو مغالبة . وهٰكذا تمتد الأرقام المستقلة إلىٰ النهاية بيُسر وهي متصلة ، وتستقل بالآحاد وتتصل بالجموع . امتداد الواحد إلي ما بعده من أعداد يساوي جموعاً ، ولهٰذا لا جموع إلا بالامتداد ، امتداد الواحد خارج حدوده يشغل حيزاً من المترتب عليه والذي لا يمكن أن يكون إلا به (بالواحد) ، ولذلك لا وجود لأي كميات إلا بامتداد الآحاد . فلو رسمنا مستقيماً طوله 5 سم ، فإن ذلك يعني امتداد خمسة وحدات متصلة بالجموع تكّون هٰذا المستقيم كما في الشكل رقم (1) .

أ ـــ ب

الشكل رقم (1) .

وبما أن الوحدات الخمس منفصلة فكيف تكّون مستقيماً متصلاً ؟ تكونه بالامتداد ، امتداد الواحد إلىٰ خارج قيمه (مجال حدوده) بالإيجاب تجعله يتماس مع مجال القيم للعدد اثنين بالسلب ، وهٰكذا تتصل بقية الأرقام الخمسة مسطرتا مما يجعلها ترسم الخط المستقيم الذي أشرنا إليه . ولو لم تكن للأعداد نهايات بالسلب والإيجاب ما كانت هناك صلة بينها ، ولهٰذا لا يمكن أن تتصل الأعداد بعضها ببعض لو كانت تمتد إلىٰ مالا نهاية . وعليه

تُجمع الأعداد المستقلة ، وتُطرح الأعداد المتصلة ، والأعداد المتساوية في الكم قد لا تتساوىٰ في المقادير ، لقد عرفنا أن جمع 2 + 2 = 4 . ولـٰكن هل الاثنين الأولىٰ تساوي الاثنين الثانية في المقدار ؟ ولتوضيح ذلك لو افترضنا أن الاثنين الأولىٰ غزالان والاثنين الثانية أيضاً غزالان ، ولـٰكن الاثنين الأولىٰ عمرهما سنة واحدة ، والاثنين الثانية عمرهما أربع سنوات ، فهل هم في حالة تساوٍ قيميٍّ أو عمريٍّ ؟ وحتىٰ من الذهب قد لا تتساوىٰ ، فهل 50 جرام من الذهب تساوي 50 جرام من الذهب ؟ مع أن من حيث الكم نعم إنهما متساويتان إلا أن من حيث القيمة ليس بالضرورة أن تكونا متساويتين ، لأن الخمسين جرام الأولىٰ عيارها 18 والثانية عيارها 22 . إذاً الأعداد المتساوية في الكم ليس بالضرورة أن تتساوىٰ في العمر أو النوع أو اللون أو المقدار . وهـٰكذا لو تحصل أحد الطلبة في مادة الفيزياء علىٰ نسبة عالية ولتكن 90 ٪ هل هـٰذا يعني أن كل من تحصل علىٰ هـٰذه النسبة هو ممتاز في مادة الفيزياء ؟ ليس بالضرورة أن يكون ممتازاً في المادة مع أنه ممتاز في هـٰذا الاختبار ، ولو أعيد له الاختبار باختلاف الأسئلة قد لا يتحصل علىٰ هـٰذه النسبة العالية ، وتكون النتيجة السابقة في شك لفقدانها مصادق الثبات . وعليه ينبغي أن يهتم التحليل العلمي والتفسير العلمي بعناصر الاختلاف والاتفاق بين النتائج المتساوية في الحاصل الحسابي ، وألاّ يقتصر علىٰ المجامع الإحصائية فقط ، لأن اتصال الأعداد وتساوي حاصلاتها لا يعني تساويها .

وعند دراسة المواضيع تتصل الأفكار وتترابط في نسجٍ منهجي يُنظم وحدة الموضوع ، ويظهره في شكله اللائق ليحل محله بين البحوث الناجحة التي سبقته ، وتتصل الأفكار والمواضيع من أجل اكتمالها ، وتحلل علمياً عندما يتمكن الباحث من معرفة نقاط الاتصال والترابط التي تنقله من الكل ، إلىٰ الجزء ، ثم إلىٰ المتجزئ ، أو منه ، إلىٰ الجزء ، ثم إلىٰ الكل عند محاولته التعرف علىٰ العلل والأسباب الكامنة والظاهرة . ولا يمكن أن يكتمل

الموضوع بدون امتداد أفكاره ، ولا يمكن أن يحلل بدون معرفة نقاط اتصاله . والباحث كمتقصٍ للحقائق لا يسترسل في دراسته ، أو تشخيصه ، أو علاجه للحالات ما لم تكن أفكاره متصلة ، وإلمامه بالموضوع متكاملاً . وهـٰكذا تتكون الظواهر والمشاكل المستقلة من علل وأسباب متصلة ، ومن الصعب أن تحلل ، أو تفسر المواضيع قيد البحث ما لم يراع الباحثون ذلك الامتداد الذي يربطها فيما بينها . فعدم التعبير عن الكبت علىٰ سبيل المثال قد يؤدي إلىٰ الانفجار السلوكي المتوقع وغير المتوقع ولا غرابة في ذلك ، لأن الانفجار السلوكي مرتبط بكبته المفروض ، ويحدث الانفجار برغبة الإنسان إلىٰ التنفيس الوجداني الذي يحقق له الرضاء ، حتىٰ وإن ترتب عليه ثمن عقابي ، وكذلك كبت الغرائز ، قد يؤدي إلىٰ عدم الانضباط النفسي ، وعدم الانضباط النفسي ، قد يؤدي إلىٰ انحراف السلوك ، إذاً هناك امتداد بين الكبت ، وعدم الانضباط ، فكبت الغرائز ، قد يؤدي إلىٰ التمرد ، والثورة علىٰ أدوات الكبت ، بغرض التخلص من سيطرتها ، ويحدث الصراع نتيجة تواجه امتدادين بالقوة تجعل أحدهما يمتد علىٰ حساب الآخر إذا انهزم أو ضعف ، وعندما تتعادل الكفتان قد تكون بينهما مواجهة بتماس حدود اتصال القوة المتكافئة مما يجعل لامتدادهما نهاية .

لا امتداد إلا بحركة وكل كائن أو جماد هو في حالة حركة كلية ، أو جزئية ، أو متجزئة ، فالأرض علىٰ سبيل المثال ككل تتكون من أجزاء تتجزأ إلىٰ يابسة ، وماء ، ونار ، وكلها تتجزأ ، ولكل منها بداية ونهاية ، وكلها في حركة مستمرة ، وإذا تساءل أحد : بما أن الكل في حالة حركة ، فهل للثبات وجود ؟ نعم لكل حركة مستمرة ثبات في الاستمرار ، ولكل مستمر نهاية يثبت عندها . وإذا تساءل آخر : لمن يكون الثبات ؟ بالتأكيد للحركة . إذاً لا ثبات إلا لحركة ، وإذا شاهدنا أي شيء ثابت كما يعتقد المشاهد علىٰ سبيل المثال للأرض والجبال ، فإن ذلك الثبات يعبر علىٰ وجود الحركة ، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ

﴿تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [1] . ولذلك لا يوجد الثابت المطلق ، بل الذي يوجد السكون ، والسكون دليل علىٰ وجود حركة كامنة تظهر للمشاهدة عندما تتوفر اشتراطاتها .

الحركة والسكون متلازمان ، ويستوعب كل منهما الآخر ، ويحمله في أحشائه ، وهٰكذا لكل متحرك حركة ، ولكل ساكن سكون ، ويترتب كل منهما علىٰ الآخر . يبدأ السكون حيث تنتهي الحركة أو تتوقف ، وتبدأ الحركة حيث يبدأ السكون أو يتوقف ، فلا حركة إلا لسكون ولا سكون إلا لحركة ، ويكمن كل منهما في الآخر كما تكمن البراكين في باطن الأرض ، وكما تكمن الحقيقة في صدر حاملها ، وكما تكمن الفراخ في البيض (كمون المتحرك في الساكن) ، فالبركان لا يمكن أن ينفجر إلا بقوة الحركة الكامنة فيه ، ولا يهدأ البركان ولا يتوقف إلا بقوة السكون فيه ، وهٰكذا تكون الحقيقة كامنة في الصدور الواعية بحركتها ، إلىٰ أن يتم الإدلاء بها ، وبقوة وجوبها ، ولهٰذا يعتبر الكندي الحركة هي حالة من التبدل والتغير ، ولكل حركة بداية ، ونهاية [2] . ويتم الاتفاق معه في هٰذا القول العلمي ، بأن للحركة بداية ، ونهاية ، وأنها في حالة تبدل كما تتبدل الأرقام في جموعها وطرحها ، وبقية حساباتها الرياضية ، ولهٰذا لم يكن السكون عدماً للحركة ، ولم تكن الحركة عدماً للسكون ، بل كل منهما معرض للعدم ، باعتبارهما وجوداً . وكما يكمن السكون في الحركة ، وتكمن الحركة في السكون ، كذلك تكمن الحركة في الحركة ، ككمون حركة الدم في حركة القلب . ويكمن المتحرك في المتحرك ، ككمون الجنين في بطن أمه ، وكمون حركة الركاب في السيارة أو الطائرة ، أو البالون أو السفينة ، وعليه قد تكون الحركة ذاتية ، وقد لا تكون

---

(1) النمل ، 88 .

(2) حسام محي الدين الآلوسي ، فلسفة الكندي وآراء القدامىٰ والمحدثين فيه . بيروت ، دار الطليعة ، 1985م ، ص 195 ـ 205 .

(قد تكون مدفوعة ، أو محمولة) ، وكلها تحدث بفعل قوة .

والحركة الذاتية تنقسم إلىٰ جزأين :

الجزء الأول :

حركة واعية بإرادة الاطمئنان ، وتحقق أهداف شخصية ، أو ذاتية ، أو موضوعية ، دون أن تؤثر سلباً علىٰ الآخرين ، مثل إشباع الإنسان لحاجاته وهو راضٍ ، ولا يمس حاجات الآخرين حتىٰ ولو كان بإمكانه تناولها ، وهٰذه الحركة تحقق الانسجام والتراضي ، وتؤدي إلىٰ الوحدة .

الجزء الثاني :

حركة واعية بإرادة الخوف ، وتحقق أهدافاً شخصية ، أو ذاتية ، أو موضوعية ، وتؤثر سلباً علىٰ الآخرين ، مثل إشباع الإنسان لحاجاته علىٰ حساب حاجات الآخرين ، وهٰذه الحركة تؤدي إلىٰ الصراع والشقاق ، وتؤدي إلىٰ الفرقة ، وكل ذلك يحدث من أجل المستقبل ، مما يجعل للحركة مستقبلاً ، وللمستقبل حركة . وتعبر الحركة عن وجود طاقة ظاهرة أو كامنة تجعل الجسم أو الشكل في حالة حركة ثابتة ، أو متغيرة ، من وقت إلىٰ آخر [1] .

حالتا الحركة :

أولاً : الحركة الممتدة :

وهي التي تحدث عندما تمتدد القوة في مجالها الذي تتمكن من وصوله كلما سنحت لها الفرصة في ذلك ، وقد تكون الحركة فكرية ، وقد تكون مادية .

---

(1) هادي العلوي ، نظرية الحركة الجوهرية عند الشيرازي . بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولىٰ ، 1983م ، ص 62ـ 75 .

1 ـ الحركة الفكرية :

هي التي تحدث عندما تمتدد الأفكار من عقول وصدور حامليها ، إلىٰ عقول وصدور أخرىٰ ، فتشغل حيزاً عندهم نتيجة امتدادها إليهم وهٰكذا تمتد الأخبار ، والإشاعات ، وتنتشر بين الناس حسب قوة تأثيرها سلباً أو إيجاباً وحسب قوة الفكرة أو الحجة التي تتضمنها ، والأفكار الموجبة عندما تمتد خارج المجال أو البعد الذي يمكنها التأثير فيه قد تحقق نتائج سالبة ، فالمناداة بالوحدة العالمية إنسانياً موجبة ، ولٰكن عندما تتجاوز أهمية البعد القومي في البناء والتنظيم الاجتماعي تكون علىٰ حسابه ، وتكون نتيجة الجهد المبذول في التنشئة الاجتماعية تساوي صفراً في حالتين :

الحالة الأولىٰ : مهما بذل من جهد تجاه المجتمع من أجل تحقيق البعد العالمي علىٰ حساب البعد القومي لا يتحقق مما يجعل الصفر هو نتيجة الجهد المبذول .

والحالة الثانية : تركيز الجهد التربوي علىٰ تنمية أو تطوير الاتجاهات العالمية لدىٰ الناشئين تُضعف وعيهم بأهمية البعد القومي ، وتكون النتيجة مستقبل المجتمع يساوي صفراً ، ويصبح سيره (مشيه) كالغراب الذي كان يعتقد بإمكانه أن يقلد الحمامة في مشيتها فنسي مشيته ومشيت الحمامة .

وقد يوجه المجتمع كذلك فكرياً أو سياسياً تجاه تحقيق البعد القومي علىٰ حساب البعد المحلي ، فتكون النتيجة هي الأخرىٰ صفرية في حالتين :

الأولىٰ : عدم تحقيق الوحدة القومية نتيجة انسلاخ المجتمع عن مكوناته الأساسية للأمة وهي الأسرة والعشيرة والقبيلة .

والثانية : عدم تحقيق الوحدة المحلية علىٰ المستوىٰ الاجتماعي نتيجة إهمالها في التربية الاجتماعية .

وكذلك العمل علىٰ ترسيخ التكوين الاجتماعي المحلي علىٰ حساب البعد القومي تكون النتيجة صفرية في حالتين :

الأولىٰ : تشتت المستوىٰ المحلي لفقدانه مجال التمدد الطبيعي (التربية القومية) .

والثانية : فقدان الأمة أو فقدان الإحساس بها يجعل حياة الأفراد في خطر لفقدانهم المظلة الاجتماعية . « فالأمة تكوين اجتماعي علاقته (القومية) والقبيلة تكوين اجتماعي علاقته (القبيلة) والأسرة تكوين اجتماعي علاقته (الأسرة) وأمم العالم تكوين اجتماعي علاقته (الإنسانية) . هـٰذه بديهيات . ثم هناك تكون سياسي يكّون الدولة هو الذي يشكل خريطة العالم السياسية ، ولـٰكن لماذا تتغير خريطة العالم من عصر إلىٰ آخر ؟ السبب هو أن التكوين السياسي هـٰذا قد يكون منطبقاً علىٰ التكوين الاجتماعي وقد لا يكون كذلك . فعند انطباقه علىٰ الأمة الواحدة يدوم ولا يتغير ، وإذا تغير نتيجة استعمار خارجي أو تدنٍ يعود للظهور مرة أخرىٰ تحت شعار الكفاح القومي أو النهوض القومي ، والوحدة القومية »[1] .

2 ـ الحركة المادية :

هي التي تمتد بقوتها الملموسة أو المحسوسة والقابلة للمشاهدة ، والملاحظة ويكون لها أثر إيجابي ، أو أثر سلبيٌّ باختلاف المتأثرين بها ، مثل امتداد السيل الجارف في الوادي الذي يقتلع بقوة امتداده كل مهتز منتهياً عندما يقع في طريقه ، وهـٰذه قد تكون سالبة أو موجبة ، حسب الموضوع ، والمقيّمين له ، وباختلاف الزمان والمكان ، ومع أنه قد يحدث سلبيات أو أضرار ، إلا أنه قد يحقق العمار ، بارتوائه للأرض وإحيائه للأشجار أو للنباتات التي كادت أن تموت أو تختفي[2] ، وقد تكون الحركة نتيجة انفجار

---

(1) معمر القذافي ، الكتاب الأخضر . طرابلس ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ، مجلد ، الطبعة الحادية عشرة ، 1986م ، ص 138 ـ 139 .

(2) هادىٰ العلوي ، نظرية الحركة الجوهرية عند الشيرازي . بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولىٰ ، 1983م ، ص 62 ـ 75 .

بركاني يحدث بعد تمدد القوة الكامنة في بطن الأرض عندما تضعف أمامه مقاومتها ، فتفْتح له الطريق للخروج إلىٰ النهاية ، وحسب مجال قوته ودائرة تأثيره ، وهـٰكذا يتمدد الجنين في بطن أمه ، وتتمدد النبتة من نواتها إلىٰ النهاية ، أو تنكمش إلىٰ النهاية . وإذا سألك أحد : هل الحركة تشاهد أم تلاحظ ؟ فبماذا تجيب ؟ . في اعتقادنا أن الحركة لا تشاهد ، ولـٰكنها تلاحظ . ولكي أجيب أتساءل : بما أن الحركة لا تشاهد ، إذاً ما هو الذي يُشاهده ؟ ويُعتبر حركة ؟ إنه المتحرك . إذاً الحركة تختلف عن المتحرك ، لأن المتحرك قابل للمشاهدة والملاحظة معاً ، أما الحركة تلاحظ فقط ، لأنها غير ملموسة ، لافتقادها للمادة التي تتوحد فيها . إذاً الحركة هي الكامنة في المتحرك ، وهي التي تحدث كلما حدث لها تمدد بالقوة ، يجعلها في حالة ظهور بدلاً من حالة الكمون ، وهي العلاقة التي تحدث بين المُتحرك والمُحرِك ، فإذا اعتبرنا علىٰ سبيل المثال كرة القدم هي المتحركة ، فمن يكون المحُرِّك لها ؟ هل هو اللاعب ، أم قدم اللاعب ؟ بالتأكيد لو لم يكن اللاعب محركاً للقدم ما كان القدم محركاً للكرة ، إذاً هناك محرك مباشر وهو القدم ، ومحرك غير مباشر وهو العقل والجسم كوحدة واحدة ، وتتداخل العلاقة بين المتحرك والمحُرِّك ، باتصالٍ وانفصالٍ ، تتصل في الفكرة والدرجة ، وتنفصل في الأداء والخصوصية . تتصل حركة اللاعب وتتداخل من الفكرة التي تمتد من العقل إلىٰ البدن ، والجسد ، فتحركه وفق خطة واحدة متناسقة ، بخصوصيات كل عضو من البدن ، مما يجعل لليدين وللرأس والقدم حركات مختلفة ، كل حسب وظيفتها ، ودورها في أداء المهمة المناطة بها . وحسب هـٰذه الأدوار يشاهد المتفرج حركة اللاعب متسقة ، ولـٰكنه يشاهد بالتحديد حركة القدم في علاقة مباشرة ومنفصلة مع الكرة أثناء دفعها إلىٰ الأمام ، أو الخلف ، أو أحد الجانبين ، فتمتد الكرة بقوة دفع المتحرك (القدم) إلىٰ نقطة انتهاء القوة أو المسافة المقطوعة ، ولهـٰذا قوة الحركة هي التي تحدد مسافة الامتداد ، وليس المتحرك هو الذي يحددها ، مع أنه لولا المتحرك ما عرفنا الحركة ولا كانت تشغل حيزاً .

ثانياً : الحركة المنكمشة :

هي الحركة التي تَطوي حركة الامتداد ، أو هي العودة إلىٰ الأصل ، كعودة الشجرة إلىٰ النواة التي كانت تكمن فيها ، لأن كل شجرة منتهية باعتبارها شيء (وكل شيء منتهٍ) ، ولـٰكن هل ستنتهي الأشجار بعد موت كل ما نبت منها ؟ ، بالتأكيد لا . في عالم الوجود الحي ستنتهي كل الأشجار الموجودة علىٰ قيد الحياة ، وحسب أعمارها الممكنة لبقائها ، وستنمو أشجار أخرىٰ منكمشة في نواها . ولهـٰذا لا امتداد إلا من انكماش ، فالانكماش هو أساس كمون القوة الممتدة . قوة النهار لا يمكن أن تمتد إلا إذا انكمش الليل ، وقوة الليل هي الأخرىٰ لا تمتد إلا إذا انكمش النهار ، وقوة انبساط اليد لا يمكن أن تتم إلا إذا انتهت قوة انكماشها ، ونتيجة الانكماش ، والامتداد تسبح الكواكب في فلكها ، وهـٰكذا امتد الكون لحظة الانفجار العظيم ، وهي نقطة البداية ، وسيعود الكون إلىٰ الانكماش عند نقطة النهاية ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [1] . أي : يوم أن تنكمش السماء ، يكون ٱلله قد أعادها إلىٰ حالتها التي كانت عليها . وكما أن الامتداد لا يقتصر علىٰ المادة المشاهدة ، أو الملاحظة ، كذلك الانكماش لا يقتصر علىٰ ذلك ، لأن كل ممتد لابد وأن ينكمش سواء كان مادياً ، أو فكرياً ، فالأفكار في أساسها منكمشة في العقول والصدور ، ثم تمتد من خلال الاتصال ، بالتبشير والترشيد ، والتحريض ، والتنظير ، وبالجدل تترسخ ، أو تصحح ، وتكون في حالة شك إلىٰ أن تُثبت ، أو تُنفىٰ . وقد تمتد أفكار وتنتشر بقوة حجتها ، ثم تعود إلىٰ الانكماش عندما تضعف حجتها . وكل من الانكماش والامتداد يتضمن قوة ، ففي مرجحة القدم أثناء ضرب الكرة تنكمش بقوة في حركة إلىٰ الخلف ، لتمتد بقوة إلىٰ الأمام لضرب الكرة ودفعها إلىٰ الهدف ، وإذا انكمشت القدم بقوة إلىٰ أعلىٰ وإلىٰ الأمام يتم دفع الكرة بقوة إلىٰ

---

(1) الأنبياء ، 104 .

الخلف ، وهـٰكذا في حالة الجانبين ، لأن القوة هي التي تظهر في حالتي الامتداد والانكماش ، وهي التي لا تقاس إلا بعد الظهور من الكمون إلىٰ الحركة .

في الفرحة والبهجة قوة تمتد إلىٰ أن تملأ الصدور بها ، وتنكمش الأحزان أمامها ، وإذا انكمشت الفرحة والبهجة امتدت الأحزان والاضطرابات ، ففي حالة العلاج ينبغي أن يهتم الباحث بامتداد حركة الإيجابيات ، وطي حركة السلبيات .

وبما أننا نتكلم عن الامتداد والاتصال الاجتماعي علمياً ، فما هو الامتداد الاجتماعي ؟ هل هو المتكوّن من المفرد والمثنىٰ والجمع والمكان والزمان ؟ أم هو أكثر من ذلك ؟ فلو كان المتكوّن من امتداد الأفراد المتزايدين عن المثنىٰ كان المجتمع في هـٰذه الحالة كمّاً ، وإذا كانت الجموع من كل شيء تكوّن كمّاً ، فهل المجتمع هو الآخر مجرد كمٍّ ؟ وهل الكمّ المجتمعي يُبين صورةً للمجتمع ، أم يبين صوراً للبشر المتجمعين ؟ في اعتقادنا لا تكتمل صورة المجتمع الذهنية إلا إذا تم اللقاء بين عناصره ، وأن يكون بينهم تفاعل ، وأن يكون لهم امتداد (امتداد ثقافي وحضاري) . إذاً المجتمع هو التقاء وتفاعل امتداد مجموع الأفراد والجماعات المتفاهمين علىٰ أهمية المكان والزمان لكل واحد منهم (إنه مجتمع الأمة الواحدة) ، أما المجتمعات الأخرىٰ عبارة عن حشود مؤقتة تلتقي علىٰ مصلحة وتتفرق علىٰ مصلحة . إذاً امتداد الأفراد بأعداد هائلة بدون تفاعل الأهداف الخاصة والعامة عبارة عن حشود (كمية) لا تعطي معنىً للمجتمع ، فالمجتمع كمٌّ وكيفٌ ، كمٌّ من البشر ، وكيفٌ من القيم . ولهـٰذا المجتمع كمفهوم يُصور ذهنياً ولا يرسم ، لأنه لم يكن مثلثاً ولا مربعاً ولا أي شكل من الأشكال الهندسية . وهـٰكذا التطور كالمجتمع لا يُرسم مع أن دلالته تُرسم بيانياً بالمنحنيات والمضلعات والأشكال الهندسية الأخرىٰ . ويتضح التطور بمقارنة أثر المتغيرات علىٰ الموضوع عبر الزمن سواء كان الموضوع قابلاً للمشاهدة أو الملاحظة .

المكـان :

هو حيز تشغله الأجسام ويمكن ملاحظته وقد يكون من الصعب مشاهدته ، والمكان سابق علىٰ الجسم أو الشكل ، كأسبقية القالب علىٰ المُقولب فيه ، وبالمشاهدة قد يصعب علىٰ المشاهد الفصل بين المكان والجسم الذي يملأه ، ولـٰكن باستخدام وسيلة الملاحظة يمكن التمييز بينهما . إذاً المكان هو الإطار العام الذي يحتوي الأشكال والأجسام ، فلولا وجود مكاناً للأرض ما كانت . ولـٰكن ما هو مكان الأرض ؟ هو الإطار الخارج عنها والذي يشكل محيطها الحسابي ، ولذلك فالمحيط لا يمكن أن يكون جزأ من المحاط ، محيط الأرض لا يمكن أن يكون جزأ منها ، ولا هي تكون جزأ منه . وفي اعتقادنا لا يمكن أن يكون للمحيط شكل ثابت أو قالب محدد ، بل دائماً المحيط متباين ، ولم يقتصر علىٰ الأشكال المستطيلة والمربعة والمثلثة أو الدائرية ، بل يتعداها إلىٰ كل شكل وكل جسم ، فللطائر محيطه وللإنسان محيطه الذي يحدد معالمه ، وهـٰكذا لكل شكل محيط خاص به . ولهـٰذا أتساءل : هل هـٰذا الإطار أو المحيط يمكن مشاهدته ؟ في اعتقادنا من الصعب مشاهدته ، ولـٰكن بالإمكان ملاحظته ، فالمشاهدة لا يمكن أن تتم إلا للأشياء المحددة والمحصورة كالأجسام والأشكال الهندسية ، أما الملاحظة فتتعدىٰ ذلك إلىٰ ملاحظة الظواهر ، فالمكان ظاهرة ، والزمان ظاهرة ، والطلاق ظاهرة ، والزواج ظاهرة ، والحركة ظاهرة ، وهـٰذه الظواهر وغيرها لا يمكن أن تشاهد بالعينين ولا بوسائل تقنية حديثة ، ولـٰكن جميعها تلاحظ ، وإلا هل هناك من يستطيع مشاهدة الحركة أو الزواج أو الزمان ؟ إنه من غير الممكن .

الحركة لا تشاهد ، ولـٰكن الذي يشاهد هو المتحرك ، فرفع القدم إلىٰ الخلف ودفعه إلىٰ الأمام لضرب كرة القدم تشاهد ، ولـٰكنها لم تكن هي الحركة ، بل الذي يشاهد هو المتحرك (القدم) ، ومن خلال مشاهدة القدم تلاحظ الحركة ، حركة القدم وحركة الكرة . إذاً الحركة هي ربط العلاقة بين

المتحركات من الذهن إلىٰ الهدف وهـٰذه كلها لا تشاهد ، ولـٰكنها تلاحظ ، ولذلك يكون الفرق واضحاً بين المتحرك والحركة ، والفرق بينهما هو أن المتحرك لابد وأن تكون له صورة أو شكل ، ولهـٰذا يشاهد ، أما الحركة فلا يمكن أن يكون لها صورة أو شكل ، ولهـٰذا لا تشاهد . فالحركة قوة تندفع أو تُدفع ، والقوة لا تشاهد ولـٰكنها تلاحظ (تُدرك) ، وهـٰكذا الزواج لا يشاهد والزمان لا يشاهد ، ولـٰكن كل منهما يُدرك كالأبوة والعمومة والمحبة ، وإلا هل هناك من يشاهد الزواج ؟ بالتأكيد لا ، الذي يشاهد هو الرجل والمرأة ، والبشر المشاركون ، والوسائل المستخدمة ، والوثيقة التي وقع عليها من قبل الطرفين والشهود ، وهـٰذه لم تكن الزواج ، فالزواج هو الذي يلاحظ من خلال اكتشاف العلاقة بين عناصره الكامنة والظاهرة والتي تجعل من الزوجين لباساً لبعضهما البعض نتيجة وجود ألفة ووجود قوة وحركة تجاذب .

كل الأشكال الهندسية لا يمكن أن تكوّن أشكالاً إلا ولها أماكن فالمكان هو القالب الذي تتشكل فيه الأجسام والأشكال الهندسية ، فالأرض كشكل هندسي تتكون في مكان ومن مادة ، المكان بالنسبة لها هو الإطار الخارجي أو المحيط الخارجي الذي تُحملُ فيه ، والأرض هي المادة الداخلية المحاطة بدائرة مكانية ، ولهـٰذا من الصعب علىٰ البسطاء في المعرفة والبحث العلمي أن يدركوا الفارق أو يفصلوا بين الأرض كمادة وبين محيطها الخارجي ، أما الملاحظ العلمي يمكنه إدراك الفارق بينهما ويمكنه الفصل بينهما ، حيث أنه يعرف أن المادة التي تتكون منها الأرض لم تكن المادة التي يتكون منها محيطها الخارجي . وعليه لا يتم الاتفاق مع رأي الفيلسوف ديكارت في قوله « الأجسام لا تختلف عن المكان الذي يحتويها » [1] . فالمكان كما سبق وأن

---

(1) الموسوعة الفلسفية العربية . معهد الإنماء العربي ، المجلد الأول ، الطبعة الأولىٰ ،=

بينا شيءٌ ، والجسم الذي يملأه شيء آخر ، فالأجسام عندما تشغل حيزاً تتحد مع المكان من حيث التماس المحيطي ، فعلىٰ سبيل المثال : كمية الماء في الخزان الذي طوله 6 ستة أمتار ، وعرضه 4 أربعة أمتار ، وارتفاعه 2 مترين ، يكون حجمها يساوي 6 x 4 x 2 = 48 متراً مكعباً ، وهو حجم الشكل الرباعي سابق الذكر ، وعندما يتم تفريغ الماء من الخزان الرباعي يكون حجم المكان هو المحيط بالماء وهو الجدران السداسية المكونة للشكل الرباعي ، ولهـٰذا يكون الماء هو الجسم ، والمحيط ذو الستة أوجه هو المكان الذي ينفصل عنه الجسم المائي عندما يفرغ منه ، فيكون حيزاً خالياً من الجسم المشاهد والملموس ، فهو حيز مكاني يمكن ملؤه بأي جسم آخر يمكنه أن يحتويه بالشكل السابق . وللمكان الخارجي المشاهد مكان يحتويه هو الأخر فمكان الخزان المائي السابق هو أعلىٰ سطح المسكن ، قاعدته السطح ومكانه في الهواء وهو الحيز الذي يشغله منه ، والذي لا يمكن مشاهدة المكان إلا به (بالخزان كجسم) ، والذي يمكن ملاحظته بدونه . فعندما يزال الخزان من مكانه ، فهل يمكن لأحد أن يشاهد المكان الذي كان فيه الخزان ؟

إذاً المكان يمكن ملؤه بجسم ، سواء كان جسماً صلباً أو غير صلب وأي جسم إذا لم ينتظم مع الحركة أو يتزن معها لابد وأن يصيبه الخلل ، ولهـٰذا كان للهندسة ضرورة في البناء والتصميم ، لأنها هي التي تجعل للمكين مكانة ، ولذلك ينبغي أن تكون مكانة أي جسم متزنة علىٰ الأرض ، أو في مجال حركتها الذاتية أو المدفوعة إليها ، كاتزان مكانة الود في الصدور ، فالمكانة حيز ، والحيز قد يكون مكيناً وقد لا يكون ، يكون مكيناً كحيز الجنين في بطن أمه الذي يجعل للجنين مكانة عاطفية عند أمه وهي تحمله وهناً علىٰ وهن : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ

= 1986م ، ص 780 .

مَّكِينٍ ﴾ [1] ، وعندما يكون المكان غير مكين ، يكون غير مأسوف عليه إذا ما غُيِّرَ ، أو أزيل من الوجود .

المكان المجرد :

المكان المجرد هو الحيز السابق علىٰ كل شكل مشاهد ، والذي يمكن مشاهدته بعد انشغاله بجسم ، والفرق بين المكان والمكانة ، هو أن المكان يمكن أن يكون مشاهداً ، ويمكن أن يكون مجرداً ، أما المكانة فهي دائماً مجردة تلاحظ ولا تشاهد ، كمكانة الحبيب في فؤاد حبيبه ، ومكانة الأبوة والأمومة بين البشر ، والعلاقة بينهما (بين المكان والمكانة) هي أن المكانة مع أنها مجردة إلا أنها تشغل حيزاً مما يجعلها تنتقل من المجرد إلىٰ المشاهد ، فعندما تكون للمؤمن مكانة بين الناس فقد تدفعهم هـٰذه المكانة إلىٰ الدفع به إلىٰ مكان بينهم ، فمكانة محمد عليه الصلاة والسلام هي التي جعلت له مكاناً بين المسلمين ، وهـٰكذا مكانة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي من بعده ، رضي ٱلله عنهم ، فمكانتهم هي التي حرَّضت مجتمعهم بأن يجعل لهم أماكن الصدارة وتحمل المسؤولية من بينهم . ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [2] .
بمعنىٰ : اعملوا علىٰ أن تكون لكم مكانة واعتبار لكي تأخذوا حيزاً لتتواجدوا فيه ، ولـٰكن أية مكانة هـٰذه ؟ هل هي مكانة عليا أم مكانة دنيا ؟ ولأن هـٰذه الآية تشير إلىٰ الكافرين والظالمين فهي تشير إلىٰ المكانة الدنيا ، أما المؤمنون فمكانتهم عليا ، ولذلك ينبغي أن يعملوا عليها لكي يكون لهم اعتبار . إذاً المكان سواء كان مجرداً أو غير مجرد يختلف عن المكانة . المكانة اعتبار ورضا نتيجة تقدير نفسي ، والمكان المجرد هو الذي لا يشاهد ولـٰكن يحس به

---

(1) المؤمنون ، 12 ـ 13 .
(2) الأنعام ، 135 .

ويلاحظ ، كمكان الخليفة والقائد والرئيس والملك في تحمل المسؤولية ، ولهـٰذا الخلافة والقيادة والرئاسة والملكية لا تُرسم ولا تشاهد ولـٰكنها تلاحظ ولها قوانين ونظم . إذاً المكانة هي المنزلة التي تشغل حيزاً ، فمكان المنزل من الحديقة قد يعطيه مكانة رائعة لدىٰ المشاهدين والملاحظين ، بمعنىٰ يشغل حيزاً من مجال تفكيرهم ، ويجعل الانشراح في صدورهم ، ويخرج الكلمات من أفواههم ، ولذلك قد لا يكون الفرق بين المكانة والمكان حيت أن جمع مكانة مكانات وعندما يتمكن الشيء من مكانه فهو مكين .

الفراغ المكاني :

الفراغ وجود قوة جذب ، ومثير يحفز المتحرك علىٰ الحركة والإقدام وهو مكان الاستقرار للأجسام المشاهدة والملاحظة ، فلو لم يكن الفراغ سابقاً علىٰ الأجسام ، ما كانت . فالأرض افتراضاً ، لو أخرجت من مكانها الذي تشغله ألا يكون مكانها مصدر جذب لأجسام أخرىٰ تشغله ؟ أو لو كان مكان الأرض مشغولاً بجسم آخر ، فهل يمكن أن تكون الأرض ؟ فلو دخلت إلىٰ الفصل الدراسي ووجدت جميع المقاعد مشغولة بالجلوس فهل يمكنك الجلوس علىٰ مقعد أم تكون واقفاً إلىٰ حين خروج أحد الطلبة من الفصل ؟ وبعد خروج أحد الطلبة من الفصل ألا تحس بأن المقعد بالنسبة لك مصدر جذب للجلوس عندما يتوفر لك الفضاء المكاني أو الفراغ المناسب ؟

المكان هو حيز للامتداد والحركة المتناهية ، وهو المجال المتكون من تفاعل الحركة مع السكون كتفاعل البلورات في الماء وتفاعل الأكسجين في الهواء ، ولهـٰذا طبيعياً يكون المكان سابقاً علىٰ المكين فيه ، أو المتمكن منه . ولو لم يكن المكان قابلاً للانشغال أمام القوة المتحركة تجاهه ، ما كانت الحركة . وتحدث الإزاحة للأجسام عندما تختلف القوة الضاغطة في اتجاهين مختلفين ، حيث يحدث الامتداد في اتجاه الحركة الأضعف .

ونتيجة تداخل الأجسام مع الفراغات أو التصاقها في نسيج تداخل

المشاهد مع الملاحظ يكون المجال الحركي أكبر للأجسام الأكثر صلابة والأكثر قوة . وإلا هل يُعتقد أن تكون الحركة لو لم تكن الفراغات في نسيج والتصاق مع الأجسام ؟ فهل يمكن أن نمشي علىٰ أقدامنا لو خليت الدنيا من الفراغات غير المشاهدة ؟ وهل يمكن أن تطير الطائرة لو كانت السماء عبارة عن أجسام متصلة ؟ وهل يمكن أن تكون للمدفع فوهة لو لم يكن للفراغ وجود ؟

وإلىٰ جانب ذلك لا يمكن أن تكون الحركة الذاتية لو لم تكن هناك قوة حتىٰ وإن توفر الفراغ المنسوج ، فما معنى العاجز عن الحركة ؟ معناه فاقد القوة الدافعة للحركة والامتداد . ولماذا البشر يمشون ويقفزون ويجرون ؟ لأنهم ذوو قوة حركية في مجالات نسيج الأجسام مع الفراغات التي تسمح لهم بالحركة ، وهي مثل المجالات التي تسمح للمقذوف من إصابة الهدف والطائرة من الطيران في الهواء . ولهـٰذا تشاهد الطائرة متحركة في الجو ولا يشاهد ممرها أو طريقها الذي قد تتجمع فيه قطرات الماء مؤقتاً وتتلاشىٰ ، فالطريق الذي نُسج بالأجسام الدقيقة والفراغات المتداخلة هو أضعف من أن يكون عائقاً (مانعاً) في طريقها ، ولهـٰذا كلما زادت كثافة الأجسام وقلت الفراغات كلما قلت الحركة ، وكلما زادت الفراغات زادت الحركة .

وتتساوىٰ الأجسام في الحركة عندما يكون الفراغ التام وتنعدم الجاذبية ، فالسرعة والحركة والحجم تتأثر بالجاذبية ، والتي عندما تنعدم تتساوىٰ الأجسام في حركتها ، ولهـٰذا زيادة الوزن هي عبارة عن زيادة قوة اجتذاب وبالتالي عندما تنعدم الجاذبية أو أن يكون الجسم في فراغ تام فإن حركة الأجسام تتساوىٰ .

وقد يتساءل البعض : هل للفراغ مكان ، أم أن الفراغ مكان في حد ذاته ؟ فإذا كان مكوناً طبيعياً فلابد وأن يكون له مكان ، وإذا كان مكوناً ميتافيزيقياً فهو المجرد من المكان ، وبالتالي مجرداً من المشاهدة . ولـٰكن بما إننا نتكلم عن فراغ فهـٰذا يعني : أننا نتكلم عن موجود ، وبما أنه موجود بيننا ، إذاً بالضرورة

يشغل حيزاً ، وبما أنه فراغ ، إذاً هو المحصور بين أجسام قوية التماسك ، ولهـٰذا من المسلمات أن يكون له محيط وله مساحة يشغلها . ومع أنه يشغل مساحة وهو فراغ ، إذاً من المسلم به أيضاً أن يكون معرضاً لأن يملأ بغيره من الأجسام كلما توفرت لها شروط ملئه . وعليه يكون الفراغ مكاناً له مكان ، وهو في حالة حركة . والفراغ مكان ضعيف أمام قوة الامتداد .

يقع الفراغ بين المشاهد والمجرد والمحسوس ، فيكون في حالة مشاهدة عندما يكون خالياً من جسمٍ يشاهد ، و محصوراً بين محيط يشاهد ، كفراغ خزان المياه من الماء . ويكون محسوساً عندما لا يحصره مشاهد كالفراغ في الهواء الذي يسمح بالحركة لكل متحرك قادر علىٰ الحركة . ويكون مجرداً عندما يكون خالياً من معطيات الحياة فيه وعندها تتساوىٰ فيه سرعة الأجسام بغض النظر عن قوتها ، وهـٰكذا عندما يكون مفهوماً مجرداً ليس إلا .

الفرق بين الفراغ والخلاء :

الفراغ التام هو المتخلص من الأجسام ، ومن السوائل والغازات ، وهو غير صالح للحياة الطبيعية لمعظم الكائنات . أما الخلاء هو مكان قد يكون صالحاً للحياة الطبيعية عندما يكون علىٰ كوكب صالح للحياة ، وقد لا يكون عندما يكون علىٰ كوكب غير صالح للحياة الطبيعية . والفراغ لا يشاهد ، أما الخلاء فقد يشاهد أو يحس به . في الفراغ التام تتساوىٰ سرعة الأجسام ، أما في الخلاء فلا تتساوىٰ . وتختلف الحركة هي الأخرىٰ في الفراغ عنها في الخلاء ، الحركة في الخلاء طبيعية ، أما الحركة في الفراغ غير طبيعية ، تطير الفراشة بين الحين والآخر في الخلاء ، ولا يمكنها أن تطير في الفراغ التام ، وذلك لعدم توفر اشتراطات الطيران بالنسبة لها ، وهي عدم توفر هواء للحياة ولتبسط الفراشة عليه جناحيها لتتحرك ، إلىٰ جانب ذلك عدم وجود مكان للحياة في الفراغ التام . ولهـٰذا الفراغ غير التام ميسر للحركة ، أما الفراغ التام فمعسر لها . وبناء علىٰ ذلك تكون الحركة في الأرض (في داخلها كجسم)

أصعب من الحركة في الماء ، وذلك لقلة الفراغات بين مكوناتها عن الفراغات التي تتخلل الماء ، فشدة تماسك مكوِّنات الأرض أكثر من شدة تماسك مكونات الماء ، وهٰكذا تكون الحركة في الماء أصعب من الحركة في الهواء ، وذلك نتيجة وجود فراغات أكبر في الهواء من الفراغات الموجودة في الماء [1] . وعليه تزداد سرعة المتحرك كلما زادت قوته ، وكلما كبرت مساحات الفراغات المتحرك فيها .

المكان بين المشاهد والملاحظ :

هناك مكان يلاحظ أولاً ويشاهد ثانياً ، وهناك مكان يشاهد أولاً ويلاحظ ثانياً ، فالمكان الملاحظ أولاً والمشاهد ثانياً ، هو الذي لا يعتمد علىٰ غيره من المخلوقات في الوجود والحركة ، كمكان الطائر في الهواء ، ومكان الشجرة وخزانات المياه المرتفعة عن الأرض .

والمكان الذي يشاهد أولاً ويلاحظ ثانياً ، هو الذي يشغل حيزاً قبل ملئه بجسم ، كالبالونة والقوارير والخزانات ، ولهٰذا ، فلِشجرة النخيل كغيرها من الأشجار مكان فوق الأرض وهي المسافة الخارجة عنها (عن الأرض) والذي لا يشاهد بدونها ، حيث أنها إذا سقطت ، سقطت المشاهدة عن المكان الذي كان يحتويها ، وهٰذا المكان هو المكان الملاحظ أولاً . أمَّا المكان المشاهد أولاً فهو الخزان الذي صُنع في مكان ملاحظ . ولذلك تشاهد الأرض ولا يشاهد مكانها ، وتشاهد النخلة ولا يشاهد مكانها المشار إليه (مكانها من الجذر إلىٰ الجذع إلىٰ الأغصان والأوراق والثمار) فلو كان مكان النخلة سطح الأرض فقط ، ما كان للنخلة ظل عليها (علىٰ الأرض) ، ولهٰذا مكان النخلة

---

(1) أرسطوطاليس ، الطبيعة . « ترجمة إسحاق بن حنين » ، تحقيق عبد الرحمٰن بدوي ، القاهرة ، الجزء الأول ، الدار العربية للطباعة والنشر ، 1964م ، ص 372 .

يختلف عن مكان النبع ، فمكان النخلة من سطح الأرض حيث الجذر إلىٰ أعلىٰ من سطحها ، في حين مكان النبع من قاع الأرض إلىٰ سطحها . والأماكن التي تشاهد أولاً ، هي كالمعدة لتجميع الطعام ، والجهاز التنفسي لاستخلاص الأكسجين من الهواء الجوي ، أو المسكن للساكنين والفصل للدارسين وغير ذلك كثير .

لكل مكان أبعاد وأحجام يمكن قياسها عند الثبات ويمكن مشاهدتها وملاحظتها أثناء الحركة ، سواء بالعين المجردة أو بوسائل الاختراع العلمي ، مثل حركة المسير والقفز عند البشر وحركة الفراشة وحركة السيارة وحركة الطائرة وحركة المقذوف الصاروخي ، وكل حركة متناهية وإن اختلفت المسافات المقطوعة والسرعة . فمكان الأرض متناه بحجم الأرض وحركتها متناهية بنهاية فلكها ، وسرعتها تقاس بالزمن الذي تقطع فيه المسافة الفلكية ، وما اختلاف سرعة الكواكب في قطع المسافات المختلفة وهي تدور في فلكها إلا دليلاً علىٰ اختلاف المقياس اليومي علىٰ كل كوكب من الكواكب والنجوم واختلاف المسافة الفلكية بين الكواكب والنجوم . فإذا كان اليوم هو نتيجة دوران الأرض حول نفسها ، فإن العام هو نتيجة دوران الأرض حول الشمس مما جعل العام بالنسبة للأرض هو 365 يوم تقريباً ، والعام بالنسبة لكوكب الزهراء 224,7 يوم ، والعام بالنسبة لعطارد 88 يوم تقريباً وهـٰكذا بقية الكواكب في حالة اختلاف نتيجة اختلاف السرعة والمجال الحركي لكل كوكب ، وصدق ٱلله العظيم في قوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (1) .

ومع أن الكواكب يمكن مشاهدتها وهي في حالة حركة إلا أنه من غير الممكن مشاهدة أماكنها وأماكن حركتها التي يمكن ملاحظتها . وبما أن لكل

(1) الحج ، 47 .

كوكب بداية ونهاية ولكل جسم بداية ونهاية ، فإنه من الممكن إذاً قياس ومعرفة مساحة كل جسم أو حجمه ومحيطه أو أبعاده .

وأتساءل : هل الطائر وهو في حالة طيرانه يشغل حيزاً مكانياً ؟ نعم . لو لم يكن هناك مكان للطيران ما طار طائر وارتفع . ولو لم يكن هناك نسيج من الفراغ والخلاء والامتلاء ما تيسرت الحركة ، وما شغل الطائر أثناء طيرانه حيزاً مكانياً وهو في حالة حركة وامتداد . والطائر لا يشغل إلا حيز جسمه فقط ، ولهـٰذا أثناء الحركة والطيران يشغل بما يساوي حجمه آلاف الأماكن كلما امتد من مكان لآخر . وهـٰكذا الريشة المتطائرة في الهواء تشغل حيزاً مكانياً .

المكان قد يكون مشاهداً وملاحظاً ، وقد يكون ملاحظاً فقط عندما يكون مجرداً ، فالأماكن المشاهدة وضِّحت كثيراً ، أما الأماكن المجردة فقد تحتاج لتوضيح ، فإذا تساءل أحد : هل خيالاتنا تشغل حيزاً أم أنها لا تشغل حيزاً ؟ في اعتقادنا بكل وضوح تكون الإجابة بنعم ، إنها تشغل حيزاً من تفكيرنا ومن السعة الاستيعابية لمداركنا عندما تنطلق من المشاهد إلىٰ المجرد ، أو عندما تنتقل من المجرد إلىٰ المشاهد . فعندما ننظرُ إلىٰ القمر كمشاهد ، فقد نتساءل : عما هو المبدع الذي خلقها ؟ وعندما نعرف الإجابة بوضوح يتأكد لنا أن الذي خلقها ٱلله الذي لا يشاهد . وعندما نفكر في قانون الجاذبية كمجرد ، نعرف لماذا سقطت التفاحة كمشاهد من الشجرة إلىٰ الأرض ، مما يجعلنا ننتقل من المجرد إلىٰ المشاهد .

وكما سبق وأن قلنا : ليس كل مكان يشاهد ، كذلك يمكن القول ليس كل شيء يشاهد ، فالعين كمكان للنظر تشاهد والنظر كشيء لا يشاهد ، وهـٰكذا الأذن كمكان للسمع الذي لا يشاهد واللسان بالنسبة للذوق ، والجلد بالنسبة للمس ، والأنف بالنسبة للشم . ولهـٰذا أماكن الإدراك تشاهد ، والأشياء ذات العلاقة تلاحظ .

وهناك أماكن لا تشاهد وأجسام لا تشاهد مع أنها ذات علاقة واحدة

لوظيفة واحدة ، كالعقل بالنسبة للإدراك والتمييز ، الذي هو مكان لا يشاهد ، والإدراك الـذي هـو الآخـر لا يشـاهـد ، ولـٰكـن يتـم التعـرف عـلى كـل منهما بالملاحظة .

مكان الموضوع :

لا تتم الحركة الفكرية إلا بتوفر مكان مناسب لها ، وفراغ يسمح للمعلومات أن تتمكن منه لتحل محلها بين معلومات أخرىٰ سواء كانت سابقة أو ستكون لاحقة ، وإذا لم يتوفر الفراغ كمكان للمعلومة الجديدة لا يمكن لها أن تُفهم أو تُستوعب من قبل الذي تُقال له ، وبالتالي لا يتم استقبالها من المُرسل ، وتمتد المعلومة من عقل إلىٰ عقلٍ كلما هيأ لها المستقبل المكان المناسب لاستقرارها ، وتبقىٰ خارجه إلىٰ أن يتهيأ لاستقبالها ، ولا يتهيأ لها إلا إذا كان غير مشغول بغيرها ، ولهـٰذا يملُّ الطلبة من تلقي المعلومات كلما انشغلوا بغيرها سواء وهم في حالة تذكر أو هم في حالة تفكر ، ومتىٰ تخلصوا من الانشغال كان الفراغ وتمكنوا من الفهم .

و بما أننا حاولنا الإجابة علىٰ المكان وتحديده بشكل عام ، فإنه من المفيد أن نحدد الموضوع وذلك من خلال تحديد مكانه وعناصره المتأثرة به سلباً أو إيجاباً ، والمتغيرات التي أثرت علىٰ ظهوره أو كمونه ، والأسباب التي كانت وراءه ، والعلل التي كونت الأسباب . وبما أن الموضوع جزء من المعرفة وللمعرفة أماكن منها ما يشاهد علىٰ الأرض كالزخرفة والآثار والنقوش والصحف والمخطوطات ومنها ما يلاحظ بالعقل وبما تدركه الحواس الخمس . وكما أن المكان في حالة حركة كذلك المعلومات في حالة حركة ، فهي تتحرك بين البشر وتُحرك من قِبلهم من عقل لآخر ، ومن مجتمع لآخر وهي في حالة تبادل وتغير وتطور . فعند دراسة أي ظاهرة أو موضوع علمياً لابد من تحديد مكانه وزمانه الذي تميز به ، وتحديد المجتمع الذي تأثر به أو عانىٰ من جرائه المتاعب والمشاكل ، وذلك بدراسة من كانوا علىٰ علاقة

مباشرة أو شبه مباشرة بظهوره . ولا يُفضل التمثيل العيني في دراسة الظواهر والمواضيع التي تهم المجتمع بأسره ، لأن العينات لا يمكن أن تمثل المجتمع لا أحسن تمثيل ولا أسوا تمثيل ، ولـٰكنها تمثل نفسها فقط ، ولا تفيد إلا لإعطاء مؤشرات Indicators عن المجتمع وظواهره ومشاكله .

وكذلك تحديد مكان الدراسة أو البحث يستوجب من الباحث أن يحدد أولاً : موضوع البحث . وثانياً : تحديد مجتمع البحث أو الدراسة ، فإذا كان موضوع البحث هو الانحراف ، ونوعه السرقة بالإكراه وفقاً للحالات الموثقة بسجلات الشرطة والنيابة ، وإذا قَصرَ الباحث مجتمع بحثه علىٰ الحالات التي أصدرت ضدها أحكام ، فبعد أن يطلع الباحث علىٰ السجلات قد يلتجئ إلىٰ تصنيفها وفقاً لمكان الميلاد أو الجنسية أو الدين ، وإذا استبعد أو استثنىٰ الأجانب من الدراسة ، ثم صنف المحليين إلي أماكن ميلادهم ، ثم حدد مدينة بعينها ، فيكون تحديد المدينة كمكان للبحث والدراسة مترتباً علىٰ تحديد الموضوع وتحديد مجتمع الدراسة . ولهـٰذا العلاقة ثابتة بين مجتمع الدراسة والمكان المدروس . وبناء علىٰ ذلك نلاحظ أن المكان يستوعب الأجسام كما يستوعب المواضيع .

والمكان دائماً سابق علىٰ المتمكن فيه أو الممكن منه سواء كان جسماً أو موضوعاً ، فالأرض سابقة علىٰ من سكن فيها ، ومكانها سابق عليها ، فهي مثل السفينة تزيح وزنها من الماء لتحل محله ، فالبحار والمحيطات أولاً ، ومكان السفينة ثانياً ، والسفينة ثالثاً . هـٰكذا كانت الأرض ثالثاً ، ومكانها ثانياً ، والوجود أولاً . فبعد أن كان الوجود ، كانت الأرض التي أزاحت وزنها منه كما أزاحت السفينة وزنها من البحار والمحيطات وحلت محلها في حركة ذاتية تتفق تماماً مع قانون الطفو ، فهـٰكذا كانت الأرض ، وهـٰكذا تكون المواضيع .

ومع أن الأماكن تشغلها الأجسام كما يشغلها الفراغ إلا أن الأجسام دائماً تشغلها المواضيع ، وذلك لأن المواضيع دائماً مجردة ليست لها شكل

ولا صورة ، فعلم الفضاء مجرد ، والحرية مجردة ، والديمقراطية كذلك ، وكل موضوع هو مجرد في أساسه ، وما التطبيقات إلا وسائل لنقل الموضوع من المجرد إلي المشاهد والملاحظ أو المحسوس ، وبما أن الوسائل المستخدمة في ذلك هي بشر أو من صنع البشر ، والبشر لهم مكان فينبغي أن يحدد البشر المستهدفين بالبحث والدراسة بحدود مكانهم الذي جمعهم .

وتتداخل الأماكن مع بعضها البعض وهي في حالة حركة كما تتداخل أجهزة الإنسان في بدنه ، فلكل إنسان مكانه سواء أثناء الحركة الذاتية أو الحركة المدفوعة أو أثناء السكون ، وعندما يركب الناس السفينة يصبح الناس بأماكنهم في مكان وهي السفينة التي هي الأخرىٰ في مكانها ، ولهـٰذا إذا كان الرحم هو مكان الجنين فتكون البطن هي مكان الرحم ، ويكون البدن مكانها جميعاً . وهـٰكذا تتداخل المواضيع مع بعضها البعض في المكان الواحد من خلال تداخل العلاقات بين عناصره سواء كانوا مؤثرين أو متأثرين .

اللهُمَّ يا الواسع النعم يا مزيل النقم نسألك أن تُطهِّر قلوبنا ، وأن تغفر ذنبنا ، أن توسِّع ديارنا بالخير ، والرزق الحلال ، وأن تجعل غنانا في قلوبنا ! اللهُمَّ بواسع رحمتك اجعلنا نعظِّم شكرك ، ونكثر ذكرك ، ونتبع أمرك ، ونجتنب ما نهيت عنه ، ونتقيك !

اللهُمَّ يا الواسع وسّع صدورنا بذكر أسمائك الحسنىٰ ، وبالإيمان بك واحداً أحداً لا شريك لك ! اللهُمَّ يا الواسع وسع عقولنا بالتفكر ، والتذكر فيما أنزلت ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ! اللهُمَّ يا الواسع وسع علينا برزقك الحلال ، وارزقنا طاعتك ، وطاعة رسولك ، والعمل بكتابك !

اللهُمَّ يا الواسع بخلقك الروح ، والنفس ، والبدن قد وسعت علينا كثيراً ، فلا تجعلنا في ضائقة ، وخلقت لنا الرزق فلا تجعلنا فقراء إلا إليك ، ووسعت برحمتك كلَّ شيءٍ فارحمنا !

الحَكِيمُ جل جلاله

الحمد لله العليم الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً ، واستقر بكل شيء حكمة ، إنه الحكيم الذي شاء كما شاء له الملك وهو علىٰ كل شيء قدير ، أحكم بحكمته نظام الكون ونظام الوجود ونظام الحياة والممات ونظام البعث ، الحمد له بحكمته جعل علم الساعة بيده ونحن له طائعون ، الحمد والشكر له خلقنا في أحسن تقويم ، وجعلنا المستخلفين في الأرض والوارثين في الجنة سبحانه جل جلاله .

الحكيم : « الذي يضع الأشياء في مواضعها ، فيضع الفضل في أهل الطاعة ، ويضع العذاب في أهل الكفر والمعاصي ، هـٰذا فضله سبحانه وعدله » [1] .

الحكيم : في أَسماء ٱلله تعالىٰ الحَكِيمُ وهو بمعنىٰ الحاكِم وهو القاضي وهو الذي يُحْكِمُ الأَشياءَ ويتقنها [2] .

الحكيم : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ وصفة من صفاته ، وهو الذي تستمد الحكمة منه التي باستمدادها يصبح الإنسان خليفة ، ولذلك فالخليفة الحكيم هو الخليفة المتدبر لأمره وأمر من له علاقة به ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ

(1) كتب العقيدة ، ج 16 ، ص 31 .
(2) لسان العرب ، ج 12 ، ص 140 .

مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ (2) . إنه من الحكمة أن يتدبر الإنسان أمره بحكمة ، يفكر في وجوده ويتذكر ما مضىٰ من حياته ويتساءل :

هل في الوجود ظلم ؟ إذا كانت الإجابة بنعم . ألا ينبغي عليه أن يتساءل :

لِمَ لا يقضىٰ علىٰ الظلم ؟ وعليه أن يتذكر أن ما يقع من ظلم علىٰ العباد شر ومفسدة ومهلكة تؤلم الناس وتجعلهم في حاجة لمن يسندهم لإزالة الألم عنهم . ومن حقه أن يتساءل :

لِمَ لا يتوحّد المظلومون ؛ ليزيحوا الظلم عنهم ؟ .

وعليه أن لا يغفل عن التفكير في الظلم وما يتركه من مآسٍ وأن يفكر بروية في تساؤله :

ألا نتعرض يوماً إلىٰ هـٰذا الظلم ؟ وإذا تدبر هـٰذا الأمر قد يطرح سؤالاً :

ألا يكون من الأفضل أن نشارك من وقع عليهم الظلم في مقاومته قبل أن يصبح حالنا وأولادنا من بعدنا كحالهم . وإذا بلغ النتيجة الموجبة ألا يكون قد

---

(1) النساء ، 82 ، 83 .

(2) محمد ، 24ـ29 .

وصل إلىٰ التي بعدها وهي أنه من الوجوب الحق إحقاق الحق .

وعليه من الحكمة أن نعرف أن ٱلله واحد ، وأن الحق واحد ، وأن الظلم واحد فلا نغفل ، وعلينا أن نتبيَّن ونسأل حتىٰ بلوغ المعرفة التي بها يحق الحق ويزهق الباطل . وفي هـٰذا الشأن يقول الشاعر :

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل علـــىٰ أنـــه واحـــد [(1)]

وبناء علىٰ ذلك كن حكيماً فيما تقول وتذكر ما قلت حتىٰ لا تضيع منك فرصة الاستغفار ، وذكر فإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [(2)] .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [(3)] .

بناء علىٰ ما جاء في الآيات المتقدمة من سورتي الذاريات والغاشية فإن الحكمة مؤسسة علىٰ تدبر ، والتدبر مؤسس علىٰ التذكر والتفكر ، ولذا فإن أمر الحكمة يستوجب فطنة ، والفطنة تتطلب إيماناً لا مشاركة فيه ، واتباع طاعة لا إكراه فيها .

الحكيم : هو من يعلم بحال الشيء ويملك حق التصرف وفقاً لميزان العدل دون مظلمة أو ميل لأحد علىٰ حساب آخر ، ولذا فالحكيم يتصرف وفقاً

---

(1) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 7 .
(2) الذاريات ، 55ـ60 .
(3) الغاشية ، 21ـ26 .

للزمان والمكان والظرف دون مخافة أحد في سبيل قول الحق أو فعل الحق .

الحكيم هو من يجازي المستغفرين بالتوبة والتائبين بالجنة ، وهو الذي يمهل ولا يهمل كبيرة ولا صغيرة حتىٰ ولو كانت أقل من حبة خردل ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (1) .

والحكيم العليم هو الخبير بحالنا وأحوال غيرنا ، له الحمد لقد ميزنا بحسن الخلق والتقويم وفضلنا علىٰ العالمين في استخلاف الأرض ، وجعل لكل واحد منا خصوصية تميزه عن بقية بني جنسه ، وعلىٰ هـٰذه القاعدة جعل لكل نوع خصوصية وجعل داخل كل خصوصية خصوصية . ولذا فإننا نلحظ أن أجسام العالم متساوية في ماهية الجسمية ، ومختلفة في الصفات ، وهي الألوان والأمكنة والأحوال ، ويستحيل أن يكون اختصاص كل جسم بصفته المعينة لأجل الجسمية أو لوازم الجسمية ، وإلا لزم حصول الاستواء ، فوجب أن يكون ذلك لتخصيص مخصص وتدبير مدبر ، وذلك المخصص إن كان جسماً عاد الكلام فيه ، وإن لم يكن جسماً فهو المطلوب ، ثم ذلك الموجود إن لم يكن حياً عالماً قادراً ، بل كان تأثيره بالفيض والطبع عاد الإلزام في وجوب الاستواء ، وإن كان حياً عالماً قادراً فهو المطلوب ، إذا عرفت هـٰذا فقد ظهر أن كل واحد من ذرات السموات والأرض شاهد صادق ، ومخبر ناطق ، بوجود الإلـٰه القادر الحكيم العليم ، وإن لله تعالىٰ في كل جوهر فرد أنواعاً غير متناهية من الدلائل الدالة علىٰ القدرة والحكمة والرحمة ، وذلك لأن كل جوهر

(1) لقمان ، 16ـ19 .

فرد فإنه يمكن وقوعه في أحياز غير متناهية على البدل ، ويمكن أيضاً اتصافه بصفات غير على البدل ، وكل واحد من تلك الأحوال المقدرة فإنه بتقدير الوقوع يدل على الافتقار إلى وجود الصانع الحكيم الرحيم ، والعارفون المحققون لحظوا فيها مباحث عميقة ، وأسراراً دقيقة [1] ، والله سبحانه وتعالى أَحْكَمُ الحاكمِينَ وهو الحَكِيمُ له الحُكْمُ سبحانه وتعالى « والحُكْمُ والحِكْمَـةُ : العَـدْلُ والحِلْـمُ . والخليفـة الحَكِيْـمُ يَـرُدُّ نَفْسَـه عـن هَـواهـا . والحَكِيْمُ : المُتيَقِّظُ » [2] .

الحَكَمُ والحَكِيمُ والحاكِمُ من صفاته ، ومعاني هذه الأَسماء متقارِبة والله أعلم بما أَراد بها وعلينا الإيمانُ بأَنها من أَسمائه ، و الحَكَمُ والحَكِيمُ هما بمعنى الحاكِم وهو القاضي ، وقيل : الحَكِيمُ ذو الحِكمة . وهي مصدر الحكمة ، وبالتالي هي صفة من صفاته .

والحَكْمَةُ : عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، ويقال لِمَنْ يُحْسِنُ دقائق الصِّناعات ويُتقنها حَكِيمٌ ، قال تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [3] .

والحَكِيمُ العالِم ، قال الله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ

---

(1) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص7 .

(2) المحيط في اللغة ، ج 1 ، ص175 .

(3) البقرة 269 .

بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ
أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ
ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ
جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [1] .

كانت حكمة يحيىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ هي :

1 ـ أعطاه الكتاب المليء بالحكم .

2 ـ وهب له الحنان الذي فاض به علىٰ من له علاقة به .

3 ـ من الحكمة أنه كان تقياً .

4 ـ من الحكمة أنه كان باراً بوالديه .

5 ـ كان طائعاً لله ولوالديه في غير معصية .

6 ـ لم يكن جباراً .

7 ـ كان مؤمناً ولم يكن عصياً .

8 ـ كان مرضياً عنه حتىٰ نال سلام ٱلله عليه ومباركته له في ثلاث مباركات :

أ ـ مباركة وسلام عليه يوم ميلاده .

ب ـ مباركة وسلام عليه يوم موته .

ج ـ مباركة وسلام عليه يوم بعثه .

ومثل هٰذه المباركات تعددت المباركات في هٰذه السورة لمريم عليها الصلاة والسلام ، وكذلك كانت المباركات تتعدد لجميع الأنبياء والرسل الذين اختتموا المهمة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام الذي بعث للكافة .

وفي بعثة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ للناس كافة حِكم :

(1) مريم ، 12 ـ 25 .

1 ـ التأكيد على أن ٱلله واحد .

2 ـ التأكيد على أن الدين من عند الواحد واحد .

3 ـ التأكيد على أن الرسل كلهم واحد ولا فرق بينهم ولا يجب التفريق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (1) .

وقال تعالى : ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(1) البقرة ، 135 ـ 141 .

كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (1) .

ولأن الحكمة تستمد من الحكيم ، فهي تؤتىٰ لمن يشاء من حكيم عليم قال تعالىٰ : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (2) . الحديث المحمول في الآيات الكريمة السابقة محمول في مضمون موجه للخليفة ليكون علىٰ صبر ولا يخاف ، ويتقي ٱلله ربه فيما يقول وفيما يعمل ويفعل ، فما يقال من الحاسدين والمرتدين والضالين لا يؤتي ثماره في شيء ، وفي قصة سيدنا داوود عليه الصلاة والسلام مواعظ كثيرة فقد أعطاه الحكيم الحكم بأسباب صبره علىٰ ما يقولون ، ولذا يجب علىٰ الخليفة أن يصبر علىٰ ما يقولون فإن ٱلله معه مادام علىٰ الحق اليقين . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (3) .

والحِكْمَةُ : العدل ، وهو ما يجب أن يكون عليه الخليفة بالشكر والحمد لأنعم ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (4) . ما أجمل الحكمة أن تكون بأسباب الشكر ، وما أجمل الشكر أن يقال لأهل الفضل ، وما أجمل الفضل أن يكون في أهله .

وعليه الحكمة لا تستمد إلا من حكيم عليم ، يعلم بالأمر وبحاله

(1) آل عمران ، 84ـ91 .
(2) ص ، 17ـ20 .
(3) النحل ، 127 ، 128 .
(4) لقمان ، 12 .

وبما يجب أن يكون عليه قبل أن يكون ، ولذا فالحكيم مصدر لكل معاني الحكمة ودلائلها التي بها يتم الاتعاظ وأخذ ما يجب أخذه وترك ما ينبغي تركه في المكان والزمان المناسبين . إنه من يعلم الأمور وأحوالها ويخبر الكيفية التي يجب أن يتم التعامل بها ويهدي إليها .

الحكيم : هو من وضع الموازين لما ينبغي أن يقال ويدرك ويؤخذ به ويفعل بكل تفهُّم ، وبهـٰذا تكون الحكمة تقنيناً للكلمة والجملة كي لا تخرج عن السيطرة المنطقية التي بها تعقل الحقائق وتدرك وتتهيأ للامتداد من عقل لعقل وهي تاركة الأثر الطيب الذي يولد المعلومة من المعلومة ويرشد للحق .

والحكمة التي تستمد من الحكيم هي تضمين لما يُفيد بما يفيد به ، وذلك لأخذ العبر التي تسهم في صناعة تاريخ الخليفة بالمعلومة المركزة في المحتوىٰ الذي يحمله التعبير المنطوق لأجل تفطين العقل من الغفلة وتنويره بما يضيء درب الخليفة في إصلاح الأرض وإعمارها بما ينبغي أن تعمر به .

وعندما تقال الحكمة قد يظهر الاستغراب لدىٰ البعض وقد يحدث الاستفهام ويطرح التساؤل وكأنها تحمل المفاجأة لأول مرة وبهـٰذا يتم اقتباس الحكمة من قائلها ويهتدىٰ بها في صناعة المستقبل .

الحكمة تستوقف العقل لتمده بما يدرك الحقيقة دون تغليف ، وهي تظهر الدلالة في المعنىٰ وتفتح الآفاق أمام امتداد الفكرة من عقل لعقل .

والحكيم المطلق جل جلاله جعل في كل آية من آياته الكريمة حكمة تحتوي الإعجاز فيها حتىٰ تستوقف العقل وتلفته لما كان غافلاً عنه في الوقت الذي لم يكن يعتقد أن الأمر كان كذلك ، ومن كل حكمة من حكم الحكيم المطلق تؤخذ حكم تغذي العقل وتطمئن النفس وتحفِّز الخليفة علىٰ الإقدام تجاه ما يحقق له الأمل . إنها المرشد للحق والناهي عن الضلال والمفطن من الغفلة .

والحكيم بالإضافة هو من يستمد حكمته من الحكيم المطلق ، ويبقيها حية بالمعلومة في المنازل بين الأسر وفي المدارس والجامعات بين التلاميذ والطلبة ويبقيها آية بين الجيران أقارب وأباعد ، وبين من تربطهم به علاقات دم وعرف ودين ومكان وزمان بين المشارق والمغارب وأثناء الحركة والسكون .

ولهٰذا فالأب الحكيم يكون طائعاً لوالديه في غير معصية ٱلله ، ويكون راعياً لأبنائه ، وراشداً لهم حتىٰ الهداية التي تمدهم بالتقوىٰ وتعزهم بالطاعة لله تعالىٰ ، وتقوي لحمتهم علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل . والمدرس الحكيم هو من يشد المتعلمين إلىٰ الدرس الذي يقدمه لهم حتىٰ يتمكنوا من الوقوف علىٰ الحقيقة التي يود توصيلها إليهم ، والطالب الحكيم هو من لا يغفل أثناء الدرس ، والمربي الحكيم هم من يوعظ بالحكمة ، والمتربي الحكيم هو من يتعظ بها .

ومن حِكم الحكيم المطلق ما هو معلوم وما هو مجهول ، فالمعلوم منها هو المحمول في الآيات الكريمة في الكتاب الذي لا يدخله الباطل من خلفه ولا من بين يديه . والمجهول منها هو ما نستدل عليه استدلالاً بالفعل لا بالكلمة ، فنحن بني آدم لا نعلم لماذا علم أبانا الأسماء كلها واستخلفه في الأرض ولم يعلمها للملائكة الكرام ويستخلفهم في الأرض ؟ . ألا يكون في ذلك حكمة لا يعلمها إلا هو جل جلاله ؟ .

ونحن ننتقل من حكمة لحكمة نستدل علىٰ أن خلق الإنسان من تراب حكمة ، وفي هٰذه الحكمة إثبات لقوة الأمر كن فكان أبونا آدم من التراب علىٰ أحسن التقويم حكمة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ

(1) آل عمران ، 59 .

أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [1] .

أما الحكمة من خلق الإنسان في الأرحام تُبرهن علىٰ أن من خُلق من تراب في خلقه حكمة الاستكثار للنوع الذي به يتم الاستخلاف في الأرض ، وبه تترسَّخ عاطفة الأبوة والأمومة لتكون الطاعة فضيلة بين الناس لطاعة ٱلله وحده لا شريك له وهو الخالق من التراب وطاعة الوالدين في غير معصية ٱلله طاعة حق . قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [3] .

وعليه فالحكمة تؤخذ بأحد أربع أو ببعضها أو بها :

1 ـ بالقول تعطىٰ الحجة فتؤخذ . قال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

(1) الكهف ، 37 .
(2) الإسراء ، 23 ، 24 .
(3) لقمان ، 14ـ19 .

شَهِيدًا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [2] .

2 ـ بالفعل تترسَّخ الحكمة فتُدرك . قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [4] .

3 ـ بالعمل تتجسد الحكمة فترىٰ . قال تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [5] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [6] .

4 ـ بالسلوك تمتد الحكمة فتكون القدوة . قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ

(1) النساء ، 165 ، 166 .
(2) طه ، 49 ، 50 .
(3) المؤمنون ، 1 ـ 4 .
(4) الأنبياء ، 73 .
(5) التوبة ، 105 ـ 106 .
(6) الأنعام ، 54 ـ 55 .

أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴾ [2] .

بناء علىٰ ما تقدم فإن الحكيم لا يعاقب إلا عن حكمة ، ولا يجازي إلا عن حكمة ، ولا يغفر إلا عن حكمة ، ولا يتوب علىٰ أحد إلا عن حكمة ، ولهٰذا جاءت من وراء الزكاة حكمة ومن وراء الصلاة حكمة ومن وراء الصوم حكمة ومن وراء الحج حكمة ومن وراء الجهاد حكمة . ولذا فالتسيير والتخيير حكمة . اللهُمَّ إنك تؤتي الحكمة من تشاء فأتِ لنا الحكمة فإنك من تؤتيه الحكمة فقد آتيته خيراً كثيراً ، ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [3] .

الحكمة في نيل العلم الذي يمنع عن ارتكاب الباطل ، فالحكمة هي العلم بحقائق الأشياء علىٰ ما هي عليه والعمل بمقتضاها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [4] . فالمراد به حجة العقل علىٰ وفق أحكام الشريعة ، وقيل : الحكمة إصابة الحق بالعلم والعمل ، فالحكمة من ٱلله معرفة الأشياء وإيجادها علىٰ غاية الإحكام .

و قد تعني الحكمة الحِلم : وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وبذلك يكون في مضمون الحكمة رحمة .

وتكون بمعنىٰ (النبوة) والرسالة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ

---

(1) الزخرف ، 23ـ25 .
(2) الجن ، 26ـ28 .
(3) البقرة ، 269 .
(4) لقمان ، 31 .

وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [1] . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [3] . فمن هٰذه الآيات الكريمة عرف الخليفة أن الحكمة تُعلم فيعمل علىٰ تعليمها لبنيه ويبشر بها حتىٰ الهداية ، وهي أيضاً تؤتىٰ من حكيم خبير .

والحكمة أيضاً تأتي بمعنىٰ القرآن والتوراة والإنجيل ، وذلك كما في قوله تعالىٰ : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [4] ؛ لتضمن كل منها الحكمة المنطوق بها ، وهي أسرار الحقيقة الإلٰهية ، فالمراد به تأويل القرآن ، وإصابة القول فيه .

ولا يكون الوصول للحكمة إلا بأمور منها :

الأول : التفكر في عظمة ٱلله تعالىٰ ، وجلاله ، وجبروته ، وملكوته ، وآياته في سماواته وأرضه وهو أرفع أنواع التفكير وأجلها .

الثاني : التفكير بالقلب عند الأمر والنهي ، فيمتثل ما أمر به ، ويترك ما نهي عنه ، ويقف عما أشكل عليه وهو دأب الخلفاء في أرضه . ويجعل نصب عينيه قول الشاعر الحكيم :

عجبت من ربّي وربي حكيم أن يَحرِم العاقل فضل النعيمْ [5]

الثالث : التذكر الذي يربط الحاضر بالماضي حتىٰ تستمد العبر من قصص الأولين وتجاربهم في الحياة .

والحكيم المطلق هو ٱلله جل في علاه ولذلك لما نفت الملائكة العلم عن

(1) آل عمران ، 48 .
(2) البقرة ، 251 .
(3) ص ، 20 .
(4) البقرة ، 269 .
(5) معاهد التنصيص علىٰ شواهد التلخيص ، ج 1 ، ص 52 .

أنفسهم أثبتوه لله تعالىٰ علىٰ أكمل أوصافه ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) ، وأردفوه بالوصف بالحكمة لما تبين لهم ما تبين ، وأصل الحكمة المنع عن الاعوجاج .

فمعنىٰ الحكيم ذو الحكمة ، وقيل : المحكم لمبدعاته ، وهو علىٰ الأول صفة ذات ، وعلىٰ الثاني صفة فعل ، والمشهور أنه إن أريد به العليم كان من صفات الذات أو الفاعل لِمَا لا اعتراض عليه كان من صفات الفعل . وقدم سبحانه الوصف بالعلم علىٰ الوصف بالحكمة لمناسبة ما تقدم ﴿ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (2) . و﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ . في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (3) ؛ إذاً في اصطفاء آدم حكمة ، وفي تعليمه الأسماء كلها حكمة ، والأسماء كلها تعني : علَّمه الأسرار التي هي جزء من غيبه عز وجل ، فبعد أن خصَّ آدم بها أصبحت بالنسبة لآدم لم تعد في علم الغيب ، أما بالنسبة للملائكة فهي علم غيب إلىٰ أن أعلم آدم بها ، ولهـٰذا فالقدرة علىٰ الإبداء حكمة والقدرة علىٰ الكتمان حكمة ، وعلمنا بأنه يعلم ما كانوا يبدون وما كانوا يكتمون حكمة ، وعلمنا بأنه علام الغيوب التي لا نعلمها حكمة ، وكذلك عدم علمنا بعلم الغيب حكمة .

ويأتي اسم الحكيم مقترناً مع أسمائه الأخرىٰ من باب التناسب كما في

---

(1) البقرة ، 32 .
(2) البقرة ، 31 .
(3) البقرة ، 30ـ32 .

قوله تعالىٰ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ [1] ، فإن قوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ إذا أمعن النظر علم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، فهو العزيز لأن العزيز في صفات ٱلله هو الغالب من قولهم : عزه إذا غلبه ، ووجب أن يوصف بالحكيم أيضاً ، لأن الحكيم من يضع الشيء في محله ، وٱلله تعالىٰ كذلك إلا أنه قد يخفي وجه الحكمة في بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة ، فكان في الوصف بالحكيم احتراس حسن ، أي وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك ، والحكمة فيما فعلته [2] . ولأن الأفضال من ٱلله تعالىٰ نفع تدعو إليه الحكمة وهو تعالىٰ يفضل لا محالة لأن الحكيم لا يخالف ما تدعو إليه الحكمة وهو كالإنعام في وجوب الشكر عليه ، وأصله الزيادة في الإحسان والتفضل التخصص بالنفع الذي يوليه القادر عليه وله أن لا يوليه ، وٱلله تعالىٰ متفضل بكل نفع يعطيه إياه من ثواب وغيره ، فإن قلت : الثواب واجب من جهة أنه جزاء علىٰ الطاعة فكيف يجوز أن لا يفعله ؟ .

فقوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في هـٰذه الآية الكريمة حِكم منها :

إيمان عيسىٰ عليه الصلاة والسلام برب العزة إيماناً مطلقاً جعله يظهر ما هو يبطن بأمر التسليم وهو اعتراف بأنه لم يتدخل وذلك لعدم إمكانية التدخل فيما يريده ٱلله أن يكون أو يحدث ، وفي هـٰذا الاعتراف الإيماني تظهر حكمة التسليم بالمشيئة .

(1) المائدة ، 118ـ120 .

(2) الإيضاح في علوم البلاغة ، ج 1 ، ص 112 .

الحكمة الأخرىٰ أن لا يتم التدخل في علم الغيب فهٰذا الأمر يستوجب التسليم فكان عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مسلماً بالمطلق وذلك اعترافاً بعدم الاختصاص .

الحكمة الأخرىٰ أيضاً : اتقاء عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل ، بإظهار مخافته واتقائه فيما يريد أن يفعل وذلك لأن أمر التقدير لله تعالىٰ وليس لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام .

جاءت في الآية السابقة كلمة (إن) وهٰذه احتمالية الدلالة في تقديرين :

التقدير الأول : إن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام يؤكد يقيناً بأن الأمر لم يكن بيده ، وتظهر يقيناً عدم علمه بما يجب أن يكون .

التقدير الثاني : يظهر يقيناً لا ظنَّ ولا شكَّ فيه بأن أمر العلم بيد ٱلله وأمر القرار فيما يخص العذاب المقصود في الآية السابقة هو قرار ٱلله ، وفي هٰذا الاتقاء حكمة الإيمان .

والحكمة التي تستوجب من الخليفة الأخذ بها هي أن لا يصدر حكماً مطلقاً فيما لا يعلم ، فإن أصدر حكماً محتملاً فيما لا يقين له فيه ؛ كان علىٰ يقين ، وإن أصدر حكماً يقيناً فيما لا يعلم يقيناً ؛ كان علىٰ غير اليقين .

وفي الفروق اللغوية هناك تفريق بين لفظة الحكيم والعالم : فمعنىٰ الحكيم يأتي علىٰ ثلاثة أوجه :

أحدها : بمعنىٰ المحكم مثل البديع بمعنىٰ المبدع والسميع بمعنىٰ المسمع .

والثاني : بمعنىٰ محكم وفي القرآن الكريم : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ (1) . أي : محكم ، وإذا وصف ٱلله تعالىٰ بالحكمة من هٰذا الوجه كان ذلك من صفات فعله .

---

(1) الدخان ، 4 .

والثالث : الحكيم بمعنىٰ العالم بأحكام الأمور فالصفة به أخص من الصفة بعالم ، وإذا وصف ٱلله به علىٰ هـٰذا الوجه فهو من صفات ذاته [1] .

وعلىٰ الإنسان أن يحمل هـٰذه الصفة ولا يستطيع حملها إلا من كان أهلاً للخلافة ، ولما كانت الحكمة مشتملة علىٰ الخير والبركة فلا يعطي ٱلله الحكمة إلا لخلفائه ، فعليه أن يبني أحكامه وأفعاله علىٰ أصول العدل ذاهباً علىٰ أن الصانع حكيم تعالىٰ جل في علاه لا يكون في أفعاله عبث جل جلاله بل يقدس ، وكل فعله حكمة وصواب مفعول لغرض صحيح ، لأن ٱلله جل جلاله ما خلق الإنسان إلا لغرض الطاعة في توحيده والإيمان بما أمر ونهىٰ والإصلاح والفلاح والإحسان في الأرض ، وحين ركب فيه الشهوة الحاملة علىٰ فعل ما يجب تركه والنفرة الحاملة علىٰ ترك ما يجب فعله وأودع عقله المضادة لحكميهما حتىٰ تنازعته أيدي الدواعي والصوارف فوقفت به حيث الحيرة لا متقدم له عنه ولا متأخر تحمله الحيرة علىٰ ما لا يورثه إلا العناء إذا اتبع العقل وقع من النفس المشتهية النافرة في عناء ، وإذا اتبع النفس وقع من العقل الناهي الآمر في عناء لا مخلص هناك مما أوقعه في ورطة تلك الحيرة سفهاً ولا عبثاً ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [2] ؛ وإنما فعل ذلك لغرض الإحسان وهو التكليف ليتمكن من اكتساب ما لا يحسن فعله في حقه ابتداء من التعظيم العظيم مع الدوام في ضمن التمتيع من أنواع المشتهيات بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ بال أحد من نعم لا يشوبها منغص ما ، فيكتسبه إن شاء لا بالقسر ، ولذلك وضع زمام الاختيار في يده ممكناً إياه من فعل الطاعة والمعصية مريداً منه أن يختار ما يثمر له تلك السعادة الأبدية مزيحاً في ذلك جميع علله . وهو العالم بالذات الذي لا يخفىٰ عليه خافية ، يعلم

---

(1) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 195 .

(2) الإسراء ، 43 .

ما كان وما هو كائن وما سيكون قائلاً ، خلق ٱلله الخلق ليعبدوه ولعلهم يتقون ، وعليه قول رب العزة علام الغيوب : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (1) . إذا رأيت عاقلاً قد أحسن إلىٰ إنسان ثم آذاه ذلك أنه قد أحسن إليه ليؤذيه ومن ذلك قوله علت كلمته ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَـٰطِـِٔينَ ﴾ (2) .

وٱلله تعالىٰ قادر بحكمته أن يغير سلوك الإنسان من سلوك مشين إلىٰ طريق حسن قويم ، ولنأخذ من المجتمع العربي مثلاً فقد كَانَتْ العربُ قبل الإسلام فِي جاهليتها عَلَىٰ إرثٍ من إرث آبائهم فِي لُغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقَرابينهم ، فلما جاءَ ٱلله جلّ ثناؤه بالإسلام حالت أحوالٌ ، ونُسِخَت دِيانات ، وأبطلت أمورٌ ، ونُقِلت من اللغة ألفاظ من مواضعَ إِلَىٰ مواضع أُخَر بزيادات زيدت ، وشرائع شُرعت ، وشرائط شُرطت . فَعفَّىٰ الآخرُ الأوّلَ ، وشُغِل القوم بعد المُغاوَرات والتجارات وتَطَلُّب الأرباح والكدْح للمعاش فِي رحلة الشتاء والصَّيف ، وبعد الأغرام بالصَّيْد والمُعاقرة والمياسرة بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بَيْنَ يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ، وبالتَّفقُّه فِي دين ٱلله عزّ وجلّ ، وحفظ سنن رسول ٱلله ﷺ ، مع اجتهادهم فِي مجاهدة أعداء الإسلام . فصار الَّذِي نشأ عَلَيْهِ آباؤهم ونشؤوا عَلَيْهِ كَأن لَمْ يكن ، وحتىٰ تكلّموا فِي دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دُوّن وحُفِظ حَتَّىٰ الآن . فصاروا ـ بعدما ذكرناه ـ إِلَىٰ أن يُسأل خليفة من خلفائه وإمامٌ من الأئمة وهو يخطب عَلَىٰ منبره عن فريضة فَيُفْتي ويَحْسُبُ وعلىٰ سرعة وبداهة حاضرة .

---

(1) البقرة ، 21 .

(2) القصص ، 8 . مفتاح العلوم ، ج 1 ، ص 168 .

مثلما حدث مع عليّ رضي ٱلله عنه حين سُئل عن ابنتين وأبوين وامرأة : « صار ثُمْنُها تُسعاً » فسميت : المنبريَّة [1] . وغيرها ممّا هو أغْمَضُ وأدقُّ . فسبحان من نقل أولئك فِي الزمن القريب بتوقيفه ، عمّا ألفوه ونشؤوا عَلَيْهِ وغذوا بِهِ ، إلىٰ مثل هَذَا الَّذِي ذكرناه . وكلّ ذَلِكَ دليل عَلَىٰ حقّ الإيمان وصحة نُبوة نبيّنا محمد ﷺ وعمله بشروط الخلافة بصدق النية وجدية العمل . وأنَّ العرب إنَّما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان هو التصديق . ثُمَّ زادت الشريعة شرائطَ وأوصافاً بِهَا سُمِيَ المؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وفي هـٰذه حِكم تستوجب الوقوف عندها والأخذ بها . وكذلك الإسلام والمسلم ، إنّما عَرَفت منه إسلامَ الشيء ثُمَّ جاء فِي الشَّرع من أوصافه مَا جاء وفي هـٰذه حكم . وكذلك كَانَتْ لا تعرف من الكُفر إلاَّ الغِطاء والسِّتْر . فأما المنافق فاسمٌ جاء بِهِ الإسلام لقوم أَبْطنوا غير مَا أظهروه ، وَكَانَ الأصل من نافقاء اليَرْبوع . وَلَمْ يعرفوا فِي الفِسْق إلاَّ قولهم : « فَسَقَتِ الرُّطبة » إذَا خرجت من قِشرها ، وجاء الشرع بأن الفِسق الإفحاش فِي الخروج عن طاعة ٱلله جلّ ثناؤه . ومما جاء فِي الشرع الصلاة وأصله فِي لغتهم : الدُّعاء . وَقَدْ كانوا عَرفوا الركوعَ والسجودَ ، وإن لَمْ يكن عَلَىٰ هَذِهِ الهيئة ، وهـٰذا وإن كَانَ فإن العرب لَمْ تعرِفه بمثل مَا أتَت بِهِ الشريعة من الأعداد والمَواقيت والتَّحريم للصلاة ، والتَّحليل منها . وكذلك الصيام أصله عندهم الإمساكُ ، ثم زادت الشريعة النِّيّة ، وحَظَرَت الأكلَ والمُباشَرَة وغير ذَلِكَ من شرائع الصوم . وكذلك الحَجُّ ، لَمْ يكن عندهم فِيهِ غير القصد ، وسَبْر الجِراح . ثم زادت الشريعة مَا زادته من شرائط الحج وشعائره . وكذلك الزَّكاة ، لَمْ تكن العرب تعرفها إلاَّ من ناحية النَّماءِ ، وزاد الشرع مَا زاده فِيهَا . وَعَلَىٰ هَذَا سائر مَا تركنا ذِكرَه من العُمْرة والجهاد وسائر أبواب الفِقه [2] .

ولما كان جل جلاله قادراً علىٰ تغيير سلوك الإنسان فإن قدرته علىٰ توجيه

(1) الصاحبي في فقه اللغة ، ج 1 ، ص 14 .
(2) الصاحبي في فقه اللغة ، ج 1 ، ص 15 .

سلوك الجمادات والحيوانات من باب أولىٰ لأنه أسهل وأخف إذ العناد من طبيعة البشر ، فقد جعلها جل جلاله تسبح بحمده دونما نعلم بذلك ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ (1) . الحِكم التي لا نعلمها في هـٰذه الآية الكريمة بالرغم من إعلامنا بأنها تسبح هي حكم تفوق تقديراتنا العقلية وذلك بأسباب معرفتنا التامة بأن الجماد ساكن لا يأكل ولا يشرب ولا يسرق ولا يكذب كما يسرق البعض من الذين يتحركون ويجوعون ويأكلون من بني آدم الذين اصطفىٰ ٱلله الرسل منهم وجعلهم خلائف الأرض وجعلهم الوارثين ، كل ما خلق اللهُ يسبِّحُ بحمده ، وإنَّ صَريرَ السَّقْف وصرير الباب من التسبيح ، أقول إنه من الحكمة أن نسلم طائعين لله فيما قال ونحن واثقون بأنها تسبح مع أننا لا نفقه ولا نسمع ولا نشاهد ما يدل علىٰ ذلك ، وهـٰذا لا يعني أنها لا تسبح ولـٰكنه يعني الإيمان التام بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٥٢ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (3) .

---

(1) الإسراء ، 44 .

(2) النور ، 51ـ53 .

(3) البقرة ، 285 ـ 286 .

﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ ، هٰذه حكمة من حكيم خبير بحالنا وما نحن عليه ، فجاء التقدير التام لما نحن عليه من عدم مقدرة علىٰ معرفة الكيفية التي بها تسبح الجبال والأنهار والبرق والرعد والطير والنبات وكل شيء مخلوق هو يسبح بحمد ربه تعالىٰ ونحن لا نفقه التسبيح ، والتفقه هو بلوغ الأسرار التي عليها حالة المسبح بحمده من غير المستخلفين فيها .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ ، أي : ما من شيء إلا وفيه دليل أن ٱلله عز جلّ خالقه ، وأنَّ خالِقه حكيمٌ مُبَرَّأ من الأسواء ، ولٰكنكم لا تفقهون تسبيحه وذلك لعدم كمالكم وهٰذه حقيقة ندركها ونؤمن بها بأنه لا كمال إلا لله تعالىٰ ، وغيره منقوص حتىٰ وإن خلق في أحسن تقويم وهٰذه حكمة والحمد لله رب العالمين .

وعليه أتساءل :

هل يمكن لمخلوق أن يسبح بحمد خالقه لو لم يكن يدركه ؟ .

وبما أن التسبيح دليل اعتراف وطاعة ألا يكون المتعرف والطائع في غاية الإيمان ؟

وإذا كان في غاية الإيمان ألا يكون للمؤمن أن يسبح ويجل ويعز من آمن به ؟

وبما أننا لا نفقه تسبيح غيرنا من المخلوقات ألا يكون هٰذا دليل إثبات أن غيرنا لا يفقه تسبيحنا ؟

وإذا كان الأمر كذلك إذاً بطبيعة الحال نحن بدون أي استغراب لن نفقه تسبيح من لا يفقه تسبيحنا . ولنا من باب الحكمة أن نقول اعترافاً وإثباتاً علمياً : إن الأرض تتحرك بسرعة معلومة ونحن لا يمكن لنا الإحساس بحركتها ولو لم يثبت العلم ذلك يقيناً لكانت الحالة في تشابه مع عدم معرفتنا بتسبيح ما لا نفقه تسبيحه . ولأنه جل جلاله خلقنا في أحسن تقوم فنحن المعنيون

بالحكمة التي بها ندرك بمقارنة عقلية ما جاء إعجازاً في القرآن الكريم ، ولذا فنحن بأمهات عقولنا ندرك حقيقة أنها تسبح وندرك حقيقة أننا لا نفقه تسبيحها .

فالله تعالىٰ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1) ، فهو عالم ما تعاينون أيها الناس ، فتشاهدونه ، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه (وهو الحكيم) ، في تدبيره وتصريفه خلقه من حال الوجود إلىٰ العدم ، ثم من حال العدم والفناء إلىٰ الوجود ، ثم في مجازاتهم بما يجازيهم به من ثواب أو عقاب . قال تعالىٰ : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (2) .

ولأنه تعالىٰ لم يخلق أكرم من الإنسان علىٰ وجه الأرض وجعله خليفة ليس للفساد ويعاقب كل من يفسد فيها وأن هٰذا العقاب ليس عبثاً وفي ذات الوقت ليس محتاجاً إلىٰ عقابنا أو ثوابنا إلا لأنه كرمنا بأن فضلنا علىٰ كثير ممن خلق تفضيلاً ، وقد خلق الخليفة في أحسن تقويم حتىٰ إن الملائكة تساءلت : هل هناك من هو أكرم منها ؟ وظنت أنها تعلم كل ما يدور حولها ، وأنه مهما خلق فلن يخلق من هو أكرم أو أعلم منها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (3) ، وكانت الدهشة والتسليم الفوري بأن قالت : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ

(1) الأنعام ، 73 .
(2) البقرة ، 28 .
(3) البقرة ، 32 .

ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) ، فرد ٱلله تعالىٰ عليهم : ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ، قال : أما ما أبدَوْا فقولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ . وأمَّا ما كتموا فقول بعضهم لبعض : (نحن خير منه وأعلم) . وفي قوله : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، من هـٰذه الآية نعلم أن من لا يعلم بالشيء بالرغم من وجوده يظن أنه غير موجود أو أنه موجود وليس علىٰ الحالة التي تقال عنه وهـٰذا أمر جهل بالحقيقة التي عليها حالة الشيء ، وخير مثال ما كان يجهله الملائكة عن خلق الإنسان وتفضيل الحكيم له علىٰ كل ما خلق ، وبعد أن علم الملائكة الصديقون سجدوا اعترافاً بالحقيقة بعد معرفتها وطاعة لله وأمره لهم بالسجود .

وبهـٰذا ظهر لهم علوه المطلق بغلبته وقهره وعلمه وحكمته فهو الغالب عباده ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (2) . أي : ٱلله الغالب عبادَه بما لا يستطيعون بلوغه ومعرفته ، وفي هـٰذه المغالبة حكمة تظهر القدرة الكمالية لدىٰ الخالق وتظهر القصور لدىٰ المخلوق ، فهو فوقهم بقهره إياهم ، وهم دونه وهو الحكيم في علوِّه علىٰ عباده ، ومن لا يرىٰ في ذلك حكمة فليظهر غير ذلك لتكون له حكمة ، ولأن هـٰذا الأمر خارج دائرة الممكن بالنسبة للمخلوق فإن أمر بلوغه غير ممكن ، وٱلله تعالىٰ خبير بحالهم

(1) البقرة ، 33 .

(2) الأنعام ، 18 ـ 19 .

وبكل حال فكان القاهر فوقهم بحكمته وخبرته وعلمه وخلقه ووحدانيته جل جلاله ، إنه مالك الملك والأمر بما فيه من قوة وهيمنة وعزة ورحمة ومغفرة وتوبة ، سبحانه لا إلـٰه إلا هو .

فقد خلق الإنسان وصوره في الرحم كيفما شاء دون تدخل من أحد في ربوبيته ، فهو الذي يدبر خلقه بعدله كيف يشاء دونما شريك أو نديد ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] ، فهو يخلقكم كما يشاء في الأرحام من ذكر وأنثىٰ ، وحسن وقبيح ، وشقي وسعيد : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، أي : هو الذي خلق ، وهو المستحق للألوهية وحده لا شريك له ، وله العزة التي لا ترام ، والحكمة والأحكام . وهـٰذه الآية فيها تصريح بأن عيسىٰ ابن مريم عبد مخلوق ، كما خلق ٱلله سائر البشر ؛ لأن ٱلله تعالىٰ صوره في الرحم وخلقه ، كما يشاء ، فكيف يكون إلـٰهاً كما زعمته النصارىٰ وقد تقلب في الأحشاء ، وتنقل من حال إلىٰ حال ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [2] . في هـٰذا القول تنزيه من ٱلله تعالىٰ ذكره لنفسه أن يكون له في ربوبيته ندّ أو مِثل ، أو أن تَجوز الألوهة لغيره ، ولجميع من ادّعىٰ مع ٱلله معبودًا ، أو أقرّ بربوبية غيره . ثم أخبر جل ثناؤه خلقه بصفته ، وعيداً منه لمن عبد غيره ، أو أشرك في عبادته أحدًا سواه ، فهو العزيز الذي لا ينصر من أرادَ الانتقام منه أحدٌ ، ولا ينجيه منه وَالٍ و لا ملَجأ ، وذلك لعزته التي يذلُّ لها كل مخلوق ، ويخضع لها كل موجود ، والحكيم في تدبيره ، وإعذاره إلىٰ خلقه ، ومتابعة حججه عليهم ؛ ليهلك من هلك منهم عن بيّنة ، ويحيا من حيَّ عن بينة .

---

(1) آل عمران ، 6 .

(2) الزمر ، 6 .

قال تعالىٰ : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) . الحكمة في هـٰذه الآيات الكريمة أن يكون المثل السوء للذين لا يؤمنون بالآخرة وهـٰذه حكمة بينة ظاهرة ، وفي مقابل ذلك كان المثل الأعلىٰ للحكيم الأعلىٰ عز وجل ، ولولا حمد ٱلله وحكمته وفضله لكان العقاب واقعاً في وقت وقوع الذنب أو الجريمة أو الكفر أو الضلال ، ولـٰكن لحكمة وفضل من ٱلله أجَّل ذلك إلىٰ أجلٍ مسمىٰ ، أي : معلوم وهو يوم الآخرة ، ليعطي الفرصة لمن خلق في أحسن تقويم لعله يستغفر ويتوب لله وحده فيجده غفوراً رحيماً ، وما ربك بظلام للعبيد . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ (2) .

فٱلله ذو العزّة التي لا يمتنع عليه معها عقوبة هـٰؤلاء المشركين ، ولا عقوبة من أراد عقوبته علىٰ معصيته إياه ، ولا يتعذّر عليه شيء أراده وشاءه ؛ لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره ، الحكيم في تدبيره ، فلا يدخل تدبيره خَلَل في تصريفهم فيما أراد من إحياء وإماتة ، وبعث ونشر ، وما شاء .

---

(1) النحل ، 60ـ64 .

(2) فصلت ، 45ـ47 .

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ (1) ، وهو العزيز الذي لا يمتنع مما أراده من ضلال أو هداية من أرادَ ذلك به والحكيم في توفيقه للإيمان من وفَّقه له ، وهدايته له من هداه إليه ، وفي إضلاله من أضلّ عنه ، وفي غير ذلك من تدبيره بحكمته ، فالحمد لله علىٰ ما أولىٰ من منحه ، وأفاض من نعمه ، فلولا هدايته ما وصل أحد إلىٰ هدىً أو رشاد ، فلما أراد بحكمته أن يهدي خلفاءه إلىٰ الصراط المستقيم أنزل عليهم القرآن الذي جاء فيه : ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ (2) ، أي : هٰذه آيات الكتاب بياناً ورحمة من ٱلله ، رحم به من اتبعه ، وعمل به من خلقه ، وهم الذين أحسنوا في العمل بما أنزل ٱلله في هٰذا القرآن ، فهٰذا الكتاب الحكيم هدىً ورحمة للذين أحسنوا ، فعملوا بما فيه من أمر ٱلله ونهيه ، فالذين يقيمون الصَّلاةَ المفروضة بحدودها وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ من جعلها ٱلله له المفروضة في أموالهم وَهُمْ يفعلون ذلك وهم بجزاء ٱلله وثوابه لمن فعل ذلك في الآخرة يوقنون . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (3) . هٰؤلاء الخلفاء هم المهتدون بالطاعة والعمل الصالح في الأرض يقولون حقاً ويفعلون الخيرات

---

(1) إبراهيم ، 1ـ5 .
(2) لقمان ، 1ـ4 .
(3) البقرة ، 5 .

ويكثرون ذلك رحمة من الرحمـٰن الرحيم . ولذلك فقد وعد ٱلله تعالىٰ خلفاءه وعد الصدق مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) ، أي : إنَّ الَّذينَ آمَنُوا بٱلله فوحدوه ، وصدّقوا رسوله واتبعوه وَعمِلُوا الصَّالحَاتِ ، فأطاعوا ٱلله ، فعملوا بما أمرهم في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ، وانتهوا عما نهاهم عنه لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيم ، هـٰؤلاء الخلفاء لهم جنات النعيم خالدين فِيها ماكثين وهـٰذا ما وعد الرحمـٰن ووعد الرحمـٰن حق والحمد لله رب العالمين .

قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (2) ، فبحكمته تعالىٰ أنه خَلَقَ السَّمَوَاتِ السبع بغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ، وكلمة بغير عمد تدل علىٰ أنه بالقطع لا توجد عمد ترفع السماء عن الأرض ، وكلمة (ترونها) عندما تتصل تصبح الآية ذات ثلاثة دلائل في دائرة الممكن المتوقع :

المدلول الأول : أنها ذات أعمدة ولـٰكنكم لا ترونها وهـٰذا متوقع .

والمدلول الثاني : أنها بدون أعمدة ولو كانت ذات أعمدة لرأيتموها وهـٰذا متوقع .

المدلول الثالث : أن المقصود من كل ذلك إدراك الحكمة في خلق السماوات والأرض وكيفية خلقها سواء كانت بأعمدة أو بدونها وفي دائرة المتوقع قد يكون هـٰذا المقصود وهـٰذه حكمة بذاتها لا يعلم سرها إلا هو عز وجل .

وكل ذلك يحتاج إلىٰ تدبر ونظر والذي يكون نتاجه الحكمة التي يمنحها جل جلاله لمن يشاء من عباده وخلفائه ، وقد جاء في الكتاب العزيز كيف

---

(1) لقمان ، 8 ـ 9 .

(2) لقمان ، 10 .

منح ٱلله لقمان الحكمة بعدما كان نجاراً وذلك عندما أخلص العبادة لله وحده فوصل إلىٰ معرفة ما أراد ٱلله له من المعارف التي تستدعي الحكمة والنظر ليكون خليفة في أرضه ، فقال ٱلله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [1] . لننظر في هـٰذه الآية لنرىٰ كيف يوزع حكمته علىٰ عباده ، فقد كان لقمان رجلاً صالحاً ، ولم يكن نبياً ، قيل : كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً ، غليظ الشفتين ، مصفح القدمين ، قاضياً علىٰ بني إسرائيل . وقيل كان لقمان الحكيم أسود من سودان مصر . وقيل : كان لقمان عبداً أسود حبشياً نجاراً فأتاه رجل ، وهو في مجلس أناس يحدّثهم ، فقال له : « ألست الذي كنت ترعىٰ معي الغنم في مكان كذا وكذا ؟ قال : نعم ، قال : فما بلغ بك ما أرىٰ ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت عما لا يعنيني » [2] . وبهـٰذا وصل لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ ما وصل من الحكمة ، وهـٰذا الذي يجب أن يكون عليه الخليفة في الأرض وإلا فهو في خسران مبين ، وعلىٰ الخليفة أن يحمد ٱلله علىٰ هـٰذه النعم التي لا تحصىٰ لأنها من موجبات الرضىٰ الإلـٰهي والفوز بالخلافة في الدنيا والتي يكون نتاجها الجنة بإذنه فإن : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [3] ، فالشكر الكامل والحمد التام كله للمعبود الذي هو مالك جميع ما في السماوات السبع وما في الأرضين السبع دون كل ما يعبدونه ، ودون كل شيء سواه لا مالك لشيء من ذلك غيره ، وله الشكر الكامل في الآخرة كالذي هو له ذلك في الدنيا العاجلة ؛ لأن منه النعم كلها علىٰ كل من في السماوات والأرض في الدنيا ، ومنه يكون ذلك في الآخرة ، لأن النعم كلها من قبله لا يشركه فيها أحد من

---

(1) لقمان ، 12 .
(2) تفسير الطبري ، ج 20 ، ص 135 .
(3) سبأ ، 1 .

دونه وهو الحكيم في تدبيره خلقه وصرفه إياهم في تقديره ، خبير بهم وبما يصلحهم ، وبما عملوا وما هم عاملون ، محيط بجميع ذلك .

وعلىٰ الخليفة الحكيم أن يكون متبصراً بما يدور حوله فيصلح ما استطاع من ذلك وليبسط حكمته علىٰ مستخلفيه بما يقدمه لهم من النصائح الربانية والتي لابد وأن تنتج مجتمعاً حكيماً متبصراً عارفاً بأمور الدنيا والدين ، والحكيم أن يدرس التوقعات المستقبلية والتي يستطيع بها أن يتوقىٰ الأعداء من الطبيعة والبشر ؛ لأن الحكيم بالإضافة يتلقىٰ حكمته من الحكيم المطلق الذي يعلم مسبقاً ما كان وما سيكون وهـٰذه من خصائص الحكيم لأنه لو لم يكن عليماً ما كان حكيماً ، ولذلك علىٰ الحكيم المستخلف في الأرض أن يعمل ويصلح وأن يكثر من الدعاء ليوفقه الحكيم المطلق في أعماله ودراساته الحالية والمستقبلية وأن يلهمه النظرة الصائبة لتحقيق ذلك وكل خير في مرضات ٱلله تعالىٰ .

وليعلِّم الخليفة المستخلفين في الأرض موجبات الحمد وأن يعلمهم أن الخير بيده تعالىٰ ولا أحد يمنعهم من ذلك إذا أراد لهم ذلك لأنه هو العزيز القادر وهو الحكيم في كل أمر ؛ قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) . ولنكون خلفاء علىٰ حقيقة بينة وصدق في العقيدة والمنهج كما كان يفعل لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنه تعالىٰ مَا يَفْتَحِ ٱلله لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ وخير فَلا مُمْسِكَ لَهَا ولا يستطيع أحد حبسها وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ لهـٰذه الرحمة من بعده وَهُوَ العزيز في نِقمته ممن انتقم منه من خلقه بحبس رحمته عنه وخيراته ، الحكيم في تدبير خلقه وفتحه لهم الرحمة إذا كان فتح ذلك صلاحًا ، وإمساكه إياه عنهم إذا كان إمساكه حكمة (2) . وذلك عليه هين لأنه تعالىٰ الواحد الأحد في سماواته

---

(1) فاطر ، 2 .

(2) تفسير الطبري ، ج 20 ، ص 437 .

وأرضه ويدير كل ذلك بحكم وعلم ومعرفة ودراية ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (1) ؛ لأنه يُعبد في السماء ، ويُعبد في الأرض . وهو العليم بمصالحهم . ولذلك وجب علىٰ الخليفة القول للمتكبرين لعلهم يرجعون عن ما هم فيه من الغواية والضلال : ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) . فَلله الْحَمْدُ علىٰ نِعمه وأياديه عند خلقه ، فإياه فاحمدوا أيها الناس الذين استخلفكم في أرضه ، فإن كلّ ما بكم من نعمة فمنه دون ما تعبدون من دونه من آلهة ووثن ، ودون ما تتخذونه من دونه رباً ، وتشركون به معه رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ يقول : مالك السموات السبع ، ومالك الأرضين السبع ومالك جميع ما فيهنّ من أصناف الخلق ، وبذلك يكون له الكبرياء في السموات والأرض الْحَكِيمُ في تدبيره لخلقه وتصريفه إياهم فيما شاء كيف شاء وله العظمة والسلطان في السموات والأرض دون ما سواه من الآلهة والأنداد وَهُوَ الْعَزِيزُ القاهر كل ما دونه ، ولا يقهره شيء (3) . فإقرار منا بحكمته وعلمه زيادة علىٰ القدرة والجبروت يجب أن نسبح له لعزته وجبروته ولعلوه وحكمته وقدرته الذي سبح له جميع من في السموات والأرض فقد قال تعالىٰ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (4) . يعني تعالىٰ ذكره بقوله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . أن كلّ ما دونه من خلقه يسبحه تعظيماً له ، وإقراراً بربوبيته ، وإذعاناً لطاعته ، كما قال جلّ ثناؤه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

(1) الزخرف ، 84 .
(2) الجاثية ، 36 ـ 37 .
(3) تفسير الطبري ، ج 22 ، ص 88 .
(4) الحديد ، 1 ـ 3 .

بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . أي : جلّ جلاله عزيز في انتقامه ممن عصاه ، فخالف أمره مما في السموات والأرض من خلقه ، والْحَكِيمُ في تدبيره أمرهم ، وتصريفه إياهم فيما أحبّ . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [1] . لأنه يتولاكم بنصره أيها المؤمنون وَهُوَ الْعَلِيمُ بمصالحكم الْحَكِيمُ في تدبيره إياكم ، وصرفكم فيما هو أعلم به . وبذلك كان دعا خلفائه لمستخلفيهم ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [2] . ﴿ وَيُزَكِّيهِمْۚ ﴾ تعني يظهرهم علىٰ العالمين ويباركهم ويطهرهم من الضلال والكفر والشرك ، فيكونوا طائعين بالعمل والعبادة . ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ تعني : شيئين :

الشيء الأول : يعلمهم ما جاء في القرآن الكريم : ليكون الدين بينهم معاملة حسنة ، وتعليم الكتاب لأجل إظهار الآيات العظام التي جاء بها الرسول وحياً من الملك المتعال مبشراً ونذيراً وداعياً للخير ومحرضاً عليه وسراجاً منيراً .

---

(1) التحريم ، 1ـ3 .

(2) البقرة ، 129ـ134 .

الشيء الثاني : يعلمهم الحكمة : تعني يعلمهم أساليب المعاملة الرفيعة في الأخذ بالأوامر والنواهي التي جاءت في الكتاب الحكيم واتباع الرسول الحكيم في أقواله وأعماله وهديه للتي هي أحسن مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (2) .

وهٰذه التزكية وهٰذا التعليم للكتاب والحكمة يأتي ليوضح لهم الحلال والحرام علىٰ يدي مستخلفيه في أرضه كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردًا عليهم ، أي : قالوا ما قالوه من الاعتراض ، مع علمهم بتفريق ٱلله بين هٰذا وهٰذا حكماً ، وهو الحكيم العليم السميع لما يدور من حوار ونقاش وجدال الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها ، وما ينفع عباده فيبيحه لهم ، وما يضرهم فينهاهم عنه ، وهو أرحم بهم من الوالدة برضيعها ؛ ولهٰذا قال : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ

(1) النحل ، 125ـ128 .

(2) فصلت ، 33ـ36 .

فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [1] . أي : من بلغه نهي ٱلله عن الربا فانتهىٰ حال وصول الشرع إليه ، فله ما سلف من المعاملة ، لقوله : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ ﴾ [2] . ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية ، بل عفا عما سلف لحكمة يراها ، ويعلمها الحكيم جل جلاله .

وعليه فإن الحكمة تأتي علىٰ نوعين :

1 ـ حكمة موهوبة من ٱلله جل جلاله .

2 ـ حكمة تعليمية والتي تكون نتاج المحكات والتجارب ، كمعرفة العدو من الصديق من الحيوان والإنسان ، ومعرفة ما يجب والإقدام عليه ومعرفة ما لا يجب الإقدام عليه فيحجم عنه .

وأساليب الحكماء علىٰ نوعين :

1 ـ حكمة يعطىٰ جوابها مباشرة .

2 ـ وحكمة غير مباشرة وخاصة في الردود فيوضح الحكيم الإجابة عن الأسئلة بما يعرف في علم البلاغة بأسلوب الحكيم فيعطي الحكمة من وجود الشيء أو علته وسببه ، دون الحاجة إلىٰ الدخول في تفاصيل عن الشيء ليعلم خلفاءه كيف يكون الرد ، وكذلك إظهار الإعجاز القرآني بما يتناسب وعقول من أرسل إليهم وخاصة العرب وما تميزوا به من الفصاحة والبلاغة وليكون معجزاً لهم ، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ ﴾ ، فالأهلة جمع هلال ، وسمي به القمر في ليلتين من أول الشهر ، أو في ثلاث ، والسؤال يحتمل :

1 ـ أن يكون عن الغاية والحكمة .

---

(1) البقرة ، 275 .

(2) المائدة ، 95 .

2 ـ أو أن يكون عن السبب والعلة .

فعلىٰ الأول : يكون الجواب بقوله تعالىٰ : ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ مطابقاً مبيناً للحكمة الظاهرة اللائقة بشأن التبليغ العام المذكرة لنعمة ٱلله تعالىٰ ومزيد رأفته سبحانه وهي أن يكون معالم للناس يوقتون بها أمورهم الدنيوية ويعلمون أوقات زروعهم ومتاجرهم ومعالم للعبادات الموقتة يعرف بها أوقاتها كالصلاة والصيام والإفطار والزكاة والحج ، فإن الوقت مراعىً فيه أداءاً وقضاءاً ولو كان الهلال مدوراً كالشمس أو ملازماً حالة واحدة لم يكد يتيسر التوقيت به ، ولم يذكر ﷺ الحكمة الباطنة لذلك مثل كون اختلاف تشكلاته سبباً عادياً أو جعلياً ، لأنه مما لم يطلع عليه كل أحد .

وعلىٰ الثاني : يكون من الأسلوب الحكيم ، ويسمىٰ القول بالموجب وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً علىٰ أنه الأولىٰ بحاله فيكون في هـٰذا الجواب إشارة إلىٰ أن الأولىٰ علىٰ تقدير وقوع السؤال أن يسألوا عن الحكمة لا عن السبب لأنه لا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم ، والنبي إنما بعث لبيان ذلك للناس كافة فمن اهتدىٰ فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فما ربك بظلام للعبيد .

ومن المعلوم أن الحكمة لا تقتضي أن يؤمر بالفعل من لا يقدر علىٰ الامتثال ومما يقتضي أن أفعال ٱلله تعالىٰ وأحكامه لا بدّ فيها من حكمة ومصلحة وهو مسلم لـٰكن لا نسلم أنه لا بدّ أن تظهر هـٰذه المصلحة لنا إذ الحكيم لا يلزمه اطلاع من دونه علىٰ وجه الحقيقة وحينئذٍ فما المانع من أن يقال هناك مصلحة لم نطلع عليها ، ويجاب بأنا لم ندع سوىٰ أن ٱلله تعالىٰ قد راعىٰ الحكمة فيما أمر وخلق تفضلاً ورحمة لا وجوباً وهـٰذا ثابت بقوله تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ

﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [1] ، الجبال التي لا نفقه تسبيحها لا نرىٰ حركتها مع أنها في حالة حركة ، ولهـٰذا لا يعني أن ما لا نراه علىٰ كيفية نعرفها هو ليس علىٰ الكيفية التي قيلت لنا من عالم السر والعلل والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، ولـٰكن الخليفة الذي يؤمن بالمطلق بالحكيم المطلق يسلم بذلك إيماناً تاماً لا شك فيه وهو بذلك سميع عليم بما جاء في الكتاب الحكيم وهو أمر مطاع من خالق عظيم .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾ [2] .
ولأن ٱلله أحسن كل شيء خلقه ، فإن من حُسن الخالق أن يكون الرقي في كل ما خلق ، حتىٰ وإن تفاوتت الفروق بين المخلوقات العظيمة ، التي في جميع خلقها إعجاز وتخصيص من حكيم خبير .

والحكمة قد تظهر في حينها وقد لا تظهر ، ومن أمثله ذلك :

1 ـ قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [3] . وزمام ذلك بيد الحكيم العليم فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، والعزيز هو الغالب الذي لا يغالب فيما قضىٰ به ، وقيل : القادر علىٰ انتقامه من الكفار بأيدي المؤمنين وفي إجراء هـٰذا الوصف هنا عليه تعالىٰ إيذان بعلة اختصاص النصر به سبحانه .

---

(1) النمل ، 86 ـ 88 .
(2) السجدة ، 6 ـ 11 .
(3) آل عمران ، 126 .

الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها ويفعل علىٰ ما تقتضيه الحكمة في سائر أفعاله ومن ذلك نصره للمؤمنين بواسطة إنزال الملائكة ، وفي الإتيان بهـٰذا الوصف رد علىٰ من أنكر ما نطقت به الظواهر فسبحانه من عليم حكيم وعزيز حليم لا يعجزه الظهور بما شاء وكيف شاء ، والحكيم الذي ستر نصره بصور الملائكة لحكمة وهو أن يَقْطَعَ ويهلك طَرَفاً مّنَ الذين كَفَرُواْ وهم أعداء ٱلله تعالىٰ ، أَوْ يَكْبِتَهُمْ ويخزيهم ويذلهم فَيَنقَلِبُواْ خَائِبِينَ ، فيرجعوا غير ظافرين بما أملوا [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [2] ، أي : فإن تغفر لهم فإنك مالك العزة وأنت لم تكن في حاجة لهم ، ولذا فإن غفرانك لهم حكمة أنت تعلمها ظاهرة وباطنة ونحن لا نعلمها إلا ظاهرة سبحانك إنك العزيز الحكيم الذي يتكبر عن النقيصة والولد والحاجة والصاحبة إنك القوي الذي لم يكن في حاجة لمساندة سبحانك فأنت المساند لكل خلقك علىٰ مغالبة الصعاب . فلو علموا بذلك أو عرفوا لعرفوا لا غالب إلا أنت ولا قاهر إلا أنت ولا سميع ومجيب إلا أنت ولا قادر علىٰ كل أمر إلا أنت .

2 ـ في قوله تعالىٰ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [3] . فربما يخطر للإنسان أن القسمة لو وقعت علىٰ غير هـٰذا الوجه كانت أنفع

(1) تفسير الآلوسي ، ج 3 ، ص 210 .
(2) المائدة ، 118 .
(3) النساء ، 11 .

وأصلح كما تعارفه أهل الجاهلية حيث كانوا يورثون الرجال الأقوياء ولا يورثون الصبيان والنسوان الضعفاء فأنكر ٱلله تعالىٰ عليهم ما عسىٰ أن يخطر بالهم من هـٰذا القبيل ، وأشار إلىٰ قصور أذهانهم فكأنه قال : إن عقولكم لا تحيط بمصالحكم فلا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم فاتركوا تقدير المواريث بالمقادير التي تستحسنونها بعقولكم ولا تعمدوا إلىٰ تفضيل بعض وحرمانه ، وكونوا مطيعين لأمر ٱلله تعالىٰ في هـٰذه التقديرات التي قدرها سبحانه فإنه العالم بمغيبات الأمور وعواقبها ، ووجه الحكمة فيما قدره ودبره وهو العليم الحكيم ، والنفع علىٰ هـٰذا أعم من الدنيوي والأخروي وانتفاع بعضهم ببعض في الدنيا يكون بالإنفاق عليه والتربية له والذب عنه مثلاً ، وانتفاعهم في الآخرة يكون بالشفاعة .

ويوصيكم ٱلله تستوجب الأخذ بما أوصىٰ به عدلاً بين الأخوة والوارثين مما لهم نصيب فيه ، وفي هـٰذا الأمر إكرام لبني آدم من ذكر وأنثىٰ لا فرق بينهم في الحقوق والواجبات وحمْل المسؤوليات ، كلهم لآدم وآدم من تراب .

فَهُوَ ذو الحكمة البالغة والعليم بالأشياء علىٰ ما هي عليه والإتيان بالأفعال علىٰ ما ينبغي ، والمبالغ في الأحكام وإتقان التدبير وإحسان التقدير والخبير العالم بما دق من أحوال العباد وخفي من أمورهم . فالناس كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٩ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ (1) ، أي : علىٰ الفطرة التي فطر ٱلله الناس عليها متوجهين إلىٰ التوحيد متنورين بنور الهداية الأصلية فاختلفوا بمقتضيات النشأة واختلاف الأمزجة والأهواء والعادات

---

(1) يونس ، 19 ، 20 .

والمخالطات ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهو قضاؤه سبحانه الأزلي بتقدير الآجال والأرزاق ﴿ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق ، فحكمة ٱلله تعالىٰ اقتضت أن يبلغ كل منهم وجهته التي ولىٰ وجهه إليها بأعماله التي يزاولها هو وإظهار ما خفي في نفسه وسبحان الحكيم العليم .

3 ـ اللغة والتي تتكون من الاسم والفعل والحرف أنواع ثلاثة داخلة تحت جنس الكلمة ، فعند البحث عن ماهية الكلام وحده وخواصه ، فإننا نجد ألفاظاً أخرىٰ شبيهة بالكلمة ، وهي : الكلام ، والقول ، واللفظ ، واللغة ، والعبارة ، لا شك أن هـٰذه الكلمات إنما تحصل من الأصوات والحروف ، فعند ذلك يجب البحث عن حقيقة الصوت ، وعن أسباب وجوده ولا شك أن حدوث الصوت في الحيوان يختلف عن الإنسان وما الحكمة في كون الإنسان هو الناطق الوحيد وفق مخارج مخصوصة في الحلق واللسان والأسنان والشفتين ، والتي لا تتم دلالتها إلا عند الوقوف علىٰ علم التشريح . ولاشك أن ذلك يساعده علىٰ أداء مهام رسالة الخلافة والأمانة التي حملها دون سائر المخلوقات ، فهـٰذه اللغة لم يأت بها جل جلاله بمجرد كلام بل جاءت الحكمة في وضع الألفاظ للمعاني ؛ لأن الإنسان خلق بحيث لا يستقل بتحصيل جميع مهماته لوحده فاحتاج إلىٰ أن يعرف غيره ما في ضميره ليمكنه التوسل به إلىٰ الاستعانة بالغير ، ولا بدّ لذلك التوضيح من طريق ، والطرق كثيرة مثل الكتابة والإشارة والتصفيق باليد والحركة بسائر الأعضاء ، إلا أن أسهلها وأحسنها هو تعريف بما في القلوب والضمائر بهـٰذه الألفاظ ، وأن هـٰذه المعاني تحصل من غير كلفة ومعونة ، بخلاف الكتابة والإشارة وغيرهما ، فلهـٰذا قضت العقول السليمة ، بأن أحسن ما يعرف به ما في القلوب هو الألفاظ . ثم أودع في هـٰذا النطق والكلام حكماً عالية وأسراراً باهرة عجزت عقول الأولين والآخرين عن الإحاطة بقطرة من بحرها وشعلة من شمسها ، فسبحان الخالق المدبر بالحكمة الباهرة والقدرة غير المتناهية .

ومن حكمه أن جعلها الرابط بين أفراد العائلة الواحدة ومن ثم بين أفراد المجتمع والعالم بأسره كما قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (1) . إنها لحكمة لو كنتم تعلمون ، فلو تعلمون علم اليقين لتعارفتم علىٰ المحبة والمودة وتعاونتم بكل صدق علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل ولتآخيتم في ٱلله ، وقد جعل ٱلله ختام هـٰذا التعارف التقوىٰ والسير علىٰ نهج الحق وفق شروط الخلافة الإلـٰهية . فقد كان من حكمته أن جعل كمال الإنسان في معرفة الحق لذاته ، ويعرف الخير لأجل العمل به ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ (3) . ولنا أن نفرق بين العلم والحكمة ، فالعلم ينير العقول ، والحكم تنير القلوب ، فهي توقظ من الغفلة وبها يتم الاتعاظ ، والعلم به يتم صناعة المستقبل بعد تخطيط وإعداد عدة .

ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ (4) . تقويم الجسم فجعله يمشي سوياً علىٰ اختلاف مع من يمشي مكبّاً علىٰ وجهه ، وجعله عاقلاً ليكون عليماً حكيماً بعلم ٱلله وحكمته ، وجعل له قلباً في جوفه وجعل له مودة ، ولذا أمر بالطاعة فكان مجيباً . وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ

---

(1) الحجرات ، 13 .
(2) النساء ، 39_42 .
(3) الزلزلة ، 7 ، 8 .
(4) التين ، 4 .

فَعَدَلَكَ ﴾ [1] . تدل هـٰذه الآية الكريمة علىٰ الإتقان الذي عليه خلق الإنسان وسوي وعُدِّل ، ثم إن المقدر الحكيم والمدبر الرحيم جعل هـٰذا الأمر المطلوب علىٰ سبيل التجهز لحمل أسباب الخلافة ، وبما تفضل به عليه دون سائر المخلوقات ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [2] . وهـٰذا التكليف لم يكن إلا برضا الإنسان وموافقته علىٰ حمل أثقال الخلافة وما لها من شروط وواجبات ومهمات التي رفضت سائر المخلوقات والجمادات حملها كما جاء في الكتاب العزيز : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [3] .

4 ـ ومن حكمته أن جعل عجز النفس لأنه السبيل إلىٰ الوصول إلىٰ قدرة الرب ، ولأنه لا وسيلة إلىٰ القرب من حضرة ٱلله إلا بالعجز والانكسار ، فمن عرف نفسه بالضعف والقصور عرف ربه بأنه هو القادر علىٰ كل مقدور ، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالفضل والعدل ، ومن عرف نفسه باختلال الحال عرف ربه بالكمال والجلال . ثم إن الإقدام علىٰ الطاعات لا يتيسر إلا بعد الفرار من الشيطان وأعمال الفساد في الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [4] . وذلك بالاستعاذة منه بٱلله ، وجعل بفضله وكرمه هـٰذه الاستعاذة نوعاً من أنواع الطاعة ، فإن كان الإقدام علىٰ الطاعة يوجب تقديم الاستعاذة عليها افتقرت الاستعاذة إلىٰ تقديم استعاذة أخرىٰ ولزم التسلسل ، وإن كان الإقدام علىٰ الطاعة لا يحوج إلىٰ تقديم الاستعاذة عليها لم يكن في الاستعاذة فائدة ، فقد شاهدت عجزك واعترفت بقصورك فأنا أعينك

---

(1) الانفطار ، 7 .
(2) الإسراء ، 70 .
(3) الأحزاب ، 72 .
(4) الذاريات ، 50 .

علىٰ الطاعة وأعلمك كيفية الخوض فيها فقل : (أعوذ بٱلله من الشيطان الرجيم) . وإن من أجل الأمور التي يلقي الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن ، لأن من قرأ القرآن ونوىٰ به عبادة الرحمـٰن وتفكر في وعده ووعيده وآياته وبيناته ازدادت رغبته في الطاعات ورهبته عن المحرمات ؛ فلهـٰذا السبب صارت قراءة القرآن من أعظم الطاعات ، فلا جرم أن كان سعي الشيطان في الصد عنه أبلغ ، وكان احتياج العبد إلىٰ من يصونه عن شر الشيطان أشد ، فلهـٰذه الحكمة اختصت قراءة القرآن بالاستعاذة . والشيطان عدو الإنسان كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [1] . والرحمـٰن مولىٰ الإنسان وخالقه ومصلح مهماته ، ثم إن الإنسان عند شروعه في الطاعات والعبادات خاف العدو فاجتهد في أن يتحرىٰ مرضاة مالكه ليخلصه من زحمة ذلك العدو ، فلما وصل الحضرة وشاهد أنواع البهجة والكرامة نسي العدو وأقبل بالكلية علىٰ خدمة الرب المطلق .

فالمقام الأول : هو الفرار وهو قوله : (أعوذ بٱلله من الشيطان الرجيم) وفي هـٰذه حكمة تحض الخليفة من الوسوسة والحياد عن الطاعة أو المخالفة .

والمقام الثاني : وهو الاستقرار في حضرة الملك الجبار فهو قوله : (بسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم) . هـٰذه القراءة وهـٰذا التقرب ليس سهلاً بل يتطلب وضعاً خاصاً ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [2] . منعاً من التطفل والعبث بكلام ٱلله العزيز ، وكذلك القلب قد يحصل له تعلق بغير ٱلله واللسان قد ينشغل بغير ذكر ٱلله فيحصل فيه نوع من اللوث ، فلا بدّ من استعمال الطهور ، فلما قال : أَعُوذُ بٱلله حصل الطهور ، فعند ذلك يستعد للصلاة الحقيقية وهي ذكر ٱلله تعالىٰ فقال : بِسْمِ اللهِ ، وقد جعل ٱلله للإنسان

---

(1) فاطر ، 6 .

(2) الواقعة ، 79 .

عدوين أحدهما ظاهر ، والآخر باطن ، وأنت مأمور بمحاربتهما قال تعالىٰ في العدو الظاهر : ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (1) . وقال في العدو الباطن : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (2) . فكأنه تعالىٰ قال : إذا حاربت عدوك الظاهر كان مددك الملك ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (3) . وإذا حاربت عدوك الباطن كان مددك الملك كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ (4) . وأيضاً فمحاربة العدو الباطن أولىٰ من محاربة العدو الظاهر ؛ لأن العدو الظاهر إن وجد فرصة ففي متاع الدنيا ، والعدو الباطن إن وجد فرصة ففي الدين واليقين ، وأيضاً فالعدو الظاهر إن غلبنا كنا مأجورين ، والعدو الباطن إن غلبنا كنا مفتونين ، وأيضاً فمن قتله العدو الظاهر كان شهيداً ، ومن قتله العدو الباطن كان طريداً ، فكان الاحتراز عن شر العدو الباطن أولىٰ ، وذلك لا يكون إلا بأن يقول الرجل بقلبه ولسانه : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، والحمد لله رب العالمين) .

ولأن القلب بيت الإيمان والاطمئنان فهو بهـٰذا هو أشرف البقاع ، فلا تجد دياراً طيبة ولا بساتين عامرة ولا رياضاً ناضرة إلا وقلب المؤمن أشرف منها ، بل قلب المؤمن كالمرآة في الصفاء وهو في التشبيه أصفىٰ ، وذلك لأن قلب المؤمن لا يحجبه السموات السبع والكرسي والعرش كما قال تعالىٰ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (5) . بل القلب مع جميع هـٰذه الحجب يطالع جلال الربوبية ويحيط علماً بالصفات الصمدية ،

(1) التوبة ، 29 .
(2) فاطر ، 6 .
(3) آل عمران ، 125 .
(4) الحجر ، 42 .
(5) فاطر ، 10 .

وأنه تعالىٰ حكي كيفية نزول العبد في بستان الجنة فقال : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [1] .

5 ـ خلق ٱلله العالم مطابقاً لمصالح العباد موافقاً لمنافعهم فكان غاية في الإحكام والإتقان الظاهرين في العالم الأعلىٰ والعالم الأسفل ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [2] .

ولما كان فاعل الفعل المحكم المتقن عالماً منزهاً عن الحيز والمكان ، و الحلول في المحل ، فالعالم يدل علىٰ كونه في نهاية القدرة ويدل علىٰ كونه في نهاية العلم ويدل علىٰ كونه في نهاية الحكمة . فكل ما في العالم من محنة وبلية وألم ومشقة فهو وإن كان عذاباً وألماً في الظاهر إلا أنه حكمة ورحمة في الحقيقة ، فالمقصود من التكاليف تطهير الأرواح عن العلائق الجسدانية وفي هـٰذه حكمة . كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ [3] . والمقصود من خلق النار صرف الأشرار إلىٰ أعمال الأبرار ، وجذبها من دار الفرار إلىٰ دار القرار ، كما قال تعالىٰ : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ [4] . وأقرب مثال لهـٰذا الباب قصة موسىٰ والخضر عليهما الصلاة والسلام ، فإن موسىٰ كان يبني الحكم علىٰ ظواهر الأمور فاستنكر تخريق السفينة وقتل الغلام وعمارة الجدار المائل ، وأما الخضر فإنه كان يبني أحكامه علىٰ الحقائق والأسرار فقال : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ

---

(1) القمر ، 55 .
(2) لقمان ، 20 .
(3) الإسراء ، 7 .
(4) الذاريات ، 50 .

أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [1] . فظهر بهـٰذه القصة أن الحكيم المحقق هو الذي يبني أمره علىٰ الحقائق لا علىٰ الظاهر ، فإذا رأيت ما يكرهه طبعك وينفر عنه عقلك فاعلم أن تحته أسراراً خفية وحكماً بالغة ، وأن حكمته ورحمته اقتضت ذلك ، وعند ذلك يظهر لك أثر من أسرار قوله الحكيم الخبير . ومن الأمور ما نعرف وجه الحكمة فيها علىٰ الجملة بعقولنا : كالصلاة والزكاة والصوم ؛ فإن الصلاة تواضع محض وتضرع للخالق ، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير ، والصوم سعي في كسر الشهوة . ومنها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه : كأفعال الحج فإننا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة ، ثم إنه كما يحسن من ٱلله تعالىٰ أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن الأمر منه بالنوع الثاني ، لأن الطاعة في النوع الأول لا تدل علىٰ كمال الانقياد لاحتمال أن المأمور إنما أتىٰ به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه ، أما الطاعة في النوع الثاني فإنه يدل علىٰ كمال الانقياد ونهاية التسليم ، لأنه لما لم يعرف فيه وجه مصلحة البتة لم يكن إتيانه به إلا لمحض الانقياد والتسليم ، فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال ، فلِمَ لا يجوز أيضاً أن يكون الأمر كذلك في الأقوال ؟ وهو أن يأمرنا ٱلله تعالىٰ تارة أن نتكلم بما نقف علىٰ معناه ، وتارة بما لا نقف علىٰ معناه ، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر ، بل فيه فائدة أخرىٰ ، وهي أن الإنسان إذا وقف علىٰ المعنىٰ وأحاط به سقط وقعه عن القلب ، وإذا لم يقف علىٰ المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقىٰ قلبه متلفتاً إليه أبداً ، ومتفكراً فيه أبداً ، ولباب

---

(1) الكهف ، 79ـ82 .

التكليف إشغال السر بذكر ٱلله تعالىٰ والتفكر في كلامه ، فلا يبعد أن يعلم ٱلله تعالىٰ أن في بقاء العبد ملتفت الذهن مشتغل الخاطر بذلك أبداً مصلحة عظيمة له ، فيتعبده بذلك تحصيلاً لهـٰذه المصلحة .

6 ـ عدم الخطأ في وضع موازين الأشياء من ذلك : جعل لكل مخلوق مهنته فالمزارع مزارع والنجار نجار والبحار بحار ؛ حتىٰ تكون منظمة وفق ما يراها هو جل جلاله ، وتبعاً للنواميس التي وضعها لهـٰذا الكون العجيب والذي جعله يخدم بعضه بعضاً وفي دقة متناهية فتبارك ٱلله أحسن الخالقين ، وكل ذلك يصب في هدف واحد ـ وهو الذي نراه نحن ـ هو خدمة بني البشر ، وخاصة خلفائه الذين لهم السعادة في الدنيا والآخرة بما ألهمهم ٱلله جل جلاله من الحكمة وقدرة التمييز ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [1] .

7 ـ جعل لكل شيء موسماً ووقتاً خاصاً ومكاناً خاصاً فإذا حاول الإنسان تغيير ذلك خسر فيه وقد لا يظهر له في حينه فيظن أنه نجح في ذلك ، ومن ذلك :

1 ـ غرس الأشجار في غير أماكنها سواء أكانت مثمرة أو غير مثمرة ومع ذلك فإن كل شيء مفيد ونافع لحِكمة نعلمها من علم ٱلله وحِكم نحن لا نعلمها هو عز وجل يعلمها ، إنه لا يخلق شيئا عبثاً ، ولا تبديل لنعم ٱلله ، ولهـٰذا فقد ينقل الإنسان شجرة مثمرة من مكان إلىٰ مكان فإن لم يناسبها ذلك المكان الذي نقلت إليه طبيعة ومناخاً وتربة فلا تثمر فيه أو أنها تتبدل وتتغير فلا تظل كما شاء لها أن تكون عليه ، وقد تموت .

فالفاكهة التي تنبت في المناطق الحارة لا تفيد بالدرجة الأولىٰ إلا أهلها ، وهـٰكذا الباردة ؛ لأن ٱلله جل جلاله خلقها في ذلك المكان وعلىٰ تلك الصفة

(1) الأنبياء ، 24 .

إلا لتخدم الإنسان في ذلك المكان ، فلا يجوز أن ننقلها إلىٰ مكان غيره تعسفاً إن لم تكن الحاجة وتعود بما ينفع ويفيد العباد ، وذلك لأن كل شيء وضع لحكمة هو يعلمها ، وهٰذه الحكمة التي جعلها في قلوب الذين استخلفوا ليميزوا الخبيث من الطيب فيعرفون ما يصلح بهم وبمستخلفيهم ، فيأمرون به أو ينهون عنه .

2 ـ تغيير خلق ٱلله ذلك بأن يحاول التغيير في الأشياء أو تحسينها كأن يلعب بمورثات الحيوانات أو النباتات الجينية كمحاولات الاستنساخ التي تجري اليوم في النبات والحيوان ، وقد تطول البشر ، فقد ظهرت عيوبها من أول يوم تغيرت فيه ، فالفاكهة مثلاً التي تم تعديلها تغيرت من حيث طعمها ورائحتها وفائدتها وبذلك لم يقبلها الناس لأنها لم تكن كما خلقها ٱلله جل جلاله ، بل عبث بها من عبث وبالتالي اختل ميزانها ونتج عنها غير المطلوب تحقيقه ، ويرجع السبب في ذلك إلىٰ قصور إدراك بني البشر إلا في حدود معينة التي جعلها ٱلله خاصة لحكمائه ، ومع ذلك علينا أن نقول سوياً وقل ربي زدني علما حتىٰ يكون الصواب فيما نفعل ونعمل ونبتكر أو نخترع ونصنع أو نستكشف بعلم من علمه إنه السميع العليم ، ولهٰذا فنحن لا نحرم ما أحله ٱلله ولا نحلل ما حرمه وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ولا أود أن أستدرج في الشرح ، فموضوع الاستنساخ موضوع علمي بالتأكيد سيتطور وتتحسن أحوال التجارب وتكون النتائج أفضل وأحسن ومع ذلك لا تبديل لخلق ٱلله . قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [1] .

3 ـ تغيير أوقات النوم بأن يسهر الليل وينام النهار فإن في ذلك أكبر عبث بتركيبة الجسم البشري وله آثار ضارة قد لا تظهر في حينها ، فسهر الأطفال علىٰ سبيل المثال قد يجعل الطفل قاصر التفكير عندما يتقدم إلىٰ عمر الشباب ، وقد يورث له المرض والعلة ، ويؤخره عن الصلاة في وقتها ؛ ويصبح كسولاً غافلاً عن مواقيت العبادة والعمل الصالح ، ويكون في منعزل عن مخالطة الناس الذين لهم في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات . وفي ذلك قال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [2] .

وعليه كل شيء يُغيَّر يتغير إلا خلق ٱلله ثابت ، لذلك أرسل ٱلله الرسل وأيدهم بالحكمة ليكونوا له من الشاكرين ، فقد آتىٰ ٱلله لقمان الحكمة حين جعله شاكراً في نفسه وحين جعله واعظاً لغيره ، وهـٰذا لأن علو مرتبة الإنسان لا يكون كاملاً في نفسه إلا وهو مكملٌ لغيره فقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

---

(1) الروم ، 27ـ32 .

(2) النبأ ، 10 ، 11 .

مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [1] ، أن ٱلله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي فيه إرشاد الأباعد والأقارب ، ثم إنه في الوعظ والحكمة ذكر نتاج حكمته وما كان أساساً لها وما يصلح به أمر خلفائه في أرضه فأعطىٰ زبدة ما توصل إليه وأهم عناصر هـٰذه الوصية التي تكون سراجاً ومنهاجاً للخلفاء عامة في أرضه والتي تمثلت في الوصايا الآتية :

1 ـ **النهي عن الشرك** : مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ الشرك إثم والإثم ظلم ، والظلم اعتداء في غير محله ، وأكبر المظالم وأعظمها الشرك بٱلله ، وهـٰذا الأمر في قاموس الخليفة وقيمه وفضائله منهي عنه ، وكيف يصح الظلم وٱلله تعالىٰ يقول : ﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ [2] . وعليه فالشرك أن تجعل المعبود غير الخالق ، والقاعدة تقول : (لا عبادة لغير الخالق) ولأن الخالق واحد فلا ينبغي أن تشرك معه أحداً ، ولهـٰذا فإن أمر الشرك أمر عجاب مخالف للقاعدة التي تهدي للتي هي أقوم . ولو كان فيها أكثر من إلـٰه لفسدت السموات والأرضون وانعدمت المغفرة والرحمة ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ

(1) لقمان ، 13 ـ 19 .

(2) الإسراء ، 70 ـ 75 .

يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [1] .

فالإشراك أن توضع المعبودية في غير ٱلله تعالىٰ ولا يجوز أن يكون غيره معبوداً أصلاً . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [3] .

2 ـ **الشكر لله تعالىٰ** : مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى ﴾ وشكر ٱلله لا يتم إلا اعترافاً وإيماناً به واحداً أحداً لا شريك له فله الحمد والشكر علىٰ نعمائه وما خلق فينا من حسن خلق وما خلق لنا من نعم ظاهرة وباطنة إنه بنا رءوف رحيم . ولذا فمن الحكمة أن يشكر العبد ربه عز وجل . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [5] .

3 ـ **طاعة الوالدين في غير معصية ٱلله والشكر لهما** : قال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ

(1) الأنبياء ، 19 ـ 24 .
(2) البقرة ، 39 .
(3) البقرة ، 161 .
(4) إبراهيم ، 7 .
(5) آل عمران ، 144 ، 145 .

ﱡﭐ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﱠ ، جاء شكر الوالدين بعد شكر ٱلله تعالىٰ مباشرة ، فـ(أن أشكر لي) تعود علىٰ شكر العبد لله تعالىٰ ، ولوالديك يكون الشكر التالي تقديراً للوالدين اللذين يسهران الليل ويكدان اليوم من أجل توفير حياة طيبة للأبناء ، فحمل الأم لجنينها لا يكون إلا وهناً علىٰ وهن ، وفي هـٰذا الأمر مكابدة ومعاناة ، اللهُمَّ أرضَ ، وأرضهما عنا . قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [1] ، لذا فإن طاعة الوالدين في غير معصية ٱلله واجبة وشكرهم علىٰ ما فعلوه وما يفعلون خير في ذاته فلا ينبغي أن يغفل الخليفة عن هـٰذه الطاعة وهـٰذا الشكر الحميد . وفي هـٰذا الأمر قال تعالىٰ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [2] .

وحرصاً علىٰ احترام الوالدين فهما والدان حتىٰ ولو كانا من غير المستخلفين فيها ، فهما والدان لهما الشكر والتقدير ولا طاعة لهما في معصية ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

4 ـ **إتبـاع سبيـل الخليفـة** : وهـٰـذه جـاءت نصـاً مـن قـول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ ، تعني خذ قدوتك الذي أطاعني (طاعة ٱلله التامة) فإن أخذتها تهتدي إلىٰ سبيل الرشاد المحمود ، ثم جاء قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . أي : بعد أن تتخذوا قدوتكم الحسنة الذين آمنوا بي واهتدوا إلىٰ سبيل الحق ، بعدها سيكون

---

(1) الإسراء ، 23 ، 24 .

(2) إبراهيم ، 7 .

جزاؤكم عليَّ والضمير عائد علىٰ ٱلله تعالىٰ ، ولهـٰذا فمن اتَّبَعَ السبيل الذي يرضي ٱلله يُتبَع سبيله .

وعليه فالخليفة يخلفه خليفة ، وهـٰذا هو السبيل الرشاد الذي يرتضيه الحكيم المطلق جل جلاله ، وبهذا الاهتداء (أخذ القدوة الحسنة) سيكون اللقاء بالمستخلفين باتباع القدوة الحسنة ، وحينها ينبئهم ٱلله بما عملوا من سيئات وينبئهم بما غفر لهم ، أي ينبئهم بأسباب المغفرة والتوبة وينبئهم بأسباب وجوب اتباع القدوة الحسنة الهادية للحق .

إذاً ﴿ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ﴾ : إتباع طاعة وإرادة واختيار ، وهـٰذا الأمر يسترشد به بسلوك الرسل والأنبياء القدوة (المستخلفون الأوائل) صلوات ٱلله وسلامه عليهم ، ثم اتباع الصالحين والمصلحين الأفاضل ، والطائعين العظام وهم المبشرون والمنذرون والمحرضون علىٰ فعل الخيرات والإكثار من الحسنات المؤمنون في يومهم وفي غدهم مع الوارثين .

5 ـ **إدراك علم المستقبل والتنبيه إليه** : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ ، ينبه لقمان ابنه بأن لا يقصر نظره وتفكيره علىٰ رؤاه فقط بل يعلم أن خالق الكون هو مدبره ، ولهـٰذا فعليه أن يفكر حتىٰ يتعظ ، ولا يستغرب بحدوث ما لم يدركه ، فخالق الكون حكيم عليم خبير ، ولهـٰذا لم يخلق كل شيء ووقف ، إنه خلق ولا زال يخلق وهو علىٰ كل شيء قدير ، وحتىٰ حدود ما تم خلقه لن يكون جميعه بين أيدي البشر فهـٰذا الأمر يتعلق بيد ٱلله العليا ، وليس بأيدي من لم يبلغوا الكمال . قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ

---

(1) الأنعام ، 56 .

وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (2) . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (3) .

6 ـ **إقامة الصلاة** : تأكيداً علىٰ أهمية الطاعة لله تعالىٰ أوصىٰ لقمان ابنه بإقامة الصلاة ، وإقامة الصلاة تعني : العمل بها والعمل علىٰ ترسيخها لدىٰ الخلائف ، وإقامة الصلاة تعني أيضاً المحافظة عليها طاعة لله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (4) . يفهم من هٰذه الآية الكريمة أن الصلاة فعل خير وعبادة خيرة ولذا فإقامتها طاعة لأمر ٱلله ، وطاعة ٱلله تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وذلك لأن إقامتها ذكر لله ومن يكون قضاء وقته في ذكر ٱلله ليس لديه وقت للفحشاء والمنكر ، ولهٰذا فإن ذكر ٱلله أكبر والحمد لله .

قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ

(1) آل عمران ، 162 ـ 164 .
(2) الأحقاف ، 13 ، 14 .
(3) البقرة ، 277 .
(4) العنكبوت ، 45 .
(5) البقرة ، 110 .

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُوْلَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1) .

ارتبطت إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة ، والإيتاء لا يكون إلا ممن يملك ويعطي دون منة ولا ينتظر مقابلاً إلا في مرضات آلله ، ولا يؤتي الزكاة إلا خليفة يؤمن بالأمر المطلق من الحكيم المطلق ويعمل علىٰ إظهاره ، ولذا فالإيتاء فعل إرادي دون أية إكراه أو إجبار ، وهو إظهار حق لصاحب حق ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ (2) .

7 ـ **الأمر بالمعروف** : قال لقمان يا بني وهو يوصيه بإقامة الصلاة : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ والأمر بالمعروف هو الأمر المحبب المألوف لدىٰ الخليفة ، والأمر المألوف هو الأمر الذي يحتكم الخليفة به ويحتكم إليه ، وهو نتاج القيم العرفية المتفق عليها برضاء الناس عنها ، ولهـٰذا فالأمر المعروف ينال الرضاء والاتفاق ويحقق اللحمة والوحدة بين من يتعلق الأمر بهم وهو يتفق بالتمام مع كل ما يرضي آلله ، ولهـٰذا من الحكمة أن يأمر الخليفة بالمعروف ولا يأمر بمعصية ولا مكروه وبدعة يختلقها وهي لا تفيد العباد ولا ترضي آلله تعالىٰ .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ

(1) النساء ، 162 .
(2) المائدة ، 55 ـ 56 .
(3) آل عمران ، 104 .
(4) البقرة ، 263 .

﴿ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١١٤ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (1) .

وعليه من الحكمة أن يأمر بني آدم بالمعروف ، وذلك فمن يأمر بغيره لا يطاع ، ومن يأمر بما لا يطاع يأمر بمكروه ، والمكروه رذيلة لا ينبغي أن تسود بين الناس . قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (2) .

8 ـ **النهي عن المنكر** : المنكر هو ما لا يطيقه ولا يقبله الناس وينكروه لتعارضه من القيم والفضائل الحميدة التي ينبغي أن تسود بين المستخلفين فيها . ولذا فالنهي عن المنكر نهي عن ممارسة الفساد في الأرض التي قال فيها ٱلله تعالىٰ : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (4) . إذاً الإصلاح في الأرض المستخلفة بني آدم فيها هو العمل الصالح ، والفساد وسفك الدماء فيها

---

(1) النساء ، 114 ، 115 .

(2) البقرة ، 231 .

(3) الأعراف ، 54ـ56 .

(4) الأعراف ، 85 .

بغير حق هو المنكر المنهي عنه ، فمن انتهىٰ كان في طاعة ٱلله الحكيم الخبير ، ومن عصىٰ كان علىٰ المنكر الذي لا يرتضيه الخالق ولا المخلوق المستخلف في الأرض . وبطبيعة الحال من ينتهي فهو خير له ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (1) .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) . يستنبط من هـٰذه الآيات الكريمة أن كثيراً من العمل المنكر الموقع للعداوة المنهي عنها هي أعمال شيطانية فمن يتقي ربه تعالىٰ لا يدخلها وينهىٰ عنها ما استطاع إليه سبيلاً ، ويسعىٰ إلىٰ إصلاح كل ما من شأنه أن يؤدي إلىٰ فساد في الأرض أو عداوة بين المستخلفين فيها ، ولهـٰذا النهي عن المنكرات عمل صالح يستوجب الإقدام عليه ولا يستوجب أي تأخير عنه . ولذلك يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (4) .

9 ـ **الصبر علىٰ المصاب** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ يقول الطبري في تفسيره : « وانه الناس عن معاصي ٱلله ومواقعة

---

(1) الحشر ، 7 .
(2) المائدة ، 91ـ93 .
(3) فصلت ، 46 .
(4) الجاثية ، 15 .

محارمه واصبر علىٰ ما أصابك من الناس في ذات ٱلله ، إذا أنت أمرتهم بالمعروف ، ونهيتهم عن المنكر ، ولا يصدّنك عن ذلك ما نالك منهم » [1] .

إذاً الصبر علىٰ المصيبة التي من أسبابها أنك أقمت الصلاة وأمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر ، فإن هـٰذا الصبر في مواجهة ما يلاقىٰ في سبيل إحقاق الحق هو صبر علىٰ خير وليس صبراً علىٰ شر ، فاصبر وما صبرك إلا بٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [4] .

الصبر قبول بما يُفعل حتىٰ ولو كان لهـٰذا الصبر ثمن ، ولذلك فإن الصبر علىٰ الحق حق علىٰ من كان صابراً ، وواجب علىٰ من اهتدىٰ إلىٰ الاستخلاف في الأرض والوراثة في الجنة ، وفي الصبر مسؤولية تجاه ما تم الإيمان به بأنه الحق المطلق ، ولهـٰذا فقبول دفع الثمن في محله يؤدي إلىٰ الفوز بالنتيجة المترتبة عليه وهي النتيجة المنتظرة أو المرتقبة .

10 ـ **النهي عن تصعير الخد للناس** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ التصعير التفات ، وتصعير الخد للناس يدل علىٰ عدم احترامهم ،

---

(1) تفسير الطبري مجلد 20 ، ص 142 .

(2) النحل ، 125ـ128 .

(3) الأحقاف ، 35 .

(4) طه ، 130 .

ولهـٰذا فيه من التكبر الذي هو معيب ولا ينبغي أن يكون سلوكاً في المعاملة بين الناس ، إنه تقليل من شأن وتنقيص من مكانة بني آدم الذين خلقهم ٱلله في أحسن تقويم ، وأرادهم أن يكونوا كذلك بإصلاح الأرض وفلاحها ونهاهم عن الإفساد فيها ، ولهـٰذا فقد نهىٰ ٱلله عنه كما جاء علىٰ لسان لقمان وهو يعظ ابنه إلىٰ ما يجب أن يكون عليه ، وفي هـٰذا الأمر تكون القدوة الحسنة بالتواضع للناس لا بالتكبر عليهم ، ولأن في تصعير الخد التفاتاً وعدم مبالاة وإهمالاً لمن صُعِّرَ الخد من أجله ، ولأن ٱلله كرَّم بني آدم في البر والبحر ، ولأن ٱلله استخلف الإنسان في الأرض ويريده أن يعمل صالحاً فيها حتىٰ يرث الجنة ، فإن هـٰذه المكارم تستوجب التفاتاً وانتباهاً واهتماماً لا تستوجب تقليلاً من شأن من كرَّمه ٱلله وحملهم في البر والبحر مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (2) .

---

(1) الإسراء ، 70ـ75 .

(2) الكهف ، 28 ، 29 .

11 ـ **النهي عن المشي في الأرض مرحاً** : مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ . المشي في الأرض مرحاً ، سوء تقدير لما يجب عليه أن يكون المشي ، وبالتالي سوء التقدير مخالفة تلفت الانتباه وقد تحسس الآخرين بالقلق أو تخيفهم ممن يمشي مرحا وكأنه المالك الوحيد للأرض ، وهـٰذه معيبة منهي عنها ، وهي دليل عدم الاتزان الحركي وقد تكون بأسباب عدم الاتزان العقلي ، ولهـٰذا فهي تدل علىٰ أن أسباباً غامضة وراء السلوك المتحرك بغير اتزان وتقدير ، ولذا فالمخافة تتولد في نفوس المشاهدين للمارح في الأرض بغير تقدير موضوعي .

وفي تفسير ابن عبد السلام : « (مُخْتَالٍ) منان ، أو متكبر ، أو بطر . (فَخُورٍ) متطاول علىٰ الناس بنفسه ، أو مفتخر عليهم بما يصفه من مناقبه ، أو الذي يعدد ما أعطىٰ ولا يشكر ٱلله تعالىٰ فيما أعطاه »[(1)] .

إذاً المشي المرح في الأرض فيه تكبُّر وتطاول علىٰ الآخرين ، فٱلله يحب المتواضعين ولا يحب المتكبرين الذين يمشون في الأرض مرحاً دون أن يحترموا الناس الذين يمشون عليها هوناً وفقاً لما هو مأمور به .

وعليه أوصىٰ لقمان ابنه بالتواضع والاتزان والاعتدال علىٰ الأرض التي استخلفه ٱلله فيها بحكمته وخبرته . قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[(2)] .

الحكمة من عدم التكبر والتبختر إشارة إلىٰ المكارم التي هي صفة الملائكة فإن عدم التكبر والتبختر صفتهم . ولذلك يخشىٰ لقمان من أمرين أحدهما : التكبر علىٰ الغير ، والثاني : التبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه فقال : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ تكبراً ، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾

(1) تفسير ابن عبد السلام ، مجلد 4 ، ص 477 .
(2) الإسراء ، 37 ، 38 .

تبختراً ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ يعني : من يكون به خيلاء وهو الذي يري الناس عظمة نفسه ، وهو التكبر ﴿ فَخُورٍ ﴾ يعني : من يكون مفتخراً بنفسه وهو الذي يرىٰ عظمة لنفسه في عينه ، وفي الآية لطيفة وهي أن ٱلله تعالىٰ قدم الكمال علىٰ التكميل حيث قال : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وفي النهي قدم ما يورثه التكميل علىٰ ما يورثه الكمال حيث قال : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ .

12 ـ **القصد في المشي** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ ، والقصد في المشي : اتزان ، واعتدال به ينال الماشي تقدير المشاهد ، واحترامه ، وهو توسط ، واعتدال في مرضات ٱلله تعالىٰ .

والقصد مفضل في الأمور كلها : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ أي : كن وسطاً بين الطرفين المذمومين ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (3) .

وعليه القصد في المشي يبقي السلامة ويبلغ الغايات ، وعدم القصد فيه لا يطول بالمشوار ، ولذا في القصد هداية واتزان ، وفي المبالغة مظهرية لا تليق بالسلوك الإنساني ، وهـٰذا لا يعني زمن الأوقات المقطوعة لممارسة

---

(1) لقمان ، 32 .

(2) الإسراء ، 29 ، 30 .

(3) فاطر ، 32 .

الرياضة ، التي تقوي العضلات وتسهم في متانة البنية وسلامتها من الأمراض ، ولأن لنفسك عليك حقّاً فأعط نفسك حقها من ممارسة المناشط في أماكنها الخاصة بها ، حتىٰ تقدر من الآخرين ، وامشِ متزناً ، معتدلاً ، مقتصداً ؛ حتىٰ لا تكون في دائرة النقد نشازاً .

13 ـ **غض الصوت** : قال تعالىٰ : ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ ، ويقصد بإغضاض الصوت : تلطيفه بما يليق أن يكون الحديث ، وعدم رفعه بما يزعج المستمعين ، ولذا فقوله تعالىٰ : ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ﴾ تعني أنقصه حتىٰ يتلاءم مع ما يليق بالاستماع المفضل . ومع أن الحمير من حيوانات الزينة والركوب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1] ، إلا أن صوتها من أنكر الأصوات ، ولأنها لا تعقل فهي لا تقدر المستمع من يكون ، ولهـٰذا فصوتها الذي به لا يقدر الآخرون صوت مزعج منكر .

وغض الصوت يعتبر من باب العمل بالمكارم ، وقد يتساءل البعض : هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي ؟ فنقول : نعم ، سواء علمناها نحن أو لم نعلمها ، وفي كلام ٱلله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يصيبه عد ، ولا يعلمه أحد ، وقوله : ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ﴾ إشارة إلىٰ المكارم ، ثم قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ ، ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي ، لأن رفع الصوت يؤذي السامع وأما السرعة في المشي فلا تؤذيه وإن كانت تضيق بالنفس لدىٰ بعض المشاهدين ولهـٰذا كان النهي .

اللَّهُمّ يا الحكيم اجعلنا علىٰ الحكمة التي بها نستَعينك ونَسْتَهديك ، ونعوذُ برضاكَ من غَضَبِك ، فاغفر لَنا وارْحَمنا وتبْ علينا إنّك أنْتَ التَّوّابُ

---

(1) النحل ، 8 .

الرَّحيم ! اللهُمَّ يا الحكيم لا تجعلنَا من الذين فرَّقُوا دِينَهم وَكانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون ! اللّهُمَّ اجعلنا مسلمِينَ لك ، وَافِين لك بالميثاق الذي أخذتَ علينا وأن نكون قوّامين بالقِسْط شُهَداءَ علىٰ الناس ! اللهُمَّ يا الحكيم اهدنا صراطَك المستقيم ، صراطَ الذين أنعمت عليهم من النبيّين والصِّدِّيقين والشُّهَداء ، الذين قالوا ربُّنا ٱلله ثم استقاموا ، وعلموا أنك أنت الجبّارُ الذي خَضَعتْ لجَبرُوتِه الجبَابرة ، والعزيزُ الذي ذلّتْ لعزَّته الملوكُ الأعِزَّة ، وخَشَعت لمهَابة سَطْوتِه ذوُو المهابة ! اللهُمَّ يا الحكيم ثبتنا بالقول الثابت ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فنعم المولىٰ ونعم المصير . ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (1) !

اللهُمَّ يا الحكيم حبب إلينا الإيمان ، والحكمة ؛ التي تعظنا إلىٰ ما يجب القيام به ، وتنهانا عما يجب الانتهاء عنه ! اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين في الأرض ؛ لنصلح ، لا لنفسد فيها ، ونسفك الدماء ، واهدنا فيمن هديت بجاه أسرار البيت ومن فيه صلىٰ ، وصليت !

اللهُمَّ إنك الحكيم فاجعلنا من الحكماء ، واجعلنا من الوارثين ! اللهُمَّ صل علىٰ سيدنا محمد وسلم صلاة تحل بها العقد وتفرج بها الكرب وتصلح بها الأمور ! اللهُمَّ نسألك يا أحكم الحاكمين أن تهب لنا حكماً ، وأن تلحقنا بالصالحين ، وأن تجعل لنا لسان صدق في الآخرين ، وأن ترزقنا جنة النعيم !

اللهُمَّ يا الحكيم ، فبحكمة منك خلقتنا ، وهديتنا ، ورزقتنا ، فاجعلنا في أحسن تقويم ؛ حتىٰ نقوم بحق عبادتك علىٰ الوجه الذي يرضيك عنّا ! ويا الحكيم نسألك بحكمتك ألا تجعلنا في أسفل سافلين ، أو أن نضل بعد أن كنا

---

(1) إبراهيم ، 27 .

من المهتدين ، وأن تلهمنا الحكمة في كل قول ، وعمل ، فمن يؤتىٰ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً !

اللهُمَّ أحمدك يا الحكيم علىٰ خلقك لنا في أحسن تقويم ، وجعلك فينا الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين مبشرين ، ومنذرين ، وداعين للخير ، فاجعل لنا الخير في كل حين ! والحمد لله رب العالمين !

الوَدُودُ جلّ جلاله

الودود « هو الذي يحب الخير لجميع الخلق فيحسن إليهم ويثني عليهم » [1] .

الودود : « الذي يَوَدُّ عبَادَهُ الصالحين فيحبهم ويقربهم ويرضىٰ عنهم ويتقبَّلُ أعمالَهم ، وهـٰذه محبة خاصة بالمؤمنين ، أما المحبة العامة فاللّٰه هو الودود ذو إحسان كبير لمخلوقاته من جهة إنعامه عليهم وإكرامه للإنسان واستخلافه بينهم ، حيث أسجد له ملائكته واستخلفه في أرضه علىٰ سبيل الابتلاء ، واستأمنه في ملكه انتظاراً لمزيد من الإكرام في دار الجزاء ، وبعث إليهم الرسل وأنزل عليهم الوحي من السماء ، كل ذلك بفضله وكرمه وعطائه ومدده » [2] .

الودود : هو اللّٰه المتصف بالود ، ولأن الود من ذات اللّٰه فإن استمداده لا يكون إلا منه ، ولهـٰذا فاللّٰه الودود مصدرُ لكل ود .

الودود : هو غير منقطع الود ، وهو الذي يود الموددود بما لا يكو ن في حساباته ، أو أنه في حساباته ولـٰكنه في غير دائرة المتوقع الزماني أو المكاني ، أو الاثنين معاً .

والودود : هو من يملك ما لا يملكه غيره ، في الوقت الذي يكون الغير

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 122 .

(2) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 23 ، ص 10 .

في حاجة مما يملك المتصف بالود ، ولذا فالود لا يقابله إلا ود ، والود لا ينتج إلا محبة بها تطوىٰ المسافات بين الودود المطلق والودود بالإضافة ، وهـٰكذا يمتد الود من ودودٍ إلىٰ مودودٍ من بعده مودود ، ولهـٰذا فالود يستخلف في من تهيأت نفسه لمبادلة ودٍّ بودٍّ .

وٱلله تعالىٰ ودود بالآتي :

1 ـ **ودود بمغفرته** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ (1) .

مع أن ٱلله تعالىٰ خلق الإنسان في أحسن تقويم إلا أنه لم يخلقه علىٰ الكمال ، فهو يُخطئ ويصيب ، ولأنه كذلك فكان فضله عليه بالاستغفار وداً ، ولأن فعل الفاحشة من الأفعال النواقص ، فمن يرتكبها أو يظلم نفسه ويذكر ٱلله فٱلله يغفر له فعلته لكل ذنب دون الشرك به ، ولذا فالخليفة يذكر ربه دون إصرار علىٰ فاحشة فيغفر له ذنبه ، ولذلك لا يغفر الذنوب إلا الودود عز وجل . وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ

---

(1) آل عمران ، 133 ـ 136 .

(2) الزمر ، 53 .

﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (1) .

2 ـ **ودود برحمته** : قال تعالىٰ : ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ (2) .

الرحمة مكوّن قيمي من أفعال الخير ، وتستمد من الرحمـٰن ، وهي لا تمنح إلا من أبواب الود ، ولذا فللرحمة أبواب مفتَّحة لمن يود أن يدخل منها لمودة الرحمـٰن خوفاً من عذابه ، والخليفة بطبعه الإيماني هو دائماً في حالة انتظار للفوز برحمة الودود ، مما يجعله فاعلاً للخير ومحرضاً علىٰ فعله . وقال تعالىٰ : ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ (4) .

3 ـ **ودود بعفوه** : قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(1) الصف ، 10ـ13 .
(2) الإسراء ، 54ـ58 .
(3) القصص ، 71ـ73 .
(4) الجاثية ، 30 .

وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (1) ، ٱلله تعالىٰ خلق الإنسان ويعلم بحاله وما فيه من غرائز فطرية ، وما له من حقوق في المعاشرة الزوجية ، ولأن لكلٍ ظرفه فقد يتعرض الخليفة لظروف تحول بينه وبين التطهُّر فيسر له بواسع عفوه أن يتيمم إذا تعرض لمجيء الغائط أو لا مس النساء ، ولذا فمن وده التيسير والعفو مما يجب أن يقوم به الخليفة لو لم يتم التعرض لمواقف وتحول الحوائل بين تأدية الفريضة في وقتها . قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (2) .

والخليفة هو من يستمد صفة الود من الودود المطلق ليكون الود المعاملة بين الناس ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ (4) .

4 ـ **ودود بحفظه** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ

---

(1) النساء ، 43 .
(2) النساء ، 98 ، 99 .
(3) البقرة ، 178 ـ 179 .
(4) الشورىٰ ، 40 ـ 41 .

إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [1] .

ٱلله جل جلاله ودود وهو بالود حفيظ ، ولذا فالحفظ نتاج عناية ربانية ، ولأن الودود جَعَلَ في الأرض خليفة ، والخليفة هو من يستمد صفاته من صفات ٱلله تعالىٰ ، ولكي يختص بصفة الحفظ ، فليتقِ ٱلله ربه في كل قول وفعل ، وفي كل سر وعلانية ، وليكن حفيظاً للعهد إذا أبرم عهداً ، وحفيظاً علىٰ الأرض بالفلاح فيها ، وحفيظاً علىٰ أداء العمل إذا ما كُلِّفَ به في مرضاة ٱلله حتىٰ يكسب وده ، ويجب عليه رعاية الكبير وحفظه ورعاية الصغير وحفظه ، ورعاية المسكين واليتيم والسائل والمحتاج بود ورحمة ، وأن يكون حفيظاً علىٰ حمل الأمانة ، وطاعة الوالدين ، وحفيظاً علىٰ كل ما يحافظ علىٰ بقاء النوع الإنساني ، وحفيظاً بكل ود علىٰ أداء الصلاة والزكاة وصوم رمضان والجهاد في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل وتجنب ما أمر ٱلله بتجنبه والانتهاء عما نهىٰ عنه ، وحفيظاً علىٰ شكره وطاعته ، فله الحمد علىٰ وده وحفظه . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [2] .

والخليفة بالإضافة قال : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [3] .

5 ـ **ودود بحسن خلقه** : قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن

(1) هود ، 56 ـ 57 .
(2) سبأ ، 20 ـ 21 .
(3) يوسف ، 55ـ57 .

سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [1] .

لقد خلق الخالق كل شيء بحسنه ، وفضَّل الإنسان علىٰ ما خلق بحسنٍ من ماء مهين ، والمهين هو المتماسك باللين التام ، ومع أننا نحس بلين الماء كلما حاولنا الإمساك به بين اليدين ، إلا أنه إذا ما انحدر في الشلالات كان قوة بها تتولد الكهرباء ، وإذا ما داهمتنا كانت القوة التي لا نستطيع مقاومتها ، ولذا فمن هٰذا الماء المبارك المهين نحن كنا ويكون الخلفاء من بعدنا والوارثون .

وعليه فمن لين الماء المهين كان الود فينا ، ومن قوته إذا ما انحدر من أعالي الشلالات نثور ونغضب لكرامة ولدين ٱلله إذا ما تعرض لاعتداء الظالمين ، ومن قوته كان العقل قوة ينير الدرب ويصنع المستقبل وينقل الإيمان حتىٰ يحقق العزة .

وقال تعالىٰ : ﴿ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [3] .

6 ـ ودود بكرمه : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ

---

(1) السجدة ، 6ـ9 .

(2) عبس ، 18ـ32 .

(3) التين ، 4ـ8 .

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾ (3) .

الكريم : هو المعطي بدون منة ، والمالك الذي لم يكن في حاجة لِما يملك ، سبحانه يملك الملك من أجل ما يملك جل جلاله . ولأن الكريم معطٍ بدون منة ، فهو ودود بما يعطي ويرزق ، والخليفة هو الذي يملك من الملك المطلق ، ويرزق من هم في حاجة بالعطاء والعمل والتصدق والتزكي دون أن ينتظر مقابل ذلك إلا مرضاة الرازق عز وجل ، وهو الذي يعلم : أنه يعطي مما أعطاه الودود المطلق ، فلا يمن .

7 ـ **ودود برزقه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ (4) ، مالك الرزق هو مالك أمره ، ومالك الرزق لم يكن في حاجة لرزقٍ ، ولهـٰذا فهو الخالق لمن هم في حاجة لرزقه ، وجعل الخليفة ليرزق من رزقه من هم في حاجة ، والخليفة هو من يعلم : أن ما يعطي من رزق هو في أساسه عطاء من معطٍ لا يمن ويعلم : أن الرزاق رزقه لا ينضب سبحانه لا إلـٰه إلا هو . قال تعالىٰ : ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ (5) .

---

(1) الأنفال ، 2ـ4 .

(2) يس ، 11 .

(3) الحديد ، 11 .

(4) الذاريات ، 55ـ58 .

(5) النور ، 37 ـ 38 .

8 ـ **ودود بإنزاله الماء الطهور المخرج للثمرات** : قال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ (3) .

سبحانه وتعالىٰ خلقنا مما خلقنا من ماء مهين ، وخلق لنا الماء نعمة بدونه لا تكتب لنا الحياة ، وبدونه لا تنبت الأرض العشب ، وبدونه لم نتنقل عبر البحار والمحيطات ، وبه ولّدْنا الطاقة التي تنير المنازل ، وتحرك وسائلنا التي صنعناها بالقوة المستمدة من القوي الودود ، ولهٰذا تسخّرت لنا الأنهار ؛ لتنقل لنا ماء عذباً طهوراً ، والمحيطات تتبخر حتىٰ يكون السحاب ركاماً ، فيسقط المطر بوده رحمة ماء طهوراً .

9 ـ **ودود باستخلافه** : قال تعالىٰ : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (4) .

لقد ميز ٱلله الإنسان باستخلافه في الأرض دون غيره مما خلق ، وبهٰذا

---

(1) الفرقان ، 48ـ49 .
(2) الأنعام ، 99 .
(3) إبراهيم ، 31 ، 32 .
(4) النمل ، 62 .

الاستخلاف نال المستخلف وده بحمل الأمانة التي كان بأمرها ظلوماً جهولاً ، وليهديه سبيل الحق بعث من المستخلفين أنبياءً ورسلاً صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً ، وجعلهم الوارثين وكان فضل ٱلله عليهم كبيراً . وعليه فمن المستغرب أن البعض لا يذكر خالقه ليستغفر ذنبه ، ولا يوحده وهو الواحد الأحد .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) .

ما يعلمه ٱلله لا يعلمه الملائكة ، فلو كان الملائكة يعلمون ما كان لهم الاحتجاج علىٰ اختيار ٱلله للخليفة ، ولأنهم يسلمون بما يأمر ٱلله عز وجل فكان الملائكة أول الساجدين طاعة لأمر ٱلله بالمطلق . وكان الاختلاف مع إبليس المستكبر الذي عصىٰ الأمر ، وبرغم ذلك ظل الإنسان خليفة والحمد لله أننا من المستخلفين فيها ، وندعو ٱلله أن يجعلنا من المصلحين لا المفسدين ويجعلنا من الصالحين ومن الوارثين . قال تعالىٰ : ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (2) .

10 ـ **ودود بعزته** : قال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ

(1) البقرة ، 30ـ34 .

(2) الأعراف ، 74 .

يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ (1) .

كم يشعر الإنسان بالاعتزاز عندما يقدم علىٰ أداء واجب ويحمد ويشكر عليه ، وكم تملأه العزة بإيمانه عندما ينظر إلىٰ المشركين وهم لم يبلغوا بعد ما يمكنهم من امتلاك العزة التي بلغ أعاليها بتوحيده واحداً أحداً لا شريك له ، ومع ذلك يأسف لهم وهو يأمل بلوغهم اليقين ، وبهٰذا سيكون داعية لذلك حتىٰ تعم رحمته الأرض ومن عليها من العباد ، ولأنه الودود فهو لا يقفل باب التوبة لمن يشاء أن يتوب إليه . قال تعالىٰ : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (2) .

11 ـ **ودود بإشفائه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ۝١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (4) .

الإنسان مخلوق لا يملك لنفسه ملكاً إلا ما رحم ، فعندما يمرض يلتجئ إلىٰ الطبيب لعلاجه وعندما يعطش يسعىٰ للحصول علىٰ الماء ليرتوي من ظمئه ، وعندما يجوع يسعىٰ للعمل الذي به يتحصل علىٰ ما يشبع جوعه ، وإذا لم يتمكن من بلوغ ذلك فهو يعلم أنه سيتعرض للمرض وحتىٰ الموت إن لم يرحمه ٱلله بواسع وده فيمكنه من بلوغ ما عجز عن بلوغه قبل الاتكال عليه وقبل

---

(1) فاطر ، 10 ، 11 .
(2) المنافقون ، 8 .
(3) الشعراء ، 80 .
(4) التوبة ، 14 ـ 15 .

أن يثق إيماناً تاماً بأنه الشافي من كل مرض وداء ويعلم يقيناً أن الطبيب لا يستطيع الشفاء إذا لم يشفه ٱلله . اللهُمَّ اشفنا من كل مرض وداء واجعلنا من الطائعين بودك ورحمتك ! قال تعالىٰ : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1] . شفاء القرآن لمن آمن به كتاباً محفوظاً وإعجازاً خالداً وديناً ميسراً بود من الودود جل جلاله ، فهو شفاء للنفس من كل غم وهم ، بطمأنة وتقوىٰ ، والقرآن رحمة بآياته وحججه والحِكم التي تجيب علىٰ كل سؤال ، والعلم الذي يمتلئ به الكتاب المحفوظ ، فيه حل لمشكل الإنسان في الهداية والعمل الصالح ، وفي العدل والحكم والتعاون والتآلف والمحبة والمودة والتآخي .

12 ـ ودود بإرثه : قال تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[2] ، من بعد الاستخلاف في الأرض يكون الاستخلاف في الجنة بالعمل الصالح في الحياة الدنيا ، ولذا فٱلله يود المستخلفين بالميراث في الجنة ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾[3] .

(1) الإسراء ، 80ـ82 .
(2) المؤمنون ، 1ـ11 .
(3) الفرقان ، 15 ، 16 .

13 ـ **ودود بتأليفه ذات البين** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (1) .

الودود هو الذي يستمد الود منه ويسود بين العابدين له محبة ووفاء وصدق وتعاون وتآزر ، ولهـٰذا ينهىٰ الودود الخليفة عن التفرق والفتنة والاختلاف عليه وهو الواحد القهار ، كيف ولماذا يختلفون ويتفرقون بعد ما جاءتهم البينات التي لم يكن من بعدها ما هو غامض أو خفي ؟ ! . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (2) .

14 ـ **ودود بحبه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ (3) .

الودود هو الذي يعطي ما يشاء مما يملك لمن يشاء دون أن ينقص من ملكه شيء ، وهو الودود بعطائه ورضائه ، وهو الذي استخلف من استمد الود منه محبة بين الناس ليكون لذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين والفقراء والسائلين حق معلوم يدركه الخليفة حقاً بيناً لا شك فيه ، فيقدم علىٰ إظهاره ، وإعطائه

---

(1) آل عمران ، 103 ـ 105 .
(2) الأنفال ، 62 ـ 63 .
(3) الإنسان ، 8 ـ 11 .

لمن هم في حاجة إليه ، وبهـذا يكون الخليفة من الوارثين من بعد استخلاف في الأرض وطاعة . ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (1) .

15 ـ **ودود بلطفه** : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (2) ، من له نصيب أينما يكون يأتي به ٱلله مودة خالصة لمن هو في حاجة إليه ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (3) .

لطف ٱلله بالعباد أنه جعل الهداية فيهم والرسل منهم وإليهم فقد أسبق عليهم خلق الرزق قبل خلقهم ليجدوا ما يشربون ويأكلون ويشبع حاجاتهم ، فلو لم يكن الرزق ما كانت الحياة وفقاً لمعطيات الخلق التي نعرفها ونعلمها كما نعلم أنه بالمطلق إنه علىٰ كل شيء قدير ، ولذا فلطف الودود بالعباد أنه ودهم بالحياة والرزق وودهم بالعقل لتكون الهداية إليهم ثم تصبح منهم جيلاً بعد جيل حتىٰ تعم بلطفه الأرض المستخلفين فيها .

16 ـ **ودود بعدله** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

(1) البقرة ، 177 .
(2) لقمان ، 16 .
(3) الشورىٰ ، 19 ، 20 .

تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (2) .

كل المستخلفين فيها يكرهون الظلم وذلك لأنه مقت عظيم ، ولولا فضل ٱلله ورحمته لكانت العبودية بين الناس إلىٰ أبد الآبدين ، ولهٰذا حرم ٱلله العبودية عدلاً بين الناس ورحمة ، والعدل في أساسه إحقاق حق وإزهاق باطل ، ولأن ٱلله هو الحق جعل العدل بين العباد طاعة ، ولأنه ودود لم ينص علىٰ حكم العباد بل نص علىٰ الحكم بينهم بالعدل وهٰذا دليل علىٰ تعميم المساواة ، فلا فرق بين المستخلفين فيها إلا بالعمل الصالح .

والخليفة هو من يتبع عدله فيما أمر ونهىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

17 ـ **ودود بنهيه** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ

---

(1) النحل ، 90 .
(2) النساء ، 58 .
(3) البقرة ، 282 .

وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (2) .

ٱلله الذي أمر بالطاعة هو الذي نهىٰ عن طاعة ، ولذا فالفرق كبير بين الطاعة التي أمر بها ٱلله وبين الطاعة التي نهىٰ عنها ، فطاعة الحق بأمره والانتهاء عن الظلم من أمره ، ولهٰذا لا طاعة لمن يُدْعىٰ من دونه ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (3) .

18 ـ **ودود بإحقاقه الحق** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (4) .

إحقاق الحق بين المستخلفين فيها عبادة وطاعة ، ولذلك نهىٰ ٱلله عن تغليف الحق بالباطل ونهىٰ عن كتم الشهادة وقولها حق ، ولذا فالصلاة حق لا ينبغي الإغفال عنها وإيتاء الزكاة حق فلا ينبغي تأجيله أو تأخيره أو الامتناع عن إيتائه ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ (5) ، وقال

---

(1) النحل ، 90 .
(2) الحشر ، 7 .
(3) الأنعام ، 56 .
(4) البقرة ، 42ـ46 .
(5) الأنعام ، 57 .

تعالىٰ : ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (2) .

19 ـ **ودود بزهقه الباطل** : قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (3) .

الباطل هو ما ليس بحق ، وما ليس بحق في منهج الخليفة لا يُحق ، ولذا فمن اتبع الهدىٰ ليس له بد إلا أن يحق الحق ولو كره المجرمون والظالمون والمشركون ، ولأنه الودود عز وجل كان وده للذين يقذفون بالحق علىٰ الباطل حتىٰ يدمغه ويزهق ، وعليه فمن يزهق باطلاً ينال رضا ٱلله ووده . قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (5) .

20 ـ **ودود بهدية** : قال تعالىٰ : ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (6) .

الهداية إرشاد لصواب وحق ، فٱلله الهادي لمن يشاء متىٰ ما شاء وكيف شاء ، ومن يستمد هدايته من ٱلله يستمد منه الاستخلاف في الأرض ، ومن ينل هداية ٱلله ورضاه يكن من بعد الاستخلاف من الوارثين في الجنة ، ولذا

---

(1) الأنفال ، 7 ـ 8 .
(2) الحج ، 62 .
(3) الأنبياء ، 18 .
(4) الشورىٰ ، 24 .
(5) الإسراء ، 81 .
(6) البقرة ، 213 .

لا يمكن أن يتم الدخول إليها إلا بهداية من الهادي المطلق جل جلاله ، ومن دخلها كان من الفائزين الآمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قال تعالىٰ : ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [2] .

21 ـ **ودود باصطفائه للرسل والأنبياء** : قال تعالىٰ : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [4] .

في بداية الخلق كانت الأخلاق فطرية غرائزية وذلك لأن الخالق خلق قلة لا كثرة ثم بعد أن ساد التكاثر بإذنه وانتشرت البشرية في المعمورة ساد من بين ما ساد الفساد في الأرض ، ولأن ٱلله خلق الإنسان ويوده أن يكون خليفة له في الأرض وفي أحسن تقويم ، مصلحاً فيها لا مفسداً وسافك دماء ، لم يكن راضياً عما يعمله المفسدون فاصطفىٰ الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين ومحرضين علىٰ أفعال الخير ، فأنزل عليهم الصحائف والكتب والرسالات

(1) البقرة ، 38 ـ 39 .
(2) البقرة ، 120 ـ 121 .
(3) الزخرف ، 6 ـ 8 .
(4) آل عمران ، 31 ـ 34 .

السماوية من عنده عز وجل ، فكانت النصيحة والحكمة والحجة بين أيدي الناس ، فنهىٰ عن المنكرات والمفسدات وحرم ما يضر ويُهلك ولا يفيد ولا ينفع الناس ويفرق بينهم ، وترك الهداية بالحسنىٰ وبدون إكراه حيث لا إكراه في الدين خاصة بعد الرسالة المحمدية الخاتمة .

ولأنه ودود بعث الرسل مبشرين ومنذرين يعلِّمون الناس طريق الخير والفلاح والهداية ، فيهدونهم إلىٰ ما يجب أن يقال وأن يُعمل أمامهم حتىٰ يروا كيف تقام الأعمال وتؤسس الحجج ، وكيف تؤخذ الحقوق وتؤدىٰ الواجبات وكيف تُحمل المسؤوليات ، وكيف تمارس العبادات ، فكانت عبادة الواحد الأحد علىٰ أيديهم ، وتجنب المفسدات علىٰ أيديهم ، واتباع الهداية وأداء الشعائر علىٰ أيديهم ، فكان الخليفة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام منذراً للكافة : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ

---

(1) ص ، 65ـ70 .

(2) الحج ، 75ـ78 .

وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [1] .

22 ـ **ودود بإنزاله الكتاب** : قال تعالىٰ : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [2] .

الهداية قول وفعل لطاعة ودود مطلق ، وحتىٰ لا يكون أمر الهداية اجتهاداً بعث ٱلله الرسل بالكتب فكان لكل قوم هادٍ إلىٰ أن جاءت الهداية الخاتمة ، والحكمة من الرسالة الخاتمة كتاب واحد من ربٍّ واحد للناس كافة هو : لأجل إبعاد كل ما من شأنه أن يؤدي إلىٰ نزاع وفرقة وفتنة وإفساد في الأرض ، أو خصام واختلاف باسم ٱلله أو باسم الرسل السابقين لمحمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، وٱلله رؤوف ودود بالعباد ، ومع ذلك فالكثيرون لم يهتدوا بعد إلىٰ القول الحق الخاتم . وهـٰذه من أعباء حمْل الأمانة التي حملها الإنسان وهو ظلوم جهول ، لذا فالخليفة هو من أدرك هـٰذا العبء الذي قبل بحمله من اصطفاهم ٱلله وميزهم بحمله ، ولأنه يعلم فهو يبشر بكلام ٱلله ويرشد به ويرشد إليه ، ويُذكِّر به ، وينهىٰ عما نهىٰ ٱلله عنه ، ويحرض علىٰ ما يحرض عليه . وعليه فالحمد لله الذي بعث في الأميين رسولاً . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ

---

(1) النساء ، 64 ، 65 .

(2) البقرة ، 1ـ5 .

ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

23 ـ **ودود برأفته** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (4) .

في كلمة الرأفة ظهور لإحساس الخالق بالمخلوق ، وحرصه وعنايته به ، لذا جعل الرأفة فينا في أحاسيسنا ومشاعرنا حتىٰ كنا علىٰ عاطفة بأكبادنا وآبائنا وأبنائنا وأحفادنا وبأنفسنا ومعتقداتنا وديننا الذي ارتضاه لنا وارتضينا ، وبأوطاننا وبني عرقنا وإخوتنا في الإيمان ، هٰذه رأفة في قلوبنا ، والخليفة هو من يغار برأفته علىٰ ما ذكر إحقاقاً للحق ، وإزهاقاً للباطل ، واحتراماً وتقديراً لمن له الحق علينا ولمن لنا الحق عليه ، فمن رأفة ٱلله بنا : أنه لا يود أن تشيع الفاحشة في الدين وبين الذين خلقهم ٱلله بوده في أحسن تقويم ؛ ليعمروا الأرض ، ولا يفسدوا فيها . قال تعالىٰ : ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ

---

(1) الجمعة ، 2ـ6 .
(2) البقرة ، 87 ـ 88 .
(3) البقرة ، 231 .
(4) البقرة ، 207 .

رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (2) .

24 ـ **ودود بحلمه** : قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (3) .

الحلم لين ، واللين لا يكون إلا بودٍّ ، ولذا فالودود حليم في مخاطبة خلقه ورؤوف بهم لا يستعجل علىٰ حسابهم وعقابهم يمهل ولا يهمل يدرك الحق ويستوجبه فعلاً ، ولـٰكن يعلم الضعف الذي يلم بالإنسان والغفلة التي يمر بها في كثير من الأحيان ، فترك له الأمر والفرصة حتىٰ يتاح له التبين والإدراك لتكون الفرصة له في التصحيح والتصويب ، ولأنه رؤوف يغفر الذنوب السابقة للاستغفار بالنسبة للذين لم يعلموا من قبل علم اليقين ، أي الذين لم يبشروا بما يجب أن ينهون عنه ، أما أولئك الذين علموا وعصوا ثم استغفروا فإن ٱلله غفور رحيم لكل شيء إلا الشرك فإنه أمر عظيم . وعليه فالحلم قانون المودة في التعامل بين الناس بالاحترام والتقدير والتفهُّم وإعطاء الفرصة لأجل التصحيح والتصويب والعودة إلىٰ الدين والعرف الذي اعتاده الناس في إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإعمار الأرض والفلاح فيها . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ

---

(1) النور ، 18 ـ 20 .
(2) آل عمران ، 30 .
(3) البقرة ، 261 ـ 263 .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [1] .

25 ـ **ودود بعلمه** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [4] .

العلم نور به يتم إدراك الحق واتباعه ، وبه تتسع دائرة المعارف وتضيق وتقفل دائرة الجهل ، به يدرك اليقين ، وبه تقفل أبواب الكفر والشرك ، به يعم العدل بين المستخلفين في الأرض ، وبه يتم التمكن من بلوغ الجنة ، إنه ود من ودود خبير ، فالعلم حق يجب أن يعم الناس ويكون بينهم معاملة تهذب السلوك وتصقل الألسن وتصاغ به المفردات والجمل والنصوص التي تحكم أعراف الناس وقوانينهم في الحياة ، وبه يتم إدراك الحقيقة التي يسعىٰ الباحثون إلىٰ معرفتها . فالعلم بالنسبة للخليفة مكتسب من عليم خبير ، والعلم بالنسبة للخليفة هو دائماً في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع ، أما في دائرة الخالق فإن الودود جل جلاله علام الغيوب . إذاً العلم المخرج من الظلمات إلىٰ النور ود به تتحسن أحوال المستخلفين فيها ، ولو لم يكن الودود عليماً خبيراً ما كان لنا من علمه شيء وما كان لنا الخروج من الظلمات إلىٰ النور ، ولذا فالعلم منه

---

(1) المائدة ، 101 ـ 103 .
(2) البقرة ، 255 .
(3) البقرة ، 235 .
(4) المائدة ، 116 .

ودٌّ متكاملٌ لمن علَّمه ٱلله الأسماء ، واستخلفه فيها بوده .

26 ـ **ودود بحكمته** : قال تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (1) .

الحكمة مضمون محمول في الكلمة والجملة والنص ، وهي الصياغة التي تحمل في مضمونها المثل العليا للناس ، وتحمل في مضمونها قصصاً بحالها ، ولذلك فمن أوتي الحكمة أوتي خيراً كثيراً ، الحكمة ذات دلالة لأخذ العبر والاقتداء بما يجب وترك ما يجب تركه ، إنها الاختصار المفيد النافع للقول ، وبها يتم الاتعاظ ، وعليه فمن الحكمة أن يشكر ٱلله علىٰ نعمه ووده وفضائله الحسان ، ومن الحكمة أن لا يظلم أحد أحداً ، ومن الحكمة أن يفوز الأبناء برضا الوالدين وطاعتهما في غير معصية ٱلله . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (2) .

27 ـ **ودود بجنته** : قال تعالىٰ : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾

---

(1) البقرة ، 269 .
(2) لقمان ، 12 ـ 19 .

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ (1) .

دائماً جزاء الإحسان إحسان ، فمن زرع خيراً حصد جزاء وفيراً ، ومن زرع شراً حصد عقاباً شديداً ، ومن استخلف في الأرض بعمله الصالح فاز بالجنة ومن لم يكن من المستخلفين الطائعين سيكون في جهنم ، اللهُمَّ قنا عذاب النار واجعلنا من الوارثين في الجنة والفائزين فيها لا الخاسرين إنك سميع مجيب تجيب دعوة الداعي إذا دعاك ، دعوتك بما دعاك به يونس عليه الصلاة والسلام بلا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، دعوتك بعزتك لمحمد ونصرك له عليه الصلاة والسلام ! قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝١٢٤ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (2) .

28 ـ ودود ببعثه : قال تعالىٰ : ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (4) .

---

(1) الإنسان ، 12ـ22 .
(2) النساء ، 124 ، 125 .
(3) الأنعام ، 36 .
(4) المجادلة ، 5 ، 6 .

حياة الخلائق لا تدوم ووده دائم ، أي ما يسجل يحفظ في كتاب محفوظ ويبقىٰ شاهداً حياً لا يموت إلىٰ يوم يبعثون ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ، تفنىٰ الخلائق ويبقىٰ الملك لله الواحد القهار ، ولذا فالوجود يمر بالمراحل الآتية :

أولاً : مرحلة خلق الشيء من لا شيء : سبحانه علىٰ كل شيء قدير . قال تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (3) .

ثانياً : مرحلة خلق الشيء من الشيء : فالله خلق التراب وخلق منه بني الإنسان في أحسن تقويم . قال تعالىٰ : ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (5) .

ثالثاً : مرحلة التكاثر : قال تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

---

(1) البقرة ، 117 .
(2) آل عمران ، 47 .
(3) النحل ، 40 .
(4) آل عمران ، 49 .
(5) آل عمران ، 59 .

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [3] .

رابعاً : مرحلة الانتهاء : وهي المرحلة الساكنة التي ينتقل إليها المخلوق من الحياة إلىٰ الموت فيظل من حيث الوجود ساكناً لا عمل يزيد ولا عمل ينقص ، ولا حركة ولا تكاثر ، مرحلة الموت مؤقتة مثل الحياة مؤقتة ، ولأنهما يقعان في الزمان المؤقت فإن النهاية لهما دائمة بعد موت الموت فيبعثون فسبحان الذي يحي الموتىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [5] . وعليه فالموت بقاء في الوجود الساكن ولو لم يكن للموتىٰ وجود ساكن ما بعثهم ٱلله يوم بعثهم الذي لا يعلمه إلا هو جل جلاله ، البعث مرحلة ولادة جديدة بأعمال سابقة ، في حياة جديدة لا علاقة لها بالحياة الأولىٰ إلا الأعمال المحفوظة للمساءلة والمجازاة الثوابية أو العقابية .

خامساً : مرحلة البعث : إنها مرحلة الحياة الدائمة ، الباقية سرمدياً لمن رضي ٱلله عنهم ورضوا عنه قولاً صادقاً ، وعملاً صالحاً ، وتصديقاً تاماً ، وطاعة لا ضلال في ذلك الزمان ؛ الذي طويت سجلاته بالموت الذي جعل

---

(1) ياسين ، 36ـ40 .
(2) النحل ، 72 .
(3) الأنعام ، 165 .
(4) المجادلة ، 6 .
(5) الزمر ، 30 .

الموتىٰ في مرحلة انتظار للبعث ، والبعث هو الولادة الجديدة في الحياة الحيوان . قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (3) .

وقال تعالىٰ : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾ (4) .

الودود اسم محببٌ إلىٰ القلوب ، مرتبطٌ بالحنان والرحمة والعطف ، اسمٌ يوقع في نفس المؤمن راحةً وأملاً وطمأنينة ، والخليفة يرىٰ في حب ٱلله تعالىٰ له خيراً جزاءاً لإيمانه بالخالق عز وجل ، واسم الودود يفتح أمام المذنب فسحات أملٍ واسعة باتساع توبته ، فلا ييأس من رحمة وحب ٱلله تعالىٰ ،

---

(1) الحج ، 6 ـ 7 .
(2) الشورىٰ ، 9 .
(3) البقرة ، 28 .
(4) المؤمنون ، 1ـ16 .

وهـٰذا الود أيضاً هو بمثابة دلائل علىٰ جهل الكافر وجحده بمن يتودد إليه بالعطاء والمنح .

والودود اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وهو في اللغة من صيغ المبالغة ، والود مصدر المودة ، فعله ودَّ الشيء وُداً ووِداً ووَداً ، والود يرتبط بالأحاسيس والمشاعر وما تأمله القلوب في طاعة ٱلله تعالىٰ .

فالودود هو مصدر الود ، أي أنه المصدر الذي يستمد الود منه ، ولذا فالودود لا حيز لحسد يشغله ، وبلغة المنطق الود صلة أخلاقية بين الناس ، وبينهم وبين خالقهم (مصدر الود المطلق) .

ولارتباط هـٰذا الاسم بالرحمة واللطف فقد لزم ارتباطه بالتأكيد بالحب ، هـٰذا الحب الذي يقربك من الخالق عز وجل الذي يحبك ويتودد إليك هـٰذا وهو الذي خلقك وأنت ملكه وهو القوي وأنت الذي تستمد قوتك منه ، إنه الودود الذي وسع وده وحبه كل تائب وكل عابد وكل مخلوق في هـٰذا الكون .

والود بين الخلائق بمعناه هو الظهور الواقعي لمشاعر المحبة الكامنة ، أي أنه تجسيد لها ، وبهـٰذا يكون هناك فرق بين الحب والود رغم ارتباطهما مع بعض ، فالحب ما استقر في القلب ، لـٰكن الود ما ظهر في الفعل ، وهـٰذا يتضح عندما يحب الإنسان شخصاً فإن مشاعر الميل نحو هـٰذا الشخص هي الحب الذي يشد الآخر شداً ، ويشد الاثنين في واحد ، والود يتبع النية ، ولذا فالأعمال بالنيات ولكل أمر ما نوىٰ فهو يعلم ما تكنه الصدور ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (2) . فالود هو التعبير الظاهر عن مشاعر الحب تجاه

---

(1) هود ، 5 .
(2) الحج ، 46 .

من نحبهم ، فنحن بذلك نكون ودودين نتودد إليهم بما نظهره من أفعال كالابتسام لهم والبشاشة في وجههم أو كتقديم الهدايا لهم ومجاملاتهم في مناسباتهم السارة والحزينة ، ولو لم نظهر هـٰذه التعابير لهم فإننا نكون نحبهم بما نحمله لهم من مشاعر الحب في قلوبنا ولـٰكننا لا نتودد لهم ، فنستخلص من هـٰذين المعنيين أن كل ودود محب وليس كل محب ودوداً .

وقد ورد في القرآن الكريم اسم الودود في موضعين :

الأول : عندما أخبرنا ٱلله سبحانه وتعالىٰ عن وُدِّه بنفسه وذلك في قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[1] ، فٱلله هو الخالق الأول والآخر ، كل شيء بيده فهو يبدئ ويعيد ، وهو في ذاته هو الغفور الودود ذو العرش المجيد ، أي أن ٱلله هو الودود الذي بوده يغفر ويبدئ ويعيد وهو علىٰ كل شيء قدير سبحانه .

الثاني : ما جاء علىٰ لسان نبي ٱلله شعيب ﷺ واصفاً ربه بقوله : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[2] ، محبة شعيب عليه الصلاة والسلام لربه تعالىٰ جعلته يظهر وده الذي استمده من

---

(1) البروج ، 13ـ16 .

(2) هود ، 89ـ95 .

الودود المطلق ليعلنه أمام قومه وهو راغب لهم ود من ٱلله تعالىٰ إذا ما استغفروه وذلك لأن في الاستغفار إجلالاً له جل جلاله ، ولأنه سميع مجيب فهو بوده يعفو يغفر لهم ، ولو لم يكن عز وجل ودوداً ما كان غفوراً وغفَّاراً .

والودُّ مصدر المودَّة ، والمودة مصدرها الودود ، وهٰذا الود يكون في جميع مداخل الخير ، وقال ابن الأثير : الودود في أَسماءِ ٱلله تعالىٰ فَعُولٌ بمعنىٰ مَفْعُول من الودّ المحبة يقال وددت الرجل إِذا أَحببته فٱلله تعالىٰ مَوْدُود أَي مَحْبوب في قلوب أَوليائه أَو هو فَعُول بمعنىٰ فاعل أَي يُحبّ عباده الصالحين بمعنىٰ يَرْضىٰ عنهم » [1] .

فالودود المطلق هو الذي لا يضاهي ودَّه ود ، لأن حبه أعلىٰ درجات الحب وأصفاه وأنقاه فلا يخالطه حقدٌ أو غلٌّ أو دسٌّ علىٰ من أحب ، ولا تحذوه مصلحة أو منفعة فيمن يحب ، إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يحب بصفاء ونقاء فهو ود خالص لا يتغير ، وبهٰذا يكون وده أرقىٰ درجات الحب وأقواها وأسمىٰ معانيه ، وهٰذا الحب لا يكون دافعه الخوف والرهبة ممن أحب ، ولا يمكن أن تتجلىٰ هٰذه المعاني إلا في ودودٍ واحدٍ فقط هو ٱلله عز وجل ، الودود المطلق الذي يتقرب إلىٰ عباده الصالحين وأوليائه ويتودد إليهم ، وقربه يكون دائماً وأبداً ، قال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [2] ، أي : أن ٱلله تعالىٰ قريب من عباده يستمع إليهم ويستجيب لدعائهم ، فقد أكد علىٰ قربه تعالىٰ من أوليائه وعباده الصالحين بالربط بينه وبين استجابة دعواتهم ، وأيضاً في قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ

(1) لسان العرب ، ج 3 ، ص 453 .
(2) البقرة ، 186 .

ﭐلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلۡ إِنِّى نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (1) . هٰذه الآيات الكريمة علامة دالة علىٰ كمال وده لعباده الصالحين والمصلحين في الأرض ، ولذا فالدعاء لا يُستجاب إلا من العبد القريب من الودود الكريم ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾ (2) ، وقوله سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ (3) .

وٱلله سبحانه وتعالىٰ ودودٌ في حبه لرسله وأنبيائه وعباده المصلحين الصالحين ، يحبهم محبة الخالق العظيم لخليفته في أرضه الذي أطاع أمره وصدقهى ، فيُظهر ٱلله تعالىٰ لهم حبه بقبول أعمالهم وإجابة دعواتهم وطمأنينة نفوسهم ، كما أنه يمنحهم محبة وود خلقه فيهم ، وحسن الاستماع إلىٰ نجواهم كما في قوله تعالىٰ : ﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِى كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ

---

(1) غافر ، 60ـ66 .

(2) هود ، 61 .

(3) ق ، 16 .

نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (2) ، وكذلك يمنحه أعلىٰ المراتب شرفاً يوم القيامة كما في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (3) .

وإذا حاولنا سرد دلائل من القرآن الكريم علىٰ مدىٰ الود الذي ربط بين الخالق سبحانه وتعالىٰ وبين رسله وأنبيائه لما حصرناها ، بل إننا سنلحظ أروع الصور لاحتضان المولىٰ لهـؤلاء الخلفاء المرسلين ، وأنبل ملامح التودد والحب والعطاء وأولها كانت مع نبينا محمد ﷺ في قوله جل وعلا في كتابه الكريم : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ (4) ، بطبيعة الحال الصبر لحكم ٱلله طاعة تامة ومودة صادقة تبادلها مودة الصدق بالرعاية والعناية والحفظ ، وبالتالي سبح يا محمد بفضل ربك ولا تخف . فقد تعرض الرسول عليه الصلاة والسلام للأذىٰ الشديد وكان المولىٰ عز وجل يطمئن قلبه ويهدئ نفسه بالتأكيد عليه بأن المولىٰ يرعاه ويحفظه من كل سوء ، وأيضاً عند خروج الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة ويشده الود إليها نزل كلام ٱلله تعالىٰ عليه واعداً إياه بالعودة إليها في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨٥ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ

(1) النساء ، 114 .

(2) إبراهيم ، 39 .

(3) البروج ، 11 .

(4) الطور ، 48 ، 49 .

إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (1) المعنىٰ : أن ٱلله الذي أنزل عليك دين الهداية وهو القرآن فهو كما أنزل عليك هـٰذا القرآن وأنت لا تشك في إنزاله عليك كذلك تيقَّن وتأكد بأنك ستعود بإذنه إلىٰ مكة فاتحاً بالقوة والنصر حليفك وأنت محاط بالرعاية والعناية الربانية ، وهنا أيضاً نستحضر موقف سيدنا موسىٰ ﷺ عندما اجتمع السحرة فقد خاف في نفسه من هول هـٰذا الموقف لولا تهدئة قلبه عليه السلام من الخالق عز وجل ، وقد صور لنا القرآن الكريم هـٰذا الموقف في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ (2) ، وكذلك ما حدث مع سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما بعث ٱلله تعالىٰ له الملائكة فشك في أمرهم كما في قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (3) ، إن ٱلله تعالىٰ قد بدل خوف سيدنا إبراهيم سريعاً إلىٰ طمأنينة فلا يمكن أن يرضىٰ الخالق عز وجل لخلفائه الصالحين بالخوف والشك ، ولذا فيودهم بوده هيمنة وحفظاً .

والود الصادق الذي ينشأ بين الخالق عز وجل وخليفته في الأرض لابد أن يكون وداً متبادلاً ، فعندما يحب ٱلله تعالىٰ عبده الصالح فهو بالتالي سوف يجعل حبه في قلب عبده الخليفة هو المحرك لسمعه وبصره وجوارحه وروحه ، ولعقله ووجدانه وحسه ، فيقدم هـٰذا الخليفة حبه للمولىٰ عز وجل علىٰ سواه من متاع الحياة الدنيا من أموال وأبناء بل سيكون حبه لخالقه ورسوله

(1) القصص ، 85ـ88 .
(2) طه ، 65 ، 69 .
(3) هود ، 69 ، 70 .

الحبيب ﷺ فوق حبه لنفسه أيضاً ، وهـٰذا ما أشار إليه الحديث الشريف الذي رواه أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ »[1] ، كذلك في الحديث الشريف : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ « أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرسول ٱلله ﷺ : مَتَىٰ السَّاعَةُ ؟ قَالَ لَهُ رسول ٱلله ﷺ : مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ قَالَ : حُبَّ ٱللهِ وَرَسُولِهِ . قَالَ : أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ »[2] .

وللمحبة صفتان :

ـ محبة بدأ بها ٱلله تعالىٰ لعبده زارعاً حبه عز وجل في قلب هـٰذا الخليفة الذي استحق بعلم ٱلله تعالىٰ محبة خالقه ، وقد منح الخالق سبحانه وتعالىٰ هـٰذا الحب للعبد ابتداءاً منه دون طلب أو سؤال ، والمؤمن الصادق هو الذي يحافظ علىٰ هـٰذا الود ويقويه .

ـ ومحبة جعلت هـٰذا الخليفة شاكراً لربه سبحانه وتعالىٰ علىٰ نعمة حبه ووده وجعْلِه من خلفائه الأصفياء .

والود الذي يقربك من ٱلله سبحانه وتعالىٰ لا يأتي إلاَّ بالتقرب إلىٰ الخالق الذي هو في الأصل قريب من خلقه ، ويكون هـٰذا التقرب بعدة أمور منها :

ـ الإكثار من ذكر الودود ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[3] ، وقد جاء في الحديث الشريف أن حب ٱلله تعالىٰ لابد أن يكون ملازماً لذكره والمداومة علىٰ شكره

(1) صحيح البخاري ، ج 1 ، ص26 .
(2) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص91 .
(3) الأحزاب ، 41ـ43 .

وحمده ، عن أنس بن مالك قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « علامة حب ٱلله حب ذكر ٱلله ، وعلامة بغض ٱلله بغض ذكر ٱلله » [1] .

أيضاً التوكل عليه في كل أمورنا ، لأن من شأنه كسب حب ٱلله تعالىٰ به ، فالمولىٰ عز وجل قد أحب من عقد النية وتوكل عليه كما في قوله تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [2] ، وليس هناك قدوة لنا مثل أنبيائنا الكرام ورسلنا وقد كانوا دائمي التوكل علىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ كما جاء في القول الكريم : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [3] .

وكذلك في جعل النية في كل عملٍ نقوم به هو رضا ٱلله تعالىٰ والإخلاص في القول والفعل ، ومهما كان العمل طالما هو في خير لا بد أن نعقد النية فيه خالصة لله تعالىٰ ، وهـٰذا ما جاء به الحديث الشريف : عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَدَّانُ فَقِيلَ لَهَا مَا لَكِ وَلِلدَّيْنِ فَقَالَتْ : « إِنَّ رسول ٱلله ﷺ قَالَ مَا مِنْ عَبْدٍ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ إِلا كَانَ لَهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَوْنٌ فَأَنَا أَلْتَمِسُ ذَلِكَ الْعَوْنَ » [4] .

وكذلك السير علىٰ خطىٰ الرسول ﷺ كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ

(1) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 1 ، ص 480 .
(2) آل عمران ، 159 ، 160 .
(3) هود ، 56 ، 57 .
(4) مسند أحمد ، ج 50 ، ص 194 .

كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

والخليفة الذي استحق هـٰذه الأمانة التي استخلفه الخالق بحق هو الذي يظهر وده لله تعالىٰ في أعماله وفي تعامله مع من حوله من قريب أو بعيد ، فنجده واصلاً للرحم متودداً لهم ، طائعاً لوالديه حتىٰ ينال رضاهما في غير معصية ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (2) ، ونجده أيضاً متواضعاً مُوداً لمن يعملون معه حتىٰ ولو كانوا أقل منه مرتبة ، لا يبدأ الناس بالسوء ولا يمكر بهم ولا يسخر منهم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (3) ، فالخليفة هو من لا يجعل المحرك والدافع لإظهار وده مصلحته الشخصية ، بل يملأ قلبه بالتسامح والغفران اللذين من شأنهما رد المذنب وردع العاصي ، ولنا في رسول ٱلله ﷺ أسوة حسنة ، فعندما أصابه قومه في غزوة أحد لم يدعُ عليهم بل دعا لهم بالمغفرة ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حين كَسَرُوا رُبَاعِيَّتَهُ ، وَشَجُّوا وَجْهَهُ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » .

---

(1) آل عمران ، 30ـ34 .

(2) النساء ، 36 .

(3) الحجرات 10 ، 11 .

ما أجمل ود الرسول الكريم علىٰ بني قومه وما أجمل ود ٱلله علىٰ رسوله صلوات ٱلله وسلامه عليه ، إنه أروع مثل لود الخليفة المستمد من حب الودود المطلق .

فالود هو السبيل لتجميع قلوب الناس وعواطفهم ووحدتهم ، والود الحقيقي يجعلك صادقاً في أعين الناس أي أن وده يتجلىٰ في كثرة ود المسلمين من حوله فيحب للعاصي التوبة ، وللمحسن حسن المنزلة فيتقرب بذلك لكل من حوله من أجل الحق وإحقاقه ومن أجل الباطل وإزهاقه ، فيكون مرشداً لغيره من الناس سواء المسلم أو الكافر لطريق الحق ، قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [1] ، آيات كريمة حجة بين الناس بالحق ، فمن يملأ قلبه الإيمان لا يظلم أحداً ، ومن يكفر ويشرك تملأه البغضاء ، ولأن الإسلام مؤسس علىٰ المحجَّة البيضاء ، فإن الخلفاء تملأهم المودة وحَسُنَ بذلك رفيقاً ، والعداء بين الناس لا يدوم بل الذي يدوم هو المودة ، ولهـٰذا فالودود لا يرىٰ خيراً بين الناس إلا المودة ، وهـٰذا ما يحصل في عصرنا هـٰذا فرغم انتشار الفساد ، وظهور الفتن علىٰ الدين الإسلامي ، إلا أننا نجد كثيراً ممن كانوا علىٰ ديانات أخرىٰ قد اعتنقوا الإسلام علىٰ أيدي دعاة مسلمين لا يملكون إلا قوة الحق الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [2] ، فالخليفة هو المحب لله تعالىٰ

(1) الممتحنة ، 6ـ9 .

(2) فصلت 41 ، 42 .

والمحب لرسله ولا يفرق بين أحد منهم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [1] .

وعليه فالخلفاء هم المحبون للخير والعاملون من أجله يصلحون ولا يفسدون يتبعون سنة الرسول الكريم محمد صلوات ٱلله وسلامه عليه ولا يبدلون تبديلاً : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [2] .

الخليفة الودود هو الذي له في رسول ٱلله أسوة حسنة ، فقد كان نهجه عليه الصلاة والسلام اللين والود والصبر وهـٰذا كان سبب التفاف الناس حول الرسول الكريم ﷺ وعدم النفور منه ، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسْلِيمٗا ﴾ [3] . كما جاء في قوله عز وجل في كتابه العزيز : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ ﴾ [4] ، فالقسوة لا يقابلها إلا القسوة ، ولا ينتج عنها إلا النفور والحقد والكراهية ، بعكس اللين والود اللذين يطهران أشد القلوب قساوة ، ويُدمِعان العيون العاصية محبة بعد استغفار وتوبة ، ويذيبان جليد الحقد من القلوب ، ولهـٰذا فإننا نجد أن النهج الذي سلكه رسولنا الكريم ﷺ

---

(1) البقرة ، 284 ، 285 .

(2) الأحزاب ، 23 ، 24 .

(3) الأحزاب ، 21 ، 22 .

(4) آل عمران ، 159 .

كان اللين والود ، كيف لا وقد علّمه ربه ورباه : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (1) ، فكان عليه الصلاة والسلام محباً ودوداً ليناً لا يرد الأذىٰ بمثله ، ولا يذكر مساوئ أحدهم أمام الخلق ، بل إنه كان يبحث عن مواطن الحب في النفوس .

وعلىٰ هـٰذا النهج لابد أن يكون خليفة ٱلله ، محباً لله تعالىٰ أولاً وأخيراً ومحباً لنفسه حباً يجعلها تأبىٰ الفساد والمعاصي ، حباً يجعلها طاهرة من الكره والحقد والحسد ، فالذي يحب ذاته علىٰ أنها نعمة من الخالق عز وجل وقاها بهـٰذا الحب من المهالك والمفاسد ، فينأىٰ عن الآثام والرذائل ، ولا يرضىٰ لها سوىٰ معالي الأمور وأفضل الأحوال ، فهي نعمة من ٱلله وعلىٰ الخليفة أن يحافظ علىٰ هـٰذه النعمة الغالية التي أودعها ٱلله تعالىٰ فيه .

و إذا نظرنا إلىٰ العلاقة بين الخالق والمخلوق والود القائم بينهما لوصلنا إلىٰ عظمة هـٰذا الخالق جل وعلا ، فبالرغم من ضآلتنا بالنسبة لخالقنا وهو خالق هـٰذا الكون الشاسع ، إلا أنه بقوته وعظمته يتودد إلىٰ هـٰذا المخلوق الصغير الذي كرّمه تعالىٰ وخصه علىٰ باقي المخلوقات وحمَّله أمانة لم يستطع غيره تحملها ، وإذا نظرنا وجدنا أن الملائكة وهي مخلوقات ٱلله تعالىٰ لا تتوقف عن عبادة خالقها وشكره وتنفيذ أوامره ، لكنّ ٱلله سبحانه وتعالىٰ أحب الإنسان وأعطاه ومنحه وجعله خليفته في الأرض وتودد إليه رغم قدرته تعالىٰ علىٰ الاستغناء عن البشر إذا أراد ، لـٰكنه سبحانه وتعالىٰ كريمٌ وعليمٌ بخلقه جميعاً ، وكان هـٰذا رد ٱلله تعالىٰ علىٰ الملائكة حين أراد ٱلله أن يجعل

---

(1) النجم ، 1ـ14 .

الإنسان خليفة له وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

والخالق عز وجل يتقرب إلىٰ عباده لا خوفاً ولا طمعاً ولا ضعفاً ، بل يتقرب إليهم وداً صافياً ، مخافة عليهم لا مخافة منهم ، وقوة إليهم وتقديراً لخلقهم في أحسن التقويم ، واعتباراً لاستخلافهم في الأرض وتوريثهم في الجنة ، فالعباد منهم الموحِّد المطيع ومنهم المشرك العاصي ، ومنهم المحسن ومنهم المذنب ، ومنهم العالم ومنهم الجاهل ، ومنهم المصلح المفلح ومنهم المفسد وسافك الدماء ، ومع ذلك فهو يتودد إلىٰ الصالحين منهم بإجابة دعواتهم وقبول أعمالهم ، أما عباده المذنبون فلهم أيضاً نصيب من ود الخالق عز وجل تتجلىٰ في رحمته لهم وعفوه عنهم وقبول توبتهم إذا ما استغفروا وتابوا ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ (2) ، يتودد للعلماء بهٰذا الكون وما فيه من أسرار يجعلهم يكتشفونها ويصلون إلىٰ درجات عالية من الإيمان به وبعلمه وقدرته ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ

(1) البقرة ، 30 .
(2) الزمر ، 52ـ56 .

وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (1) .

إذاً الودود يتودد إلىٰ عباده بنوعين من الود ، هما :

ودٌّ عام ، وهو : ودٌّ لكل الخلق بصفة عامة سواء كانوا مسلمين أو كفاراً أو مؤمنين يتودد إليهم باللين والعطف ، فهو الودود لكافة خلقه بواسع كرمه وسابغ نعمته عليهم عز وجل ، فكرمه وحبه يتسع لكل تائب عائد عن ذنبه ، وكل تارك للفساد والكفر ، لا يعجّل العقاب بل يؤجله متيحاً للعاصي فرصاً للرجوع للحق .

ودٌّ خاص : خص به الأنبياء والرسل ، وخص به أيضاً عباده الصالحين والشهداء والمخلصين القائمين علىٰ عبادته والباحثين عن رضاه وعن حبه ، فكيف لا يخصهم الكريم الودود الحنّان بأكبر ود فيقربهم منه ويجعل مراتبهم أشرف وأسمىٰ المراتب ؟ وهـٰذا ما أشار إليه سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (2) ، أي : سيحدث لهم في القلوب مودّة ويزرعها لهم فيها من غير تودّد منهم ولا تعرّض للأسباب التي توجب الود ويكتسب بها الناس مودات القلوب ، من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة (3) .

وٱلله تعالىٰ قويٌّ في ودِّه لخليفته في الأرض من أنبيائه وأوليائه الصالحين

---

(1) فاطر ، 25ـ30 .

(2) مريم ، 96 .

(3) الكشاف ، ج 4 ، ص124 .

الذين يطيعونه ويخلصون له في العبادة ويحكمون في الأرض بما أمر ٱلله تعالىٰ به كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (1) ، وهو أيضاً : ودودٌ في قوته ؛ لأنه لم يجعل قوته علىٰ المستضعفين والمساكين ، بل سخّر قوته لشد عزم الإنسان ونصرته علىٰ الشر ، كما وعد ٱلله تعالىٰ عباده المؤمنين : ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ (2) .

وهو ودود في كرمه ، فلا يكرم لغرض أو طمع ، وكريم في وده ، إذ أن حبه ومودته تفيضان علىٰ البشر مهما قدموا للخالق عز وجل ، وفي الحديث الشريف التالي توضيح لهـٰذا المعنىٰ : عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « من قاتل دون نفسه حتىٰ يقتل فهو شهيد ، ومن قاتل دون أهله حتىٰ يقتل فهو شهيد ، ومن قتل في حب ٱلله فهو شهيد » (3) .

وقد ودَّنا أيضاً الخالق بالنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصىٰ ، وأنعم علىٰ جميع خلقه بها ، لكنّ المؤمن المطيع يعرف أن هـٰذه النعم جميعها تستوجب أن نشكر الخالق عز وجل عليها وهي نعم لا تعد ولا تحصىٰ كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (4) ، وأن يتدبر معنىٰ الود الكامن في معنىٰ هـٰذه النعم ، أما العاصي فلا يتدبر معناها ولا يفقه كيفية شكر الخالق عليها ، بل في كثير من الأحيان يجحد بها ، وأولها نعمة القرآن الكريم الذي جعله ٱلله سبحانه وتعالىٰ هداية للبشر ورحمة ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن

(1) المائدة ، 48 .
(2) الشورىٰ ، 37ـ39 .
(3) مصنف عبد الرزاق ، ج 10 ، ص 116 .
(4) إبراهيم ، 34 .

كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، بالرغم من تحذير المولىٰ عز وجل لهم ، كما توضحه لنا الآية الكريمة : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [2] ، لـٰكنهم ابتعدوا عنه فابتعد عنهم .

وهناك صور كثيرة تتجلىٰ فيها محبة الودود المطلق للبشر منها رحمته بعباده ، فالرحمة تنتج عن الود ، إن ٱلله عز وجل يسمع شكوانا ويستجيب لدعائنا ، ويرحم مرضانا ، ويرفع البلاء عنا كلما دعوناه مخلصين ، ووهب لنا مسببات الجنة لمن أراد ، فرحمنا بذلك من عذاب الحريق ، وقبل كل هـٰذا أهدانا نعمة الإسلام ، وجعل سيدنا محمداً ﷺ شفيعاً لنا ، وهـٰذا تودد من ٱلله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ عباده أجمعين بالرحمة ، وذلك بمكافأة المطيع بالثواب وقبول توبة المذنب الخاطئ الذي لجأ إليه ، وبالرغم من أننا نعرف أنه جل وعلا قوي عزيز لا يحتاج للعباد في شيء ولـٰكنه يرحمهم عند اللجوء إليه لحبه فيهم وتقربه منهم رحمة بهم ، مع أنه يستطيع أن يعاقب أشد العقاب إذا أراد كما فعل مع الأقوام السابقة التي طغت وتجبرت ولم تصغ إلىٰ كلام ٱلله وظلمت ، كما في قوله سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ

(1) البقرة ، 97ـ101 .
(2) النساء ، 115ـ116 .

إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (1) ، فلولا توده ورحمته لعجل بالعقاب لكل عاصٍ وخاطئ فلا يكون لهم مجال للتوبة والرحمة .

وهو أيضاً ودودٌ في لطفه فهو يُنزل علينا الصبر والسكينة عند حلول المصائب والكوارث ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (2) ، فينجي من يشاء منهم من الكوارث ، فبحبه لعباده تلطف بهم مانحاً لهم نعمة الصبر والرضا بالقضاء . وهـٰذا يكون من باب التودد إلىٰ العباد .

هو أيضاً سبحانه وتعالىٰ لطيفٌ في وده ، إذ إنه لا يمنع رزقه عن العباد بذنوبهم في الدنيا ، بل إنه يتودد إليهم عامةً بالعطاء والرزق حسب علمه بعباده ، وتودد ٱلله دائماً رحمة ومغفرة للعباد ، فهو المتودد لهم بالشفاء أثناء المرض وبالوفرة أثناء الحاجة وبإحقاق الحق أثناء ظهور المظالم ، وبالعلم بعد الجهل وبالحكمة والهداية بعد الضلال وباليقين بعد الشك ، والخليفة يتودد إلي الودود بالاستغفار والطاعة والعبادة والتوبة ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (3) ، فقد تكون هـٰذه النعم سبباً في خروج

---

(1) الذاريات ، 40ـ44 .

(2) البقرة ، 156 .

(3) الشورىٰ ، 19ـ22 .

العاصي من عصيانه بتفكره في هـٰذه النعم واعترافه بأنها من ٱلله الواحد الرازق الودود فبذلك يكون قد حل به لطف ٱلله تعالىٰ فينجو من عذاب الحريق .

لذلك علىٰ الودود بالإضافة أن يكون شاكراً طائعاً ، محباً لله تعالىٰ ، ولعباده المؤمنين يتودد إليهم لما في قلبه من حب لله تعالىٰ ، يملأ قلبه التسامح والعفو وعلىٰ علاقة طيبة بذي القربىٰ وبجيرانه الأقارب والأباعد لأن القلب إذا عمُر بحب ٱلله فاض بحب العباد ، فيكون بذلك متصفاً بصفات ٱلله عز وجل من خلال عمله وطاعته للمولىٰ ، فأضفىٰ عليه الخالق من صفاته العُلىٰ ما يجعله أهلاً لخلافته سبحانه وتعالىٰ في الأرض ، وهـٰذه الخلافة لا يستحقها كل إنسان لمجرد كونه إنساناً ، حتىٰ وإن كان مسلماً ، فليس كل مسلم هو خليفة لله سبحانه وتعالىٰ وإن كان هـٰذا ما يجب ، ولـٰكن يستحقها من أطاع مُستخلفه فالتزم بالأوامر وابتعد عن النواهي وأكثر من الطاعات وتخلَّق بالصفات الحسان ، فبهـٰذا يكون أهلاً لخلافة ٱلله تعالىٰ في الأرض ليحكم بحكمه ويطبق شرعه ويعمر الأرض كما أراد الخالق عز وجل في قوله تعالىٰ مخاطباً خليفته : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (1) ، وهـٰذا الخطاب من الخالق عز وجل المستخلِف إلىٰ نبي ٱلله داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو المستخلَف في الأرض خلافة جبرية ، حيث اصطفاه ٱلله تعالىٰ واختاره ليكون نبياً له وخليفة ، فما بالك بالخليفة الاختياري أفلا يكون هـٰذا الخطاب شاملاً لهم ؟ .

بلىٰ يكون هـٰذا الخطاب شاملاً لهم ، بل هو آكدُ في حقهم أكثر مما هو في حق الخليفة بالإجبار ، فالأنبياء والرسل يكون ٱلله قد اصطفاهم ونقاهم من المفاسد والأخطاء كما في قوله تعالىٰ في كتابه العزيز واصفاً أصفىٰ خلفائه علىٰ

---

(1) ص ، 26 .

الإطلاق سيدنا محمداً ﷺ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [1] .

فلابد أن يكون تودد الخليفة لله لا ينازعه أي تودد آخر فتكون محبة المولىٰ عز وجل هي الغالبة علىٰ فؤاده ، لأن محبة ٱلله تعالىٰ هي روح الأعمال ، فلا عمل للعبد يكون لغير وجه ٱلله تعالىٰ ورضاه هو عمل مقبول ، فمن عقد النية خالصة لله عز وجل ينال رضاه ومودته وهـٰذا ما أخبرنا به المولىٰ عز وجل في كتابه العزيز : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [2] .

ويكون التودد متبادلاً بين الخالق جل وعلا وخليفته ، فٱلله تعالىٰ يضع محبته في قلب خليفته الذي رضي عنه وهـٰذه نعمة من ٱلله عليه وهو لا يعطيها لمن لا يسعىٰ خلفها ، فالمؤمن الذي أحبه ٱلله يجعل بالمقابل محبته في قلب هـٰذا المؤمن ، وبهـٰذا يتبادل الخالق عز وجل المودة والحب بينه وبين خلفائه وعباده المخلصين ، وهـٰذا الود هو الذي هون علىٰ الأنبياء والمرسلين الأهوال والعذاب في تبليغ الناس دعوة ٱلله لهم بالتوحيد ، وهـٰذا الحب هو الذي شد أزرهم عند اشتداد الأزمات والمصائب وليس أصدق علىٰ ذلك من دعاء الرسول ﷺ ربه عند لجوئه للطائف وتعرضه للعذاب والضرب والكفر « اللهُمَّ إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني علىٰ الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، لمن تكلني ! إلىٰ عبد يتجهمني ، أو إلىٰ عدو ملكته أمري ! إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولـٰكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل عليَّ سخطك ، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ ، ولا حول ولا قوة إلا بك » [3] .

---

(1) النجم ، 3 ، 4 .
(2) الشورىٰ ، 20 .
(3) جامع الأحاديث ، ج 35 ، ص 409 .

وبما أن الود أشد عمقاً وأعم من الحب ، لأن الحب يبقىٰ مستتراً داخل النفس ، أما الود فهو التعامل بإظهار هـٰذا الحب أي لا بد أن يظهر ويتوضح الود في التصرفات ولا يبقىٰ كامناً داخل زوايا الذات لهـٰذا فقد ظهر ود ٱلله لنا جلياً وهناك حديث للرسول ﷺ يوضح هـٰذا الأمر ، عَن أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْداً نَادَىٰ جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ »[1] .

وود ٱلله سبحانه وتعالىٰ للعبد يبدأ بمجرد بث الروح فيه ، فيهب له الحياة ويخرج إلىٰ الدنيا بقدرة القادر عز وجل ، وينبض قلبه مستبشراً بالحياة ، ولا يتركه ٱلله وحيداً بل يجد من يعتني به ويلبي له احتياجاته من مأكل ، ومشرب ، وملبس ، وحنان ، ورعاية ، ويتجلىٰ هـٰذا الود بتوضيح السبل للعيش الكريم والصحيح في مراحل النمو وهدايته لطاعة الواحد الأحد الذي لا شريك له في الأمر والملك ، ولهـٰذا من يتعلم طاعة الواحد الأحد لا يمكن أن يطيع من لا يطيعه بالمطلق ، فلا أجمل من أن يعيش الإنسان حياته وهو متودد إليه بشكره وحمده علىٰ نعمه التي أنعم بها عليه من عقل وسمع وبصر وحس وذوق وأكثر من ذلك مما لا يحصىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[2] ، وأن يكون موقناً أن ٱلله أقرب إليه من نفسه التي قد تأمره بالسوء أحياناً ومن أمه وأبيه اللذين ربياه وهو اللطيف به الرؤوف الرحيم ، والودود عز وجل يدعو عباده إلىٰ التوجه إليه ومناجاته ، والتودد إليه دائماً ، فلا أحب إلىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ من شكوىٰ عبده المتضرع إليه ، فالمؤمن المخلص لله تعالىٰ هو الذي يلجأ إليه دون سواه سواء أكان مسروراً فيشكر

(1) صحيح البخاري ، ج 18 ، ص468 .
(2) إبراهيم 34 .

خالقه ويحمده ، أو إذا مسه الضر فلا يتجه العبد المؤمن الصادق إلا لهـٰذا الخالق الودود الكريم السميع للدعاء القريب للداعي ، ولنا في رسلنا وأنبيائنا خير مثال وقدوة ، فمع معاناتهم الشديدة لـٰكنهم توكلوا علىٰ ٱلله تعالىٰ وبثوا شكواهم إليه وهـٰذا ما حدث مع سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام عندما اشتد عليه المرض والتعب ، فقد حدثنا القرآن الكريم عن مناجاته في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (1) . وكذلك أيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) ، وأيضاً قول ٱلله في كتابه العزيز : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (3) ، فلا أقرب من الخالق سبحانه وتعالىٰ من خليفته المؤمن الذي يناجيه ويدعوه ، ولا أحب من صوت المؤمن إلىٰ ٱلله عز وجل وهو يستغيث به ويحمده ويتوجه إليه .

فالخليفة علىٰ وثوق بأنه علىٰ ود من ودود مطلق ، ولذا فهو علىٰ حالة من مبادلة ودٍّ بودٍّ ، وهو علىٰ يقين بأن ٱلله تعالىٰ يبادله هـٰذا الود بأكثر ، وأن ينعكس هـٰذا الود في حياته كلها فيكون ودوداً مع جنسه ويأمل بكل ود أن تكون الهداية قاعدة للتفاهم والتفهم بين بني آدم ، حتىٰ يعم الود العلاقات بين الأب وأبنائه ، والزوج وزوجه ، والمعلم وطلابه ، والجار وجيرانه ، والراعي ورعيته ، والعادل والمعدول بينهم ، أهله وعائلته المقربون .

---

(1) الأنبياء ، 83 .
(2) الأنبياء ، 87 ، 88 .
(3) الأنبياء ، 89 ، 90 .

الودود تعالىٰ قريب من عبده مادام عبده وخليفته يتودد إليه بالشكر والذكر والحمد علىٰ كل حال كما جاء في الحديث الشريف : عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ :

سَمِعْتُ رسول ٱلله ﷺ قال : « عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ » [1] ، فهل هناك من جزاء للتقرب إلىٰ ٱلله تعالىٰ أروع من هـٰذا الجزاء الكريم الودود الذي خص به خليفته علىٰ الأرض ؟ إنه الودود الكريم في وده وحبه وحتىٰ في لومه للذين لم تخشع قلوبهم ، بعد كما جاء في قوله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [2] .

المتمعن في اسم الودود لابد أن يخرج بعدة نتائج هامة :

أولها : مدىٰ اتساع حب ٱلله تعالىٰ للخلق ، حب لا يتبعه مصلحة ولا نوايا أخرىٰ ، فهو الغني عن العباد إذا عصوا أو امتنعوا عن إطاعة أوامر الخالق كما في قوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [3] ، وكذلك يؤكد ٱلله تعالىٰ غناه عن العالم إذا أراد ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [4] . أي : أن ٱلله تعالىٰ يقول : يا أيها الناس

---

(1) سنن الترمذي ، ج 6 ، ص 190 .
(2) الحديد ، 16 .
(3) محمد ، 38 .
(4) فاطر ، 15ـ17 .

أنتم أولو الحاجة والفقر إلىٰ ربكم فإياه فاعبدوا ، وفي رضاه فسارعوا ، يغنكم من فقركم ، وتُنْجِح لديه حوائجكم ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ عن عبادتكم إياه وعن خدمتكم ، وعن غير ذلك من الأشياء ؛ منكم ومن غيركم ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ يعني : المحمود علىٰ نعمه ؛ فإن كل نعمة بكم وبغيركم فمنه ، فله الحمد والشكر بكل حال [1] ، وبالرغم من ذلك فقد خلق ٱلله سبحانه وتعالىٰ هـٰذا الكون الشاسع بإتقان ودقة وجعل هـٰذا التآلف والانسجام في مكونات هـٰذا الوجود علىٰ تباينها وتعددها ترتبط بعلاقة تودد مع بعضها البعض لخدمة هـٰذا الإنسان ، وهـٰذا من مظاهر تودد ٱلله تعالىٰ الجلية للإنسان .

وثانيها : يوضح لنا هـٰذا الاسم مدىٰ جهل الكفار وطغيانهم ، فلو أنهم فقط نظروا إلىٰ الكون الشاسع الممتد حولهم لتوصلوا إلىٰ ربط الصلة بين مكونات هـٰذا العالم وبين تودد الودود إليهم ، لأن هـٰذا الكون ما هو إلاَّ تودد من الودود للإنسان فلينظروا إلىٰ الشمس ويتدبروا أهمية خلقها لنا ويتساءلوا إذا لم يكن لها وقت للمغيب ما الذي سيحدث ؟ أليس حباً بخلقه جعل لها مشرقاً معلوماً ومغيباً معلوماً ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [2] . وكذلك القمر كما في قوله عز وجل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [3] ، وهـٰذه الأنهار الجارية والينابيع التي تصب وكذلك الأمطار وغيرها من دلائل هـٰذا الود العظيم للخالق العظيم ، ألا يعتَبر تودداً للخلق كل مسخرات هـٰذا الكون .

---

(1) الطبري ، ج 20 ، ص 454 .
(2) الفرقان ، 47 .
(3) يونس ، 5 ، 6 .

أيضاً هـٰذه الطيور المتباينة والأسماك والأنعام علىٰ اختلاف أشكالها وأنواعها هي لسد حاجات الإنسان سواء الحاجة المادية من مأكل ومشرب أو الحاجة الروحية لما فيها من متعة للعين وابتهاج للنفس كما وضح ٱلله لنا في كتابه العزيز : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1] .

وثالثها : ردع المسلم عن الزلات والذنوب بأن يتذكر ود الخالق سبحانه وتعالىٰ له ، فيكفي أن يتذكر المسلم عند نيته بارتكاب ذنب ما أن ٱلله فضله علىٰ باقي مخلوقاته واستخلفه في أرضه ، وأنه ستر عليه وأكرمه بكثير من النعم والعطايا ، فهل يكون هـٰذا هو رد الإنسان عليه ؟ ألا يكفي لهـٰذا العبد أن يعلم أن ٱلله لا يسجل ذنباً علىٰ أي إنسان إلا بعد ارتكابه مع علمه الواسع بالغيب ؟

ويكفي أن يعرف أن ٱلله كريم في وده ومغفرته ولا يتجاوز الحد العادل في العقاب بل إنه يزيد من الحسنة ويضاعفها لكي تغلب علىٰ السيئة في ميزان أعمالنا وهـٰذا ما وضحه لنا خالقنا الودود في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [2] .

---

(1) النحل ، 14 .

(2) الأنعام 159 ـ 165 .

رابعها : أن اسم الودود يفتح للمذنب باباً للأمل والتوبة والتسامح ، فلا ينغمس مع يأسه في منحدر الفساد والرذيلة ، فالود دائماً يفتح الأبواب المغلقة ، بل إن الودود بوده وكرمه في تقربه لخلقه يتقرب إلىٰ عبده المذنب بالغفران والسماح إذا عاد وتاب عما ارتكبه ، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله سبحانه تعالىٰ في التخفيف عن المذنبين ومنحهم أمل المغفرة منه ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) .

بل إننا نجد : أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ أعلن عن حبه للتائبين عن ذنوبهم ، وذلك في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (3) . إذاً ودُّ ٱلله الكريم الحنّان يمثل واحة من الظلال ، يستريح فيها المذنب من عناء خوفه .

وحتىٰ ودُّ ٱلله سبحانه وتعالىٰ ودٌّ كريم ؛ لأن الخالق لم يحدِّد أيَّ زمن للتوبة ، ولم يجعل لها سناً معيناً لا تقبل من بعده ، بل إنه ترك باب توبته مفتوحاً طوال العمر وفي أي مكان وهـٰذا ما جاء في الحديث الشريف عن أبي قلابة ، قال : « إن ٱلله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره ، فقال : وعزتك لا أخرج من صدر عبدك حتىٰ تخرج نفسه ، فقال : وعزتي لا أحجب توبتي من عبدي حتىٰ تخرج نفسه (أو قال) : روحه » (4) ،

---

(1) آل عمران ، 135 ، 136 .

(2) الزمر ، 53 .

(3) البقرة ، 222 .

(4) جامع معمر بن راشد ، ج 3 ، ص347 .

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (1) .

خامسها : إن العبد إذا أدرك هـٰذا الاسم بكل معانيه السامية سوف يتجه إلىٰ الخالق عز وجل بكل جوارحه مؤدياً للطاعات ولأوامره حباً به لا خوفاً منه ، فبذلك يكون قد دخل من أشمل وأوسع الأبواب لنيل رضا ٱلله تعالىٰ فيتجه إليه الخليفة محباً لا خائفاً ، طوعاً لا كرهاً ، راكضاً لا متمهلاً ، بذلك سوف يستشعر مدىٰ حب ٱلله تعالىٰ له وحرصه علىٰ دخول جنته ، وسيعلم مدىٰ رقي المعاملة التي يتعامل بها هـٰذا الخالق العظيم الودود مع عبده الضعيف المحتاج لرضاه عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) . وعندها سوف يسارع هـٰذا الإنسان في طاعته ، ورضاه كما سارع سيدنا موسىٰ ﷺ لطلب هـٰذا الرضا في قوله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (3) .

سادسها : أن هـٰذا الاسم يخلق المودة بين الناس ، سواء أكان بالزواج والمصاهرة والنسب أو بتقارب الناس بشتىٰ الوسائل ، كما في قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (4) ، فالودود سبحانه وتعالىٰ لم يجعل الناس متنافرين بل قاربهم من بعض لنشوء المودة والحب بين الناس جميعاً ، لذلك جعل ٱلله تعالىٰ الود علىٰ لسان رسوله ﷺ من معالي الأمور ،

(1) النساء ، 48 .
(2) الحديد ، 28 .
(3) طه ، 84 .
(4) الروم ، 21 .

عن أبي هريرة ، قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « رأس العقل بعد الإيمان التودد إلىٰ الناس » [1] .

سابعها : تأتي أهمية هـٰذا الاسم أيضاً من كونه باباً واسعاً للشعور بالطمأنينة والأمان في صدر الخليفة ، فعند نشوء مثل هـٰذا الود المتبادل بين الخالق سبحانه وتعالىٰ وبين عبده المخلص ، ويصبح هـٰذا الود مبعثاً للسكينة عند حلول الأزمات ، كيف لا وهـٰذا الود يجعل العبد المحب لله تعالىٰ يستشعر قرب خالقه الودود في نفسه ؟ قال سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [2] ، فيبتعد بذلك شبح الخوف من الآخرين في نفوسنا ، ونطرد كل أشكال الهلع والجبن ، وقد جسد لنا رسولنا الكريم ﷺ هـٰذا الموقف عندما كان مع صديقه ورفيقه في هجرته أبي بكر الصديق ـ رضي ٱلله عنه ـ في غار ثور ، كما جاء في قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [3] فشدة قرب الرسول عليه الصلاة والسلام من ربه ، وحبه له هما اللذان منحاه هـٰذه الثقة بمن أحب ، فاطمأن قلبه ، وطمأن رفيقه . « طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ علىٰ رسول ٱلله ﷺ فقال : إن تصب اليوم ذهب دين ٱلله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما ظنك باثنين ٱلله ثالثهما ؟! » [4] .

---

(1) مسند الشهاب القضاعي ، ج 1 ، ص319 .

(2) الرعد ، 28 .

(3) التوبة ، 40 .

(4) الكشاف ، ج 2 ، ص 422 .

فالتودد إلىٰ ٱلله عز وجل إذاً يجلب لنا الإحساس بالأمان والسكينة ، وهما شعوران يجعلانا نتدبر هـٰذا المعنىٰ لهـٰذا الاسم الرفيع ، وبالتالي فإن هـٰذا الخليفة عندما يستشعر ذلك كله ويجد ما يحتاجه من الأمان والراحة في ود ٱلله تعالىٰ سيكون من المستحيل عليه أن يفرط في هـٰذا الحب الرفيع ، فيتكون لدىٰ هـٰذا المؤمن المطيع الخشية من عصيان المولىٰ وإنذار بالخوف من الابتعاد عن هـٰذه العلاقة الودية بينه وبين خالقه ، كما في قوله سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] ، بذلك يتوكل العبد علىٰ خالقه الودود ولا يخشىٰ غيره فيتخلص من خوفه من الناس ، ولا يخشىٰ إلا الواحد الأحد ، ويمتلئ قلبه بالثقة والقوة المستمدة من حب ٱلله تعالىٰ والتوكل عليه كما في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [2] .

فسبحان ربي الودود الظاهر بالمحبة علىٰ عباده جميعاً ، يصلهم ويمدهم بالإحسان والعدل والغفران حتىٰ يصلوا إلىٰ جنات النعيم ، فقد سبقت رحمته غضبه ، ورافق علمه حلمه .

ثامنها : الرضا بقضاء ٱلله وقدره هو من النتائج الأساسية التي يخرج بها الإنسان من التدبر في معنىٰ هـٰذا الاسم ، فالودود بالإضافة إذا كان صادقاً في وده لله سبحانه فإنه يرضىٰ بما قدره ٱلله تعالىٰ عليه ، فهو يعلم تمام العلم أن ٱلله عز وجل ودود يود خلقه ولا يظلم أحداً من خلقه فسيكون علىٰ ثقة كاملة بأن ما يصيبه من عند ٱلله تعالىٰ ، عندها سيصل إلىٰ اقتناع تام بأن ما يحل به من هم وحزن سواء كان بذهاب المال أو فقد الأحباب أو غيرها من الهموم والأحزان هو خير من الخالق عز وجل .

---

(1) الأنعام ، 15 .
(2) الرعد ، 30 .

والرضا بقضاء ٱلله تعالىٰ وقدره من علامات حب ٱلله تعالىٰ وشكره ، كما جاء في الحديث الشريف : عن الربيع بن أنس ، عن بعض أصحابه قال : « علامة حب ٱلله كثرة ذكره ، وعلامة الدين الإخلاص لله ، وعلامة العلم الخشية لله ، وعلامة الشكر الرضا بقضاء ٱلله والتسليم لقدره »[(1)] .

تاسعها : أن الود سبب لإنجاح المهمات التي أنيطت بنا سواء كانت من الخالق عز وجل كالعبادات وعمارة الأرض أو كانت من المهمات الدنيوية التي تحملناها بحكم مسئولياتنا في هـٰذه الحياة ، فبالود نستطيع أن نقوم بعباداتنا علىٰ أكمل وجه ، وأن نعمر الأرض بالحب والود .

عاشرها : المتمعن في اسم الودود يتضح له جلياً دعوة ٱلله تعالىٰ لنا بالتآلف والوحدة ، فالود الذي يربط الخالق بعبده يقوىٰ من نفس هـٰذا العبد وعندما يقوىٰ يستطيع المواجهة والتحدي ، وهـٰذا نفسه ينطبق علىٰ الأمة الإسلامية ، فدعوة الخالق عز وجل لنا بالتودد لبعض والمحبة من شأنها أن توحد هـٰذه الأمة ، فالناس بالود يتحدون وبالعداوة يتفرقون ، وهـٰذا المعنىٰ نجده في حديث الرسول ﷺ قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ »[(2)] فإذا تخيلنا الأمة الإسلامية في توادها وحبها لبعض مثل الجسد الواحد الذي يرتبط مع بعضه البعض ، لوصلنا إلىٰ درجة من الوحدة ما تكفي لنهوضنا ، لأن الجسد الواحد يكمل كل عضو فيه الآخر لكي يستمر هـٰذا الجسد في الحياة وكأنها علاقة ود تقوم بينهم ، وهـٰذا ما يجب أن يكون عليه المؤمنون لا ينقطع الود والحب بينهم بل يزيد بارتباطهم بالودود الكريم .

علىٰ الإنسان أن ينمي هـٰذا الود السامي بمعناه بينه وبين خالقه ،

---

(1) تعظيم قدر الصلاة للمروزي ، ج 2 ، ص 298 .

(2) صحيح مسلم ، ج 2 ، ص468 .

ولا يكون ذلك إلا بحرص هـٰذا العبد علىٰ نيل رضا مولاه عز وجل وذلك بأمور عديدة منها : الإكثار من ذكر الخالق سبحانه وتعالىٰ ، وأن يكون قلبه عامراً يفيض بحب ٱلله تعالىٰ ، وإتباع سيرة رسولنا الكريم ﷺ كما جاء في كتابه الحكيم : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، فحبنا لله تعالىٰ لا يكتمل إذا كان دون حب رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ، وكذلك بكثرة النوافل والسنن المحببة ، وأن نحب المسلمين خاصة والخلق عامة ، فلا نؤذي أحداً ولا نبدأ بالسوء ، وأن نكون علىٰ إيمان بأن ٱلله تعالىٰ يودنا في كل أمر فدفع الضرر عنا هو ود منه إلينا ، وكل طعام وشراب هو ود منه لنا ، وكذلك كل نوم هادئ مريح هو تقرب من الخالق لنا ، ومن أروع صور هـٰذا الود السامي أن نتذكر أن كل ليلة ينزل من السماء دعوة حب من ٱلله عز وجل لكل مذنب للتوبة والغفران ، واستجابة لكل طالب حاجة فيلبيها له ، لهـٰذا فإن حبنا للخالق عز وجل هو نقطة في بحر حب ٱلله سبحانه وتعالىٰ لنا ، هـٰذا الود البحر الزاخر بالخيرات والعطايا والسخاء .

ومن الأهمية بيان الود الموصوف به المولىٰ عز وجل ، لأن هناك أنواعاً من المحبة والود ينتج عنه الضعف والتذلل ، وهـٰذا طبعاً يستحيل في حق ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، لأن الحب الموصوف به عز وجل غير قائم علىٰ الضعف ولا الخنوع ، إنما هو حب قائم علىٰ الإحسان لنا والرحمة بنا والكرم معنا والقوة والعزة ، وهـٰذا هو الحب الذي يختص به عباده المخلصون المستحقون لهـٰذا الود ، وهـٰذا ما نراه جلياً في قوله تعالىٰ عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، فٱلله تعالىٰ محبته للمؤمنين تعني حفظه وستره وعزته ونصره لهم ،

---

(1) آل عمران ، 31 .

(2) المائدة ، 54 .

وقوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (1) .

من المستغرب أن يكون بعض البشر لا يستشعرون هٰذا الود من الودود المطلق ، ورغم كل هٰذه الدلائل وغيرها يصرون علىٰ عدم الشكر ورد الود ، وأي إحسان قد يقدمه شخص للإنسان يضاهي إحسان الخالق عز وجل الذي خلق الإنسان من لا شيء كما في قوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (2) ، وبعد أن خلقه أهدىٰ له أمه وأباه ، وأهداه نعمة العقل ، وأحسن إليه بالعديد من النعم الأخرىٰ طيلة حياته ، فهل يكون جزاء الإحسان إلا الإحسان كما في قوله ـ عز وجل ـ في كتابه العزيز : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (3) .

فلا أقل من أن يتودد الإنسان إلىٰ خالقه عن طريق إقامة الصلاة والصوم والحج كما أحبنا الودود أن نكون في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (4) . وغض البصر كما أمرنا ٱلله في قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (5) ، وكذلك الإنفاق لقوله جل وعلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ (6) ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقد قال تعالىٰ ،

---

(1) إبراهيم ، 19 ـ 20 .
(2) الإنسان ، 1 .
(3) الأنعام ، 162 .
(4) لقمان ، 4 ـ 5 .
(5) النور ، 30 .
(6) البقرة ، 267 .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (1) .

فالخالق الودود قد تودد إلينا بالكون كله ، فلنتودد إليه نحن بالإيمان والطاعات والإحسان ، ليمتلئ فؤادنا وروحنا بحب ٱلله ، وحب من أحبهم ، وحب ما يحبه من الأعمال ، فلا يُعتبر ودوداً كل من أحب المعاصي وتودد إليه ، أو تودد إلىٰ من تجمعه به تلك المعاصي ، فذلك لا يمكن أن يكون وداً ، لأن الود يكون لكل ما هو خير ونفع ، كمثل من يُخيل لهم أنهم يتحابون في مجالس شرب الخمر والفساد ، أو من يبسطون أيديهم بالحب لأعداء ٱلله تعالىٰ ، كما في قوله عز وجل : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (2) . أي : أنه لا تجد يا محمد قومًا يصدّقون ٱلله ، ويقرّون باليوم الآخر يوادّون من حادّ ٱلله ورسوله وشاقّهما وخالف أمر ٱلله ونهيه (وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ) (3) ، فكل ود لغير مرضاة ٱلله هو خداع وخيال ، لأن الخالق عز وجل وضح لنا الفرق بين الود الحقيقي المقبول من العبد والذي يقربه من خالقه وبين هـٰذا الحب الموهوم بين العبد ومن ابتعد عنهم ٱلله ونبذهم من رحمته ، فالود الموصوف به خلفاء ٱلله تعالىٰ في الأرض له علامات منها :

أولاً : أن يكون وداً صادقاً خالياً من النفاق وليس كمثل المنافقين في مولاتهم الكفار كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا

(1) آل عمران ، 104 .

(2) المجادلة ، 22 .

(3) تفسير الطبري ، ج 23 ، ص257 .

هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [1] ، أو من يتودد لشخص ما بهدف تحقيق مصلحته ، إنما هو ود عامر بكل معاني النقاء والصفاء .

ثانياً : أن يكون وداً دائماً جارياً مع دماء هـٰذا الخليفة ، لا ينقطع ولا يتوزع ولا يتجزأ ، ويكون وداً ثابتاً لا ينقص مع حلول المحن والمصائب وأن يكون هـٰذا الود بمثابة درع يقيهم خوف الأعداء كما جاء في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [2] .

وثالثاً : أن يكون هـٰذا الود الصافي لاستحقاق الودود ودّاً أكثر .

رابعاً : أن يصل الخليفة بهـٰذا الود إلىٰ مرحلة إيثار حب ٱلله ومودته علىٰ كل ما عاداه ، فيضحي بنفسه وماله وولده من أجل هـٰذا الودود العظيم كما جاء في محكم آياته عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [3] .

خامساً : الشعور الدائم بعدم وفاء الخالق عز وجل حقه من الود والحمد والشكر ، فالمؤمن الحق هو الذي يصاحبه شعور بأنه مقصر في حق ٱلله ، قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ وَإِنْ كَانَ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ثُمَّ تُصِيبُ شَيْئًا مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ إِلاَّ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ النَّارِ » [4] ، ويتكون هـٰذا الشعور لدىٰ المؤمن لعلمه ويقينه بأن ود خالقه له لا يمكن أن يُرد بمثله لعدم المقدرة من العبد علىٰ ذلك .

والود من المولىٰ عز وجل للخلق ليس وداً واحداً بل هو ود متفاوت ،

---

(1) المجادلة ، 14 .

(2) آل عمران ، 173 .

(3) الحجرات ، 15 .

(4) سنن ابن ماجه ، ج 12 ، ص237 .

يختلف باختلاف سعي الخليفة لوده ، ومرضاته ، فٱلله تعالىٰ بعلمه المطلق والمسبق بخلقه يفضل بعضاً علىٰ بعض ، دون أن يكون في هٰذا الاختلاف والتباين ظلم للعباد ، فسبحانه العادل الكريم منزه عن الظلم ، وهٰذا ما جاءت به الآيات الحكيمة : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) ، أي : أنـــه قـــال داود وسليمان : « الحمد لله الذي فضلنا بما خصنا به من العلم الذي آتاناه ، دون سائر خلقه من بني آدم في زماننا هٰذا علىٰ كثير من عباده المؤمنين » (3) .

فالتميز بين عباد ٱلله هي نعمة من الخالق سبحانه وتعالىٰ يهبها لمن يستحقها ، بالود يفضل بعضنا ويخصه ، وبالود يشكر خليفته هٰذا الفضل .

تبارك الخالق الودود ذو الجلال والإكرام ، الذي وهب لنا نعمة التودد إليه وإلىٰ خلقه ، فكيف لنا أن نتصور أن الكون لا يرتبط بهٰذا الشعور الراقي ، الحمد لله الودود الكريم الرحيم الذي لولا فضله علينا ما هدانا ، وما يسر لنا سبل المحبة ، وما بث فينا حباً إن وعينا جوهره نجونا من النار ، وما منحنا أملاً بالمغفرة والتوبة والسماح كما كان هٰذا أمل الداعين المؤمنين في الآية الكريمة : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (4) ، وما فزنا بجنات النعيم كما وعد ٱلله عباده المؤمنين في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(1) الإسراء ، 21 .
(2) النمل ، 15 .
(3) الطبري ، ج 19 ، ص 437 .
(4) البقرة ، 286 .

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [1] .

اللهُمَّ يا الودود يا مصدر كل ودٍّ نحن فقراء إلىٰ ودك فلا تحرمنا ودك فيه نحيا وبه نموت وبه نبعث وبه ننجو من العذاب !

اللهُمَّ ألق في نفوسنا وداً من ودك ؛ حتىٰ نطمئن ، واجعل بيننا وبين قومنا وداً ورحمة ! اللهُمَّ اجعلنا بودك نغنىٰ ، ونفوز في الدارين ، وبودك نعمل ، ونصلي ، ونسلم علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين ! اللهُمَّ يا الودود حببنا في الطاعات ، ونفرنا من المعاصي ! اللهُمَّ اجعل بيننا وبين أولادنا وأزواجنا وداً من ودك لا ينقطع ما حيينا ! اللهُمَّ اجعل بيننا وبين ذكرك وداً واجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونَك ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾! .

اللهُمَّ يا الودود يا ذا العرش المجيد يا المبدئ يا المعيد يا الفعَّال لما تريد نسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك ، وبقدرتك التي قدرت بها علىٰ جميع خلقك ، وبرحمتك التي وسعت كل شيء لا إلـه إلا أنت أن تغفر ذنوبنا وسيئاتنا ، وأن تبدلها لنا بحسنات إنك جواد كريم رؤوف رحيم !

اللهُمَّ يا الودود حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ! اللهُمَّ يا الودود إننا نسألك حب العمل الذي به نبلغ إلىٰ حبك ! اللهُمَّ زد أعمالنا بحسنات ودك يا ٱلله !

اللهُمَّ يا الودود إنا نسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب توحيدك ، وحب الصلاة ، والزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيتك المحرم ، فبلغنا يا الودود ما نوينا !

---

(1) يونس ، 9 .

اللهُمَّ يا ودود ألف بين قلوبنا ، وفرج كروبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات ، واجعل لنا نوراً نهتدي به ، وجنبنا الفواحش ما ظهر ، منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا ، وأبصارنا ، وقلوبنا ، وأزواجنا ، وذريَّاتنا ، وتب علينا ، إنك أنت الودود !

المَجِيدُ جلّ جلاله

في لسان العرب المحيط ، إِذا قارَن شَرَفُ الذاتِ حُسْنَ الفِعال سمي مجيداً [1] .

المجيد : « الذي له المجد العظيم ، والمجد هو عظمة الصفات وسعتها ، فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه » [2] .

المجيد : « هو الشريف ذاته الجميل أفعاله الجزيل عطاؤه ونوله ، فكأن شرف الذات إذا قارنه حسن الفعال سمي مجداً » [3] .

والمجيد لماله من الشرف علىٰ كل موصوف بالشرف فإن شرف العالم بما هو منسوب إلىٰ ٱلله أنه خلقه وفعله فما هو شرفه بنفسه ، فالشريف علىٰ الحقيقة من شرفه بذاته ، والشرف قيمة بين المستخلفين تستوجب الاحترام والتقدير .

وشرف ذات المجيد سبحانه تتجلىٰ في وحدانيته مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [4] ، لا شرف أكبر من أن يكون لا مثيل له في

---

(1) لسان العرب ، ج 3 ، 395 .

(2) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 43 .

(3) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 123 .

(4) الإخلاص ، 1ـ4 .

شيء من الصفات والأفعال الحسان ، ولا شرف أكبر من أن يكون غنياً في ذاته ولا شرف يقارن بشرفه وهو الأول والآخر سبحانه إنه العلي العظيم ، الذي بيده الملك والأمر والنهي وهو علىٰ كل شيء قدير .

كما أنه تنزه بقدرته عن فعال البشر سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (1) ، فهو تعالىٰ الواجب الوجود لذاته الغني عما سواه المحتاج إليه ما عداه ، فهو الجواد المعطي لكل قابل ما يستحق ، فهو تعالىٰ الحمد له دون غيره عز وجل ، وهـٰذا الذي عناه الزمخشري وقال في الكشاف : لك أن تأخذ نفي هـٰذه الصفات وهي ذرائع منع المعروف أما الولد فلأنه مبخلة ، وأما الشريك فلأنه مانع من التصرف كيف يشاء ، وأما الاحتياج إلىٰ من يعتز به أو يذب عنه فاظهر رديفاً لإثبات أضدادها علىٰ سبيل الـكناية وهو وجه حسن ؛ ولو حمل الكلام علىٰ ظاهره أيضاً لكان له وجه وذلك لأن قول القائل الحمد لله فيه ما ينبي أن الإلـٰهية تقتضي الحمد فإذا قلت الحمد لله المنزه عن النقائص مثلاً يكون قد قويت معنىٰ الإلـٰهية المفهومة من اللفظ فيكون وصفاً لائقاً مؤيداً لاستحقاقه تعالىٰ الحمد من غير نظر إلىٰ مدخلية الوصف في الحمد بالاستقلال (2) .

وأسماء ٱلله الحسنىٰ هي تعبير عن الذات الكريمة والشريفة : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (3) ، فمن ذا أشرف منه ؟! سبحانه وتعالىٰ عما يصفون !

---

(1) الإسراء ، 111 .

(2) تفسير الآلوسي ، ج 11 ، ص 137 .

(3) الحشر 22ـ 24 .

ومن شرف ذاته : أنه غني ، وغناه سبحانه مما لا يشترك به أحد معه ؛ لأنه :

1 ـ **غني عن العالمين** : لأنه خالق كل شيء ، فهو لم يكن في حاجة لأي شيء ، ولهٰذا الخالق غني والمخلوق فقير وفي حاجة لخالقه ، والخالق بطبيعة الحال رزَّاق كريم ، وغني عن العالمين وعليه من لا يكون غنياً يكون في حاجة لآخر يعينه ويساعده ، وهٰذه من صفات المخلوق الذي هو دائماً في حاجة للغني المطلق الذي يهب ويعطي بدون منة ، ولا ينتظر مقابلاً . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [1] .

ولأن ٱلله غني عن العالمين ولم يكن في حاجة لسواه ، ولا يوجد من بيده ملك غير ملك ٱلله تعالىٰ ، فهو لا يصوم ، ولا يصلي ، ولا يدعو أحداً ، سبحانه له الكمال والجلال ، واسع الرحمة لم يلد ولم يولد ولم يكن له مثيل ، ولذا فالذي يصلي يصلي لله تعالىٰ ، والذي يصوم ويتعبد لا يصوم ولا يتعبد إلا له عز وجل ، ولأن ٱلله مبدئ ومعيد فإن كل شيء بيده وتحت سيطرته وهيمنته وحفظه ، ولهٰذا فهو الغني عن العالمين . قال تعالىٰ : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(1) فاطر 15 ـ 18 .

(2) آل عمران 97 .

ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] .

2 ـ **غني كريم** : ٱلله تعالىٰ مجيد بملكه وغناه ، ولذا لو لم يكن غنياً ما كان كريماً ، ولهـٰذا فالكرم صفة ذاتية والغنىٰ صفة ذاتية للمجيد المطلق جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [4] .

الكريم يملك ، ولذا فهو يورِّث فيما يملك ، فيورِّث من يشاء فيما يملك أو يورثه منه كيف يشاء ، متىٰ ما شاء جل جلاله ، والرزق الكريم لا يستمد إلا من رزاق كريم ، وهـٰذه من صفات الوارث المطلق عز وجل . أما الوارث بالإضافة فلا يورث إلا في دائرة النسبية ، أي فيما ملكه من المالك المطلق ، ومع ذلك فإن صفة التوريث تستمد من المالكين الذين استمدوا ملكهم من الوارث الأعظم ، وهـٰذا لا يعني أن الوارثين يملكون من غير ملك ٱلله ، أستغفر ٱلله هو المالك وغيره مُملَّك . قال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ

---

(1) العنكبوت 3 ـ 6 .

(2) النمل 40 .

(3) الأنفال 3 ، 4 .

(4) سبأ 1 ـ 3 .

﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (2) .

3 ـ **غني حليم** : الغنىٰ من صفات الخالق ، والحاجة من صفات المخلوق ، ولذا لو كان الغني غير حليم لكان غناه لا يفيد الآخرين ، ولـٰكن لأنه حليم فكان حلمه صفة من الصفات الحسان التي بها ينظر بحال من هم في حاجة ، وبحلمه يؤتي الحكمة لمن يشاء ، ويهب الملك لمن يشاء ، ويرزق من يشاء وهو العليم الحكيم بكل أمر ، ومن يستمد صفاته منه يستمد من حلمه حلماً يجعل حال لسانه الصدق وقوله المعروف ويجعل عمله في مرضاة ٱلله فيتصدق ويتزكىٰ ويفعل الأفعال الحسان . قال تعالىٰ : ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ (3) .

والحليم هو الذي يُقدِّر الظروف ويعلم بحالها وفقاً لقاعدة الظاهر والباطن ، ثم يكون فعله فعل الخيرات الحسان ، ولذا فبحلمه رءوف رحيم علىٰ عباده الوارثين الذين استخلفهم في الأرض ليكونوا مصلحين غير مفسدين ولا سافكي دماء فيها بغير حق . قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ (4) .

---

(1) المائدة ، 17 .

(2) الزخرف ، 84ـ86 .

(3) البقرة ، 263 .

(4) المائدة ، 101 ، 102 .

ولأن الخليفة يستمد صفاته من صفات مستخلفه فكان إسماعيل عليه الصلاة والسلام غلاماً حليماً طائعاً لأمر أبيه فيما رأىٰ فكان مصدقاً له وطائعاً لأمره وهـٰذه من طاعة ٱلله الذي أراه الحق فاستجاب له بالطاعة ، لتكون الآية شاهداً بأسباب الرؤية التي تصوِّر طاعة إسماعيل لأمر الذبح ، وتصوِّر التدخل الرباني باستبدال الكبش ليذبح بدلاً من ذبح إبراهيم لابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (1) .

4 ـ **غني حميد** : الغنىٰ زيادة في ملك الخيرات المادية والمعنوية ، والحمد صفة من صفات الرضا علىٰ الملك من النعم والملك من العطايا والفضائل التي أنعم بها الخالق علىٰ عباده ، ولـٰكن الحمد لا يكون إلا من مؤمن مهتد للحق وعامل به . وأكثر النعم فضائل هي نعمة العقل الذي يمكن الإنسان من الإيمان والتوحيد وعدم الشرك بٱلله تعالىٰ ، ولهـٰذا فللَّه الحمد علىٰ نعمه التي أسبغ بها علينا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (2) .

---

(1) الصافات ، 101 ، 102 .

(2) آل عمران ، 103 ـ 108 .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (1) .

فالغني من البشر وإن حرص علىٰ حسن ذاته لم يستطع أن يلم بكل المحاسن فغناه ناقص ، بينما المجيد جمع كمال الغنىٰ فكان كريماً حليماً حميداً ، وعلىٰ الخليفة في الأرض وهو غني أن يعلم أن للغنىٰ التام مكملات هي الترفع عن ما عند غيره فلا يرغب فيه ، وأن يكون غنياً كريماً بمعنىٰ لا يبخل علىٰ طالب أو محتاج لأنه خليفة ٱلله في الأرض ، كما يكون غنياً حليماً بمعنىٰ أن لا يضيق صدره بكثرة السائلين ولا بكثرة ما سألوا ، فإذا استطاع أجاب وإن لم يستطع فكلمة طيبة كما أمره المجيد : ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (2) .

وعليه فالخليفة هو :

* يتعبد دون شرك مع الطاعة التامة لله تعالىٰ .

* في قوله المعروف .

* يغفر لمن أذنب واستغفر أو اعتذر بحسن نية .

* يتصدق علىٰ من هم في حاجة للتصدق .

* يتزكىٰ مما أعطاه ٱلله .

* يمارس حقوقه في غير معصية ٱلله .

* يؤدي واجباته تجاه والديه وأبنائه ومن لهم علاقة به وتجاه وطنه ودينه الذي ارتضاه في مرضاة ٱلله تعالىٰ .

---

(1) التغابن ، 6 .
(2) البقرة ، 263 .

* يتحمَّل مسؤولياته تجاه من يجب أن يهتم بهم ويلتفت إليهم بالرعاية والعناية والذود عنهم دون ارتكاب لمظالم .

* يعدل بين من يرتضوه حكماً بينهم .

* يعمل علىٰ إحقاق الحق في كل مكان وزمان .

* يعمل علىٰ إزهاق الباطل في كل مكان وزمان .

ولأنه مجيد فهو فعَّال لما يريد ، ومن أكبر أفعاله التي لا تُحصىٰ :

1 ـ الخَلْق :

والخلق المطلق لا حدود له ، ومنه :

أ ـ **الخلق المادي** : من سموات سبع ومن فيهنَّ وأراضٍ سبع وما فيهنَّ وعليهنَّ ، وهـٰذا الخلق هو الخلق القابل للمشاهدة والوصف . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (2) .

ب ـ **خلق النفس** : التي منها تتعدد الأنفس بين ضالة ومهتدية ومطمئنة وأمارة بالسوء ، والنفس هي التي تموت مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ

(1) البقرة ، 29 .
(2) البقرة ، 164 .

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [1] .
والنفس قد تضل وقد تهوىٰ والخليفة هو الذي ينهاها عن الهوىٰ طاعة للمجيد ومخافة منه جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [2] .

ولذا فالنفس مخلوق لا مادي مندمج مع الجسد الذي لا يدرك إلا به ، ولا يصحو ، ويتحرك ، ويستكين إلا به ، ولا يعلم ، ويفكر ، ويخاف ، ويظن ، ويشك ، ويهتدي إلا به . النفس تلحظ ، ولا يمكن أن تتم مشاهدتها .

ج ـ **خلق الروح** : الروح مخلوق ، ومع أنه مخلوق إلا أنه لا يشاهد ، ولذا فإن أمر الروح لم يكشف للخليفة إلا من زاوية التسليم بأن أمرها عند ربي ، قال تعالىٰ : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [4] .

ولأن الروح مخلوق فلابد وأن يكون في حالة حركة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [5] .

د ـ **خلق الحياة** : الحياة مخلوق عظيم ، فلو لم تكن الحياة مخلوقاً ما كان لنا

(1) الزمر ، 42 .
(2) النازعات ، 40 ، 41 .
(3) الإسراء ، 85 .
(4) غافر ، 15 ، 16 .
(5) النبأ ، 38ـ39 .

حديث عنها ، وإلا هل هناك من ينتظر غير موجود أو يتحدث عنه ؟ والحياة حياتان :

* **الحياة الأولىٰ في الدنيا** : قال تعالىٰ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [2] .

* **الحياة الثانية في الآخرة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [5] .

هـ ـ **خلق الموت** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [6] . الموت مع أنه لا يشاهد إلا أنه يلحظ

---

(1) البقرة ، 86 .
(2) البقرة ، 204ـ207 .
(3) البقرة ، 32 .
(4) آل عمران ، 85ـ89 .
(5) هود ، 103 .
(6) آل عمران ، 143 .

فلا استغراب في حدوثه ومعرفته وقبوله أمر واقع والإيمان به ضرورة من ضرورات الانتهاء . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (2) .

و ـ **خلق البعث** : البعث ولادة جديدة بتاريخ قديم فيه تسوىٰ الحسابات ، فمن كان خليفة دخل الجنة ، ومن لم يكن كذلك فلن يجد له مكاناً فيها ، وهي ذات عرض كعرض السماوات والأرض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (3) .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ

---

(1) آل عمران ، 168 ـ 171 .

(2) آل عمران ، 185 .

(3) الحديد ، 21 .

(4) الحج ، 5 .

يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (1) .

وبناء علىٰ ما تقدم : فإن ٱلله لو لم يكن مجيداً ما كان جواداً بكل ما خلق ، وما كان مستخلفاً للإنسان الذي ميزه بأحسن التقويم ، فالمجيد كريم بما ترك من أثر وبما أورث المخلوقين فيما ترك من أثر ظاهر وباطن ، ولذا فمنه العزة وهو العزيز الحكيم . والخليفة هو من يكون مجيداً في قوله وفعله وسلوكه وعمله ، وفي تعبده وعلمه وطاعته . ومن عظيم فعل المجيد ، فقد خلق كل شيء : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، ولم يكن خلقاً فحسب بل شفعه بالهداية ، لأن الخلق دون هدىً كان سيحدث اضطراباً بين العدد الهائل للخلائق ، وهـٰذا ليس من حسن الفعال ، فكان هداه سبحانه لكل مخلوق بأن جعل له دوراً محدداً في هـٰذه الحياة ، فالإنسان لتعمير الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (3) ، والسموات والأرض لإعانة الإنسان علىٰ عمارة الأرض . قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾ (4) ، والأنعام للمعايش . قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ

---

(1) الروم ، 55ـ60 .
(2) البقرة ، 29 .
(3) هود ، 61 .
(4) إبراهيم ، 32 .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (1) ، ومن كل ما خلق زوجين لأجل التكاثر : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

2 ـ **من أفعال إحداث النقلة** : وهي التي بها يجعل من الشيء شيئاً آخر دون أن يكون شبيهاً له كخلقه آدم من التراب ، فالأرض كشيء لا تلحظ ولا تشاهد علاقة ظاهرة بينها وبين الإنسان الذي خلق من أديمها . قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (3) . بالنقلة تلحظ فارقاً كبيراً بين الأرض وهي في حالة جدباء وبين أن تكون مخضرة .

قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (4) .

والنقلة بلوغ مستوىً قيمي أفضل في زمن قياسي قد يكون وفقاً لِما هو متوقع وقد يكون وفقاً لغير المتوقع ، ما يجعل غير المتوقعين في حالة استغراب وكأنهم لا يُصدِّقون ما يحدث أو ما حصل بالفعل ، ولذا فالنقلة تتحقق بعد تطلُّع وإصرار وعزيمة عن وعي وإرادة مع تحد لكل الصعاب حتىٰ مغالبتها

(1) الأنعام 142 .
(2) يس ، 36 .
(3) الحج ، 63 ـ 64 .
(4) البقرة ، 261 ـ 263 .

وتحقيق الأمل . فالذين تتغير أحوالهم من مستوىً قيمي منخفض إلىٰ مستوىٰ قيم أكثر رفعة ورقياً هم الذين يصنعون النقلة ، وهـٰؤلاء هم الخلفاء حقاً .

وما أجمل وأغرب النقلة عندما تكتمل عملية التبخر حتىٰ تتكاثف سحاباً ثم تسقط مطراً رحمة من مجيد رحيم ، وما أجمل وأروع أن تصبح الحبة الواحدة سنبلة فيها مئة حبة ، وما أجمل وأروع من نفقة غير متبوعة بمن ولا أذىً أن تصبح عند ٱلله أجراً ، وما أفضل وأروع نقلة تحدث من قول معروف ومغفرة فيكونا خيراً من صدقة غير متبوعة بأذىً وٱلله غني حليم . قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٞ مَّعْرُوفٞ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتْبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴾ (1) .

وبالنقلة يحدث تغيير صورة الشيء بإيجاد الأثر فيه وبغير ذلك ، ألا ترىٰ أنك تقول جعل الطين خزفاً وجعل الساكن متحركاً ، وتقول عمل الطين خزفاً ولا تقول عمل الساكن متحركاً ؛ لأن الحركة ليست بأثر يؤثر به في الشيء ، فالمجيد ومن حسن فعاله لم يترك ما خلق دون إيجاد الأثر فيه ، فقد خلق الإنسان ثم جعل له الحواس التي هي بمثابة الدليل له في معايشه : ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (2) .

وكذلك جعل الأرض ذلولاً لكي يتمكن الإنسان من استعمارها : ﴿ هُوَ

(1) البقرة ، 261ـ263 .
(2) السجدة ، 7ـ9 .

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (1) ، ومن بديع جعله أن ذلل الأرض لراحة الإنسان فيسر له من عوامل الراحة الكثيرة ، فجعل لنا الظل والبيوت سكناً ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (2) ، وذلل لنا الأنعام ، ولو أنه سبحانه خلق الأنعام ولم يذللها لنا لما أمكن الاستفادة من شيء منها علىٰ نحو الآن : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (3) .

وكذلك جعل المجيد سبحانه ومن حسن فعاله للبشر المرعىٰ فجعله علىٰ صور منها الأخضر الرطب ، ومنها الجاف اليابس لكي يسهل حفظه لزمن يختفي فيه الأخضر الرطب من العشب : قال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ (4) . وهـٰذا من رحمة المجيد علىٰ الناس إذ أتبع خلقه بالجعل فكان تيسراً منه سبحانه وإعانة علىٰ تعمير الأرض ، وعلىٰ الخليفة أن يعي ما في الجعل من عبرة وذلك بأن يسهل علىٰ الناس معايشهم ويمكّن لهم سبل العيش الكريمة التي لا مشقة فيها كفعل المجيد بعباده .

3 ـ **الاستخلاف** : ما من عاقل يعي غنىٰ ٱلله عن البشر إلا وأيقن أنه

(1) الملك ، 15 .
(2) النحل ، 81 ـ 82 .
(3) المؤ منون 18 ـ 22 .
(4) الأعلىٰ ، 2 ـ 5 .

سبحانه مجيد باستخلاف الإنسان علىٰ بعض ملكه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) .

هـٰذا الإنسان الذي خلقه من تراب ثم نفخ فيه من روحه ، والخالق يعلم قبل أن يخلقه أنه ضعيف ، والخليفة يعلم أنه قوي بإيمانه وخلقه في أحسن تقويم ، وفي مقابل ذلك يعلم أنه بدون ذلك من الضعفاء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (2) ، ضعف الإنسان في اتباعه للشهوات ، فإن استمسك واستعصم بحبل ٱلله كان قوياً ، ولهـٰذا فإن خلقه من حيث الغرائز

---

(1) البقرة ، 30ـ37 .

(2) النساء ، 27ـ31 .

والمشاعر والعواطف فهو ضعيف ولكن من حيث العقيدة والإيمان فهو قوي ، وكذلك من حيث خلقه في أحسن تقويم عقلاً وصبغة وقدرة علىٰ التفكر والتذكر فهو قوي وذلك باتعاظه وحكمته وإرادته التي تزداد قوة إذا آمن واستعصم من كل ضعف من ورائه طمع .

وعليه فبطمعه لا يكون خليفة في خُلقه وإيمانه ، بل يكون هلوعاً إلا المستخلفين الذين هم علىٰ صلاتهم يحافظون والذين هم يتصدقون ولفروجهم حافظون والذين هم يتزكون والذين هم يستغفرون ويتوبون لله . قال تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

والإنسان الضعيف هو الذي يطغىٰ ، أما القوي فهو الذي لا يطغىٰ ، وذلك لأنه مؤمنٌ بأنه لا طغيان لمستخلف ، فمن طغىٰ ستكون له الجحيم هي المأوىٰ ، ولأنه يعلم أن الوارث هو الذي يخاف المجيد عز وجل ، والخوف هنا قوة ، ولم يعد ضعفاً ، وذلك لأن الذي لا يخاف لا يتقي ربه ، ومن لم يتق ٱلله جل جلاله ستكون له الجحيم مأوىٰ ، أما الذي يتقيه فهو القوي الذي ينهىٰ النفس عن الهوىٰ حتىٰ الفوز بالجنة ، وهنا تكون القوة .

قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا

---

(1) المعارج ، 19 ـ 39 .

مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [2] .

ولأن الضعف يتعلق بالهوىٰ وطمع النفس فكان الضعيف عجولاً ، والاستعجال في معناه معاكس للثبات فهو يتداخل مع دائرة القلق وبهـٰذا يكون الفارق بينه وبين الثبات الذي ينتمي إلىٰ دائرة الطمأنينة . قال تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [3] .

ومع كل هـٰذه الصفات إلا أن المجيد سبحانه شاء أن يجعله خليفة في الأرض ، ولم يعجل عليه بل علمه وأمهله وهـٰذا من حسن فعله سبحانه ، فأي ملك مالك يقبل أن يعطي جزءاً من ملكه ولأي غرض لبشر يفعل فيها ما يشاء مخيراً ؟ لاشك أن العدم أولىٰ بالتصديق من الوجود في هـٰذه الحالة ، بينما المجيد سبحانه استخلف الإنسان علىٰ أرضه وترك له حرية التصرف مع عدم إهماله لأنه ينسىٰ .

---

(1) النازعات ، 37ـ46 .

(2) العلق ، 6ـ19 .

(3) الإسراء ، 8ـ11

قال تعالىٰ : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٩ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١٠ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾ [1] .

4 ـ **تكوين العلاقات** : العلاقة ليست روحاً ، ولا نفساً ، ولا بدناً ، بل هي صلة ترابط في أساسها المحبة بين الخالق والمخلوق ، ثم استمدت فكانت بين بني آدم مجسدة في علاقات منها :

* **الزوجية** : ولأن ٱلله واحد أحد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وهو الخلاق العليم ، فلم يكن له شريك في الملك والأمر بيده كل شيء وهو علىٰ كل شيء قدير ، فعَّال لما يريد سبحانه جل جلاله . ولأنه يَعِدُّ ولا يُعَدُّ إلا توحيداً ، خلق الزوجين كثرة ليَعدُّوا ويُعدُّوا ، وهـٰكذا كان أساس الخلق الزوجين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ۝٤٧ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ

(1) الحديد ، 7ـ11 .
(2) النجم ، 45ـ55 .

ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (3) .

من الآيات الكريمة السابقة يتضح أن الزوجية هي أساس التكاثر والبقاء من أجل الاستخلاف والوراثة ، ولهـٰذا فإن جميع الخلق هم في أساس خلقهم زوجان ، ولم يكن الخالق خالقاً فقط للجنس الذكوري ثم خلق الأنثىٰ منه ، وحتىٰ الذين خلقهم من نفس واحدة هم في أساس خلقهم زوجان ، وما النفس الواحدة إلا نفس ٱلله المطلقة التي جاء منها قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾ (4) . أي : أنه يخلق كل شيء خلقاً . وفي هـٰذا القول دليل علىٰ المباشرة الخلقية ، قبل أن يكون التكاثر بأسباب الزوجين الذكر والأنثىٰ . ولهـٰذا لا البيضة قبل الدجاجة ولا الدجاجة قبل البيضة ، ومن يقل ذلك عليه أن يتذكر قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ . أي لو كانت الدجاجة لوحدها ، هل يمكن لها أن تبيض وتخرج الفراخ من بيضها ؟ إنه المستحيل وفقاً لقاعدة خلق الزوجين ، فالبيضة بدون تذكير حيواني لا يمكن أن تخرج فرخاً . ولذا فلم تكن البيضة سابقة علىٰ الدجاجة ولا الدجاجة تكون إلا في حالتين :

الحالة الأولىٰ : خلقاً مباشراً جنباً إلىٰ جنب مع الديك ، ثم ثانياً : تكون بعد ذلك بما تبيض مذكراً ليخرج الدجاج الكثرة استمراراً لقاعدة الزوجين .

---

(1) هود ، 40 ـ 41 .
(2) الرعد ، 3 .
(3) الذاريات ، 49 .
(4) طه ، 41 .

ولننظر بعد الطوفان كانت الحياة ستنتهي لو لم يحمل سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام في سفينته زوجين من كل ما خلق جل جلاله .

* **الأبوة والأمومة** : الأبوة علاقة عاطفية بين الآباء والأبناء ، تملؤها مشاعر المودة الخالصة ، وبالنسبة للخليفة تعتبر طاعة الوالدين سبيلاً مؤدياً إلىٰ نيل مرضاة ٱلله عز وجل ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (3) .

إذاً الأبوة علاقة محببة من ٱلله تعالىٰ ولهـٰذا وفقاً للآيات السابقة فإن طاعتهما موصىً بها في غير معصية ٱلله تعالىٰ ، ولهـٰذا فالأبوة والأمومة علاقات تتكون لأجل بقاء النوع علىٰ المودة والمحبة الخالصة لله وللوالدين في كل ما يرضي ٱلله جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ

(1) الإسراء ، 24 ، 25 .
(2) الإسراء ، 23 ، 24 .
(3) الأنعام ، 151 .

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [1] .

* **الأخوة** : الأخوة علاقة تستمد من علاقات الأبوة ، لتستمر العلاقات بين بني آدم المستخلفين حتىٰ يرثوا الأرض ومن بعدها الجنة ، تتكون هـٰذه العلاقة من اندماج مشاعر الأبوة والأمومة في معاملة حسنة وتربية رشيدة تؤدي إلىٰ ما هو أحسن ، ومن مشاعر الزوجين الذكر والأنثىٰ يحدث التلاقي رغبة وشوقاً ، ووداً ، وهـٰذا التلاقي المؤسس علىٰ هـٰذه القيم المرغوبة والمفضلة يصبح سلوكاً سائداً بين الأطفال بأفعال والديهما ، وهـٰكذا تنتقل المشاعر والأحاسيس المحترمة بين الأجيال عن طريق الأخوة ومعاملتهم وتربيتهم الحسنة . ومع ذلك فقد يكون الأبناء فتنة مثلما المال فتنة في الحياة الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [4] .

وعليه من لم يرع أولاده رعاية خيرية ، فقد يكون الضلال والانحراف عما يرضي المجيد عز وجل ويرضي الوالدين والمستخلفين فيها بالحق . ولأن الأموال والأولاد فتنة ، فلا ينبغي أن يصدق الأبناء فيما يقولون أو يدَّعون بالمطلق ، بل ينبغي دائماً تركهم في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع جنباً إلىٰ جنب مع الرعاية ، والمتابعة ، والهداية ، وإلا كيف ستكون الخلافة

(1) لقمان ، 13ـ15 .
(2) الأنفال ، 28 .
(3) التغابن 14 ، 15 .
(4) الكهف ، 46 .

والوراثة من بعد أن لم تكن لهم طاعة للوالدين من طاعة ٱلله تعالىٰ ؟ .

ولأن النفس توسوس وتظن في غير محله ، فقد وسوست نفس قابيل علىٰ أخيه هابيل حتىٰ قتله فكانت البادرة غير الحسنة التي ترتب الذنب الكبير عليها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [1] .

وهٰكذا سولت النفس لأخوة يوسف حتىٰ رموه في غيابات الجب ليخلصوا منه علىٰ حساب مشاعر الأبوة تجاه يوسف ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا

(1) المائدة ، 27 ـ 31 .

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] .

* **العمومة والجيرة** : علاقات قربىٰ تربط بين الأخوة وأبنائهم لتتسع دائرة معارفهم بعد أن كانت مقتصرة علىٰ دائرة الأبوة ، والعم يعد في مرتبة الأب ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [2] .

ولأن لذي القربىٰ علاقة واجبة الاحترام والتقدير فجاء قوله المجيد دليلاً لصدق العلاقة ومن أجل الاستخلاف والوراثة فقال تعالىٰ : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [4] .

---

(1) يوسف ، 7 ـ 22 .
(2) الأنعام ، 74 ـ 75 .
(3) مريم ، 2 ـ 6 .
(4) النساء ، 36 .

القربىٰ درجات من الأبوة والأمومة إلىٰ الأخوة والعمومة والأخوال ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (1) .

علاقات مترتبة حسب الأولوية بين ذي القربىٰ وبين الأصدقاء الذين يربطهم ود في مرضاة المجيد جل جلاله ، وهـٰذه ترتَّبت وفقاً لما جاء في الآيات السابقة حسب الآتي :

ـ علاقات البيوت وتشمل علائق أفراد الأسرة الذين يعيشون تحت سقف واحد .

ـ علاقات أفراد الأسرة الذين لا يعيشون تحت سقف معيشة واحد ، مثل بيت الأب بأسباب تعدد الزوجات أو بأسباب استقلالية الأبناء مع زوجاتهم أو أمهاتهم ، أو بأسباب طلاق الأم واستقلاليتها أو بأسباب زواجها من بعد الطلاق .

ـ علاقات الأخوة الذين استقلوا عن الأسرة بعد عمل أو معيشة في غربة أو غيرها ، أو بأسباب زواج واستقلالية . وهـٰكذا تكون العلاقات مع الأخوات اللاتي تزوجن ويعشن في بيوت الزوجية الجديدة .

ـ علاقات العمومة من أعمام وعمات وأخوال وخالات ، وهـٰؤلاء هم ذوو القربىٰ ، الذين لهم حقٌّ فيها ، وعليهم حقٌّ بها .

---

(1) النور ، 61 .

ـ علاقات الصداقة : التي تجعل التلاقي يتسع بين بني آدم في دائرة التواد والتحاب في غير معصية ٱلله تعالىٰ ، فالصديق هو من صدقك القول والفعل ، وهو من تؤمنه ويؤمنك ، يخلص لك ولا يغدر ولا يخون مبادئ التآخي والصداقة . قال تعالىٰ : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [1] .

* **المواطنة** : الوطن ملك لجميع مواطنيه ، والمواطنة انتساب للوطن ، يعتمد علىٰ الآتي :

أولاً : **حقوق تمارس** : الحقوق تؤخذ بإرادة أو تنتزع بالقوة ، ولأنها تؤخذ فهٰذا يعني أن الحواس هي التي يتم بها التعرف علىٰ الحقوق ، ويتم بها أيضاً إشباعها ولذلك تؤخذ الحقوق عن طريق الحواس ، فعندما تكون المشاهدة حقاً فلا ينبغي لأحدٍ أن يحرم آخر منها ، وهٰكذا عندما يكون الاستماع والذوق واللمس والتفكير والتعليم والعمل حقوقاً ، فلا ينبغي لأحد أن يحرم آخر منها ، ولأنها حقوق ينبغي أن تمارس بإرادة . وهٰكذا فالحقوق تُسلّم فتُستلم عندما تكون في متناول الاثنين أو الأكثر .

والنظام الديمقراطي هو النظام الذي لا تقع فيه الحقوق في خانة المطالب ، فإذا كانت في خانة المطالب فإن ذلك يعني أن هناك قيوداً تحول بين الطالب والمطلب (بين المحتاج والحاجة ومشبعاتها) .

فالحقوق ينبغي ألا تكون مطالباً ، ينبغي أن تكون إشباعات تؤخذ بإرادة وفقاً للحاجة ، فالسلطة حق والثروة حق لا ينبغي أن تُحتكرا من أحد ، ولا ينبغي أن تكونا مِنَّة من أحد .

ولا يمكن أن تؤخذ الحقوق أو تمارس ما لم تتوفر اشتراطاتها الرئيسة وهي :

---

(1) الشعراء ، 100 ـ 101 .

1 ـ **الرغبة** : القوة العقلية الموجهة لهدفٍ محدد أو موضوع بعينه ، وإحساس نفسي تجاه الآخر وشعور بالميل إليه ، وهـٰذا ما يجعل روح التجاذب تُحرّض علىٰ المتابعة والاقتراب ممن تتوفر فيه اشتراطات الإشباع المرضي .

2 ـ **الإرادة** : تُعد الإرادة نشاطاً عقلياً علىٰ درجة عالية من الوعي يتمكن من خلالها الفرد من اتخاذ القرار بحرية ويتمكن من خلالها من الإقدام علىٰ الفعل ، وفي ذات الوقت يمتلك صاحب الإرادة المقدرة علىٰ الفعل والسلوك .

3 ـ **الطلب** : نظراً للإحساس بالحاجة والتعرف علىٰ بواعث إشباعاتها تصبح المطالبة بالمُشبع كحق لا يمكن التخلي عنه ولا يهدأ البال وتطمئن النفس إلا بأخذ ما يشبع ويحقق الرضا .

والحق في اللغة : هو « الثابت الذي لا يسوغ إنكاره »[(1)] ، والحق كأحد أضلاع المثلث متساوي الأضلاع المتكون من (الحقوق والواجبات والمسؤوليات) يرتبط بعلاقات مع أي ضلع يشترك معه في الزاوية ، ولذلك عندما يشترك مع الضلع (أ ج) في الزاوية (ب أ ج) تصبح هـٰذه الزاوية مكوّناً علائقياً بين ضلعي الحقوق والواجبات ، وهـٰذا الالتقاء بين الضلعين يجعل في الحق واجباً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ

(1) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 193 .

مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [1] .

فحقت هنا بمعنىٰ : وجبت كلمة العذاب علىٰ الكافرين ، وهـٰذا يعني أن كلمة وجبت تعني في مضمونها كلمة حقّتْ . وكذلك في لسان العرب : « حقّ يحق حقاً تعني وجب يجب وجوباً » . إنّ ذلك يؤكد وضوح العلاقة بين الحقوق والواجبات من خلال الزاوية (ب أج) المحصورة بين ضلعيهما وفي ذات الوقت يبين الخصوصية لكل منهما عندما يخضع كل ضلع للدراسة المتخصصة .

ثانياً : واجبات تؤدىٰ : وبما أن الحقوق تؤخذ وتُستلم فإن الواجبات تؤدىٰ في مقابل الاستلام والأخذ ، وأداء الواجبات هو الذي يجعل الذات الفردية أو الجماعية والمجتمعية في حالة الإيجاب ، أما اقتصار الفرد أو الجماعة والمجتمع علىٰ أخذ الحقوق فإن ذلك يجعل المستلم طرفاً سالباً ، والذي يغيره إلىٰ حالة الإيجاب هو أداؤه الواجبات ، ولهـٰذا من الواجب أن تعمل وتفعل وتسلك في مقابل ما أخذت ، وهـٰذا لا يعني أن الحقوق والواجبات هما كفتا الميزان في مكوّن ممارسة الديمقراطية بل هناك شيء آخر من مكوناتها ألا وهو المسؤولية ، التي تتضح في الزاوية (أ ج ب) عند تلاقي ضلع الواجبات (أ ب) مع ضلع المسؤوليات (ب ج) وهـٰذا التلاقي العلائقي هو الذي جعل في أداء الواجب مسؤولية ، ولذلك ورد في الموسوعة الفلسفية العربية بأنه « لا واجب إلا بالإضافة إلىٰ التزام ومسؤولية » . ولذا لا يمكن أن يؤدىٰ الواجب بنجاح إلا وتَحَمُّل المسؤولية جزءٌ من أدائه ، وهـٰكذا حال المسؤولية هي الأخرىٰ لا تؤدىٰ بنجاح إلا والواجب يصاحبها ، وهـٰذه نتيجة التداخل العلائقي الذي يعبر عنه بدقة في العلوم الهندسية مما جعل لزوايا المثلث قيماً يستدل بها أو يستدل عليها . والعلائق في مجملها هي نتيجة وجود

(1) الزمر ، 71ـ74 .

الأنا أو الذات والآخر اللذين عندما يلتقيان لابد أن يحدث الحوار بينهما مما يؤدي إلىٰ القبول والتقارب والتفاعل أو يؤدي إلىٰ الرفض والابتعاد و الفرقة أو الانسحاب ، وفي حالة القبول والتفاعل الذاتي تتكوّن العلاقات كما هو الحال بين أضلاع مثلث ممارسة الديمقراطية المتساوي الأضلاع ، وعندما تتكوّن العلاقات يترتب علىٰ ذلك بالضرورة أخذٌ كما هو مبين في الحقوق ، وعطاء كما هو الحال في الواجبات ، وهٰذا يعني أن العلاقة بين المسؤوليات والحقوق والواجبات هي علاقة قرار وأخذ وعطاء ، أي في اتخاذ القرار مسؤولية وفي الأخذ حقوق وفي العطاء واجبات ، وعليه لا يمكن أن يتمّ الأخذ والعطاء عن وعي إلا والمسؤولية في ذلك سابقة عليهما ، ولو أخذنا وليّ الأمر علىٰ سبيل المثال : نجد أنه مسؤول علىٰ أفراد أسرته وفي الوقت ذاته لهم عليه واجبات ينبغي أن يؤديها تجاههم ، وما يعد واجبات علىٰ وليّ الأمر تجاه الأسرة هي ذاتها تعد حقوقاً بالنسبة لهم ، وهٰكذا في حالة التبادل يظل لوليّ الأمر حقوق ينبغي أن يأخذها أو يطلبها وفي ذات الوقت تعد واجباً ، علىٰ أفراد الأسرة أداؤها ، ولذلك الحقوق والواجبات والمسؤوليات الذاتية يتمم بعضها بعضاً كما تتمم أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع بعضها بعضاً .

ولكي تؤدىٰ الواجبات بإرادة ينبغي أن تتوفر اشتراطاتها وهي :

1 ـ **الاعتراف** : يدل علىٰ تفهُّم الموضوع والتعرُّف من خلاله علىٰ ما يجب وما لا يجب ، ثم التمسك بما يجب والامتناع عما لا يجب ، ولذا فالاعتراف بالواجبات عن وعي يؤدي إلىٰ التمسُّك بها عن إرادة .

2 ـ **القدرة** : إن امتلاك المقدرة العقلية والمعرفية والاعتراف بوجوبية الأداء قد لا يفيد دائماً ما لم تتوفر إلىٰ جانبها المقدرة البدنية والمقدرة المادية الداعمة للتنفيذ ، ولذا فالقدرة طاقة كامنة تتحفز للظهور بعد تهيؤ .

3 ـ **الثقة** : الثقة هي الأخرىٰ مكمن الإخلاص ، فعندما تتوفر بين أطراف الحوار ، يتم الاستئناس والاطمئنان الذي يسرع بعجلة التفاهم والتفاعل

الاجتماعي المفيد ، فالثقة تعني إزالة الشكوك من صدور ونفوس المتحاورين ، فبالثقة تدوم العهود ، وتستمر العلاقات وتوثق الروابط بين بني الإنسان .

الثقة حزام أمان للمتحاورين ، فكلما توفرت كلما زاد التفاعل بينهم ، وتوصلاً إلىٰ اتفاق لا تنفصم عراه من بعد . قال تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

وعليه يقول فرنسيس فوكوياما : « أهم العبر التي نستخلصها من دراسة الحياة الاقتصادية ، هي أن إصلاح حال أية أمة والحفاظ علىٰ قدراتها التنافسية في السوق الاقتصادية يبقيان مشروطين بتوفر سمة ثقافية وحيدة وراسخة ألا وهي الثقة ومدىٰ توفرها وتأصلها في المجتمع » (2) .

4 ـ **الإقدام** : يعد الإقدام مرحلة ما بعد التهيؤ حيث الإقبال علىٰ أداء السلوك المحقق للفعل ، ولا يمكن أن يتم الفعل الإقبالي المؤدي للواجبات إلا برغبة وإرادة .

ثالثاً : مسؤوليات يتم حملها : من خلال العرض السابق عرفنا التداخل المعرفي في العلاقة بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات ، المتعلقة بتحقيق شرف الذات المتوازنة ، وعرفنا أن الحقوق تترتب عليها مطالب أو أخذ ، وعرفنا أن الواجبات يترتب عليها أداء أو عطاء ، وهـٰذه تستوجب حماية أو حراسة تكون لها سنداً يبعد عنها المخاطر ، ومن مارسها وأداها وتحمل مسؤوليته تجاه ما يقوم به كان مجيداً في حياته ، ولذا تصبح المسؤولية هي

---

(1) البقرة ، 256 .

(2) Creetin and Virtues Social ، Trust . Fukuyama Francis 1995 1 . 9
Hamish ، London Prosperity of

الضرورة التي تحقق الحماية أو الحراسة ، فالحارس أو الجندي الذي يحرس الحاكم أو المصنع لو لم يكن مسؤولاً لا يمكن أن يؤتمن جانبه ، وهٰكذا حال الطبيب إن لم يكن مسؤولاً ، لا يمكن أن يؤدي واجبه بأمانة ، فالواجب بلا مسؤولية لا يمكن أن يؤدىٰ بأمانة ، وهٰكذا حال الحقوق إذا لم تؤخذ بمسؤولية لا يمكن أن تؤخذ بأمانة ، ومن يحرم من ذلك فلن يعيش في حياته مجيداً .

ولذا تكمن المسؤولية في تحمّل المخاطر أو الأتعاب المترتبة علىٰ أداء الفعل أو السلوك سواء كان حقاً ، أو واجباً من أجل المجد ، والعيش الكريم ، ولهٰذا فهي عبء وأمانة تستوجب التحمل ، ولأنها كذلك فهي عملية عقلية تُبنىٰ علىٰ معطيات أو مسلمات تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذهنية ، وتستوجب التفسير والتمييز بين الخطأ والصواب وبين الحلال والحرام وبين القوة والإرادة ، ثم أخذ القرار ، وتحمّل الأعباء المترتبة علىٰ ذلك .

إن تحمّل المسؤولية يتطلب مبررات موضوعية لممارستها بإرادة وهٰذه المبررات تحقق المجد لممارسيها وهي :

1 ـ **الصلاحيات** : لقد تم الحديث عن المسؤولية الذاتية من الناحية الفكرية ، ومن الناحية العملية أو التنفيذية وإن ذلك يتطلب صلاحيات لكي يتمكّن الفاعل من القيام بتنفيذ الفعل ، ولذا فالصلاحيات هي مجال الامتداد المسموح به للمسؤول الذي عندما يفعل يكون مسؤولاً ، وعليه من يريد أن يكون مسؤولاً يجب أن يكون واعياً قبل أن يفعل .

2 ـ **الاختصاصات** : هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به ، فعندما يلتزم المسؤول بالحركة داخل مجال الامتداد تُعد ذاته متزنة ومعتدلة في الحركة الموجبة ، وعندما تخرج عن ذلك تقع في دائرة المسآءلة والمحاسبة والعقاب ، حيث تعد مثل هٰذه الأفعال أفعالاً سالبة أو منحرفة . وعليه

لكي تؤدىٰ المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات .

3 ـ **الوعي** : ورد مفهوم الوعي في الموسوعة الفلسفية العربية بأنه وظيفة الجهاز العصبي للإنسان ، وهو نشاط ذهني أو فكري للعقل ، ويدل علىٰ إيجاد علاقة بين الذات والموضوع ، وبالوعي يتمكّن الإنسان من التبيين والمعرفة ، كما أنه يتمكّن من التمييز بين الأفعال الموجبة والأفعال السالبة والتمييز بين كل مفضّل ومرغوب وبين ما هو غير ذلك ومرفوض ، ولذا فإن الوعي ذو صلة مباشرة بالمدركات العقلية التي تمكّن الإنسان من التفهّم والاستيعاب كما أنها تمكّنه من التقويم الموضوعي الذي يجعل من الذات مركز الاعتدال والتوازن الانفعالي والسلوكي .

4 ـ **القدرة** : القدرة الذاتية هي التي تُمكِّن الإنسان من التحمّل لما يجب أن يتم تحمُّله باعتبارها طاقة تستوجب توفر الاستعداد للقيام بالمسؤولية في حدود المقدرة ، والقدرة متنوعة المستويات فهي علىٰ المستوىٰ النفسي والمستوىٰ البدني والمستوىٰ المادي والمعرفي .

* **التعاون** : سمة ذات بعد إنساني ، عندما تكون علىٰ البر والتقوىٰ ، مصداقاً لأمر ٱلله تعالىٰ : ﴿ **وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ** وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ

---

(1) المائدة ، 2 .

(2) الحجرات ، 10 .

ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [1] .

وعليه فالتعاون جهود مشتركة نحو أهداف محددة بإرادة ورغبة متبادلة تصنع الأمجاد ، وجهود متكاثفة علىٰ السراء أو الضراء نتائجها الناجحة تحقق استجابات مرضية للمتعاونين علىٰ الفعل المشترك . ولذا فهو العمل معاً علىٰ إنجاز ما تم الاتفاق عليه من قبل المتعاونين ، أفراداً أو جماعات أو مجتمعات . ومنه عائد نفعي ويزيد من فاعلية العمل المشترك ويقوي اللُّحمة بين العناصر المتعاونة علىٰ ما يحقق الفوائد المشتركة . ومهنة الخدمة الاجتماعية تَحُث العملاء علىٰ التعاون من أجل تجاوز الصعاب والتقدم إلىٰ ما يُسهم في إشباع الحاجات البشرية المتطورة عبر الزمن .

التعاون أيضاً قد يكون بين مؤسسات حكومية وأهلية في سبيل أداء عمل خيري لمن هم في حاجة إليه .

* **التفاعل** : التفاعل اندماج مُرضٍ في منظومة القيم للأطراف المتداخلة في شبكة العلاقات الاجتماعية والإنسانية عن رغبة وإرادة ، وهو تعبير عمّا يجول في الخواطر من مؤثرات ذوقية تُسهم في تحقيق الرِفعة لِمن يحس بملامسةٍ لِما كان يأمل أن يلامسه أو يشاركه فيما يرغب بفاعلية . في عملية التفاعل تتهيأ الاستعدادات ، وتنمو القدرات حتىٰ يحدث الإقدام برغبة واشتياق علىٰ أداء الأفعال الواجبة الأداء . أفعال التفاعل إرادية تتم من خلال الالتقاء والمشاركة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتحقق التقدير المتبادل والاعتبار للشخصية المتفاعلة .

* **التكيف** : التكيف مواءمة نفسية بين الفرد أو الجماعة والبيئة التي هم

---

(1) آل عمران ، 103ـ105 .

فيها أو البيئة التي تحيطهم ، بعد القبول الضمني بتقديم التنازلات ، أو القبول بالتغيير بما يتناسب مع من هم في حاجة للتكيف . ولذا فالسجين الذي في بداية أمره سجين لا يمكنه التكيف مع السجن ، ولـٰكن بمرور الزمن يتكيف مع السجن كأمر واقع لا مفر منه ، ومهما تحقق له من تكيف مع السجن والسجانين ، لا يمكن أن يتوافق معهم ولا مع السجن ، ما يجعل الفرق كبيراً بين التكيف الذي لا يتم إلا بتنازلات وبين التوافق الذي لا يتم إلا بإرادة ، وبدون تقديم تنازلات . ولذلك فالتكيف تآلف وتقارب يتم به تعديل السلوك أو تغيير اتجاهه وفقاً لِما هو كائن .

* **التوافق** : التوافق انسجام إرادي ، تتماثل به الأقوال والأفعال بملاءمة علىٰ الموضوع بين الأنا والآخر ، ويتضمن التوافق انسجاماً ومشاركة موضوعية تتطابق فيها وجهات النظر أو الأفكار ، ما يجعل المشاركة بين الطرفين موجبة لتساوي كفتيهما بإرادة . وهـٰذا لا يعني أن لا يكون التوافق سالباً ، فمثلما يتوافق الإصلاحيون كذلك يتوافق المفسدون ، والفرق بينهما الموضوع والغايات التي من ورائه . ولذلك يكون التكيف للضرورة ، ويكون التوافق للوجوب . والتوافق يؤدي إلىٰ مغالبة الصعاب والتكيف يؤدي إلىٰ التسليم إليها . ولذا فالتكيف في مضمونه السلبية إلا إذا كان مترتباً علىٰ عملية توافقية . وفي التوافق يكون للإنسان رأياً ومشاركة بدون ضغوط من أحد ، أما التكيف في معظم الأحيان ؛ فلا .

وعليه فالعلاقة واضحة بين التكيف والتوافق من حيث الآتي :

التوافق لا يتم إلا بمنطق ، والتكيف لا يتم إلا بلغة . هناك تكيف بين أهل الأديان ، وهناك حالة تكيف بين أهل الشرق وأهل الغرب ، ولـٰكن وللأسف لا توافق بينهم ، السبب اعتمادهم اللغة في الحوار وابتعادهم عن المنطق في ذلك ، التوافق لا يتم إلا برغبة وتراض ، أما التكيف للضرورة يتم بغيرهما .

ونظراً لأن التكيف لا يتم إلا مع الموضوع ، فقد تكيف السجين مع السجن ، وتكيف الأنا والآخر علىٰ معظم مواضيع الحوار ، كما هو حال الحوار بين الفلسطينيين والإسرائيليين علىٰ موضوع السلام ، ولـٰكن برغم عملية التكيف التي حدثت فلم يتم التوافق بينهما حتىٰ الآن ، وقد يطول هـٰذا الزمن إلىٰ ما هو غير متوقع . التوافق نتيجته الاتفاق ، والتكيف نتيجته القبول بالأمر الواقع . التوافق لا يتم إلا بإرادة ، والتكيف في معظم الأحيان يتم بدونها .

التوافق نتيجة لوجود طرفين متفاعلين علىٰ الموضوع ، والتكيف لا يشترط دائماً وجود طرفين ، بل في كثير من الأمر يكتفي بوجود (طرف + موضوع ـ إرادة) ، سجن وسجين ، نحن وأساليب ممارسة الديمقراطية ، نحن والسياسة أو الاقتصاد أو الثقافة . في الحرب العراقية مع جيوش التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تم استسلام الجيش العراقي كرهاً ، وتم القبول باشتراطات الطرف المنتصر علىٰ موضوع الاستسلام ، بالزمن تكيف المُنهزم مع الهزيمة ، واستخدمت اللغة في غير محلها ، فحلت كلمة النصر بدل كلمة الهزيمة من قبل الطرف المستسلم (المهزوم) وأُلِفت الأناشيد وتغنت بالنصر ، مع العلم أن الواقع ليس له علاقة بذلك . الواقع هناك طرف واحد فقط منتصر ، في مقابل طرف منهزم . باللغة يتكيف المنهزم ويتغنىٰ ، وبالمنطق يتوافق المنتصر ويتغنىٰ .

التوافق لا يمكن أن يتم إلا بوجود (طرفين + موضوع + تفاعل + إرادة) . التقييم المنطقي يضع التكيف علىٰ الكفة السالبة للمقياس القيمي ، ويضع التوافق علىٰ كفته الموجبة . ولذا لا يمكن أن تتم عملية التكيف إلا بتنازلات عن الموضوع أو عن شيء منه مما يجعل المتكيف في حالة تلاؤم ، أما التوافق فلا تنازل إلا بمنطق ولا أخذ إلا به وهـٰذا يجعل المتوافق في حالة انسجام . إذاً الفرق كبير بين حالتي التلاؤم والانسجام ، فالتلاؤم

لا يتم إلا بتنازلات ، والانسجام كقوة ترابط لا يتم إلا بالتراضي .

* **الاستيعاب :**

الاستيعاب قيمة احتوائية لا إقصائية ، تعتمد تقبل الآخر والاعتراف بوجوده وبممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته .

الاستيعاب يُمكِّن الأطراف من الإلمام بالموضوع ومتغيراته السلبية والإيجابية المؤثرة فيه بشكل مباشر أو غير مباشر ، ويُمكِّن من التشخيص الموضوعي ، ولذا علىٰ البحاثة أن لا يغفلوا عن الآتي :

1 ـ استيعاب الإيجابيات ، والتأكيد عليها ، ونقلها للآخرين بوسائل مبسطة ، تمكنهم من التعرف عليها ، وتحفِّزهم علىٰ العمل بها .

2 ـ استيعاب السلبيات ، وتحديدها ، وإبراز عيوبها وأسبابها ، والعمل علىٰ إزالتها ، وتنقية الموضوع منها ، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها .

وبناء عليه لم يكن التحليل الاستيعابي إبقائياً بالتمام ، ولم يكن غرضه تثبيت المعلومات كما هي (سالبها وموجبها) بل إنه تحليل تثبيتي إزالي ، به تُثبت المعلومات الموجبة ، وتُزال السالبة ، ولهٰذا يتم استيعاب المعلومات السالبة كما يتم استيعاب المعلومة الموجبة ، من أجل معرفة نقاط الاتفاق والاختلاف ، حتىٰ تتم عمليات التثبيت للموجب المُفضَّل الذي يصنع المجد ، والإزالة للسالب غير المفضل الذي لا يسهم في صناعة المجد .

الاستيعاب قيمة احتوائية ، تقبل بالاختلافات وتعمل علىٰ احتوائها . من طبيعة الخلق لا يتساوون في القدرات والاستعدادات والمهارات ولا حتىٰ في الرغبات والحاجات ، ولا في درجة الفهم والمعرفة ، ولذا فمن الضرورة سيكون الاختلاف الذي يستوجب التقدير ، حتىٰ تتمم الفروق الفردية بين الناس بعضها البعض . ولهٰذا كل مفردة هي في حالة نقص ، ولا تستكمل إلا بآخر يستوجب الاستيعاب . وإن لم يحدث الاستيعاب تصبح الفرقة بين

الناس هي السائدة ، ولأجل ذلك فإن قيم ممارسة الديمقراطية وحدها التي تمكن من الاستيعاب . وبدونها لا يمكن أن يتحقق التفهم والتفاهم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات .

الاستيعاب عملية تفاعلية بين الأنا والآخر تعتمد علىٰ القيم المحققة للمجد واعتبار الكرامة لبني الإنسان :

1 ـ **الفهم** : فهم الموضوع أو الحالة والإلمام التام بها ، من حيث تاريخها ، وما يؤثر فيها بالسلب والإيجاب ، وفهم متغيراتها وعللها وأسبابها ومراميها والغايات التي من ورائها .

2 ـ **التفهُّم** : تفهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والنفسية والذوقية والثقافية التي تلم بالفرد أو الجماعة ، ومراعاة آثارها علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي والمجتمعي .

3 ـ **الاعتراف** : من حيث إن لكل فرد حقوقاً ، ومن حقه أن يطالب بها ، ويمارسها . وأنّ له واجبات يقدم علىٰ أدائها . وأنّ له مسؤوليات فلا يتأخر عن حمْلها ، وتحمّل ما يترتب عليها من أعباء .

4 ـ **التقدير** : تحسيس بني آدم بأنه قيمة في ذاته ، وأنه مُقدَّر في شخصه وفي قراراته ، ومشاعره وخصوصيته ، وفيما يرغب أو يقبل أو يرفض .

* **التسامح** : قال تعالىٰ : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

(1) البقرة ، 178 .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (1) .

* **الإصلاح** : الصلح قيمة إنسانية بها تقوىٰ العلاقات بين الناس ، والإصلاح عمل لأجل إعادة الحق وازدياد العمار ، ولذا فإصلاح في دائرة الممكن علائقي ومادي ، كإصلاح الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) . أي للنظر عملكم خيراً أم شراً ، والعمل الخير هو الذي به تصلح الأرض ويتم فلاحها وإعمارها بما يفيد وينفع الناس ، والعمل الشر هو الذي به يتم الإفساد في الأرض التي جعلها ٱلله تعالىٰ للوارثين المستخلفين الذين يصلحون ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق . وهٰكذا يكون الصلح خيراً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (4) .

ولأجل الإصلاح في الأرض ، والوراثة فيها قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ

---

(1) الشورىٰ ، 37ـ42 .

(2) الأعراف ، 56 .

(3) يونس ، 14 .

(4) النساء ، 128 .

(5) المائدة ، 38ـ40 .

وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴾ (2) .

* **العمل** : ولأنه مجيد عظيم جعل العمل طاعة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) ، والرؤية بيِّنة قابلة للمشاهدة والملاحظة ، أي أن العمل الصالح لا يُخفىٰ عن أعين الناس ، ولا عن المجيد الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولأن العمل المشار إليه في فترة الرسول عليه الصلاة والسلام فهو المعني برؤية العمل المطلوب القيام به . وبالتالي فإن رؤية الرسول بأسباب الحضور ، ورؤية ٱللهِ لأنه سميع بصير بالمطلق ، والمؤمنون لأن العمل الإيماني سيظل حياً حتىٰ بعد الذين قاموا به ، ولهـٰذا فعمل الجهاد علىٰ سبيل المثال دائماً عمل حي باقٍ مع الذين فعلوه حياً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٧٠ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (5) .

قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ

---

(1) الأنعام ، 48 .
(2) محمد ، 1ـ3 .
(3) التوبة ، 105 .
(4) البقرة ، 154 .
(5) آل عمران ، 169ـ171 .

أَحَدًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (2) .

* **التذكُّر** : من حسن فعال المجيد جل وعلا ، فالإنسان الذي استخلفه ٱلله علىٰ الأرض يحتاج إلىٰ من يعلمه المنهج القويم الذي من أجله خُلق : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (3) ، فكانت الذكرىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4) ، وهي علىٰ أنماط مختلفة أولاها إرسال الرسل والأنبياء ليعلّموا الناس سبل السلام والمنهج القويم والصراط المستقيم وهو من واجبات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ (5) .

ومما ذكّر به المجيد عباده الآيات ومنها آيات العذاب : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ

(1) الكهف ، 110 .
(2) الفرقان ، 68ـ76 .
(3) الذاريات ، 56 .
(4) الذاريات ، 55 .
(5) الأنعام ، 48 ـ 49 .

ﭐلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴾ [1] ، ومنها آيات التدبير حيث يتبين للعاقل أن لهـٰذا الكون رباً مجيداً يدبر أموره : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [2] ، ومنها آيات الاعتبار التي نراها لكي يعتبر أولو الألباب فيعودوا إلىٰ ربهم : ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [3] .

وهـٰذا كله من علامات التذكير التي منَّ المجيد سبحانه علىٰ عباده بها ، وهي من حسن الفعال التي تورث المجد ، وعلىٰ الخليفة أن يذكّر العباد وهو عارف بنسيانهم وسهوهم وأن يصبر عليهم لأن ذلك من حسن الفعال التي تهب هـٰذا الخليفة المجد في الدنيا والثواب في الآخرة .

قال تعالىٰ : ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ۝٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ۝٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝١٣ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [6] .

---

(1) الدخان ، 33 .
(2) الرعد ، 2 ـ 3 .
(3) العنكبوت ، 34 ـ 35 .
(4) ق ، 45 .
(5) الطور ، 29 ـ 31 .
(6) الأعلىٰ ، 9 ـ 15 .

المجيد رزاق ، والرزق اسم لما يملك صاحبه الانتفاع به فلا يجوز منازعته فيه لكونه حلالاً له ، ويجوز أن يكون ما يغتذيه الإنسان حلالاً وحراماً إذ ليس كل ما يغتذيه الإنسان رزقا له ألا ترىٰ أنه يجوز أن يغتذي بالسرقة وليس السرقة رزقاً للسارق ، ولو كانت رزقاً له لم يذم عليها وعلىٰ النفقة منها ، بل كان يحمد علىٰ ذلك ، وٱلله تعالىٰ مدح المؤمنين بإنفاقهم في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] .

فالرزق من ٱلله سواء أكان في الدنيا أو في الآخرة ، ورزق الدنيا علىٰ قدر ما يشاء سبحانه وتعالىٰ لأنه الخبير البصير يعلم أنه لو وسّع الرزق لبعض العباد لفسدوا وأفسدوا : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [2] ، فرزقه سبحانه وتعالىٰ بقدر ، ولو سأل سائل فقال : فكيف بالأغنياء الذين يسرفون ويفسدون أليس هـٰذا من رزق ٱلله ؟

والجواب علىٰ وجهين :

الأول : إذا سلمنا أن ما يسرفون فيه من رزق ٱلله فهو من باب الاختبار والاعتبار ، والاختبار من أهم ما كتب ٱلله علينا في هـٰذه الدنيا ونبهنا إلىٰ أهمية نتائجه لنعتبر ، فأما النجاح كسيدنا سليمان : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [3] .

وأما الفشل كقارون : ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ

---

(1) البقرة ، 3ـ5 .
(2) الشورىٰ ، 27 .
(3) النمل ، 40 .

مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ (1) .

والثاني : أن يكون مصدر الإنفاق من حرام أفعالهم سهل الكسب فهو سهل الإنفاق ، وهو زبد يجب أن لا يهز إيمان العبد لرؤيته لأنه زائل لا محالة ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (2) .

أما رزق الآخرة فهو مما لا نعلمه إلا بقدر ما أخبرنا به سبحانه في قوله تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (3) .

والمجيد سبحانه عالم بخلقه يعلم فيهم الطمع في رحمته فترك بعض رزق الآخرة دون تحديد دقيق لمعالمه تشويقاً لهم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ

(1) القصص ، 76 ـ 81 .
(2) الرعد ، 17 .
(3) البقرة ، 25 .

أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [1] ، والمعنىٰ : لا تعلم النفوس ـ كلهنّ ولا نفس واحدة منهنّ لا ملك مقرب ولا نبيّ مرسل ـ أيّ نوع عظيم من الثواب ادخر ٱلله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه ، لا يعلمه إلا هو مما تقربه عيونهم ، ولا مزيد علىٰ هـٰذه العدة ولا مطمح وراءها ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فحسم أطماع المتمنين .

ولأنه مجيد فهو المعطي والعطاء غير الرزق إذ الرزق عام والعطاء خاص ، والرزق دائماً يقع في دائرة الممكن المتوقع أما العطاء فيقع في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع ، وقد منّ المجيد علىٰ عباده أن جعل لكل منهم عطاءً مخصوصاً ولم يمنع أحداً من ذلك ، فقال سبحانه : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ [2] ، محظوراً ممنوعاً عمن يريده بل هو فائض علىٰ من قدر له بموجب المشيئة المبنية علىٰ الحكمة وإن وجد فيه ما يقتضي الحظر كالكفر ، وهـٰذا في معنىٰ التعليل لشمول الإمداد للفريقين ، والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بمبدئيتها لكل من الإمداد وعدم الحظر [3] .

وكل عطاء منتهٍ إلا عطاء المجيد فهو دائم : ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾ [4] .

ودوام العطاء من حسن الفعال للمجيد سبحانه ، وعلىٰ خليفة ٱلله في

---

(1) السجدة ، 17 .
(2) الإسراء ، 18 ، 20 .
(3) تفسير الآلوسي ، ج 10 ، ص 414 .
(4) هود ، 108 .

الأرض أن يجعل عطاء الناس قريباً من عطاء المجيد فيكون العطاء للمحب وللمبغض علىٰ حدٍّ سواء ، وأن يكون مستمراً غير مخصوص بمناسبة ، أو بفعل ، وإنما يكون دائماً .

وحسن فعال المجيد أكثر من أن نقدر علىٰ إحصائها وإنما أوردنا بعضاً منها كأمثلة وسبحانه وتعالىٰ عما يصفون .

والمجيد هو كثير الكرم كل من طلب منه مقصوده وجده ، وإنه مغن كل من لاذ به ، وإغناء المحتاج غاية الكرم ويدل عليه هو أن المجيد مقرون بالحميد في قولنا إنك حميد مجيد ، فالحميد هو المشكور والشكر علىٰ الإنعام والمنعم كريم فالمجيد هو الكريم البالغ في الكرم [1] ، وكرمه شامل للمطيع من عباده وللمذنب ، يقول سبحانه للإنسان الذي خلقه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [2] .

اعلم أنه سبحانه لما أخبر في الآية الأولىٰ عن وقوع الحشر والنشر ذكر في هـٰذه الآية ما يدل عقلاً علىٰ إمكانه أو علىٰ وقوعه ، وذلك من وجهين :

الأول : أن الإلـٰه الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين ، كيف يجوز في كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم ؟ .

الثاني : أن القادر الذي خلق هـٰذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها ، إما أن يقال : إنه خلقها لا لحكمة أو لحكمة ، فإن خلقها لا لحكمة كان ذلك عبثاً ، وهو غير جائز علىٰ الحكيم المجيد ، وإن خلقها لحكمة ، فتلك الحكمة ، إما أن تكون عائدة إلىٰ ٱلله تعالىٰ أو إلىٰ العبد ، والأول باطل لأنه سبحانه متعال عن الاستكمال والانتفاع . فتعين الثاني ، وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلىٰ العبد ، وتلك الحكمة إما أن تظهر في الدنيا أو في دار سوىٰ

---

(1) تفسير الرازي ، ج 14 ، ص 205 .
(2) الانفطار ، 6 .

الدنيا . والأول باطل لأن الدنيا دار بلاء وامتحان ، لا دار الانتفاع والجزاء ، ولما بطل كل ذلك ثبت أنه لا بد بعد هـٰذه الدار من دار أخرىٰ ، فثبت أن الاعتراف بوجود الإلـٰه الكريم الذي يقدر علىٰ الخلق والتسوية والتعديل يوجب علىٰ العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم ، وذلك يمنعهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر ، وهـٰذا الاستدلال هو الذي ذكر بعينه في سورة التين حيث قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ (1) . وهـٰذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرين بالصانع وينكرون الإعادة ، وتصلح أيضاً مع من ينفي الابتداء والإعادة معاً ، لأن الخلق المعدل يدل علىٰ الصانع وبواسطته يدل علىٰ صحة القول بالحشر والنشر ، فإن قيل : بناء هـٰذا الاستدلال علىٰ أنه تعالىٰ حكيم ، ولذلك قال في سورة التين بعد هـٰذا الاستدلال : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ (2) .

والمجيد كريم يقدِّم كرمه للناس علىٰ العموم دون أن ينقص ذلك منه شيئاً لأنه الغني ويترك لهم الشكر أو الجحود : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (3) ، فإذا شكر العبد ربه علىٰ كرمه معه زاده المجيد كرماً من عنده فجعل له بركة في الدنيا وأجراً في الآخرة ، أما إذا جحد العبد وكفر فالمجيد الكريم لا يقطع العطاء بل يفتح باب التوبة ، فإذا تاب وأصلح فإن ٱلله غفور رحيم : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (4) ، وإذا أصر العبد علىٰ كفره فإن ٱلله هو الغني : ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ

(1) التين ، 4ـ8 .
(2) التين ، 8 .
(3) إبراهيم ، 7 .
(4) المائدة ، 39 .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (1) .

ولأنه مجيد فهو الرفيع العالي القريب ، سبحانه عظيم ومطلق في أمجاده وعلوه وفي قربه ولذا فهو السميع العليم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (2) ، وهو غير محدود بمكان أو بمساحة تجلت صفاته أن تدركه الأبصار أو أن تحدد له قدراً مكانياً أو زمانياً ، بل عالي الشأن ، وإذا تأمل العاقل في شأن المجيد سبحانه وجده من العلو والرفعة بما يفرح المؤمن ويغيظ الكافر ، فهو الكريم الذي يعطي ولا يأخذ لغناه عن الحاجة تقدس سبحانه ، وهو الذي يقبل التوبة عن المذنبين مهما كان الذنب إلا أن يُشرك به قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (3) ، وتنادت حسرات المشركين ممن ندموا وتحسروا علىٰ إشراكهم بالله فجاءت رحمته وهو القوي لتبشرهم : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (4) ، فهل بعد ذلك من علو شأن ؟ لا الله إلا الله كيف يجحد المخلوق هـٰذا الفضل للخالق جل جلاله ؟ !

وعلىٰ الخليفة أن يعي أن المجيد الغفَّار لكل الذنوب إنما يعلمه أن يكون رحيماً بالعباد وأن لا يستكبر الأخطاء فلا يغفر ويترك الرعية في هيام دائم .

ومن علو شأن المجيد : أنه سبحانه يؤخر الحساب : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ

(1) الزمر ، 7 .
(2) البقرة ، 186 .
(3) النساء ، 116 .
(4) الزمر ، 53 .

بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (1) . محبة بعباده لأنه قادر علىٰ محاسبة المذنب حال ارتكاب الذنب لٰكن ذلك ليس من صفاته تعالىٰ فهو الكريم الغفور الذي يريد لعباده أن يستغفروا ليغفر لهم فيتجاوز عن سيئاتهم ، ولحكمة أخرىٰ تدل علىٰ علو شأنه سبحانه وتعالىٰ ، فلو تصورنا : أن العقاب يكون حال وقوع الظلم ، أو الذنب ؛ لما يمكن أن تعمر الأرض ، وهو من أبرز مهام الإنسان التي كلفه ٱلله بها ، فكم من عالم ظلم ، ثم تاب ، ولو وقع عليه العذاب مباشرة ؛ لما كان يمكن تصور حال الأرض بذلك الأمر .

ولأنه مجيد فهو العظيم ؛ لأن أصل المجد العِظم إلا أنه جرىٰ علىٰ وجهين : عظم الشخص ، وعظم الشأن ، فيقال : تمجدت الإبل تمجداً : إذا عظمت أجسامها لجودة الكلأ ، وأمجد القوم إبلهم : إذا رعوها كلأً جيداً في أول الربيع ، ويقال في علو الشأن : مجد الرجل مجداً ، وأمجد إمجاداً : إذا عظم شأنه ، وبهٰذا فإن تمجيد ٱلله تعظيمه عز وجل (2) .

وهو العظيم في ذاته جل جلاله وصفاته سبحانه فإنه تعالىٰ شأنه واجب الوجود تام القدرة كامل الحكمة (3) ، والمجيد عظيم في كل شيء ويكفي لذي اللب واحدة من آيات عظمته ليعرف أنه العظيم ، فالروح من آيات عظمة المجيد ، لأنها من عنده وحده قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (4) ، هو يهبها وهو يسلبها وليس لأحد غيره أن يهب أو أن يسلب هٰذه الروح : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾

(1) النحل ، 61 .
(2) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 482 .
(3) تفسير الآلوسي ، ج 2 ، ص 332 .
(4) الإسراء ، 85 .

﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ (1) ، أما من يقول : إن بإمكاني قتل إنسان فأسلب روحه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ (2) ، فهو باطل ؛ لأن القاتل بإمكانه أن يضرب الجسد فتغادره الروح إلىٰ خالقها ؛ فهل بإمكانه أن يقتل ، ويسلب الروح ، فتكون عنده ؟ !

والمجيد عظيم في كل شؤون الوجود ويكفي من آيات عظمته خلق الشيء ومن العدم ينزل المطر ماء عذباً للشاربين والحارثين والزارعين والراعين ، وهو الذي يجعل العدم سبحانه يملك الأمر مالك الملك ، ولو شاء لجعل ماء المطر مالحاً لا ينتفع به حي ، ومن عظمته جعله ماءً عذباً ينتفع به البشر والشجر والحيوان وجعله من أسباب الحياة مناً منه وفضلاً وشمل به كل خلقه علىٰ حدٍّ سواء ، فهل من مجيدٍ عظيم له مثل هـٰذا الفعل إلا ٱلله المجيد سبحانه وتعالىٰ : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ (3) .

ولأنه المجيد فهو الفعَّال لما يريد : ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (4) ، الفعَّال لما يريد يحب من يشاء بلا علة ولا سبب ويمقت من يشاء

---

(1) الواقعة ، 83ـ96 .

(2) البقرة ، 258 .

(3) الواقعة ، 68ـ74 .

(4) البروج ، 15 ـ 16 .

بلا ضرر يلحقه ولا تعب ، يقرب من يشاء بلا عمل ويبعد من يشاء بلا زلل لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ولو شاء ربك ما فعلوه ولو شاء ٱلله لهدىٰ الناس جميعاً .

إنه المسيِّر للكون والحركة والسكون والزمان والمكان ، وهو الذي استوجب من العبد التعبد له لأجل الاستخلاف في الأرض والفوز بالجنة ، فمن نعمه أن جعل لنا الصوم شهراً تاماً من الرؤية إلىٰ الرؤية ، ليجازي به المستخلفين في الأرض وترك لهم الحرية في حدود الطاعة والدعوة الخاتمة لأحدَ عشرَ شهراً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) . فمن واجب الخليفة إذاً تيسير الأمور علىٰ الرعية لا تعقيدها ، وعليه أن يبحث عن السبل التي تسهل عليهم حياتهم .

ولهـٰذا فالمجيد عز وجل يريد تحقيق العدل في الأرض : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (2) ، وتحقيق العدل من واجب الخليفة بل من أهم واجباته ، ويجب أن يكون فعالاً في تحقيق العدل كما علمه المجيد جل وعلا .

المجيد المطلق هو الذي بيَّن كل شيء تبييناً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) .

---

(1) البقرة ، 185 .
(2) آل عمران ، 108 .
(3) النساء ، 26 .

ولأنه المجيد الرحيم فهو الذي يتوب علىٰ عباده المستخلفين فيها ، وهو الذي يتم نعمه عليهم حتىٰ يرثوا الأرض والجنة ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [1] ، ويجب علىٰ الخليفة الوقوف متأملاً أمام هـٰذه الآية العظيمة فيجعل الحدود التي تمنع شيوع الشهوات المورثة للفساد .

سبحانه لأنه مجيد فهو يريد أن يخفف علىٰ عباده في الأرض لمعرفته بضعف الذين لا يؤمنون بعد لعلهم يهتدون ، فقال تعالىٰ : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [2] .

ولأنه مجيد عظيم أوجب الطهارة بين الناس في الحركة والسكون وفي التعبد والعمل قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [3] ، وكذلك المجيد يريد الطهارة تتجاوز الماديات والمحسوسات إلىٰ القيم والفضائل حتىٰ تسود الأخلاق اللطيفة معاملة بين الناس في أقوالهم ، وأفعالهم ، وأعمالهم ، وسلوكياتهم . قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [4] . قال أبو

---

(1) النساء ، 27 .

(2) النساء ، 28 .

(3) المائدة ، 6 .

(4) البقرة ، 125 .

إِسحق : معناه طَهِّراهُ من تعليق الأَصْنام عليه ، وقال الأَزهري في قوله تعالىٰ : أَن طَهِّرَا بيتي يعني من المعاصي والأَفعال المُحَرَّمة ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ من الأَدْناس ، والباطل [1] .

ولهـٰذا للطهارة سبل ذكرها المجيد سبحانه في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [2] ، فالتقوىٰ والمعروف قولاً وفعلاً وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من السبل التي تحقق الطهارة الروحية . وتأكيده علىٰ الطهارة قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [4] .

ولأنه المجيد أرادنا أن نعمل العقل لما في ذلك من تحقيق للعدل وأن نتذكر لنتعظ وأن نفكر لنعرف ونتعلم ، ونترك الهوىٰ لما فيه من الإسراف والظلم المؤدي للوقوع بالذنب : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [5] .

---

(1) لسان العرب ، ج 4 ، ص 504 .
(2) الأحزاب ، 32 ـ 33 .
(3) الواقعة ، 77ـ80 .
(4) الأعراف ، 82ـ84 .
(5) المائدة ، 49 .

ولأنه مجيد يريد لنا أن ننال ثواب الآخرة ليصدقنا وعده ويكرمنا بعفوه : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1) .

ولأنه مجيد ، فهو سيعذب المنافقين في الدنيا قبل الآخرة ، وذلك بما يمتلكون من أموال وأولاد ، فكم من البشر ممن لا يهنأ بدنيا خوفاً علىٰ أمواله ، وممن تذوق مر العقوق من أبناء اعتقد : أنهم سيكونون عوناً له : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ (2) .

ولأنه المجيد العظيم فهو يريد أن يهدينا السبيل فيذكرنا بثوابه وعقابه وللعاقل أن يختار فإما الخلود في النار ، وإما الخلود في الجنة : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (3) .

وعليه لا مفر إلا الاستغفار والتوبة إنه الغفور التواب الرحيم ، اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين فيها ومن الوارثين ولا تجعلنا من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق ، ولا تجعلنا تحت الغلبة لمن كان أو يكون ، واقهر أعداءنا أعداء الدين ؛ الذين يريدون الضلال ؛ ونحن نريد الهداية ! .

أماني الضالين :

1 ـ أن يكون جل همِّ الإنسان الدنيا حتىٰ يفشل ويقع في المعاصي وينسىٰ

---

(1) الأنفال ، 67 .
(2) التوبة ، 55 .
(3) هود ، 105 ـ 108 .

الآخرة : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) . ولٰكن المستخلفين هم الذين لا ينسون نصيبهم من الدنيا وفيها يحسنون حتىٰ الفوز بالجنة .

2 ـ أن تقع العداوة والبغضاء بين البشر لأنها مما يريده الشيطان : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (2) ، والمجيد سبحانه يريد عكس ذلك يريد أن تسود المحبة والألفة حتىٰ مع أعدائنا في سبيل تقريبهم إلىٰ الحق والهداية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (3) .

3 ـ أن يحكموا الطاغوت ، والطاغوت كل من طغىٰ في العداوة لله ولرسوله وللمؤمنين : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (4) ، فعلىٰ المؤمن أن يحرص علىٰ أن لا يكون ممن يأخذون بحكم الطاغوت مهما كانت الأسباب والدوافع . قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ

(1) آل عمران ، 152 .
(2) المائدة ، 91 .
(3) فصلت ، 34 .
(4) النساء ، 60 .

أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [2] .

4 ـ يريدون الخيانة : ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [3] ، وعليه فالخيانة مما لا يريده المجيد وعلىٰ الخليفة أن لا يقبل بالخيانة كسلوك بين رعيته وإن كانت من مقرب لأنها سلوك مشين يورث غضب ٱلله .

5 ـ الخداع وهو مما بني عليه أعداء المجيد عز وجل ليميلوا بالناس عن الطريق القويم : ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [4] .

6 ـ يريدون الفجور وهٰذه دعواهم التي يحاولون بها استمالة شهوات الناس وتحريك حاجاتهم الفطرية بما لا يرضي المجيد جل جلاله : ﴿ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ [5] .

7 ـ يريدون إشاعة الخوف والحرص علىٰ الحياة الدنيا : ﴿ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾ [6] .

---

(1) البقرة ، 257 .
(2) النحل ، 36.
(3) الأنفال ، 71 .
(4) الأنفال ، 62 .
(5) القيامة ، 5 .
(6) الأحزاب ، 13 .

8 ـ يريدون الضلال للناس ، وذلك بصرفهم عن نور ٱلله ، وهو القرآن ، فيصفونه بشتىٰ الأوصاف المنفرة ، ليصرفوا الناس عنه : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (1) .

9 ـ يريدون الكيد وهو من شرورهم التي ينالون بها من المؤمنين : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ (2) .

10 ـ يريدون تغيير ما أقره ٱلله علىٰ الإنسان في القرآن الكريم فيبدلوا ويغيروا ، قال تعالىٰ : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (3) .

لذا فالحرص علىٰ ترك هـٰذه الأمور يوصلنا إلىٰ ما يريده المجيد حيث الفلاح والنجاح . وبعد كل هـٰذا يجب علىٰ الخليفة أن يعرف حقيقة المعرفة ما يريد المجيد وما لا يريد ويعمل بما يريد ويترك ما لا يريد فينال المجد في الدنيا والآخرة .

المجيد هو العزيز الذي بيده إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولأنه مجيد فهو القوي القادر علىٰ الفعل وهو علىٰ كل شيء قدير ، فكل من في السموات والأرض في قبضته يفعل بهم كيف يشاء ، وهو الذي يحيي ويميت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (4) ، وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ

(1) التوبة ، 32 ، 33 .
(2) الطور ، 42 .
(3) الفتح ، 15 .
(4) التوبة ، 116 .

﴿ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ (1) . وقيل : تعز بالإخلاص وتذل بالرياء ، وقيل : تعز الأحباب بالجنة والرؤية وتذل الأعداء بالنار والحجاب ؛ وقيل : تعز بالقناعة والرضا وتذل بالحرص والطمع ، ومن القول الكثير اجتهادات من أجل معرفة الحقيقة ، والحقيقة بالمطلق لا يعلمها إلا هو جل جلاله . سبحانه رحمته وسعت كل شيء وهو غني عن رحمة غيره : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ (2) .

فالمجيد عزيز بكونه هو المعز لغيره ولا معز له ، وهو المذل لغيره ولا مذل له ، وهو القادر علىٰ غيره ولا قادر عليه ، وهو المهيمن علىٰ كل شيء ولا شيء يهيمن عليه سبحانه لا إلـه إلا هو واحد أحد .

والمجيد عزيز فلا أحد يستطيع أن يضره أو ينفعه بل هو الذي يصيب بالضر أو النفع من يشاء : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ﴾ (4) .

فالمجيد بيده أن يقضي علىٰ كل من في الأكوان من بشر وشجر وخلائق أخرىٰ وليس لأحد أن يقضي عليه سبحانه ، فأكبر عتاة الدنيا كانوا في قبضته ،

(1) آل عمران ، 26 ـ 27 .
(2) غافر ، 7 .
(3) آل عمران ، 177 .
(4) الفتح ، 11 .

فهـٰذا فرعون يشعر بقدرة المجيد علىٰ أن يقضي عليه فينصاع إلىٰ أمر ٱلله لـٰكن بعد فوات الأوان : ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (1) .

ومـن عِـز المجيـد أن الأرواح بيـده يقبضهـا متـىٰ شـاء ويـرسلهـا متـىٰ شاء : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) ، بل ليس لأحد أن يرد ما قضىٰ في شيء لا من حيث الفعل ولا من حيث زمنه ولا مكانه ، فمن حيث الفعل ليس لمخلوق قدرة علىٰ رد الموت عن أحد : ﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (3) .

ولأنه مجيد وفعال لما يريد ، فالذين من دونه أمرهم بحساب رغم الزمن ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ (4) .

وكما أنه لا عائق زماني عن تنفيذ أفعاله المجيدة ، فكذلك لا عائق مكاني قال تعالىٰ : ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴾ (5) .

---

(1) يونس ، 90ـ92 .
(2) الزمر ، 42 .
(3) الواقعة ، 83ـ87 .
(4) النحل ، 61 .
(5) النساء ، 78 .

ولأنه مجيد فهو كثير الخير والإحسان والعطاء الكريم ، وخيره وإحسانه سبحانه وتعالىٰ مما لا يحصىٰ لأن الخير كله منه ، فمهما عددت وحرصت علىٰ إحصاء الخير والإحسان الذي يُحسب للمجيد تقصر عن ذلك لعدم استطاعتك الإلمام بخيره وإحسانه وعطائه وجوده وكرمه ، ومن صور خيره وإحسانه تحقيق رغبة العبد المطيع وإن اخترقت العادة كما في قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ (1) ، فقد تعجبت زوجة سيدنا إبراهيم بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة ، فإن الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن ٱلله تعالىٰ يقلب هـٰذا الجبل ذهباً إبريزاً فلا شك أنه يتعجب نظراً إلىٰ أحوال العادة لا لأجل أنه استنكر قدرة ٱلله تعالىٰ علىٰ ذلك ، ولذا فإن رحمة ٱلله متكاثرة وبركاته متوالية متعاقبة ومتصلة ومستمرة عبر الزمان والمكان ، وهي النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة ، فإذاً رأيت أن ٱلله خرق العادات في تخصيصكم بهـٰذه الكرامات العالية الرفيعة وفي إظهار خوارق العادات وإحداث البينات والمعجزات ، فكيف يليق به التعجب ، والحميد هو المحمود وهو الذي تحمد أفعاله ، والمجيد الماجد ، وهو ذو الشرف والكرم والمكانة العالية ، ومن محامد الأفعال إيصال العبد المطيع إلىٰ مراده ومطلوبه ، ومن أنواع الفضل والكرم أن لا يمنع الطالب عن مطلوبه ، فإذا كان من المعلوم أنه تعالىٰ قادر علىٰ الكل وأنه حميد مجيد .

ومن عظيم خيره وإحسانه أنه يقسم الأرزاق بين العباد فيصيب منها المطيع نصيباً ويصيب منها العاصي نصيباً فلا فرق بينهما لأنهم عباده وهو ربهم الذي خلقهم : ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴾ (2) ، وإنما الطاعة والعصيان من شأن البشر وهي إما لهم أو

---

(1) هود ، 73 .

(2) الرعد ، 26 .

عليهم : ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ ﴾ (1) ، أما المجيد فخيره وإحسانه لكل من خلق ، فالغيث النافع ينزل بخير وإحسان المجيد علىٰ الأرض ليسقي أرض المطيع من العباد والعاصي منهم إحساناً من المجيد : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ (2) ، والعموم فيه واضح للدلالة علىٰ أن الغيث لكل البشر ، وجاء تأكيد هـٰذا المعنىٰ بقوله عز من قائل (الولي الحميد) ، فٱلله هو ولي الكون ولا ولي غيره وخيره للجميع ، فعلىٰ الخليفة المساواة بين الرعية لاسيما في المعايش فلا يمنع لبغض ولا يمنح لحب ، ولذا فعلىٰ الخليفة أن يفهم أن المعايش للجميع وعلىٰ قدر العمل ، ولكل مخلوق رزقاً .

ولأنه المجيد فله الحسن الكريم الذي به يضفي إحسانه علىٰ البشر فيجازيهم بالحسنة عشر أضعافها ولا يجزي بالسيئة إلا مثلها : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ (3) ، لذا وجب علىٰ الخليفة أن يتخلق بالإحسان فيجعل للمحسنين جزاءً موفوراً ولا يبالغ في معاقبة المسيء ؛ لأن المجيد سبحانه لا يجزي بالسيئة إلا مثلها ، كما يعلم خليفته أن لا يزيد في العقاب دون حده فيقول : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ (4) ، وقد كررها المجيد خمس مرات ليفهم الخليفة ما عليه من واجب الانتباه إلىٰ مثل هـٰذا الأمر الذي يورث الكثير مما لا يريده المجيد لعباده والخليفة منهم .

اللهُمَّ يا المجيد يا فعّال لما تريد بالشكل الذي تريد افعل بنا ، ولنا الخير الذي تريد ، واجعلنا يا المجيد نفعل ما تريد بالوجه الذي تريد ، واقضِ لنا

(1) الإسراء ، 7 .
(2) الشورىٰ ، 28 .
(3) الأنعام ، 160 .
(4) النجم ، 38 .

الخير حيث كان في الأرض لنقيم عليها ما أردت من خلافة ، وفي السماء ، وما يغيب فيها ؛ لنتوجه إليك ، فتفيض علينا من مجدك الشامخ ، وملكك الباذخ !.

اللهُمَّ بمجدك يا المجيد نسألك قلوباً أواهة ، مخبتة ، منيبة في سبيلك ، ونسألك عزائم مغفرتك ، ومنجيات أمرك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار !

الباعِثُ جلّ جلاله

الباعث : « هو ٱلله تعالىٰ يبعث الخلق كلهم ليوم لا شك فيه ، فهو يبعثهم من الممات ويبعثهم أيضاً للحساب » (1) .

الباعث : من أسماء ٱلله تعالىٰ الحسنىٰ ، يوحي بالقدرة والعظمة والإعادة ، لم يرد هـٰذا الاسم الكريم بلفظه في القرآن الكريم ، إنما ورد بصيغ مختلفة وكلها مأخوذة من البعث ، والبَعْث في كلام العَرَب علىٰ وَجْهَيْن : أَحدُهما : الإِرْسالُ كقوله تعالىٰ : « ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ » معناه : أَرْسَلْنا . والبَعْثُ : إِثارَةُ بارِكٍ أَو قاعِدٍ . والبَعْثُ أَيضاً : الإِحْياءُ من ٱلله للمَوْتىٰ ومنه قولُه تعالىٰ : « ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكم » أَي : أَحْيَيْناكُم . والبَعْثُ : النَّشْرُ ، وبَعَثَ المَوْتَىٰ : نَشَرَهُم ليوم البَعْثِ ، وبَعَثَ اللهُ الخَلْقَ يَبْعَثُهُمْ بَعْثاً : نَشَرَهم من ذلك ، وفتح العَيْن في البَعْثِ كُلِّه لُغَةٌ . ومن أَسْمَائِه عَزّ وجلّ الباعِثُ : هو الذي يَبْعَثُ الخَلْقَ أَي يُحْيِيهم بعد المَوْتِ يومَ القِيَامَةِ (2) .

وفي سياق حديثنا عن اسم الباعث جل جلاله سترد لفظة ملازمة له وهي لفظة النشور ، والنشر ليس مثل البعث ، بل إن هنالك فرقاً بينهما ، فالفرق بين البعث والنشور : أن بعث الخلق اسم لإخراجهم من قبورهم إلىٰ الموقف ومنه

(1) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 53 .
(2) تاج العروس ، ج 1 ص 1214 .

قوله تعالىٰ : ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [1] ، والنشور اسم لظهور المبعوثين وظهور أعمالهم للخلائق ، ومنه قولك : نشرت اسمك ، ونشرت فضيلة فلان ، إلا أنه قيل : أنشر ٱلله الموتىٰ بالألف ونشرت الفضيلة والثوب للفرق بين المعنيين [2] .

والباعث جل جلاله هو الذي يحيي الخلق يوم النشور ويبعث من في القبور ويحصِّل ما في الصدور ، والبعث هو النشأة الآخرة ، ومعرفة هٰذا الاسم موقوفة علىٰ معرفة حقيقة البعث وذلك من أغمض المعارف وأكثر الخلق منه علىٰ توهمات مجملة وتخيلات مبهمة وغايتهم فيه تخيلهم أن الموت عدم والبعث إيجاد مبتدأ بعد عدم مثل الإيجاد الأول ، فظنهم أن الموت عدم غلط وظنهم أن الإيجاد الثاني مثل الإيجاد الأول غلط .

فأما ظنهم أن الموت عدم فهو باطل بل القبر إما حفرة من حفر النيران أو روضة من رياض الجنان ، والميت إما من السعداء وأولئك ليسوا أمواتاً ، يقول تعالىٰ : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [3] . وإما من الأشقياء وهم أيضاً أحياء ولذلك ناداهم رسول ٱلله في وقعة بدر وقال : إني وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ ثم لما قيل له : كيف تنادي قوماً قد جيفوا ؟! . قال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، لٰكنهم لا يقدرون أن يجيبوا ». والمشاهدة الباطنة دلت أرباب البصائر علىٰ أن الإنسان خلق للأبد وأنه لا سبيل عليه للعدم نعم تارة

(1) يس ، 52 .
(2) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 103 .
(3) آل عمران ، 169 ـ 171 .

يقطع تصرفه عن الجسد فيقال مات وتارة يعاد إليه فيقال أحيي وبعث أي أحيي جسده .

وأما ظنهم أن البعث ليس إيجاداً ثانياً وهو مثل الإيجاد الأول ؛ فغير صحيح بل البعث إنشاء آخر لا يناسب الإنشاء الأول أصلاً وللإنسان نشآت كثيرة وليست هي نشأتين فقط ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، ولذلك قال بعد خلق المضغة والعلقة وغير ذلك : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (2) . بل النطفة نشأت من التراب والعلقة نشأت من النطفة والمضغة نشأت من العلقة والروح من أمر ربي نشأة في المضغة ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (3) . ثم خلق الإدراكات الحسية بعد خلق أصل الروح نشأت أخرىٰ ، ثم خلق التميز الذي يظهر بعد سبع سنين نشأت أخرىٰ ، ثم خلق العقل بعد خمس عشرة سنة وما يقاربها نشأت أخرىٰ وكل نشأت طور ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (4) . ثم ظهور خاصية النبوة نشأة أخرىٰ وهي نوع من البعث وٱلله سبحانه وتعالىٰ باعث الرسل ، كما أنه الباعث يوم النشور (5) .

ويوضع اسم ٱلله الباعث في مجموعة دلالية واحدة تتكون من (الحكيم ، الرشيد ، الخالق ، البارئ ، البديع ، المصور ، الهادي ، المبدئ ، المعيد ، المحي ، المميت ، الجبار ، القهار ، القيوم ، الحفيظ ، المؤمن ،

---

(1) الواقعة ، 61 .
(2) المؤمنون ، 14 .
(3) الإسراء ، 85 .
(4) نوح ، 14 .
(5) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 123ـ124 .

المهيمن) هـٰذه الأسماء الحسنىٰ تدخل في باب الخلق والتكوين العام ، إلا أن أسماء ٱلله تعالىٰ الحسنىٰ (المبدئ ، المعيد ، الباعث ، المحي ، المميت) تحيل إلىٰ كمال قدرة ٱلله تعالىٰ في التصرف بالأشياء ، بدءاً وإعادة ، وحياة وموتاً وبعثاً ، وأن ناصية كل شيء في يده تعالىٰ ، فضلاً عن ذلك أنها ترسم خضوع العبد المملوك ، الذي لا حول له ولا قوة إلا بربه الذي منحه الوجود ، وكتب عليه الموت ، ووعده بالبعث .

إن اسم ٱلله تعالىٰ الباعث يتشكل ضمن تجليات متعددة تحيل كلها إلىٰ إثارة الساكن ، وتغيير حاله فٱلله سبحانه وتعالىٰ هو باعث الرسل بالأحكام والشرائع ، وباعث الموتىٰ إلىٰ الحياة ، وباعث النائمين إلىٰ اليقظة .

إن بداية الخلق اتسمت بصور مختلفة تشكلت ضمن نطاق معرفي محدود تتجاذبه نظم محدودة قائمة علىٰ الملاحظة والمشاهدة ، إذ أن الفكر يتشكل من الملاحظة والمشاهدة المتكررة التي تدخل ضمن المخزون المعرفي المكرر يومياً وهـٰذا الأمر بطبيعة الحال لا يصل إلىٰ إجابة عن كل التساؤلات التي تطرح عن كل ما هو موجود ، فالموجود مرسوم بشكل واقعي أي يتفق مع الفكر البشري المتوافق معه ، إلا أن هناك صوراً متكررة لا يمكن الإجابة عنها وهي تحمل في طياتها أسئلة متعددة تثير في ناظرها أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها بل وقف إزاءها موقف المتفرج الذي لا يعرف إلىٰ أي شيء يحيل ما يجده أمامه .

يمكن العودة إلىٰ الملاحظة والمشاهدة من خلال حدثٍ وقع مع بداية البشرية إذ أن فيه كل تجليات الخلق الأولىٰ القائمة علىٰ الملاحظة والمشاهدة ، ولنقرأ قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ

لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (1) . هـٰذه القصة رسمت لنا التشكل المعرفي لبداية الخلق في أمرين مهمين ، الأمر الأول هو القتل ، أما الأمر الثاني فهو دفن المقتول أو الميت . ففي موضع القتل تعددت الروايات إذ رُوي أنه جهل كيف يقتله فجاء إبليس بطائر أو حيوان غيره فجعل يَشْدَخ رأسه بين حجرين ليقتدي به قابيل ففعل ؛ قاله ابن جُرَيْج ومجاهد وغيرهما . وقال ابن عباس وابن مسعود : وجده نائماً فشدخ رأسه بحجر وكان ذلك في ثَوْر جبل بمكة قاله ابن عباس . وقيل : عند عَقَبة حِراء ، حكاه محمد بن جرير الطَّبَري . وقال جعفر الصادق : بالبصرة في موضع المسجد الأعظم (2) . وهـٰذه الرواية تكررت في كثير من تفاسير القرآن الكريم وإن اختلف المكان الذي حصل فيه القتل ، إلا أن ما يهمنا منها هي القول إن الإنسان في بدايته يتصرف في كثير من أموره وفق مبدأ الملاحظة والمشاهدة ، ومما يعزز مبدأ الملاحظة والمشاهدة هي نهاية القصة التي احتوت علىٰ نهاية مفتوحة تبحث لها عن نهاية ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (3) . وهنا تم إنهاء النهاية المفتوحة التي بدأت من قوله تعالىٰ ﴿ فَبَعَثَ ﴾ فالبعث هنا مستعمل في الإلهام بالطيران إلىٰ ذلك المكان ، أي فألْهم ٱلله غراباً ينزل بحيث يراه قابيل . وكأنّ اختيار الغراب لهـٰذا العمل إمّا لأنّ الدفن حيلة في الغِربان من قبلُ ، وإمّا لأنّ ٱلله اختاره لذلك لمناسبة ما يعتري الناظر إلىٰ سواد لونه من الانقباض بما للأسيف الخاسر من انقباض النفس . ولعلّ هـٰذا هو الأصل في تشاؤم العرب بالغراب ، فقالوا : غُراب

(1) المائدة ، 27ـ31 .
(2) تفسير القرطبي ، ج 6 ، ص 133 .
(3) المائدة ، 31 .

البين [1] . فتمت عملية الدفن ضمن الصورة التي حصلت أمام أنظار قابيل ، وبهٰذا يكون التشكل المعرفي للإنسان قائماً علىٰ الملاحظة والمشاهدة والتجربة .

والملاحظة والمشاهدة والتجربة لا يمكن من خلالها الوصول إلىٰ خالق البشر ومعرفته ومعرفة أحكامه وشرائعه ، فكان إرسال الرسل ، الذي يرسم ملمحاً فكرياً يتصل بطبيعة الفكر البشري ، هٰذا الفكر المبني علىٰ الملاحظة والمشاهدة والتجربة ، وهٰذا الكلام لا ينطبق علىٰ عصر بعينه إنما ينطبق علىٰ كل العصور التي عاش فيها البشر ضمن أفكار وعقائد مختلفة ، من ذلك ما كان عليه المسلمون قبل البعثة النبوية ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [2] . ومنه أيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [3] .

فكل الرسل الذين أرسلهم ٱلله تعالىٰ هم من البشر ، إنهم يحملون رسالة السماء فكانوا ضمن اصطفاء خاص ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [4] .

يخبر تعالىٰ باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه وأحبابه ، فأخبر أنه

(1) تفسير التحرير والتنوير ، ج 4 ، ص 181 .
(2) البقرة ، 151 ، 152 .
(3) آل عمران ، 164 .
(4) آل عمران ، 33 ، 34 .

اصطفىٰ آدم ، أي : اختاره علىٰ سائر المخلوقات ، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وأسكنه جنته ، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات ، ولهـٰذا فضَّل بنيه ، فقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴾ [1] .

واصطفىٰ نوحاً فجعله أول رسول إلىٰ أهل الأرض حين عبدت الأوثان ، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلىٰ ٱلله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاءه واجتباءه ، وأغرق ٱلله أهل الأرض بدعائه عليهم ، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون ، وجعل ذريته هم الباقين ، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان .

واصطفىٰ آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمـٰن الذي اختصه ٱلله بخلته ، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان ، ودعا إلىٰ ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً ، وجعله ٱلله أسوة يقتدي به من بعده ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته ، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة علىٰ العالمين ، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن ٱلله تعالىٰ جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره ، وفاق ﷺ الأولين والآخرين ، فكان سيد المرسلين المصطفىٰ من ولد إبراهيم .

واصطفىٰ ٱلله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران ، أو والد موسىٰ بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فهـٰذه البيوت التي ذكرها ٱلله هي صفوته من العالمين ، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم ، فلهـٰذا قال تعالىٰ : (ذرية بعضها من بعض) .

---

(1) الإسراء ، 70 .

أي : حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة ، كما قال تعالىٰ لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هٰذه البيوت الكبار ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (1) ، (وٱلله سميع عليم) يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه ، ودل هٰذا علىٰ أن هٰؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه ، وكرماً (2) .

وٱلله تعالىٰ باعث الرسل بالأحكام والشرائع ، وهنا يتشكل أمر مهم بل في غاية الأهمية ألا وهو تحديد صورة معرفية للخلق يكون علىٰ أساسها حساب أخروي يتشكل ضمن مرجعيات عائدة إلىٰ الأحكام والشرائع التي كانت مصاحبة إلىٰ بعث الرسل ، مما يحيل إلىٰ أن باعث الرسل هو باعث للرحمة التي تتحقق من خلال تطبيق أحكامه وشرائعه ، يقول تعالىٰ : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (3) . وقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (4) .

وفي النص القرآني تشكلت صورة إرسال الرسل من خلال كلمة (بعثنا) التي تشكل منها صورة تتابعية تحيل إلىٰ تتابع الرسل دون انقطاع وصولاً إلىٰ الرسول الكريم محمد ﷺ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً

(1) الأنعام ، 71 .
(2) السعدي ، ج 1 ، ص 128 .
(3) الإسراء ، 15 .
(4) التوبة ، 128 ، 129 .

رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) . كل أمة في وقت مسمىٰ ، وأجل محدود ، لا تتقدم عنه ولا تتأخر ، وأرسلنا إليهم رسلاً متتابعة ، لعلهم يؤمنون وينيبون ، فلم يزل الكفر والتكذيب دأب الأمم العصاة ، والكفرة البغاة ، كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، مع أن كل رسول يأتي من الآيات بما يؤمن علىٰ مثله البشر ، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم ، يدل علىٰ حقيقة ما جاءوا به ، ﴿ كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم ﴾ بالهلاك ، فلم يبق منهم باقية ، وتعطلت مساكنهم من بعدهم ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يتحدث بهم من بعدهم ، ويكونون عبرة للمتقين ، ونكالاً للمكذبين ، وخزياً عليهم مقروناً بعذابهم (2) .

وجاء النص القرآني باقتران لفظة (بعثنا) بـ : (ثم) من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (3) ، وقد دلت (ثم) علىٰ المُهلة : لأن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعث بعد شعيب بزمن طويل ، فإنه لما توجه إلىٰ مدين حين خروجه من مصر ، رجَا ٱلله أن يهديَه فوجد شعيباً ، وكان اتصاله به ومصاهرته تدريجاً له في سلم قبول الرسالة عن ٱلله تعالىٰ ، فالمهلة باعتبار مجموع الأمم المحكي عنها قبل ، فإن منها ما بينه وبين موسىٰ قرونَ مثل قوم نوح ، ومثل عاد وثمود ، وقوم لوط ، فالمهلة التي دلت عليها (ثم) متفاوتة المقدار ، مع ما يقتضيه عطف الجملة بحرف (ثم) من التراخي الرتبي وهو ملازم لها إذا عطفت بها الجمل . فحرف (ثم) هنا مستعمل في معنيي المهلة الحقيقي والمجازي (4) .

(1) المؤمنون ، 44 .
(2) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 552 .
(3) الأعراف ، 103 .
(4) التحرير والتنوير ، ج 5 ، ص 402 .

وورد في السياق نفسه قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (1) ، والتشكيل المعرفي لقوله تعالىٰ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ يدل علىٰ الاستمرار في إرسال الرسل كما يدل علىٰ عدم تحديد زمن معين بين رسول ورسول آخر ، فكل نبي عاش مع قومه فترة زمنية قد تقصر وتطول ، وأطول فترة زمنية وردت في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (2) . وكل فترة زمنية استغرقها أي رسول من رسل ٱلله فهي تدخل في علم علام الغيوب الذي يقدر الأمور كما يشاء تبارك وتعالىٰ ربنا .

ولم يقتصر إرسال الرسل علىٰ أمة دون أخرىٰ ، فكل الأمم تحقق لهم البعث ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (3) ، وباعث الرسل جل جلاله يخبر هنا في هٰذه الآية : أن حجته قامت علىٰ جميع الأمم ، وأنه ما من أمة متقدمة ، أو متأخرة إلا وبعث ٱلله فيها رسولاً ، وكلهم متفقون علىٰ دعوة واحدة ، ودين واحد ، وهو عبادة ٱلله وحده لا شريك له : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل ، وعدمها قسمين ، ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ فاتبعوا المرسلين علماً ، وعملاً : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ فاتبع سبيل الغي .

---

(1) يونس ، 74 ـ 75 .
(2) العنكبوت ، 14 .
(3) النحل ، 36 .

﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب ، فلا تجدون مكذباً إلا كان عاقبته الهلاك (1) .

إن إرسال الرسل يشكل جانباً مهماً في رسم صورة متحققة في الحياة الدنيا ، فالآثار التي تبقىٰ للأمم السابقة تحيل حين النظر إليها إلىٰ استدعاء للماضي بكل تفاصيله ، وهٰذا الاستدعاء يشكل صورة محددة الأطراف تكشف لنا صورة الاستجابة التي حصلت للأقوام السابقين ، فآثار المسخ والخسف والغرق تشير إلىٰ صورة الصد والإعراض التي تحققت ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (2) . وهٰؤلاء الأقوام كان كثير منهم في لذة من العيش ، فضلاً عن ذلك القوة والمنعة ، ولهٰذا قال عنهم ٱلله تعالىٰ : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ (3) .

ورد ذكر البعث مع بداية الخليقة ، فبعد أن خلق ٱلله تبارك وتعالىٰ آدم

(1) السعدي ، ج 1 ، ص 440 .
(2) العنكبوت ، 36ـ40 .
(3) الدخان ، 25ـ29 .

عليه الصلاة والسلام أمر الملائكة بالسجود له ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [1] هـذه بداية التكبر والامتناع عن تنفيذ أمر ٱلله تعالىٰ ، فلم يقف إبليس عند هٰذا الحد ، بل تجاوز آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ ذريته ليكون لهم محرضاً علىٰ ارتكاب المعاصي والفواحش واختيار كل الطرق المؤدية إلىٰ معصية ٱلله تبارك وتعالىٰ ، يقول تعالىٰ : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [2] .

لمّا كوّن ٱلله فيه الصّغار والحقارة بعد عزّة الملَكية وشرفها انقلبت مرامي همّته إلىٰ التّعلق بالسّفاسف (إذَا ما لم تكن إبل فمَعْزَىٰ) فسأل النَّظِرة بطول الحياة إلىٰ يوم البعث ، إذ كان يعلم قبل ذلك أنّه من الحوادث الباقية لأنّه من أهل العالم الباقي ، فلمّا أهبط إلىٰ العالم الأرضي ظنّ أنّه صائر إلىٰ العدم فلذلك سأل النَّظِرة إبقاء لما كان له من قبلُ ، وإذ قد كان ذلك بتقدير ٱلله تعالىٰ وعلمه ، وبَدر من إبليس طلب النظِرة ، قال ٱلله تعالىٰ : (إنك من المنظرين) أي إنّك من المخلوقات الباقية ، وقد أفاد التّأكيد بإنّ والإخبارُ بصيغة (من المنظرين) أنّ إنظاره أمر قد قضاه ٱلله وقدّره من قبل سؤاله ، أي تحقّق كونك

---

(1) البقرة ، 30ـ34 .

(2) الأعراف ، 12ـ15 .

من الفريق الذين أنظروا إلىٰ يوم البعث ، أي : أنّ ٱلله خلق خلقاً وقدّر بقاءهم إلىٰ يوم البعث ، فكشف لإبليس أنّه بعض من جملة المنظرين من قبل حدوث المعصية منه ، وأن ٱلله ليس بمغيّر ما قدّره له ، فجواب ٱلله تعالىٰ لإبليس إخبار عن أمر تَحقّق ، وليسَ إجابة لطلبة إبليس ، لأنّه أهون علىٰ ٱلله من أن يجيب له طلَباً ، وهـٰذه هي النّكتة في العدول عن أن يكون الجواب : أنْظرْتك أو أجبت لك ممّا يدلّ علىٰ تكرمت باستجابة طلبه ، ولكنّه أعلمه أنّ ما سأله أمر حَاصل فسؤاله تحصيل حاصل [1] .

ويأتي البعث بمعنىٰ الإرسال [2] والإرسال ورد في النص القرآني بدلالة الرحمة المتحققة من خلال إرسال الرياح ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [4] . إن إرسال الرياح وإنزال المطر يتشكل ضمن محاور عدة ومن هـٰذه المحاور محور التصرف بين السماء والأرض فقدرة ٱلله تبارك وتعالىٰ عظيمة ، إذ ترسم لنا هـٰذه الحركة العظيمة التي يكون بعدها الخير الواسع لكل الخلق مما يترك للخلق أجمعين أبعاداً مختلفة تتجاوز الجانب المادي إلىٰ الجانب السيكولوجي فتثري الخلق بالإيمان العظيم والثقة المطلقة بٱلله تعالىٰ مما يزيد تعلق العباد بٱلله تعالىٰ . وهـٰذا جانب عظيم من جوانب الرحمة التي منّ ٱلله تعالىٰ بها علىٰ عباده .

أما جانب العذاب والعقوبة الذي ورد بصيغة الإرسال ، من ذلك قوله

---

(1) التحرير والتنوير ، ج 5 ، ص 244 .
(2) تاج العروس ، ج 1 ، ص 1214 .
(3) الفرقان ، 48 ـ 49 .
(4) فاطر ، 9 .

تعالىٰ : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ (2) . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ (3) . وهنا الأمر تغير رأسا علىٰ عقب فدلالة الإرسال لم تكن رحمة بل هي عذاب واقع يهلك كل ما هو علىٰ الأرض بدلاً من بث الحياة ، فالصورة المغايرة هنا جاءت بسبب الكفر والكذب المتحقق فلم ينفع إرسال الرسل ولا البراهين أو حتىٰ المعجزات ، فكان لابد من نهاية وهـٰذه النهاية تتناسب مع أفعالهم التي أَصرُّوا عليها واستكبروا بها ، يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (4) .

أما قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (5) . فقد جاء تخويفاً للمشركين والمقصود من النص القرآني هنا ليس الإعلام بقدرة ٱلله تعالىٰ فإنها معلومة ، ولـٰكن المقصود التهديد بتذكيرهم بأنّ القادر من شأنه أن يُخاف بأسُه . والعذاب الذي من فوق مثل الصواعق والريح ، والذي من تحت الأرجل مثل الزلازل والخسف والطوفان .

فضلاً عن ذلك أن ٱلله تعالىٰ قادر أن يخلطكم وهـٰذا الخلط يؤدي إلىٰ

---

(1) الذاريات ، 41ـ42 .
(2) القمر ، 19ـ20 .
(3) القمر ، 31ـ34 .
(4) الفرقان ، 21ـ23 .
(5) الأنعام ، 65 .

الفتنة وقتل البعض البعض الآخر . وٱلله تعالىٰ قادر علىٰ ذلك كله ، فلابد من الحذر من الإقامة علىٰ المعصية ، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم ، ومع هٰذا فقد أخبر أنه قادر علىٰ ذلك . ولٰكن من رحمته ، أن رفع عن هٰذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب ، ونحوه ، ومن تحت أرجلهم بالخسف .

عَنْ جَابِرٍ ـ رضي ٱلله عنه ـ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » . قَالَ ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قَالَ : أَعُوذُ بِوَجْهِكَ ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « هَذَا أَهْوَنُ » . أَوْ « هَذَا أَيْسَرُ » (1) .

فدلالة الإرسال تشكل مع أمرين مهمين أمر الرحمة وأمر العذاب ، مما يترك انطباعاً معرفياً تفتح به شفرات النص ويحيلها إلىٰ قراءات جديدة تثري الفكر وتستوقفه عند كل قراءة .

اسم ٱلله تعالىٰ (الباعث) يتشكل في سياقين مهمين ، السياق الأول تشكل وفق معطيات الدنيا وما تحقق فيها ، وهٰذا كان ضمن إرسال الرسل وقد أسلفنا القول فيه ، أما السياق الثاني فيكون ما بعد الموت والذي يستند في الوقت نفسه علىٰ السياق الأول وهٰذا ما سوف نبينه إن شاء ٱلله .

البعث من الألفاظ الدالة علىٰ ظهور الحياة ، فدلالته علىٰ ظهور الحياة أقوىٰ من بقية الألفاظ وإيحائيته بهٰذا المعنىٰ أكبر وأشمل ، ومن الألفاظ الدالة علىٰ ظهور الحياة هي الخروج والنزول والإنبات والفجر والفلق والاهتزاز والرُّبُو .

والبعث لغة : الإثارة ويقال بعثْتُ النّاقةَ إذا أثَرْتَها (2) .

---

(1) صحيح البخاري ، ج 15 ، ص 208 .

(2) معجم مقاييس اللغة ، ج 1 ، ص 266 .

والبعث ضربان :

- بشري ، كبعث البعير ، وبعث الإنسان في حاجة .

- وإلـٰهي ، وذلك ضربان :

أحـــدهمـــا : إيجـــاد الأعيـــان والأجنـــاس والأنـــواع لا عـــن ليـــس (الليس : اللزوم) ، وذلك يختص به الباري تعالىٰ ، ولم يقدر عليه أحد [1] .

والثاني : إحياء الموتىٰ ، وقد خص بذلك بعض أوليائه ، كعيسىٰ ﷺ وأمثاله ، يعني : يوم الحشر ، وقوله عز وجل : ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ ، أي : قيضه ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [2] ، ونحو قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [4] ، وذلك إثارة بلا توجيه إلىٰ مكان ، يقول تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [5] . وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

---

(1) المصدر السابق .
(2) النحل ، 36 .
(3) المؤمنون ، 44 .
(4) الكهف ، 12 .
(5) النحل ، 84 .

ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (1) ، وقال عز وجل : ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) ، وعلىٰ هـٰذا قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) ، والنوم من جنس الموت فجعل التوفي فيهما ، والبعث منهما سواء ، وقوله عز وجل : ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ (4) ، أي : توجههم ومضيهم (5) .

وقد جاء البعث بدلالة الإحياء في هـٰذه الحياة الدنيا خمس مرات في خمسة مواضع ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (6) فالبعث هنا الإحياء بعد موت بني إسرائيل بالصاعقة التي أخذتهم عقوبة علىٰ تجرئهم علىٰ ٱلله ، فلا يطلق البعث في اللغة إلا علىٰ من مات فعلاً . وهـٰذا يقودنا إلىٰ النظر في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ

---

(1) الأنعام ، 65 .
(2) البقرة ، 259 .
(3) الأنعام ، 60 .
(4) التوبة ، 46 .
(5) مفردات ألفاظ القرآن ، ج 1 ، ص 100 .
(6) البقرة ، 55 ـ 56 .

يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (1) فقد استعار القرآن الكريم النوم للموت لما بينهما من التشابه ، يؤكد ذلك قوله بعدها : (ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) والبعث لا يقال كما قلنا إلا لمن مات فاستعارة النوم واليقظة للموت والبعث ، جاء لتمثيل صورة بعث الأموات يوم القيامة وتقريب عملية بعث الأموات يوم الدين التي يماري فيها الكافرون .

وصورة يقظة النائم من نومه تلقي بظلالها علىٰ البعث يوم القيامة فبينما هو في نومه مستغرقاً لا يدري ما يجري حوله ، إذا هو فجأة يرد إليه الإحساس والإدراك ويحس بكل ما حوله وكأن نومه كان حلماً من أحلامه ، وكذلك البعث ، فحين يبعث الخلق يظنون أنهم لم يكونوا في قبورهم إلا يوما أو بعض يوم ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ (2) .

إنها صورة مماثلة لصورة النائم الذي يستيقظ من نومه ، فلا يعلم كم لبث في نومه ! ! وهـٰؤلاء المبعوثون علىٰ الرغم من كل السنين التي مرت عليهم يشعرون أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا عشرة أيام أو ربما يوماً واحداً ! ! لشدة ما هم فيه من الهول ، مما جعل متاع الحياة الدنيا يتضاءل أمامهم ويغدو تافهاً لا يستحق التكالب الذي كانوا فيه من أجله .

وفي سياق آخر يصور فتية أمنوا بٱلله وهربوا من قومهم الكافرين إلىٰ كهف بعيد عن المدينة ، قال تعالىٰ : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ (3) فكان نومهم كالموت

---

(1) الأنعام ، 60 .
(2) طه ، 102ـ104 .
(3) الكهف ، 11ـ12 .

لانقطاع آذانهم عن سماع أي شيء خارجي ، لهـٰذا قال تعالىٰ : (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ) تنبيهاً علىٰ أن نومهم كان قريباً من الموت . أي ضربنا عليهم حجاباً يمنع السماع بمعنىٰ أنمناهم إنامة لا تنبههم فيها الأصوات [1] فكانوا كأصحاب القبور لا يدرون حين يوقظون كم لبثوا في رقادهم فقالوا بعد أن أيقظهم ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [2] فإحساسهم حين بعثوا يشبه إحساس من بعث من موته يوم القيامة ، إن قوة العرض والإحياء ، هي السمة البارزة في مشاهد القصة جميعاً .

تعد قضية الحياة والموت من القضايا التي تثير تساؤلات عدة ، فهـٰذا الكون الواسع وما فيه يخضع لهـٰذه الثنائية ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [3] ، وٱلله تعالىٰ بحكم ألوهيته للكون كله وخلقه للحياة والموت ، هو الذي بيده وهب الحياة وعدمها بالموت ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [4] ولا أحد من خلق ٱلله يملك قدرة الإحياء والإماتة ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [5] فٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يملك الحياة والموت ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

---

(1) تفسير البيضاوي ، ج 3 ، ص 470 .
(2) الكهف ، 19 .
(3) الملك ، 2 .
(4) النجم ، 44 .
(5) الفرقان ، 3 .

شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] الإحياء والإماتة صفتان عظيمتان من صفات ٱلله التي متعلقها أحوال الكائنات في السماوات والأرض وخاصة أهل الإدراك منهم . وللتذكير بدليل إمكان البعث الذي جحده المشركون ، وللتعريض بإبطال زعمهم بتأليه أصنامهم ، ومن هـٰذين الفعلين جاء وصفه تعالىٰ بصفة « المحيي المميت » وجلّ ثناؤه هو علىٰ كل شيء ذو قدرة ، لا يتعذّر عليه شيء أراده ، من إحياء أو إماتة .

وأروع ما صوره القرآن الكريم لبعث الحياة في الأجساد الميتة قصة الرجل الذي تساءل عن سر الحياة والموت وهل يمكن أن تبعث الحياة في الموت ؟ ! ! ولنستمع إلىٰ القرآن يتحدث عن هـٰذه القصة فيقول تعالىٰ : ﴿ أَوۡ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [2] .

هـٰذه القصة القرآنية تمثل صورة البعث بطريقة تصويرية تعتمد النظر ، وتتسم بالحركة المتعاقبة الدالة علىٰ حركية بعث الحياة ، فأمامنا قرية ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي خاوية ساقطة علىٰ سقفها وذلك أشدّ الخراب لأنّ أول ما يسقط من البناء السُّقُف ثم تسقط الجدران علىٰ تلك السُّقُف [3] . فهـٰذا التعبير رمز لموت أهل القرية وتهدم دورها ، وبقاء السكون والصمت ووحشة القبور فيها عندها يمر الرجل الصالح بهـٰذه القرية الميتة ، فيسأل ويتعجب

---

(1) الحديد ، 2 .

(2) البقرة ، 259 .

(3) التحرير والتنوير ، ج 2 ، ص 443 .

استبعاداً للحياة ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾إن الموت أتىٰ علىٰ كل شيء في القرية ، جعل الرجل الصالح يظن أن لا بعث لهٰذه القرية أبداً ! ! وهنا تدخل الإرادة الإلـٰهية ، وكانت التجربة الحية التي وجدها الرجل في نفسه ، وفي الأشياء التي معها الحمار والطعام والشراب . وهٰذه الصورة تمثل إحياء الإنسان ، والحيوان ، والطعام ، والماء ، إنها صورة مصغرة للقرية التي تساءل هل يمكن أن تعود الحياة لها ؟ وقوله : ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ أي أحياه وهي حياة خاصة ردّت بها روحه إلىٰ جسده ؛ لأنّ جسده لم يبلَ كسائر الأنبياء ، وهٰذا بعث خارق للعادة وهو غير بعث الحشر .

وقوله : ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ اعتقد ذلك بعلم أودعه ٱلله فيه أو لأنّه تذكر أنّه نام في أول النهار ووجد الوقت الذي أفاق فيه آخر نهار .

وقوله : ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ ﴾ تفريع علىٰ قوله : ﴿ لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ . والأمرُ بالنظر أمر للاعتبار أي فانظُره في حال أنّه لم يتسنه ، والظاهر أنّ الطعام والشراب كانا معه حين أميت أو كانا موضوعين في قبره إذا كان من أمة أو في بلد يضعون الطعام للموتىٰ المكرّمين كما يفعل المصريون القدماء ، أو كان معه طعام حين خرج فأماته ٱلله في نومه كما قيل ذلك [1] .

إنها تجربة كلها بعث وحياة في كل صور البعث التي شملها القرآن الكريم .

الباعث يبعث رزقه للجميع فلا يفرق بين أحدٍ من خلقه مهما كانت ديانته ومهما كان فكره ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [2] فرزق ٱلله ليس ممنوعاً عن أحد ، بل إن جميع الخلق يشملهم

(1) التحرير والتنوير ، ج 2 ، ص 443 .
(2) الإسراء ، 20 ـ 21 .

رزقه وذلك بفضله وإحسانه . أما التفضيل في الدنيا فيكون بسعة الرزق وقِلّتِهِ وفي العلم والجهل والعقل والسفه ، وغير ذلك من الأمور التي فضل ٱلله العباد بعضهم علىٰ بعض بها .

ويتشكل مع بعث الرزق قضية مهمة ألا وهي مشيئة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، يقول تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (2) وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (3) إن ارتباط المشيئة بالرزق يتعلق بقضية الإصلاح والفساد ، فهـٰذا التشكل يرسم صورة الإصلاح التي ينشدها ٱلله تبارك وتعالىٰ في الخلق ، فٱلله تعالىٰ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم ، فالخلق عامة يختلفون في كل شيء وهـٰذا الاختلاف ينم أن تصرفهم في كل ما يملكونه يكون تابعاً للفكر الذي يحملونه ، وهو بالتالي يؤدي بهم إما إلىٰ النجاة أو إلىٰ الهلاك .

والخليفة يستمد هـٰذه الصفة من ٱلله تبارك وتعالىٰ في تعامله مع الخلق أجمعين فيعطي لكل ذي حق حقه ولا يتردد في الحق وإن كان أمامه كافر أو مشرك ، وفي هـٰذا الموضع نتذكر قول الرسول الكريم محمد ﷺ ، عَنْ أَبِي هُـرَيْـرَةَ قَـالَ رَسُـولُ ٱللهِ ﷺ : « أَدِّ الأَمَـانَـةَ إِلَـىٰ مَـنِ ٱئْتَمَنَـكَ وَلاَ تَخُـنْ مَـنْ خَانَكَ » (4) . هـٰذا هو التشكل المعرفي الذي جاء به ٱلله تعالىٰ ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ، فاسم الباعث هنا يشكل أيضاً مع قضية أخرىٰ وهي قضيـة الأمـانـة ، والتـي شغلـت حيـزاً كبيـراً فـي الفكـر الإسـلامـي ، يقـول

(1) الرعد ، 26 .
(2) العنكبوت ، 62 .
(3) الروم ، 37 .
(4) سنن أبي داود ، ج 10 ، ص 383 .

تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [1] هـٰذا الآية الكريمة تنطق بأمر عظيم يتشكل مع بني البشر جميعاً فيكون جزأ مهماً في طبيعتهم وتصرفهم ، فهو لا ينفك عنهم ففي كثير من الأحيان يكون البوح به أمراً حتمياً نتيجة لقلة الملتزمين به وهـٰذا ما حصل مع النبي يوسف عليه الصلاة والسلام ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [2] واقتراح يوسف عليه السلام ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة علىٰ سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعلم في المصالح ، ولذلك لم يسأل مالاً لنفسه ولا عَرَضاً من متاع الدنيا ، ولـٰكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالّها [3] .

أما الجانب النفسي للبعث فيمكن القول عنه ، أنه يتشكل مع النفس الإنسانية ذلك أن ٱلله تعالىٰ هو القادر علىٰ أن يؤلف بين قلوب الخلق ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [4] فٱلله سبحانه وتعالىٰ قادر علىٰ تغيير الأحوال وجعل المودة تسري بين الناس جميعاً وخاصة بين المقربين إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

(1) الأحزاب ، 72 .
(2) يوسف ، 54ـ57 .
(3) التحرير والتنوير ج 7 ص .
(4) الأنفال ، 63 .

رَّحِيمٌ ﴾ (1) هنا الخطاب يتوجه للمؤمنين تطييباً لقلوبهم ، أنه قد يغرس في قلوب الكافرين من أهلهم ومن أقربائهم محبة الإسلام ، فيتم التواد ، ويتم التصافي بينهم وبين هـٰؤلاء الذين كانوا يعادونهم ، ويقاطعونهم في الدين ، وٱلله قدير علىٰ ما يشاء ، غفور لخطيئة الذين ألقوا إليهم بالمودة إذا تابوا منها ، رحيم بهم ، فلا يعذبهم بعد توبته عليهم من ذنبهم (2) .

أما البعث في الآخرة ؛ فيأخذ شكلاً مختلفاً ؛ إذ يتشكل مع وضع جديد ذي خصوصية جديدة ، فالبشر عامة لابد لهم من نهاية وهـٰذه النهاية هي الموت المتحقق في الدنيا ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (4) والموت أمر لابدَّ منه ، فلا مفرَّ منه ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (5) فالنص القرآني هنا يفتح ملفاً للموت يشير فيه أينما تكونوا يلحقكم الموت في أي مكان كنتم فيه عند حلول آجالكم ، ولو كنتم في حصون منيعة بعيدة عن ساحة المعارك والقتال ، فضلاً عن ذلك أن الموت يكون خارج نطاق المعرفة البشرية فهو في علم ٱلله تعالىٰ ، يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ

(1) الممتحنة ، 7 .

(2) أسعد حومدج 1 ص 5035 .

(3) الزمر ، 30ـ31 .

(4) الملك ، 1ـ2 .

(5) النساء ، 78 .

بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] روي أن ملك الموت مر علىٰ سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلىٰ رجل من جلسائه . فقال الرجل : من هـٰذا ؟ قال : ملك الموت . فقال : كأنه يريدني . وسأل سليمان أن يحمله علىٰ الريح إلىٰ بلاد الهند ، ففعل . ثم قال ملك الموت لسليمان : كان نظري إليه تعجباً ؛ منه لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند ؛ وهو عندك [2] .

وسياق الآيات السابقة يرسم صورة من غرور الكافرين فمن جملة غرورهم في نفي البعث أنهم يجعلون عدم إعلام الناس بتعيين وقته أمارةً علىٰ أنه غير واقع . قال تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [3] وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [4] ، فلما جرىٰ في الآيات قبلها ذكر يوم القيامة أعقبت بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا ٱلله .

فجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لوقوعها جواباً عن سؤال مقدَّر في نفوس الناس . والجمل الأربع التي بعدها إدماج لجمع نظائرها تعليماً للأمة [5] .

ويتحقق الموت لكل الخلق وفق مشيئة ٱلله تعالىٰ ، وتكتسب مفردة (الموت) دلالتها داخل السياق العام لخطاب الموت ، فهناك ألفاظ لا تتجاوز حدود الدلالة علىٰ الموت الطبيعي الفطري المسلم به تبعاً لقانون ٱلله تعالىٰ في

---

(1) لقمان ، 34 .
(2) تفسير النيسابوري ، ج 6 ص 228 .
(3) يونس ، 48 .
(4) الشورىٰ ، 17ـ18 .
(5) التحرير والتنوير ، ج 11 ، ص 153 .

خلقه . وهناك ألفاظ بدلالة موت الهلاك بقتل أو بغيره ، أي أنها تمثل شكلاً للموت ، أو لا تمثل ذلك ، غير أنها لا تمثل موتاً طبيعياً ، بل إن دلالة الموت تحصل بفعل ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، ويكون له سبب خارجي ، إنسان ، أو طبيعة غاضبة .

وبعد الموت يتحقق البعث ، يقول تعالىٰ : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ (2) والبعث بدءٌ لحياة جديدة للخلق ، فكل مخلوق له حياتان ، يقول تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴾ (3) فيقول الكافرون : ربنا خلقتنا من عدم ولم تكن لنا حياة ، وأمتنا حين انقضت آجالنا ، وأحييتنا أولاً بنفخ الأرواح فينا ونحن في الأرحام ، وأحييتنا بإعادة أرواحنا إلىٰ أبداننا يوم البعث ، والنشور ، فاعترفنا بأننا كنا أنكرنا البعث فكفرنا ، واجترحنا السيئات ، فهل من سبيل إلىٰ إخراجنا من النار ، وإعادتنا إلىٰ الحياة الدنيا لنعمل غير الذي كنا نعمل ؟ فأنت القادر علىٰ كل شيء (4) .

فالنص القرآني هنا ينقل لنا البعث وفق صورة ثلاثية الأبعاد لا تحتاج إلىٰ تأويل أو إلىٰ تشبيه فالناقل لها وهو كافر يبحث عن خروج ، والخروج هنا يمثل عملية عكسية يراد منها الرجوع إلىٰ الدنيا لتصحيح كل الأخطاء والتجاوزات التي حصلت ، فالرجوع إلىٰ الدنيا لا يتحقق ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ

(1) التغابن ، 7 .
(2) طه ، 55 .
(3) غافر ، 11ـ12 .
(4) أيسر التفاسير لأسعد حومد ، ج 1 ، ص 4023 .

﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [1] هناإخبار عن حال من حضره الموت ، من المُفرِّطين الظالمين ، فصورة الحق تتحقق أمامه ويرىٰ أمامه كل الذي سمعه في الدنيا ، وهنا يطلب الرجوع ، وهـٰذا الرجوع إلىٰ الدنيا يسبق البعث فلم يتحقق البعث بعد ، فهو في حالة فاصلة مابين ترك الدنيا والدخول في عالم آخر لا يعرف كنهه إلا ٱلله تعالىٰ . أما قوله تعالىٰ : (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أي : من أمامهم وبين أيديهم برزخ ، وهو الحاجز بين الشيئين ، فهو هنا : الحاجز بين الدنيا والآخرة ، وفي هـٰذا البرزخ ، يتنعم المطيعون ، ويعذب العاصون ، من موتهم إلىٰ يوم يبعثون ، أي : فليعدوا له عدته ، وليأخذوا له أهبته . فالرجوع هنا مطلوب من قبل الظالمين ولـٰكن قبل تحقق البعث .

فالبعث يسبقه سكون عام لكل البشر ، وهـٰذا السكون يكون متمثلاً بالموت الذي يسود كل الخلق ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴾ [2] لما خوفهم تعالىٰ من عظمته ، خوفهم بأحوال يوم القيامة ، ورغَّبهم ورهَّبهم فقال : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ وهو قرن عظيم ، لا يعلم عظمته إلا خالقه ، ومن أطلعه الله علىٰ علمه من خلقه ، فينفخ فيه إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أحد الملائكة المقربين ، وأحد حملة عرش الرحمـٰن .

﴿ فَصَعِقَ ﴾ أي : غشي أو مات ، علىٰ اختلاف القولين : ﴿ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي : كلهم ، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمها ، وما يعلمون أنها مقدمة له . ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة ، فلم يصعق ، كالشهداء أو بعضهم ، وغيرهم . وهـٰذه النفخة

(1) المؤمنون ، 99ـ100 .
(2) الزمر ، 68 .

الأولىٰ ، نفخة الصعق ، ونفخة الفزع [1] . فالكل أموات فلا يكون هناك صوت ، فالسكون يسري بين الجثث المتناثرة والعظام البالية انتهىٰ كل شيء فلا عودة إلىٰ الدنيا ، بل أين هي الدنيا الآن ؟ ! أصبح الجميع في مشهد واحد في انتظار واحد لملاقاة رب واحد ، يقول تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ هنا تحول رهيب صورة تفوق التصور والخيال كيف ترسم ؟ قبور تفتح فيخرجون منها بسرعة يتحركون يميناً وشمالاً يركضون أصوات مختلفة ، فالمشركون ورد ذكرهم في القرآن الكريم في هٰذا الموقف ضمن مشهد تتابعي من الدنيا إلىٰ يوم البعث ، وكله متعلق بالبعث ، فتحقق البعث إجابة لكل التساؤلات التي طرحها الكافرون ضمن سياق الكذب والاستهزاء ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [2] فالبعث كان صورة تخيلية في الدنيا ، فتحققه مرتبط بالزمن أي متىٰ يحين وقته يتحقق ، لٰكنه متحقق ذهنياً في عقول المؤمنين ، فالإيمان بالبعث من عقيدة المسلم ، وهو إحياء الموتىٰ حين ينفخ في الصور النفخة الثانية ، فيقوم الناس لرب العالمين ، حفاة غير منتعلين ، عراة غير مستترين ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [3] .

والبعث : حق ثابت دل عليه الكتاب ، والسنة ، وإجماع المسلمين .

---

(1) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 729 .

(2) يس ، 48ـ54 .

(3) الأنبياء ، 104 .

قـــال ٱللهُ تعـــالـــىٰ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [1] ، وقال النبي ﷺ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً » [2] .

وأجمع المسلمون علىٰ ثبوته ، وهو مقتضىٰ الحكمة حيث تقتضي أن يجعل ٱلله تعالىٰ لهٰذه الخليقة معاداً يجازيهم فيه علىٰ ما كلفهم به علىٰ ألسنة رسله [3] . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [4] ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [5] .

وإعادة الحياة للأموات وردت في النص القرآني قبل يوم القيامة ضمن سؤال النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِىۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [6] .

فإنّ إبراهيم لفرط محبته الوصول إلىٰ مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني ، إلىٰ العلم الضروري ، فسأل ٱلله أن يريه إحياء الموتىٰ بالمحسوس وقوله : (ليطمئن قلبي) معناه ليثبت ويتحقّق علمي وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلىٰ بساطة الضرورة بيقين المشاهدة وانكشاف المعلوم انكشافاً لا يحتاج إلىٰ معاودة الاستدلال ودفع الشُّبه عن العقل ، وذلك

---

(1) المؤمنون ، 15ـ16 .
(2) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 165 .
(3) شرح ثلاثة الأصول ، ج 1 ، ص 69 .
(4) المؤمنون ، 115 .
(5) القصص ، 85 .
(6) البقرة ، 260 .

أنّ حقيقة يَطمئن ، يسكن ، ومصدره الاطمئنان ، واسم المصدر الطُّمَأنِينَة ، فهو حقيقة في سكون الأجسام ، وإطلاقه علىٰ استقرار العلم في النفس وانتفاء معالجة الاستدلال أصله مجاز بتشبيه التردّد وعلاج الاستدلال بالاضطراب والحركة ، وشاع ذلك المجاز حتىٰ صار مساوياً للحقيقة ، يقال : اطمأنّ بَالُهُ ، واطمأنّ قلبه .

والقلبُ مراد به العلم ؛ إذ القلب لا يضطرب عند الشك ، ولا يتحرك عند إقامة الدليل ، وإنّما ذلك للفكر ، وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس ، وانشراح النفس به ، وقد دلّه ٱلله علىٰ طريقة يرىٰ بها إحياء الموتىٰ رأي العين .

وقوله : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ ﴾ الطير يطلق علىٰ الواحد مرادفاً لطائر ؛ فإنّه من التسمية بالمصدر وأصلها وصف فأصلها الوحدة ، ولا شك في هٰذا الإطلاق ، وهو قول أبي عبيدة والأزهري وقُطرب ولا وجه للتردّد فيه ، ويطلق علىٰ الواحد وجمعه أيضاً وهو اسم جمع طائر كصحْب وصاحب ، وذلك أنّ أصله المصدر والمصدر يجري علىٰ الواحد وعلىٰ الجمع .

وجيء ب« مِنْ » للتبعيض لدلالة علىٰ أنّ الأربعة مختلفة الأنواع ، والظاهر : أنّ حكمة التعدّد والاختلاف زيادة في تحقّق : أنّ الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون بعض ، فلذلك عدّدت الأنواع ، ولعلّ جعلها أربعة ليكون وضعُها علىٰ الجهات الأربع : المشرق والمغرب والجنوب ، والشمال ؛ لئلّا يظنّ لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتي الإحياء ، ويجوز : أنّ المراد بالأربعة أربعة أجزاء من طير واحد ، فتكون اللام للعهد إشارة إلىٰ طير حاضر ، أي : خذ أربعة من أجزائه ، ثم ادعهنّ ، والسعي من أنواع المشي ، لا من أنواع الطيران ، فجعل ذلك آية علىٰ أنّهنّ أعيدت إليهن حياة مخالفة للحياة السابقة ، لئلا يظن : أنّهن لم يمتن تماماً [1] .

---

(1) التحرير والتنوير ، ج 2 ، ص 445 .

وحظ الخليفة من اسم ٱلله تعالىٰ (الباعث) أن يتشكل مع فكره فيبصر به فيغير ما تقع عليه عينه في مجتمعه ، فيعيد أقرب الناس إليه إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، فيخاف عليهم من الآخرة ومن عذاب جهنم ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ (1) فتكتسب الحياة الدنيا والآخرة شكلاً جديداً ، وأهم كسب فيهما هو رضا ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فالحياة لابد لها من إعادة نظر وتصحيح لكثير من المفاهيم ، وهـٰذا الأمر يؤدي إلىٰ بعثها من جديد وفق أطر ومناهج أرادها ٱلله تبارك وتعالىٰ .

وعلىٰ الخليفة إعادة البسمة والفرحة إلىٰ كثير من الخلق وبخاصة الأيتام ، وهي من الصفات العظيمة التي أوصىٰ بها ٱلله تعالىٰ ورسوله الكريم ﷺ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضيَ الله عنه ـ قَالَ رسول ٱلله ﷺ « كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ في الْجَنَّةِ » (2) . هـٰذا الحديث الشريف رسم صورة من صورة البعث ، فاليتيم إذ ترك ونسي أصبح كالميت الذي لا يدرك أي شيء في هـٰذه الحياة فلا يميز بين الصح والخطأ ، فتركه في هـٰذه الدنيا فإنه يتشكل معها ضمن سبلها المهلكة التي تجعله واحداً من ضحاياها ، فيكون من الخاسرين في الدنيا والآخرة . أما الاعتناء باليتيم والمحافظة عليه وتوجيهه نحو طرق الخير والصلاح فهو أحد الطرق الموصلة إلىٰ الجنة له ولغيره ، فضلاً عن ذلك هو إنقاذ للنفس البشرية من الضياع وإلحاقها بركب الصالحين فهـٰذا هو حياة لها ، وهي من صفات المؤمنين ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا

---

(1) التحريم ، 6 .
(2) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 221 .

قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [1] .

اللهُمَّ يا الباعث للحياة اجعل حياتنا علىٰ الخير وللخير ، ويا الباعث للأمل اجعل الخير كل الخير فيما نتمنىٰ ونأمل !

اللهُمَّ ابعث في أولادنا ، وإخوتنا وأمتنا المحبة ، والمودة ، ولا تجعل بينهم فُرقة ! اللهُمَّ اجعلهم رحماء فيما بينهم أشداء علىٰ أعدائهم !

اللهُمَّ إنك باعث الحياة ، وباعث لنا الحياة فيها بعد أن خلقتنا من طين لازب ، ثم من نطفة مصداقاً لقولك يا الله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [2] !

اللهُمَّ يا الباعث ، يا عالم الأسرار ، يا من خلقتنا من تراب ابعثنا في الجنة ، ولا تبعثنا في النار ! اللهُمَّ إنك من تدخل النار فقد أخزيته فلا تدخلنا فيها حتىٰ لا نكون مع المخزيين ، وأدخلنا الجنة حتىٰ نكون مع الوارثين ، ولا تخزنا ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

اللهُمَّ يا الباعث قد مننت علينا برسول من أنفسنا يتلو علينا آياتك ، فبه آمنَّا ، وعليه صلينا ، وسلَّمنا ، كما أنت عليه صليت ، وسلمت !

✍ ✍ ✍

---

(1) الإنسان ، 8ـ11 .

(2) المؤمنون ، 12ـ16 .